جليل القيسي

الأعمال الكاملة

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر، شارع گولان، اربيل، كُردستان العراق

جليل القيسي

الأعمال الكاملة

الجزء الثاني

اسم الكتاب: جليل القيسي – الأعمال الكاملة "الجزء الثاني"
تأليف: جليل القيسي
من منشورات ئاراس رقم: ٥٩٣
الإخراج الفني: زياد طارق
الغلاف: حميد رضا آزمودة
التنقيح: أوميد البناء
الطبعة الأولى – ٢٠٠٧
رقم الإيداع في المكتبة المركزية العامة بأربيل: ٢٠٠٧/٥٣٣

مسرحيات

أيها المشاهدِ جِدْ عنواناً لهذه المسرحية

مسرحية في فصل واحد

الراوي: (يُسلط ضوءاً على الراوي وهو جالس فوق مرتفع... من المفضل ان يجسد وبحركات پانتو ميمية ما يقوله الراوي. بصوت هامس، وحزين) إعتاد اللواء الطبيب الذكر عبدالمنعم رياض ان ينهض مرةً كُلَّ شهر من قبره، ويسير بخطوات وئيدة، وثقة عالية بالنفس... وبعد ان يتأمل المقبرة جيداً، يجتازُ بوابتها... ثمة غُرفة صغيرة يعيش فيها الشيخ عبده حارس المقبرة، يجفل مثل الملسوع كلما فتح عبدالمنعم رياض باب المقبرة، ويستمع بخوف الى صمتٍ مُتموج... وإعتاد الشيخ عبده أخيراً على رؤية الشبح، وإن ظلَّ يصاب بالأرق أثر كل رؤية، و يبدأ بالتمشي بين القبور... وعادةً التمشي بين القبور جاءَتهُ منذ النكسة الموجِعة، وحرب الأستنزاف حيث كان يزور قبور الجنود ويتمنى لكل واحد رقدة أزلية هادئة.

كان عبدالمنعم كعادته كلما نهض يذهب الى الشوارع المزدحمة، ويتأمل الناس وهم يتدافعون ويسيرون باتجاهات شتى... وشده عندما رأى هذهِ المرّة أن الوجوه تطفح بفرح عميق ممزوج بالتوقع، و الإستفسار، والتوتر. وأستمع لبعض النكات، والسخريات،

وقال بتنهد: آه، إن هذا الشعب الطيب، فى أحلك الظروف، وأصعبها كانت النكتة الساخرة سلاحه... فقد نصف بهجته في حرب النكسة، ولم يفقد إيمانه...

إستمر يتجول في أضواء الشوارع متأملاً ليالي رمضان العاجة بالأفراح... جامع الحسين، والفوانيس، ورقصة الفوانيس، لا لا... لم يفقد إيمانه... كانت جولاتهُ عادةً قصيرة. أطالها هذهِ المرّة، وأنطلق أخيراً بسرعة الريح الى المكان الأثير جداً على قلبهِ... الى القناة... أجل، ليتفقد، جنوده، وضباطه... ياه... لم يصدق نفسه أبداً عندما رأى جسوراً فوق القناة.

الراوي: وإستمع الى أصوات المجنزرات، وأزيز الرصاص، وزئير الطائرات، وظَلَّ حتى

الفجر يراقب عملية العبور ... وعندما عاد الى المقبرة، كتب على ورقة صغيرة – المقبرة محجوزة لمزيدٍ من الشهداء... وتمدد في قبرهِ... بعد أسابيع نهض وتوجه الى القناة. ظل يستمع الى صمت أخرس، مُخيف. وعندما تأكد ان النيران قد توقفت، والحرب ماتت في ذروتها بكى بصمت، وعادَ الى المقبرة، وكتب على ورقة اخرى... هل كنتم في جوع الى نكسة اخرى... ظلام...

عندما تُرفع الستارة يبقى المسرح خالياً ريثما تنتهي موسيقى عسكرية تأتي من بعيد، مع وقع أحذية عسكرية منسقة.

الصحفي: ماذا لو رفضت «أسرائيل» كما فعلت، وتفعل كعادتها...

العسكري: (بزَهو) أعتقد تأدبت هذه المرة، لأن صفعتنا هذه المرة كانت مُزلزلةِ... (هازاً رأسه) عنيفة...

الصحفي: (بتزلُف...) فعلاً... آه... نعم... لكن ألا يمكن ان تفيق من هول الصفعة، (مُبتسماً) كما يفعل عادةً الملاكمون...

العسكري: مستعدون أن نعيد الكرَّة... طبعاً...

الصحفي: أما كان بوسعنا أن نستمر في الحرب، سيما وان العدو قدأصيب بنزفٍ مخيف في سلاحهِ، وبَشرهِ...

العسكري: (يلتفت الى زميله العسكري) ماذا؟

الصحفي: كنا نقاتل بفلسفة حربية إسمها الجَذب، والضرب، ثم الحركة الى الأمام، والخلف، وتدمير العدو... (هازاً رأسهُ) سيادتكم تعرفون ذلك... هذه الفلسفة الحربية خنقت العدو إذن لماذا أوقفت النيران.

العسكري: (بوجه مقطب.) صمت...

الصحفي: (الى العسكري الثاني) وما رأي سيادتكم؟

العسكري ٢: (بوجه مقطب) راهنوا الحرب وبجنون على إنهاء الحرب في أقصر وقت ممكن...

الصحفي: عفواً، ليس هذا قصدي. أريد أن أعرف رأي سيادتكم في السؤال ألذي طرحتهُ على سيادته.

العسكري ٢: اوه... أسأل القيادة العليا....

الصحفي: (بتلعثم...) تصورت...

العسكري ٢: (بضجر) هل لديك أسئلة أخرى...

الصحفي: (بتخاذل) أعتقد من الأحسن أن نتركها للقيادة العليا... (وقفة) للمناسبة ألا يمكن تأجيل محاكمة العقيد احمد محمود، سيما وإن الظروف...

العسكري ١: (مقاطعاً) القيادة ترى ضرورة محاكمتهِ ألا يتكرر ما فعله.

الصحفي: ثمة رأي،

العسكري: إخرس... هل أنت مُحام... هذهِ محكمة عسكرية بأَمر من القيادة العليا (ينسحب الصحفي بخوف، ويذهب بعيداً... يُحاول المصور ان يُعيد التصوير... يصرخ العسكري.) بس... بس... يالكم من مضجرين... ليس لديكم سوى أسئلة كأنها لَسعاتُ أفاعٍ... ويا حبذا لو لدينا أجوبة لها...

العسكري٢: ويعرفون إننا لا نملك حق التفكير حتى في أسئلتهم... ويريدون أجوبة فورية...

العسكري: (ينادي على المذيع) وانت؟! (بغضب) هل لديك أسئلة؟

المذيع: نعم... (بذهول) كلا... فقد أنتظر إشارة من سيادتكم لأبدأ...

العسكري: (بتعجب) تبدأ ماذا؟

المذيع: (بخوف) بنقل مشاهداتي... هل ترغبون في الإستماع الى الجزء الذي سجلته... وإذا وافقتم، سوف أستمر...

العسكري: أسمعِنا...

المذيع: (يفتح آلة التسجيل...) أيها السيدات والسادة إن الرؤية للكثيرين ممن ليسوا في أتون الحقيقة تتبلور في عيونهم فقط، وبأشكال كثيرة... أما بالنسبة لقادتنا، وفي هذهِ المرحلة، بل وتهب بين الحين والآخر موجات من التصفيق المتقطعِ... بانتهاء الموسيقي العسكرية يسلط ضوء بلون الفجر على لوحة مربعة الشكل مُعلقة على مسند. فوق اللوحة مجموعة أوسِمة... لصق اللوحة منضدة عليها مجموعة أوراق ملفوفة... خلف المنضدة كراسٍ... تتوسع رُقعة الضوء برفق، وتكشف عن صلبان

خشبية مغروسة في أرض رملية... الصلبان موزعة في أماكن مختلفة... على الصليب الأول مكتوب بحروف كبيرة –الى مدينة القنطرة، وعلى الصليب الثاني، طريق الأسماعيلية –القاهرة – وعلى الثالث – دفر سوار – وعلى الرابع –سيناء ... موسيقى خفيفة... يتقلص الضوء برفق، ويسلط فقط على اللوحة التي عليها الأوسمة. ويسلط ضوء آخر على عسكري برتبة كبيرة، ويكون تسليط على الملابس العسكرية، والرتبة. بعد قليل يدخل عسكري آخر بنفس الرتبة. تتوقف الموسيقى. يدخل مذيع له وجه مهرج، متزلف، متملق، يحمل آلة تسجيل يتبعه مصور تلفزيوني، وصحفي. ينهمك المصور بتصوير العسكريين، والأوسمة، واللوحة... العسكريان يجلسان خلف المنضدة.

الصحفي: (يتقدم منهما) هل يعتقد سيادتكم بان القرار ٢٤٢ سيطبق هذه المرّة؟

العسكري: (هازاً رأسه) اوه... بالتأكيد... إن الحرب سَخنت الجبهة العسكرية، وحركت الوضع الدولي... (وقفة) بقوة... أجل بقوة...

وفي جميع المراحل ظلَّت تتبلور في العقل والمنطق... (يوقف المذيع آلة التسجيل... للعسكري بخوف...) ما رأيكم... هل أستمر.

العسكري: إستمر، وأرفع صَوتك.

المذيع: (يزيل عنه الخوف... بصوتٍ عالٍ) اذا كان ايها السيدات والسادة، الإنسان ينضجُ عبر الحياة، فقادتنا نضجوا في ساحات المعارك. إن الحرب السابقة كانت كما لا يخفى عليكم، معذرةً، بل كل الحروب، نعم حروباً ميكانيكية... أما حربنا الأخيرة، فكانت حرباً... (يتوقف).

العسكري: خُطِطت لها بعمق، وتأنٍ...

المذيع: أجل... حرباً خُطِطت لها بِعمقٍ، وتأنٍ... (بصوتٍ عالٍ، والقاءٍ مسرحي.) ما كان بوسعنا أن نعيش بعد النكسة الأليمة ونحن نشق على أنفسنا بإشمئزاز، ونعلق الجروح العميقة التي حفرتها بعيداً في روحنا... لقد أعطينا كل اوُلئك ألذين وجدوا فينا أناساً لا فائدة فيهم، عالماً جديداً، وإصراراً جديداً، وحباً للأرض لا يسبر غوره... (صمت... يصفق العسكري، ويشير لهُ بالإستمرار... يتنهّد المذيع وبإندماج أكثر) كان لابد بغية تبرير وجودنا أمام العالم أن نلجأ الى كيمياء

الحرب، بغية تحريك الوضع...

العسكري: (يقاطعهُ) ماذا تقصد بكيمياء الحرب؟

المذيع: (أقصد) مثلما تفعل الكيمياء من السحر، كذلك فعلت الحرب.

العسكري: آه... برافو... برافو... إستمر.

المذيع: (بتفلسف) الحرب التي أعددنا لها طويلاً... أنني أيها السيدات والسادة أتكلم من فوق رماد خط بارليف، أنقل حفل تقديم أوسمة الشجاعة لأبطالنا الذين أزالوا رائحة العفن من حياتنا، من خبزنا، من شخصيتنا. (وقفة) إننا عندماأوقفنا النار... (صمت. تُسمع أصوات مثل الغمغمة الساخرة تأتي من بعيد...) لأنني كما قلت ان الرؤية لا في عيوننا وإنما في عقولنا (ظلام. يسلط أضواء على الصلبان – طريق القاهرة إسماعيلية. أصوات هتافات، ومظاهرات... نريدها معركة مصير... الكيلومتر ١٠١ هزيمة أخرى... هل نسيتم رودس وعار الجلوس مع العدو... نشيد بلادي بلادي... يعود الضوء الى المذيع.)

المذيع: ايها السادة، بالتأكيد قد تكون تناقضات كثيرة.

المذيع: صحيحة...

العسكري: (مقاطعاً) ماذا تقصد بهذهِ الجملة...

المذيع: أقصد قد يخالفنا الكثيرون في وقف النار، وربما يكونون على صواب أيضاً...

العسكري: أمسح هذا المقطع... بسرعة... أمسح...

المذيع: حاضر... (يمسح المقطع الذي طلبه العسكري. يستمر.) وقبل البدء بتوزيع أوسمة الشرف على أبطالنا، ننقل لكم محاكمة العقيد احمد محمود.... «اظلام... موسيقى عسكرية. يسلط ضوء على العقيد احمد محمود... رغم إرهاقه الشديد يقف بإستقامة... يصورهُ المصور التلفزيوني من مختلف الجهات».

العسكري ١: ثمة بديهية يعرفهاأصغر جندي، ،وهي في الحرب تكون القيادة العليا هي العقل المفكر، وصاحبة الأمر والنهي في إصدار الأوامر... أوامر يجب أن تُنفذ بإطاعة... أيها العقيد احمد محمود آمر كتيبة الدبابات... عندما أُمِرْتَ بإيقاف النار، رَفضتْ لماذا؟

احمد محمود: سيدي، كعسكري، أجل يجب أن أخضع، وأنفذ الأوامر... لكنني في الوقت الذي كنت أطوق كتيبة كاملة لِدبابات العدو، لم أستطع ان ألبي الأوامر سيما وقد كنت على مشارف موقع إستراتيجي جداً...

العسكري: وماذا كانت النتيجة؟

احمد محمود: أبدتُ الكتيبة، وأسرتُ عدداً من جنود و ضباط العدو.

العسكري: (يلتفت الى زميلهِ) حسناً... وهل توقفت بعد ذلك؟

احمد محمود: أبداً...

العسكري: لماذا؟

احمد محمود: بسرعة واجهت هجوما مُعاكساً، لملمتُ على أثرهِ كتيبتي وخضتُ معركة أخرى...

العسكري ١: لكنك بعد المعركة أُمرت بالتوقف، ورفضتْ...

احمد محمود: لم أجد أي مُبرر للتوقف... وكعسكري أستعملتُ مرونتي الذهنية بعد إن وجدتُ كل شيء في صالحي.

العسكري: عندما توقف العدو، إنطلقت أنت في الزحف ورغم تكرار نداءاتنا لك. لماذا؟

احمد محمود: العدو لم يتوقف ابدا... ظل يتقدم، ويراوغ. كان بجنون يحاول ان يكسب اشباراً من الأرض. وما كان بوسعي أبداً أن أدفن إنتصاراتي في الرمل، وعدوي مثل سحالي الصحراء ظل يهرب...

العسكري: إذن قررت أن تهمل أوامر القيادة.

احمد محمود: وجدتها في غير محلها... خاصةً وقد كنتُ على مشارف مدينة القنطرة. (وقفة) سيدي، إن فرح اللقاء الأخير والحقيقي لعدونا، أكرر في هذا اللقاء الأخير كنتُ مؤمنا.

إننا نخوض حرب تحرير شاملة... وأخيرة... هذا الفرح كان يفجر جنودي، وضباطي بعزيمة الى درجة لو فعلاً أمرتهم بالتوقف عن القتال لوجهوا نيرانهم الى صدري... إن جنودي كانوا يذيبون عموم الأيام الصعبة فى الأنتظار الطويل.. كانوا من فرط بؤس النكسة، يرممون قلوبهم وقلوب أمتهم التي أذابتها أحزان

النكسة المسرطنة. كان كل شيء ممكناً إلا وقف النار...

العسكري: (بغضب) لكن الأوامر هي الأوامر.

احمد محمود: صحيح... لكنني وجدت في رفضها أمام إرادة العدو المشتتة أمراً ضرورياً... سيدي، إن عدونا ما أن يسترجع إرادته يصبها مثل الأسيد على قلوبنا دونما رحمة. (وقفة) ولأول مرة كنتُ أرى جنودي ينفسون عن أحزان عميقة وهم يلهون بأحذية، وملابس العدو، ويطهرون أعماقهم من عار وأورام ١٩٦٧ .

العسكري: لكن نتيجة إستمرارك في المعارك جعل العدو يفتح نيران مدافعة في جبهات كثيرة.

احمد محمود: الذي كنت أعرفه في تلك الساعات الحاسمة، وهو إننا نخوض حرباً طويلة... نعم طويلة...

العسكري: حسناً... ماذا تقول عن تحريض جنودك، وضباطك لعصيان أوامر القيادة.

احمد محمود: النكسة علمتني كعسكري مخلص، ووفي لوطنهِ، أن أتريث في إتخاذ قرارات حاسمة في وقف النار، والأنسحاب... كلنا يعرف ذاك الأنسحاب المشؤوم الى الخط الثاني في مأساة حزيران.

العسكري: وهل يجب أن تذكرنا دائما بنكسة حزيران.

احمد محمود: لو نسينا حزيران، لما فكرنا أبداً، أن نصل الى هنا ونترك ذاك الجدار الأسمنتي وراءنا...

العسكري: (بغضب) اسمع... نحن لم نطلب منك الأنسحاب، وانما وقف النار... ان تصرفك يعتبر خروجا على الأوامر العسكرية، بل تمرداً حقيقياً على القيادة. اليس كذلك...

احمد محمود: مازلت يا سيدي مقنعاً إنني كنت على صواب... إن سنوات التدريب الشاقة، والسهر، والتعب أوصلتنا الى حيث وصلنا... كنت أحارب على رمالنا التي كانت ممنوعة علينا...

العسكري: انا لا أريدك ان تتكلم بإنفعال... أنت تحاسب بقسوة.

احمد محمود: (بغضب) طالما أنني كنت أصنع مسرات لشعب حفر اليأس، والصمت، والأنتظار، والهزيمة مستنقعات في اعماقه، مستعد ان أحاسب... أنني أريد بعد البؤس، والسخرية منا، أن يكون شعبي مستحقاً في العالم كبشر... «اظلام... تُسمع من بعيد هتافات... لا تسرقوا نصرنا بوقف النار... نشيد بلادي... بلادي... يعاد الضوء على وجه العسكري فقط»...

العسكري: حيال عدم الانضباط، ورفض الأوامر، والتهجم على القيادة، قررت المحكمة العسكرية الخاصة تجريد العقيد احمد محمود من رتبته، وطردهِ من الجيش، والحكم عليه رمياً بالرصاص.

(المصور التلفزيوني يصور احمد محمود والرتب تنزع من كتفيه... يخرج... موسيقي حزينة... تسمع أصوات هتافات... صمت... صوت إطلاقات... بعد الإطلاقات، صمت، ثم يسلط الضوء على الراوي...

الراوي: أيها السادة... العقيد احمد محمود، نال ثلاث رصاصات على صدره... لكن تعالوا معي لنشاهد محاكمة اخرى... وبعد المحاكمة يجب ان تجدوا انتم عنوانا لها... (يسلط ضوء على محكمة عسكرية إسرائيلية...)

العسكري ١: أيها الكولنيل جوزف شمعون رجعت بقنابلك دون أن تلقيها على تجمعات الجنود السوريين لماذا؟

الكولنيل جوزف: لم استطع تجاوز جدار اللهيب...

العسكري ١: كان يجب ان تجازف قليلا...

الكولنيل جوزف: سيدي، كُلِفتُ أن أقصف أماكن معينة...

العسكري ٢: حسناً... وفي المرة الثانية، رجعت دون أن تؤدي أية مُهمة.

الكولنيل جوزف: كلِفتُ أن أقصف الأماكن نفسها ولم أستطع... النيران كانت كثيفة. كانت الصواريخ تملأ السماء مثل المفرقعات...

العسكري ٢: (بغضب) كان بوسعك أن تُلقي قنابلك على أيّ شيء... أرتال مشتتة بقايا دبابات... طالما أقلعت الى السماء يجب أن تؤدي مهمة...

الكولنيل جوزف: لم أشاهد أي شيء... أعتقد انهم يديرون قطعاتهم بكتمان تام...

العسكري ١: ايها الكولنيل جوزف شمعون وماذا عن الطلعة الثالثة.

الكولنيل جوزف: وجدت نفسي في وضعٍ مُميت...

العسكري: هل تجاوزتَ جدار اللهيب؟

الكولنيل جوزف: نعم... لكنني في الوقت نفسه تجاوزتُ الأهداف التي كُلفتُ بتدميرها...

العسكري ٢: وفررّت...

الكولنيل جوزف: نعم...

العسكري: وتقول نعم.

الكولنيل جوزف: نعم...

العسكري ٢: وماذا عن المرة الرابعة.

الكولنيل جوزف: بصراحة عندما وجدت النيران كثيفة، جبِنت، ورجعتْ... بل لم أفكر إطلاقاً تجاوز جدار اللهيب...

العسكري ١: هل لديك شيء تقوله لزوجتك، لأطفالك.

الكولنيل جوزف: أرجو أن تُبلغوا زوجتي وهذه طبعاً رغبتي قبل ان أموت أن ترجع مع طفلي الى مسقط رأسها في ليون في فرنسا...

«اظلام... موسيقى... يعاد الضوء الى المكان نفسه الذي جرت فيه محاكمة العقيد احمد محمود».

الصحفي (الى المذيع): يا لتلك الشجاعة النادرة... تقبل الموت بشجاعة نادرة...

المذيع: العقيد احمد محمود... شيء محزن...

الصحفي: كان يجب ان تسجل بعضاً من كلماته الجميلة...

(يدخل العسكري... يلقي نظرة الى المذيع).

المذيع: (بببغائية) أيها السيدات والسادة إن الرؤية كما قلت في بداية حديثي للذين ليسوا في أتون المعركة ولا يعرفون عن المعركة تتبلور في أعينهم فقط، وبأشكال كثيرة أما بالنسبة لقادتنا وفي هذه المرحلة وفي جميع المراحل تتبلور في العقل والمنطق...

العسكري: (يلتقط أوراقاً من فوق المنضدة...) ماذا؟ هل مازلت تردد الكلمات نفسها

العقل... والمنطق...

المذيع: اؤكد على دور المنطق، و العقل، والألتزام بالأوامر، والحكمة التي عالج بها قادتنا الحرب، وامور الحرب...

العسكري: فهمت... هل مسحت تلك الجملة التي نبهتك عنها؟

المذيع: تقصد، قد تكون تناقضات كثيرة صحيحة...

العسكري ١: سخافة... (يترك المسرح)

الصحفي: أنا ذاهب...

المذيع: أين.

الصحفي: لا أعرف...

المذيع: عما قليل سيوزعون الأوسمة... إنتظر...

الصحفي: طز... (يخرج)

المذيع: (يلمح العسكري من بعيد) ايها السيدات والسادة في هذا الجو الصامت وبعد وقف النار، ستوزع عما قليل الأوسمة... (يسمع صوت يأتي بقوة تارة، وتارة من بعيد...)

الصوت: (بقوة)أية أوسمة؟؟

المذيع: (بخوف) يا إلهي... ما هذا الصوت...

الصوت: أجب... أية أوسمة...

المذيع: أوسمة شجاعة، وشرف... لأولئك الذين إستبسلوا في المعارك.

الصوت: لكن الأوسمة توزع في نهاية الحرب... والحرب مازالت مستمرة.

المذيع: ألم تسمع بوقف إطلاق النار؟

الصوت: سمعت بإيقاف نيرانكم... حقا لماذا أدرتم خراطيم المدافع الى صدورنا...

المذيع: من أنت؟

الصوت: إستمع الى ما سجلته في تلك الآلة...

المذيع: (بخوف) ماذا؟ هل أنا الآخر أحاكم... مثل العقيد احمد محمود...

الصوت: ذاك شهيد، أما أنت فبغاء، وصولي.

(يدخل العسكري)

العسكري: ناد على جنود لأستلام أوسمتهم...

الصوت: الجنود يرفضون إستلام أي شيء...

العسكري: (بتعجب) ما هذا الصوت...

المذيع: من يحاكمني...

الصوت: لماذا أدرتم خراطيم المدافع الى صدورنا...

العسكري: الصحاري دائماً تعجُ بالأصوات... في الصحراء يسمع الإنسان العجائب...

الصوت: وإحدى العجائب هو وقف النار...

العسكري: (بتعجب...) انه صوتُ واضح... واضح جداً...

الصوت: أين النار...

العسكري: (كما لو يخاطب نفسه، او المذيع، او يرد على الصوت) إننا كما يقول نابليون – يدخل المرء معركة جديدة ثم يرى.

الصوت: وماذا رأيتم؟

العسكري: رأينا إن وقف النار ضروري.

الصوت: أهذا شكل آخر من الدفاع عن النفس... هل هدكم النسيان لتروا نقوش، وأوشام حرب ٦٧ محفورة في جلودكم، في أعماقكم...

الصوت: ألم تعجز السنوات الطويلة بكل أمطارها من أتلاف ولو خط صغير من تلك النقوش العميقة التي حفرتها ازاميل العدو... لقد فرقنا لنصبح كاملين، وها انتم ذا تفرقوننا ثانية... ثمة ويلات كثيرة وراء هذا الإيقاف للنار...

العسكري: لايوجد منطق لا يكلفنا الكثير...

الصوت: أيها المسكين... إن وقف النار لا يكلفنا الكثير فقط، وإنما الكثير مضروباً بألف...

العسكري: أنا لستُ هنا لأفهم مثل هذا المنطق.

الصوت: أنت هنا لتُحاكم عسكرياً شجاعاً ببغائية، وبسرعة... وانا هنا لأقول مثل العقيد احمد محمود لا... لا...

العسكري: من انت!!؟

الصوت: أنا خلاصة حضارة عريقة... انا إمتداد لأبطال معارك سيناء الخالدة مثل الملك سمخرت...

العسكري: (بتعجب شديد) الملك سمخرت!! الملك سمخرت!! ما هذا الأسم المضحك... (يطلق ضحكة قوية).

ظلام... يدخل رجل في ملابس فرعونية... يسير بخطوات وئيدة... بشموخ).

الرجل في ملابس فرعونية: (بصوت غليظ) أجل... أنا سمخرت... قائد حملة وادي المغارة... أنا ذاك الذي نقش إنتصاراته قرب مناجم الفيروز في سيناء... كنت من أجلِ مصر العزيزة في الحروب أمنحُ جنودي الأجنحة لمطاردة العدو... كنا نحب السلام، لكن عندما كان الأعداء يأخذون أرضنا او يفرضون عليها الحرب، كنا نقاتل. الحرب من أجل مصر لذيذة، و ممتعة... (اظلام... يعود الضوء الى العسكري...)

العسكري: (بحيرة ، ويحاول ألا يفقد رباطة جأشه) وهل لم نجد نحن في الحرب متعة من اجل مصر... إن سيناء الآن مزروعة بالدبابات، وجثث الجنود، والطائرات، (ينقطع الضوء عن العسكري، ويسلط على الرجل في الملابس الفرعونية)

الرجل في الملابس فرعونية: كذلك زرع الملك زوسر سيناء بالجثث، و الدروع، والسيوف، والعربات، والحصن... وسنفرو العظيم محرر السيناء، وفاتح البلدان فعل الشيء نفسه... (ينقطع الضوء عن الرجل في الملابس الفرعونية، و يسلط على العسكري، و المذيع).

المذيع: (وهو ينظر الى العسكري) ومالنا و الماضي... (هازاً رأسه) الهي هذه الصحراء فعلا مسكونة بالإشباح... من يكون صاحب هذا الصوت... انه يحاكمنا...

العسكري: (بهستيرية) إخرس... لا يوجد من يحاكمني...

المذيع: (يفتح آلة التسجيل) الشجاعة كما قال نابليون لا تعرف النفاق...

العسكري إخرس... أسكت... من هو زوسر، سنفرو، سمخرت(*)...

المذيع: قادة... وملوك... الفراعنة كانوا سادة هذه المناطق كلها...

العسكري: اجل... حاربوا على هذه الرمال طويلاً... حقاً، ان أسلافنا القدماء، الفراعنة، و العرب من أجل مصر عظيمة زرعوا هذه الصحراء بالجثث، والسيوف، والجمال، والدروع...

المذيع: (بتنهد) يا لهذهِ الصحراء...

العسكري: اجل... يا لهذه الصحراء... (ينقطع الضوء عن العسكري، ويسلط على الرجل في الملابس الفرعونية).

الرجل في الملابس الفرعونية: ألا تعجبك هذه الصحراء؟ إنها لا تعني مجرد ملايين التلال من الرمل، وبعض القرى...إنها تعني كل الأجداد... هل أذكرك بالقائد العظيم شيشنق الذي حرر بيت المقدس على رأس جيش فيه ١٢٠٠ عجلة حربية، وستون الف فارس، وجلب معه آلاف الأسرى اليهود... لقد كنا دائما الاعلون... أذكروا ان ذاك العملاق بسماتك سيطر في بحر أيام على غزة، و عسقلان، وأشدود... (يتوجه الى جهة اليمين...) لاتفرطوا بمصر. إكتسبوا القوة على الكلام، والقتال بقوة أكثر، وبصوت أعنف من كل الكوارث... (يعاد الضوء على العسكري...)

العسكري: هذه محاكمة فعلاً...

اظلام... يسلط الضوء على الراوي.

الراوي: لولا الصبر الأيوبي الذي يتمتع به هذا الشعب لضاع كل شيء... تعالوا لنستمع معاً الى هذهِ الموسيقى الأفريقية الجميلة، ومع هؤلاء الصعيديين نستمع الى هذهِ الأغنية...

(يغني الراوي مع الكورس)

يا شعبي

متى إذن تكف عن أن تكون الألعوبة المجهولة

(*) سنفرو، سمخرت، وزوسر اسماء ملوك فراعنة.

في مهرجان الأخرين

والفزاعة البالية

في حقول الاخرين (*).

(بإنتهاء الأغنية)

الراوي: الآن ايها السادة... أنظروا... هذه طريق القنطرة. وهذه طريق الأسماعيلية القاهرة... وهذه كيلو ١٠١ ... من هنا سوف يتقدم الأبطال لتسلم أوسمة الشجاعة... هؤلاء الجنود قاتلوا ببسالة.... أنا فقط أنادي عليهم... وهم يتكلمون عن أنفسهم... (ينادي).

الشهيد الجندي احمد سويد... (يسلط ضوء على جندي. ينهض بجهد... يترنح، يحاول ان يتماسك. يلتفت حواليه، ويظلل عينيه بيده).

الشهيد عوض محمد عوضين. (ينهض جندي أخر يتأمل المنطقة...) الشهيد أمين فوزي. (ينهض جندي أخر) الشهيد حمادة عزت... (ينهض جندي أخر. ينقطع الضوء عن الراوي).

الجندي الأول: سمعت صوتاً ينادي إسمي.

الجندي الثاني: وأنا كذلك...إن هذا الصمت الأخرس يجعل الواحد ان يسمع أصغر نأمه...

الجندي الثالث: الصوت الذي نادى إسمي كان يأتي من بعيد، ويشبه صوت والدي عندما ينادي عليّ من فوق الربوة التي تطل على مزرعتنا الصغيرة في بني سويف... ايه بني سويف يا كل ذكرياتي...

الجندي الرابع: لم كل شيء هادىء... وساكن... ام المدافع عَطلت أسماعنا... هل سمعتم صوتاً...

الجندي الأول: أين نحن.؟ أين الكتيبة؟ وأين العقيد احمد محمود. زين أسرى العدو؟ وأين سلاحي؟ (الجميع بحركة سريعة يبحثون عن أسلحتهم).

(*) من قصيدة للشاعر ايميه سيزار.

الجندي الثاني: (بعد أن يتأكد من مخزن رشاشته) آه... لا يوجد فيه سوى طلقة واحدة. (بتعجب) يبدو ان الحرب إنتهت...

الجندي الثالث: (بعد ان يتأكد من مخزن رشاشته) أنا الآخر لا أملك سوى طلقةً واحدة... حقاً، يبدو أن الحرب انتهت...

الجندي الثاني: (بصوت حزين) لا صوت مدفع، أو إطلاقة،أو زئير طائرة... ايه، يا الهي كانت الصحراء قطعة نار. (يحدق في السماء) أنظروا! لا نار، لا دخان، لا أصوات دبابات...

الجندي الثالث: آه... يا بخت من شارك حتى النفس الأخير... ايه، من يدري ربما رفاقنا الآن مع العقيد احمد محمود في إحدى تلك المدن الجميلة في فلسطين... (وقفه) دعونا نسير في هذا الأتجاه...

الجندي الأول: هذا الصمت الأسود مؤلم... ولا حتى طائرة إستطلاع واحدة، ولا دبابة تائهة ولا... ولا... آه... قبل أيام كانت هذهِ الصحراء تهتز مثل طبل كبير... كل شيء هنا كان يشبه يوم الحشر...

الجندي الثالث: لو فقط تعرف في أي إتجاه نسير... (ينزع خوذته) طالما الحرب إنتهت، فكل الطرق تؤدي الى الأوطان. آه... يا لهذا الحر...

الجندي الأول: فعلاً... أينما سرنا في الوطن... (وقفه) ربما نجد جهاز لاسلكي نستطيع أن نتصل بجهة ما... سأذهب لأتأكد... (يخرج)

الجندي الثالث: (ينظر بعيداً...) لا توجد سوى دبابات محطمة، وسيارات مهروسة... لنسر بهذا الأتجاه... تعالوا... نحن بالتأكيد في الوطن... (يغني بصوت حزين وخافت – بلدي يا بلدي أنا عاوز أروح بلدي...)

الجندي الثاني: غني... غني، ربما أستطيع أن أحلم...

الجندي الثالث: تحلم بأي شيء...

الجندي الثاني: بزوجتي، بأطفالي، بالريف، والطيور... صدقني طوال أيام الحرب لم أفكر فيهم أبداً...

الجندي الثالث:إحلم يا عزيزي... المهم أدينا الواجب. (صمت) آه، من هذا الصمت الذي

يجعل الواحد يشعر كأن شيئا لم يحدث... هكذا الحرب تأتي مثل ضربة رعد تُدمر، وتتلاشى...

الجندي الثاني: وتترك ذكريات موجعة، وبطولات، ثم جُثثاً، وحديداً مصهوراً...

الجندي الرابع: (يمزح) وتخلق وليمة للنسور، والصقور، والذئاب، والسحالي... ايه، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت...

الجندي الثاني: نحن كان نصيبنا سيناء الحبيبة... (يدخل الجندي الأول)

الجندي الأول: (بسخرية) صدقوني بوسع الحكومة أن تفتح أكبر ورشة لبيع الحديد...

الجندي الثالث: (مازحاً) هل ذهبت لتعد الدبابات المحطمة؟

الجندي الثاني: هل عثرت على شيء؟

الجندي الأول: لا شيء... رائحة الجثث تقطعُ الأنفاس.

الجندي الثاني: ستبلعها الصحراء... (وقفه) ماذا نعمل الآن.

الجندي الأول: دعونا نسير بهذا الأتجاه...

الجندي الثالث: يا أخي طالما إنتهت الحرب، كل الطرق تؤدي الى الوطن (يغني بصوت خافت. بلدي يا بلدي انا عايزأروح بلدي...)

الجندي الأول: (الى الجندي الثالث) متزوج؟

الجندي الثالث: لا والحمد لله... والدة عجوز. وأبٌ اشك إنه حي الآن... «اظلام.... يسلط الضوء على الراوي.»

الراوي: أيها السادة... رغم أن القيادة شلت النصر، فتعالوا نرى كيف إستقبل الشعب جيشهُ... (يغيب الراوي) (يسلط ضوء على وجه فلاحة شابة)

الفلاحة الشابة: (بوجه يطفو عليه فرح عميق. تطلق الزغاريد) ألف حمد للّه على السلامة يا عوض يا حبيبي... ألف الحمد للّه على السلامة.... (يضيع الضوء من وجه الفلاحة ويسلط على وجه طفل في العاشرة).

الطفل: (يلوح بيده...) ألم أقل أنك سترجع يا بابا... تعيش يا بطل... (يصفق) تعيش... (ينقطع الضوء عن وجه الطفل، ويسلط على وجه امرأة مُسِنة)

المرأة:ألم أقل يا حمادة يا حبيبي إن الأعمار لا يعرف بها سوى ربنا... (تزغرد) حمداً للّه على السلامة... ينقطع الضوء عن المرأة، ويسلط على وجه رجل عجوز.

الرجل: (يريد أن يتكلم. يلوح بيدهِ، ويبكي بصمت، زغاريد... موجات من العناق... «اظلام. يسلط الضوء على الراوي»

الراوي: أيها السادة... الشهداء محمد سويد، عوض محمد عوضين، امين فوزي، حمادة عزت، هؤلاء الأبطال قررت القيادة منحهم أوسمة بطولة... تعالوا لنرى... «اظلام... يردد كورس هذه الأبيات بصوت شجي»

يحكون في بلادنا

يحكون في شجن

عن صاحبي الذي مضى

وعاد في كفن

«في هذه الأثناء يدخل الجنود... يستقبلهم المذيع».

المذيع: (الى الجندي الأول) ما هو شعورك وأنت تستلم وسام الشجاعة من الدرجة الأولى...

الجندي الأول: (يفكر ... بتعجب) وسام؟ لم وسام؟

المذيع: لقد قُمتم ببطولة كبيرة أثناء الحرب... بطولات فردية عظيمة...

الجندي الأول: وهل فعلاً إنتهت الحرب؟

المذيع: (بحركات بهلوانية) في الواقع لأسباب ... النار...

الجندي الأول: لماذا؟ أين العقيد احمد محمود...

الجندي الثاني: ألم اقل لكم أن ذاك الصمت كان شيئاً مخيفاً... (الى المذيع). لماذا أوقفتم الحرب...

المذيع: (بتهريج يفتح آلة التسجيل...) إن نظرة واحدة عميقة لهذهِ الوجوه، لهذهِ النظرات، لهذهِ الارادة، نظرة الى هؤلاء الأبطال تكفي أن يقتنع الأنسان ان النصر الحتمي آت... (يتقدم منهم). تكلموا عن مشاعركم. وأحاسيسكم... (الى

الجندي الثالث) الستَ سعيداً بوسامك؟

الجندي الثالث: (يفتح أزرار قميصه، ويؤشر الى ثلاث جروح في صدره) أنا نلتُ وسامي هنا... نحن موتى أيها السيد، نهضنا من فوق رمال سيناء الحبيبة، نريد أن نُدفن بسلام في مقابرنا... أجل... كلٌ في مدينتهِ... أعطوا الأوسمة الى الأحياء من الأبطال...

الجندي الرابع: (بإنفعال) ترى ما ثمن جميع تلك الجثث، والدبابات، وذاك القتال الشرس لأيام... أين نتيجة الحرب...؟

المذيع: لماذا تتعبون أنفسكم... (الى الجندي الأول) هل لديك شيء؟

الجندي الأول: بعد صمتٍ طويل يطلق (صوتاً يختلط فيه اللعاب... المذيع يمسح وجهه من رذاذ لعاب الجندي)

المذيع: (الى الجندي الثاني) وانت؟

الجندي الثاني: (يكشف عن صدره...) ألا تكفي هذهِ الجروح... (يتوجه الى الجندي الرابع... الجندي الرابع يعطيهِ ظهرهُ).

الجندي الأول: نحن نُريد مواجهة العقيد احمد محمود... منه فقط نستلم أوسمتنا...

المذيع: لكن...

الجندي الأول: (يحاول المذيع أن يترك المسرح) لدينا خبر نود أن ننقلهُ لهُ... (يخرج المذيع... يتقدم الجنود الى مقدمة المسرح... الجميع بصوت واحد) نحن لن نتلقى الأوامر إلا منه... (اظلام... يسمع صوت العقيد احمد محمود كما لو ينبعث من مكبر للصوت).

صوت احمد محمود: إن فرح اللقاء الأخير لعدونا، أقول الأخير لأننا جميعاً كنا على ثقة مطلقة بأننا نخوض حرب تحرير شاملة... هذا الفرح كان يفجر جنودي، وضباطي بعزيمة، لو فعلاً أمرتهم بالتوقف عن القتال لوجهوا نيران مدافعهم الى صدري... سيدي، إن جنودي كانوا يذيبون هموم الأيام الصعبة، كانوا من فرط حبهم، وفرحهم يُرّممون قلوبهم، وقلوب أمتهم التي أذابتها النكسة المسرطنة... كان كل شيء ممكناً إلا وقف النار... (يُسلط الضوء على الراوي...)

الراوي: ايها السادة... تعالوا لنرى كيف وَدع الشعب جيشهُ وهو في طريقهِ الى الحرب... (اظلام. ضوء على وجه فلاحة شابة)...

الفلاحة: اللّه معك يا حبيبي... لستُ حزينة... بالعكس ياحبيبي... (يسلط ضوء على رجل مُسِن)

رجل مسن: قاتل مثل الرجال يا حمادة... اللّه معك... (زغاريد... هتافات... أغنية – يا أهلا بالمعارك يا بخت من يشارك... زغاريد...

ستار

في إنتظار عودة الأبناء الذين لن يعودوا الى الوطن ثانيةً(*)

مسرحية في فصل واحد

ركن منزو في مكان إنتظار المسافرين في المطار... تُسمع أصوات طائرات ترتفع تارة، وتخفت، وتختلط بأصواتِ سيارات الشحن... ضوء برج المراقبة بين الحين والآخر يغسلُ جُزءاً من ساحة المطار... صوت مذيع المطار يردد بآلية بين الحين والآخر: أيها السيدات والسادة، نحن في إنتظار الطائرة التي تنقل الوجبة الأخيرة من الأسرى... يتوقف المذيع... صمت... صوت إمرأة وكأنها أضاعت شيئاً...

صوت المرأة: روبرت أين ذهبت. إلهي أنه يسير مثل المذهول تماماً... إنه بدأ يشرد هذه الأيام، ويتركني... (تنادي) روبرت... (تدخل المرأة المسرح، وهي عجوز في حوالي الستين... تتلفت حولها بإرتباك) روبرت... هل تسمعني؟

روبرت: (ببرود يتأمل ساحة المطار) أنا هنا يا هيلينا... لماذا تصرخين مثل الباعة المفلسين... ألا تسمعين زئير الطائرات...

هيلينا: (بتأفف) أوه... أنت هنا... لماذا تتركني؟

روبرت: كنت أفكر بأننا جئنا مُبكرين...

هيلينا: بالعكس يا عزيزي... أعتقد تأخرنا... (تقترب منه، وتلتصق به) لا أعرف سبباً لكل هذا التأخير السخيف... (بضجر) بعد كل هذا الإنتظار الطويل لا شيء يظهر لا في السماء ولا في الأرض... (بأستفسار) ألم ينزلوا بعد؟

روبرت: (ببرود) سينزلون... أنتظرنا سبع سنوات...

هيلينا: (بفرح) الهي... لقد أدمن الإنتظار مثلما أدمنا شبابنا على الماريجوانا...

روبرت: (بسخرية) لقحنا بالإنتظار...

(*) نشرت في مجلة المسرح والسينما العراقية العدد العاشر ١٠ تموز ١٩٧٤ ومثلت على مسرح اكاديمية الفنون الجميلة عام ١٩٧٦ .

هيلينا: أصبحنا إنتظاراً...

روبرت: بوسعنا أن نؤلف كتاباً عن الإنتظار.

هيلينا: وفلسفة الإنتظار...

روبرت: وهذا الإنتظار حفر كل أحلامنا مِثلما تحفر البلدوزرات الأرض الصلبة.

هيلينا: (تتنهد... وبفرح) وأخيراً... سوف يأتي جان.

روبرت: سوف... لقد نهشني الإنتظار يا هيلينا. (موسيقى خفيفة) حتى لكأنني لا أنتظر شيئاً.

هيلينا: (بفرح) أنت تنتظر جان...

روبرت: لكننا لم نستلم منه، أو من أية جهة رسالة يخبرنا فيها عن مجيئهِ.

هيلينا: (تربت على ظهر زوجها) ربما لأنه يريد مباغتتنا... (بفِرح) إلهي، كم يحب جان المزاح... سترى، إنه حتماً أراد من صمتهِ هذا مباغتتنا...

روبرت: (ببرود) مزاح!؟ لكن ياهيلينا إنني أشكُ كثيراً أن يكون مع هذه الوجبة الأخيرة من الأسرى. (وقفة... بحيرة) ان جان...

هيلينا: (بتعجب)إن جان ماذا؟ تكلم...

روبرت: لم يبعث لنا برسالة... (يتنهد... بعد صمت قصير، يردد برفق هذه الابيات للشاعر الأمريكي لورنس فيرلنكيتي)...أأ

أظنني نسيت شيئاً

في هذه القصة...

ربما ثمة خطأ مطبعي

في هذه الورقة

إرفعوا القبعات: يقول هنا.

(يتوقف عن ترديد الشعر... تكمل هيلينا بقية الأبيات مقلدةً زوجها في الإلقاء)

يقول هنا

الحرب النهائية انتهت

ثانية

هاهم يأتون ثانية

يستعرضون

روبرت: (يقاطعها) إلهي يستعرضون ماذا؟ أعماقهم المحطمة؟ ذكرياتهم المزدحمة بالجثث.

هيلينا: روبرت، منذ متى وأنت تُردد هذهِ الأبيات. أتعرف حفظت القصيدة كلها عن ظهر قلب من إستماعي إليك.

روبرت: (بتأفف) بدأ الناس يتدفقون...

هيلينا: وهل جميع هؤلاء إستلموا رسائل.

روبرت: دعيني اكمل ابيات اخرى لفرلنكيتي. (يردد هذه الأبيات)

بجانب ممر المقهى

ما زلت لا أستطيع أن أرى

وجه الجندي المحروق

(يتوقف. بصوت حزين) هؤلاء الناس في المطار يا هيلينا، مثلنا جاءوا ليشاهدوا الوجوه المحروقة، الذكريات المحروقة لعذابات السهر، والمستنقعات، والأدغال، والموت... هؤلاء جاءوا ليستمتعوا، وربما ليذكروا الأسرى ان كونوا عقلاء في المرة المقبلة...

(يسمع زئير طائرة. تهبط طائرة. صوت المذيع في مكبر للصوت.)

صوت المذيع: أيها السيدات والسادة الطائرة التي تنقل الوجبة الأخيرة من الأسرى سوف تصل بعد قليل... يرجى عدم الإحتشاد في ممر الصالون، و السماح للجنود الجرحى بأستقلال سيارات المستشفى وشكراً...

ضوء برج المراقبة يسلط على مجموعة جنود. على جسد جندي مبتور الذراع، ثم يرفق على جندي آخر مبتور الساق. على شاب معصوب الرأس. على رجلين يحملان جثة فوق نقالة. على مجموعة جنود جرحى في أماكن متعددة من أجسادهم، يسيرون بخطوات مشلولة الى جهة اليسار... ينسحب ضوء برج المراقبة، ويعود الظلام الى الساحة.

هيلينا: (بخوف شديد) هل رأيتهم؟!

روبرت: رأينا حتى التخمة في التلفزيون. كلاب من سبع سنوات يستجدون عطفنا وتأييدنا بهذهِ البهلوانيات المضحكة... (بسخرية) وهؤلاء الحمقى، يستعرضون في المطار أوسمتهم...

هيلينا: أوسمة... اية أوسمة؟

روبرت: أوسمة هانوي الأبدية.

هيلينا: لم أرّ أوسمة.

روبرت: ثمة أنواع من الأوسمة. (أوسمة للعنجهية)، (أوسمة ليبوس المخ)، (أوسمة للعناد البغلي)، (أوسمة للصعلكة)... (يعاد الضوء... مجموعة أخرى من الجرحى...)

هيلينا: هل رأيت يا روبرت...

روبرت: سترين الكثير... فيتنام أرضٌ غنية... بوسعها أن تبعث لنا مثل هؤلاء... إنهم هدايا التعدي.

هيلينا: (بسذاجة) وهل سينال جان وساماً!

روبرت: لقد نال وسامهُ في عنقه...

هيلينا: وهل ثمة أوسمة توضع في العنق...

روبرت: (بسخرية كاوية) وأخرى توضع في القلب، وفي البطن... في مستنقعات فيتنام، وفي أدغالها هدايا وأوسمة كثيرة لشبابنا.

هيلينا: اهي من ذهب؟

روبرت: كلا... من الرصاص المصهور... وعليها صورة رئيس الجمهورية.

هيلينا: (بتأفف) اوه... متى ينزل جان.... متى.

روبرت: من ثلاثين سنة وأنتِ في ميري لاند، لكنكِ مازلتِ تلك القروية الساذجة في عواطفكِ، وفهمكِ للأمور...

هيلينا: إنني أُم يا روبرت... اوه، جان العزيز... ترى ما شكل وسامهِ...

روبرت: إنه من نوعٍ غريب...

هيلينا: من أي نوع... قل...؟

روبرت: (بحيرة) من نوع الإنتظار الطويل.. والأبدي...

هيلينا: (بسذاجة) لا أفهم...

روبرت: أعرف... أعرف أيتها القروية المسكينة... آه... لننتظر... (ضوء البرج يعود مرة أخرى الى الساحة، ونرى مجموعة أخرى من الجرحى).

هيلينا: إنهم كثيرون...

روبرت: (ساخراً) دفعنا بخيرة شبابنا الى فيتنام... (بغضب) ما معنى إستعراض هؤلاء البؤساء، والمشوهين في الساحة بعد أن خسرنا كل شيء... (جندي معصوب العين يصرخ بهذيان) لِمَ... لَم تخرج سوزان لإستقبالي... (موسيقى قوية بعد إنتهاء الجملة).

صوت فتاة شابة (١): إلهي لورنس ليس بينهم ... أبدا... أبدا... انه ليس بينهم... (تبكي... نفس الموسيقى القوية والسريعة)

صوت جندي آخر (ملوحاً) ماما... إنها هى... عرفتها... (نفس الموسيقى)

صوت فتاة (٢): (بصوت راعش) أين!! هناك... إنتهى في حي سانه!! منذ مدة... مستحيل... (نفس الموسيقى)

(تختلط الأصوات ببعضها... ويمكن إخراج هذه الأصوات من مكبر للصوت تارة بشكل قوي، وأخرى بخفوت مع صدى. كوان تري... موسيقى... حي سانه... موسيقى... هانوي... موسيقى... الحصار الأخير... موسيقى... قصفتهم الطائرات سهواً... موسيقى... لالا... لم يكن هناك... ماتوا قبل ثلاث سنوات... فيتنام... اوه... آه... آآآ... وقع أرّجُل... الجميع يندفعون بإتجاه صالون المطار غير المرئي... يعود الضوء الى هيلينا، وروبرت.

هيلينا: أين ذهبوا؟

روبرت: الى صالون...

هيلينا: لماذا؟

روبرت: (ضاحكاً) ليتعرف كلُ الى هديتهِ...

هيلينا: أية هدية؟

روبرت: هدايا فيتنام...

هيلينا: ونحن!!

روبرت: نتعلم الإنتظار...

هيلينا: ألا تكف عن المزاح... ألم ننتظر كثيراً... ايه، روبرت، ترى بماذا يفكر جان الآن وهو في آخر طائرة أقلعت من فيتنام... آه... أيها المسيح... سوف يخبرنا جان عن كل شيء... أجل كل شيء... يا لنكاتهِ الكثيرة...

روبرت: والباردة.

هيلينا: (تتنهد بعمق) اوف... واثقة أنه... (تتوقف ولا تستطيع الأسترسال).

روبرت: إنه ماذا؟ صدقيني يا هيلينا انه لم يعد يحب المزاح...

هيلينا: (بضيق) أوه... روبرت... أنت لا تعرفهُ مثلي. أتذكر نكتتهُ الأولى وهو في الرابعة...

روبرت: كان يتبول في هذا العمر.

هيلينا: أعرف... بسبب البرد الذي أصاب ظهره... هل تتذكر وجههُ في ذاك العمر...

روبرت: (بسخرية) كان مثل وجه أرنب فزع.

هيلينا: لكم تسخر منه... كان انيساً.

روبرت: ولطيفاً.

هيلينا: وحساساً.

روبرت: كان حساساً...

هيلينا: اتعرف وعدني قبل سنوات بهدية جميلة يرسلها من فيتنام.

روبرت: لكنه أفلس... تحول الى هدية.

هيلينا: اعرف... انه بدأ يقامر كثيراً هناك.

روبرت: لن يقامر بعد الآن.

هيلينا: اشك ان يترك القمار...

روبرت: ثقي لن يقامر الآن... لقد أفلس تماماً مثل إفلاس الحكومة هناك... أجل... خسر كل شيء هناك...

هيلينا: لا يمكن...

روبرت: وهل يربح المقامر... خسر كل شيء مع الفيتناميين.

هيلينا: (بخوف) هل كان يكتب لك رسائل شخصية؟

روبرت: (بحيرة) لقد تأخرت الطائرة...

روبرت: (ساخرا) ولِم العجلة طالما إنها ليست في طريقها لقصف الأبرياء...

هيلينا: (تتنهد) روبرت... هل معكَ رسالتهُ الأخيرة؟

روبرت: معي رسالتهُ ما قبل الأخيرة... إنها قديمة جداً...

هيلينا: يا إلهى، لِمَ لَم يكتب لنا هذا الكلب. روبرت لنتسلى بها... أرجوك، إقرأها كما تقرأ قصيدة فيرلنكيتي...

روبرت: (يخرج مظروفاً من جيب سترتهِ. يسحبُ الرسالة ويقرأ كما ردد قصيدة فيرلنكيتي...

ثق يا بابا هنا في الأدغال لا يستطيع حتى الشبح الهروب من الموت عندما تبدأ المعارك. لا اعرف كم من الساعات قضينا في مستنقع طيني.

هيلينا: (تقاطعه) لماذا تعاكسني، وتزيد أشجاني يا روبرت... لا تقرأ هذا المقطع الحزين الدامي...

روبرت: لماذا؟

هيلينا: أتخليه وهو في المستنقع حتى عنقه...

روبرت: إنه في الطين فعلاً...

هيلينا: كان يا عزيزي... إستمر...

روبرت: (يقرأ) كنا داخل طائرة عمودية ضخمة... بدت الأرض لقائد الطائرة، ولنا جميعاً صلبة بلون التراب الأحمر. لكن ما أن حطت الطائرة عليها، غطست حتى مروحتها... آه، ياله من كمين مظلل وذكي، ومخيف... أختنق البعض، ومات البعض الآخر تحت ستارة كثيفة من الرصاص السريع.

هيلينا: (تقاطعه، بحزن) ايُّ بؤس... ايُّ بؤس...

روبرت: وأيُّ ذكاء في إبدا ع الكمائن، والخُطط. (ساخر) بؤساء... قالوا لهم إنها مجرد

نزهة، وليست حرباً... ايه يا هيلينا إن الذبابة الذكية انكهت الفيل الأمريكي العجوز البائس... يا إلهي، من يدري بل من يستطيع ان يقدر كم من الحديد المصهور، واللحم البشري، والذكريات، والآمال الميتة غرسنا في تلك الأرض البعيدة...

هيلينا: (تنخرط في بكاء حار) لماذا تقرأ هذه المقاطع الدامية من رسالته؟

روبرت: هيلينا... ماذا يكتب إنسان يعيش في الدم... الرسالة كلها دامية.إسمعي.

هيلينا: ماذا؟

روبرت: هذا المقطع... (يقرأ) إنهم مثل الهواء في كل مكان... الأعجوبة وحدها يمكن أن تتدخل وبالصدفة المحضة وتخلص واحدنا من الموت... والأعجوبة يا بابا مثل الحظ السعيد لن تأتي سوى مرة واحدة فقط، والحرب مستمرة... (يتوقف. يطوي الرسالة ويعيدها الى جيبه). هيلينا يا عزيزتي أن قلبكِ الضعيف لا يتحمل هذه الكلمات...

هيلينا: (تبكي) لقد عذبت نفسي كثيراً من أجله... شكراً يا مسيح الطيب... المهم سوف يأتي عما قليل... (وقفة) اجل يا روبرت إنني في غنىً عن هذهِ الكلمات الموجعة التي تشبه الرصاص.

روبرت: (بحزن) لا... لا المسيح، ولا العذراء، ولا القديس بولص، بل حتى جميع القديسين لن يستطيعوا... (يسيطر على نفسه... يتوقف عن الكلام)

هيلينا: إنك تزيد عذابي بهذه التشاؤمية اللعينة... ألا تعرف قليلاً من لغة التفاؤل...

روبرت: بل خنقني الكذب طويلاً يا هيلينا... (ينتابه غضب حاد) مليون دعاء، وصلوات، وتهاليل لن ترجعه...

هيلينا: لكنه آتٍ... آتٍ يا روبرت... (تأتي إمرأة عجوز في نفس عمر هيلينا وتقف لصق روبرت)

المرأة العجوز: (بفرح) بالتأكيد أنتما الآخران تنتظران... بوسع الواحد أن يقرأ في وجهيكما... (ترنو الى وجه هيلينا.) كنت تبكين... أعرف انها دموع الفرح... دموع الأم... حتما إنه أبنكم الذي تنظرونه... اوه... كفي عن البكاء... (بصوت خافت...) أنا الآخرى بكيت طويلاً... في الطريق، وهنا...

هيلينا: آه... اللعنة على الأمومة...

المرأة العجوز: انا أنتظر حفيدي بيتر... (تتكلم بسرعة...) اوه... أيها العزيز بيتر... كان يجب أن ترجع أسبق من هذا اليوم... لأول مرة منذ غيابك تحلو لي ميرى لاند... كئيبة، ومقرفة كانت هذه المدينة بدونك... (الى هيلينا) كنتُ أُحس كما لو أن كل سنيني في هذه المدينة رحلت مع بيتر، مع بدلته العسكرية الى سايغون... (تتوقف... تتنهد).

المرأة العجوز: (وتكلم روبرت) هل رأيت أولئك المشوهين؟؟ كانت وجوههم حزينة، ومستطيلة مثل وجوه الحصن المريضة...

روبرت: نعم سيدتي... هل كتب لك بيتر انه راجع...

المرأة العجوز: قبل مدة... انه نادراً ما يكتب... المهم إنه مع الوجبة.

روبوت: لِمَ لَم تأت والدته؟

المرأة العجوز: (بعد صمت) ماتت بالسرطان... لم نخبره حتى الآن... لا نعرف كيف سيواجه الخبر...

روبرت: ايه، مَصتنا هذه الحرب مثلما يمصُ طائر الفامپاير الدم من فريستهِ...

المرأة العجوز: وأبنكم؟ هل هو مع الوجبة الأخيرة؟ (وقفة) قبل مدة كتب لنا يقول، إنه شاخ وهو في العشرين... (تبكي)

روبرت: كلهم في عز الشباب شاخوا، من الخوف، والعذاب...

المرأة العجوز: وأبنكم؛ هل هو مع الوجبة الأخيرة؟

هيلينا: نعم... نعم... اوه بالتأكيد...

روبرت: (مازحاً) انه مع وجبة غودو...

المرأة العجوز: غودو!! وهل تسمي الوجبة الأخيرة من الأسرى بوجبة غودو...

روبرت: (ضاحكاً) وهل جاء غودو حقاً؟

هيلينا: معذرةً يا سيدتي، ان زوجي روبرت يحب المزح في أحلك الظروف...

المرأة العجوز: أتركيه يمزح... إنه سعيد لعودة إبنه...

هيلينا: طبعاً...

روبرت: سيدتي... فيتنام بالنسبة لنا صارت مثل اللامتناهي... كل من ينتظر منها خبراً، نأمة، شيئاً بسيطاً، يجب أن يملك الكثير من الصبر... إن عودة من ننتظرهم من

هناك تشبه الحلم، تشبه الخرافة...

هيلينا: (الى المرأة العجوز) دائماً يتكلم بهذه اللهجة كلما دار الحديث عن فيتنام، وعن جان...

المرأة العجوز: من حقه... اوه... سيدتي من سنوات طويلة وفيتنام خبز على موائد كل البيوت...

هيلينا: فعلاً...

روبرت: وحديث الصغار في الروضات...

هيلينا: صدقيني يا سيدتي منذ سفر جان فقط في النوم العميق لا نتكلم عن فيتنام.

روبرت: وحتى في النوم نحلم بها، وبجان.

المرأة العجوز: تماماً... إن والدة پيتر رغم أن السرطان كان ينهش جسدها كانت تردد إسم فيتنام، وإسم پيتر...

روبرت: ايه، هذه الحرب يا سيدتي ستبقى نيرانها، وذكرياتها منقوشة في ذاكرتنا لسنوات طويلة... جان، وپيتر وآخرون قد لا يرجعون، وإذا رجعوا فمشوهين من الداخل والخارج...

هيلينا: روبرت لا تعذبني، رفقاً بقلبي... (تخاطب المرأة العجوز) تعالي لنتجول يا عزيزتي قليلاً ريثما تأتي الطائرة. إن زوجي يتكلم احياناً بفمٍ محموم... (تتركان روبرت)

روبرت: (وحده... يكلم نفسه) مسكينة يا هيلينا إن جان الذي تنتظرينهُ دخل عالم الصوم الأبدي... انه منذ سنين يتعفن تحت أنقاض مدينة خي سانه. منذ سنين وأنا أكذب عليكِ... منذ سنين أستلمتُ خبر موته... لا أعرف كيف ستواجه هذه المسكينة الحقيقة أخيراً... كان يجب أن أخبرها الحقيقة... لكنني خشيت عليها من قلبها... (وقفه) إلهي كل يوم وجبات من الكذب، زائد كذب التلفزيون، والصحف، وكل أجهزة الإعلام... وأنتهت سنوات الكذب... (يبكي. وبصوت راعش يردد هذه الأبيات من نفس قصيدة فيرلنكيتي:

أجلس مع اوراقي

التي فيها شرح كل شيء

بأستثناء ثمة ثقب

شيء مفقود في القصة

حيث الثقب

(تدخل فتاة جميلة نطاق الضوء) وتقترب برفق من روبرت وتتأمله، بينما يستمر روبرت في ترديد الآبيات التالية وكأنه يتأمل شيئاً.

روبرت: أو ربما نسيت شيئاً هذا شعر (تتأمله الفتاة طويلاً، ثم تبتسم له).

الفتاة: شعر اليس كذلك؟

روبرت: له قوة السحر في تطهير القلب... آه، أرى الفرح بوضوح يشع مثل الماسة من عينيكِ الزرقاوين.

الفتاة: صحيح....

روبرت: لاشك أنك تنتظرين إما خطيبكِ، أو صديقكِ. الفتاة: لِمَ لا يكون اخي مثلاً؟

روبرت: كائنُ من كان الذي تنتظرينهُ، المهم أفرحي.

الفتاة: شكراً... إنه خطيبي...

روبرت: يا لسحر الحب... هل رأيتِ وجهكِ؟

الفتاة: ماذا بهِ؟

روبرت: الوجوه زينتها الحلوة، في الحب، والفرح، أو عند إنتظار الحبيب تفقد كل أسلحتها... تكون عارية، نقية، مثل وجوه الصغار....

الفتاة: (تطلق ضحكة حلوة) لكن غياب خطيبي خمش جلد وجهي مثل حيوانٍ شرس... أنا الأخرى شخت... هو هناك، وأنا هنا...

روبرت: آمل أن يعيد بأناملهِ، وبأنفاسهِ الطراوة، والحيوية لكِ ثانية... لكن صدقيني إن وجهك يمتليء بالفرح... (وقفة)أيتها الحلوة، صدقيني الأفراح الحقيقية وحدها تقتل الموت... إفرحي...

الفتاة: شكراً....

روبرت: عيناكِ تفيضان بالحب، والتوتر، والإنتظار...

الفتاة: الذي يسمعك يعتقد دونما أي شك أنك تغازلني.

روبرت: أنا شيخ أيتها الحلوة... شيخٌ مُعذب. (يربت على ظهرها) إن رؤية وجه جميل، وسعيد مثل وجهكِ يُخفف الكثير من الأحزان...

الفتاة: للمناسبة، ألا تنتظر أحداً؟

روبرت: أنتظر من مثلاً؟

الفتاة: في سنك؟ اوه... أبنك مثلا... أو حفيدك...

روبرت: إنني لا أنتظر أحداً...

الفتاة: لا... حتماً تنتظر... لا يمكن...

روبرت: (مازحاً) صدقيني جئت لأتفرج على هذه الهزيمة أنظري... أخيرً وصلنا مرحلة من التعقيدات المخزية بحيث لم نعد نعرف فيما إذا كنا نخطو الى الجانب، أو الى الخلف، أو الى الأسفل...

الفتاة: (بإلحاح) هل حقاً لا تنتظر أحداً؟

روبرت: كنتُ أنتظر... لم أعدّ بعد الآن...

القتاة: هل مات؟

روبرت: إبتلعته مدينة خى سانه...

(تدخل هيلينا، والمرأة العجوز)

هيلينا: (بفرح) روبرت... الطائرة دخلت أجواء المدينة، إلهى، أنها مسألة دقائق...

روبرت: (يقدم الفتاة لزوجته) أنظري يا هيلينا، هذه الجميلة تنتظر خطيبها...

هيلينا: اوه... رائع... رائع... أنه مع وجبة جان إذن.

الفتاة: (توزع نظراتها بحيرة بين روبرت و هيلينا.) آمل... (تبتسم) آمل... لا أعرف...

المرأة العجوز: (تقاطها) الدقائق الأخيرة في الأنتظار تطول، تطول وكأنها ساعات...

الفتاة: لأننا نفكر فيها بعمق... (صمت. صوت المذيع)

صوت المذيع: أيها السيدات والسادة، الطائرة سوف تحط عما قليل... إنتباه... الطائرة سوف تحط عما قليل.

هيلينا: (بفرح شديد) ألم أقل يا روبرت...

المرأة العجوز: (بفرح مشوب بحزن) سأرى بيتر أخيراً بعد كل هذا الغياب... آه... ترى هل حقا شاخ كثيراً كما كتب لي...

روبرت: تعالي بسرعة أيتها الطائرة وأريحي عذاباتي. (بغمغمة مع نفسه) وإنهي الكذب الذي لوثني...

هيلينا: أنظر يا روبرت كل واحد هنا سعيد، يضحك، ويفرح الآن...

روبرت: (بصوت راعش) إن هذه الطائرة يا هيلينا فيها أحزان كثيرة للبعض...

هيلينا: بالطبع سيحزنون قليلاً لرؤيتهم، ثم يصبح كل شيء اعتيادياً...

روبرت: وماذا اذا لم يرونهم!؟

الفتاة: (تنخرط في بكاء حار) يالها من لحظات صعبة ومؤلمة.

المرأة العجوز: اوه.... أيتها الحلوة، إن طعم الفرح أحياناً موجع مثل طعم عذاب.... هيا... هيا لنتشجع... (صمت، بعد لحظات يُسمع زئير طائرة. بعد قليل يقرأ المذيع اسماء الأسرى... ضوء البرج يسلط على الأسرى... موسيقي خفيفة و حزينة. يسير الأسرى برفق بأتجاه الصالون. تستمر الموسيقي لحين اختفاء ضوء البرج...)

هيلينا: لم يقرأ اسم جان...

المرأة العجوز: (بخوف شديد) ولا اسم حفيدي بيتر...

الفتاة: (بخوف اشد) لكن لا يعقل... ولا اسم خطيبي ماكس...

روبرت: ما الذي لا يعقل... لم يكونوا في نزهة... توقعوا كل شيء...

الفتاة: ماكس كان يجب ان يكون بينهم...

روبرت: صدقوني ان من ننتظرهم، ولم تقرأ اسماؤهم هم....

هيلينا المرأة العجوز والفتاة: (معا) هم ماذا!!؟ اجب.... مستحيل...

روبرت: لماذا مستحيل.... الحرب وحدها تبيح لنفسها كل شيء... الحرب لا تستأذن منكن لكي تقتل أبناءكن، وأحفادكن، وأزواجكن. (صمت... يتقدم أحد ملاحي الطائرة).

الفتاة: (بتلهف) سيد... هل... هل هؤلاء كانوا الوجبة الأخيرة من الأسرى...

الملاح: لم يبق أسير واحد في هانوي.... هل تنتظرين أحدا؟

الفتاة: خطيبي...

هيلينا: وأنا أبني.... (تشير الى المرأة العجوز) وهذه حفيدها.

الملاح: (يهز رأسه) في الحقيقة إن بعض الطيارين عندما سقطت طائراتهم إحترقوا فيها، والقيادة كانت تتصورهم أسرى.... (يسير) هانوي حسب الأتفاقية الأخيرة سلمت لنا جميع الأسرى.... (يترك المسرح).

روبرت: شكراً للّه أنني دربتُ نفسي، وأعصابي على تحمل الصدمة.... لنذهب... هيلينا قويّ أعصابكِ... (النساء يرحن في بكاءٍ حار).

الفتاة: (تشهق) كان بوسعهم أن ينهوا هذهِ الحرب القذرة من سنوات.... ثلاثة رؤساء كلُ جاءَ ليسكب المزيد من البترول علىَ النار...

المرأة العجوز: آه... يا بيتر، صدقني وفرت لنفسك عذابات كثيرة بموتك... أظنك كنت بحاجة لطلقة الرحمة التي أصابتك... (تجهش في البكاء)

هيلينا: ثلاثة رؤساء أجلاف بمجرد جرة قلم لم يبقوا لنا لا أولاداً، ولا أحفاداً، ولا عُشاقاً.... (تجهش في البكاء)

روبرت: وخلقوا أطناناً من الأحزان.... آه... أحزان ثقيلة مُرّة، لأكثر من جيل....

(موسيقى حزينة... يعطي الأربعة ظهورهم للجمهور يسيرون بخطوات ثقيلة وكأنهم وراء نعش... يتقلص الضوء برفق عند انتهاء كل بيت من ابيات الشعر، وفي نهاية البيت الأخير ظلام.

اجلس مع اوراقي
باستثناء ثمة ثقب فيها
شيء مفقود في القصة
حيث الثقب
او ربما نسيت شيئاً
ان الشعوب قررت على مستوى عال...

ستِار

غداً يجب أن أرحل (*)

مسرحية قصيرة في فصل واحد

منطقة وقوف حافلة المصلحة... المنطقة خالية الا من إمرأة في حوالي الستين، ترتدي معطفاً أسود، وتحمل حقيبة يد سوداء، وتضع نظارات سوداء، وعلى رأسها منديل أسود... بعد قليل يأتي صبي يرتجف، وينفخ باطن يديهِ بلهاث.

الصبي: (للمرأة بصوتٍ متقطع) هـ ... ل... مرّ... الباص رقم ٤ ...؟

المرأة: من حوالي ربع ساعة.

الصبي: (يضرب الأرض بعصبية بحذائه مرات مثل الملسوع) آه... لا... من يدري متى يأتي الباص الآخر...

المرأة: كان يجب أن تكون هنا....

الصبي: كنت هنا أنتظره... تذكرت أن والدتي كلفتني بشراء ثلاث نبوبات...

المرأة: (بتعجب) نبوبات...؟ أين تسكن.

الصبي: في منطقة التسعين(**)

المرأة: الا توجد نبوبات في التسعين... إنها مدينة كبيرة.

الصبي: وهل جئت من التسعين الى المدينة لشراء ثلاث نبوبات في هذا البرد...

الصبي: لا... جئت لأزور خالي...

المرأة: (تبتسم لهُ بحنان) شاطر... هل تذهب الى المدرسة...؟

الصبي: (يهز رأسه) في الصف الخامس الأبتدائي.

(تتأمله بحنان أكثر) عال... أسمع، إن أمك يجب ألا تسمح لك بالنزول الى المدينة لأشياء بسيطة...

الصبي: إنها لا توافق على نزولي أبداً... إنني أحب خالي... أحب أن أزوره...

(*) نشرت في الأديب المعاصر العدد ١١ من ايار سنة ١٩٧٥ .

(**) كانت قرية، وهي الآن شبه مدينة على مبعدة مئات الأمتار من كركوك.

المرأة: حسناً... أعتقد من الأحسن أن تأخذ واحدة من سيارات –الصاروخ– من أمام زقاق السماكة... هيا أذهب... البرد شديد...

الصبي: (وهو يرتجف) سأذهب... (يتبادل نظرات طويلة وقلقة مع المرأة سأذهب. (يذهب)

المرأة: (تتنهد) مسكين... يرتجف مثل الورقة... (يأتي رجل عجوز في حوالي الستين... يقف على مبعدة أمتار من المرأة).

الرجل: (بغضب) إلهي، إما حَرٌ يشوي، ويشعوط، ويشل الرئة،أو بردٌ يفري اللحم مثل سكاكين قطاع الطرق... (وقفة وبعصبية) من ساعات وهذا البرد يدق عظامي مثل يد الهاون... (يتنهد) إما حَرٌ مثل جهنم، أو بَردٌ مثل سيبريا... (ينحني قليلا وينفخ في باطن يديه) برد وبش... وبش... وحشي.

المرأة: (تلاطفه) حقاً يُحار الواحد في فصول بلدنا...

الرجل: (يلتفت اليها... بهدوء كمن يكلم نفسه) برد يجعل الواحد أن يصلي لمجيء الصيف... الشتاء يكبسنا ويكورنا ونصبح مثل القنافذ، والصيف يسحب من أفواهنا ألسنتنا ويجعلنا نلهث مثل الكلب. (وقفة) والربيع يأتي مثل الشبح و يغيب، والخريف يصبغ وجوهنا بالغبار... أيه... لا أعرف... معذرةً هل مرّ الباص رقم ٦ ؟

المرأة: (وهي تتأمله بإمعان) لا أعرف... قبل مدة مرَّ الباص رقم ٦

الرجل: (هازاً رأسه) مَرّ، سيمُر، ربما بعد قليل... (يرتجف من البرد) أنظري يا سيدتي ماذا يعمل بنا هذا البرد السكيني... صدقيني قبل ربع ساعة ما كنت أستطيع أن أفتح فمي... أسناني الاصطناعية تصطك ببعضها رغما عني... كنت من شدة لسعات البرد أحرف عليها بغضب جمل هائج مهتم لتحطيمها داخل فمي.

المرأة: كان يجب أن تتدثر بشكل جيد... عظام الإنسان في مثل أعمارنا تكون هشة، فارغة... يجب أن ترتدي معطفاً.

الرجل: (يؤشر الى ملابسه) هذه البلوزة بثخن البطانية، والسترة، والفانيلة من التحت و و... اوه... أحيانا لا أستطيع تحريك يدي... (وقفة) طبعاً، الشيخوخة... السنون اللعينة بعضاتها السامة، وحقدها تأكل حتى الحديد... (تأتي شابة جميلة، تقف جنب المرأة).

الشابة: هل مرّ الباص رقم ٤ .

المرأة: من مدة...

الشابة: (بتأفف) أي... آ آ آ... أي بردٍ هذا...

الرجل: أشك أن يسلم منه حتى عظام الشباب.

الشابة: اوه أيها العم، وماذا بوسع الشباب أن يعمل أمام هذا البرد...

الرجل: (ملاطفاً) أن يتحمله دونما تأفف.

الشابة: (هي الأخرى ملاطفة) يا ليت... لكنه برد لعين.

الرجل: بردٌ لا يعرف الرحمة... مثل قنابل العدو تنفجر فتصيب الصغير والكبير...

الشابة: (تطلق ضحكة صغيرة، وتنفخ في باطن يدها مرات، تلتفت يمنة، ويسرة... تكلم نفسها) ما أقبح الإنتظار... وفي مثل هذا الجو...

الرجل: (هو الآخر مع نفسه) يحتاج الواحد الى إثارة أعصاب. الى غضب ليسكت وجع هذا البرد الوبش... (يلتفت يمنه ويسرة) شوارع مهجورة، باصات تسير مثل السلحفاة وكأنها آتية من آخر الدنيا....

المرأة: (تلقي نظرة الى السماء... الى الرجل) هل تعتقد ان السماء تمطر...

الرجل: (ببرود) لا أعرف... (يلقي نظرة طويلة الى السماء). بصري ضعيف... (وقفة) هل السماء بلون الرصاص المصهور...

المرأة: (هي، والشابة تلقيان نظرة سريعة الى السماء) السماء داكنة، سوداء...

الرجل: ربما... ليت المطر يجيء بسرعة ليخفف من هياج هذا البرد الوحشي، النصف سيبري...

الشابة: آه، ايها العم، تقول نصف السيبري... اعتقد لا يوجد فرق كبير بين برد مدينتنا وبرد سيبريا...

الرجل: (هازاً رأسه) لا تبالغي... يا صغيرتي.

الشابة: هل زرت سيبريا...

الرجل: كلا... إبني يدرس الجيولوجيا في الأتحاد السوفيتي... يشتكي من البرد كثيراً.... (يدخل شاب وسيم. يتقدم من الشابة)

الشاب: آه. جداً آسف يا عزيزتي... إن هذا البرد يعمي الواحد من الغضب... (يمسك يدها) سعيد لأنني وجدتك... أعتذر... لنذهب... يا الهي أي برد لعين. هل كنت تنتظرين من مدة؟

الشابة: فكرتُ أن أخذ الباص وأذهب... كان يجب أن تأتي في الموعد.

الشاب: أعتذر... هيا... لنذهب.

الشابة: وهل تعتقد ان هذا الجو يساعد على...

الشاب: جداً... جداً... تحركي...

الشابة: لكن...

الشاب: (بغضب) ماذا؟ مرة أخرى... مادخل الجو... لنذهب... تحركي... (يذهبان)

الرجل: (بإبتسامة) أقسم ان هذا البرد الوحشي سيتحول الآن بالنسبة لهما الى نسيم... (يتنهد) فعلاً، الآن ينحدر البرد ويستسلم لهما مثل الجرو... ومثل الجرو يلحسها... ايه... شباب.

المرأة: (بعد الصمت) كم عمر أبنك؟

الرجل: في الثلاثين... انه يهيء للدكتوراه...

المرأة: آه... شاب... ويشتكي من البرد...

الرجل: التكيّف... هل تفهمين ما معنى التكيّف... يقول أنه لم يتكيّف بعد لعشر درجات تحت الصفر. (ضاحكاً) ويكتب لي مازحاً ما ان تمس موجة البرد الأذن حتى تطرش، ويرن في المخ صوت مثل صافرة مزعجة...

المرأة: مسكين...

الرجل: أو يكتب لي... أدس يدي في جيب معطفي بحثاً عن الدفء فإذا بندف الثلج تستقبل رؤوس أصابعي في قاع الجيب، وأتدفأ بها من غضبي... ها ها ها ها....

المرأة: (بفرح) هل تحفظ رسائله عن ظهر قلب.

الرجل: لا... جملاً قصيرة منها. (ساخراً) أبن الكلب يكتب لي بلغة جميلة عن وضعه. ذات مرة كتب: أكثر من الف مرة في اليوم أحن لرؤية حبات العرق وهي تنزلق من العنق الى الظهر وتحت مبردة الهواء في أيام تموز الحبيبة... (وقفة...) تأملي أي برد هناك...

المرأة: (بحزن) مسكين... الا يكتب لوالدته؟

الرجل: طلقتُ والدته وهو في الشهر العاشر من عمره.

المرأة: لماذا؟

الرجل: لا أعرف... طيش... نزوة... هكذا كأي أحمق دونما سبب... (وقفة) نزواتي كأبن وحيد ومدلل كانت كثيرة في حينها... حاولت إرجاعها، فشلت... أهلها رفضوا مواجهتي واقسمت ألا أراها، او أدعها ترى ابنها... وهجرت هذه المدينة مع أختي الوحيدة الى بغداد...

المرأة: منذ أن هجرت المدينة وحتى الآن وانت في بغداد؟

الرجل: نعم... من شهر وأنا هنا... مدينتي... ايه، هذه المدينة لم تتغير أبدا... قليلاً في القطاع الجنوبي. المنطقة الشرقية مازالت موحشة ومهجورة...

المرأة: اما زلت تحتفظ بذكرياتك عنها؟

الرجل: ضاعت كلها... المدينة نفسها لم أعد اعرفها كما كانت... معظم معارفي ماتوا، والبعض مثلي هجرها...

المرأة: زوجتك؟ هل مازالت هنا؟

الرجل: من أين لي ان اعرف... حتى اذا رأيتها الآن ربما لا أعرفها... ثلاثون سنة، أو أكثر... السنون تبتلع كل الذكريات.

المرأة: وهل لأبنك نفس نزواتك؟

الرجل: أبداً... أبداً... هو هادىء، رزين، دؤوب، وديع مثل الأرنب، متفوق في دراسته بأستمرار، يحب الشعر ويقرضه أحيانا... (يتنهد) له الكثير من خصال والدته. ايه... والدته فعلاً كانت إمرأة رائعة. (وقفة) لم أكن أهلاً لتلك الأنسانة أبداً... أبداً... أنا من الناس الذين لم يُخلقوا للزواج.

المرأة: لِمَ لَم تحاول أن تراها طوال هذه المدة؟

الرجل: عناد سخيف... تَعالٍ حقير... حماقة... ايه، فكرت أن أمنحها حياة أخرى مع إنسان أحسن منى بكثير... (ينفخ في باطن يديه... تنبعث موسيقى خفيفة وحزينة من مذياع بعيد... يلقي نظرة الى السماء) المطر... المطر وحده فقط بوسعه أن

يذيب هذا البرد الثلجي الذي يلفنا.

المرأة: (بلطف) هل هذه من كلمات ابنك.

الرجل: لا... لا... لا... البرد عندنا كما تعرفين لا يقتله سوى المطر...

المرأة: اعتقد ليس من الأصول ان اكون فضولية الى هذه الدرجة...

الرجل: اوه... اشبعي فضولك يا سيدتي...

المرأة: هل تعيش لوحدك؟

الرجل: الشيخوخة، الثرثرة، الأستجواب، الفضول... نعم في مثل أعمارنا بدون هذه الأشياء نحن جثث لا أكثر. (وقفة...) ماذا؟ آه... نعم أعيش لوحدي... كنت مع أختي... ماتت من عشرين سنة... أجل أعيش لوحدي...

المرأة: من حوالي شهر وأنا اراك تقف هنا في إنتظار الباص...

الرجل: لدي قطعة أرض بعتها... المعاملة طالت... الروتين. قبل مجيء هذا البرد الوبش، إرتحت كثيرا لمناخ المدينة... فمنظر التلال في الجهة الشمالية من المدينة أثناء الغسق يسحرني ويذكرني بصباي، وأيام المذاكرة... كل يوم اؤجل سفري... لا أعرف لماذا... سأكتب رسالة مطولة لأبني عن مدينتي، وشبابي، وزواجي الذي مع الأسف لم يدم طويلاً...

المرأة: متى ستكتب له؟

الرجل: حال رجوعي...

المرأة: أكتب له دوماً، وبسرعة... الغربة موجعة... دعه يحس بالسعادة دائماً. للمناسبة أهو وحيدك؟

الرجل: لم اتزوج بعد تطليق زوجتي... ثم انه وحيدي... ايه... طبعا اكتب له بإستمرار... هو الآخر يغمرني بكلماته الحلوة بسعادة كبيرة... (وقفة) أنه سعيد.

المرأة: حقا...

الرجل: لديه ما يملأه بالسعادة... دروسه... صديقته الروسية سفيتلانا الجميلة... أرسل لي صورة كبيرة لها... وجه بأستدارة وبياض الجبن الكردي، وشعر بلون البرسيم... ولديه رسائلي، ثم قليلاً من الفودكا، الذي يقول عنه– وحده يؤدب البرد...

المرأة: آه... ما اروعه...

الرجل: ويجب كثيرا منظر أشجار البتولا، و (الزلاطة) الروسية التي يسميها سيمفونية... انه بأختصار سعيد... سعيد.

المرأة: (تتنهد) اكتب له اشياء جميلة عن مدينتك... أخبره انها كما كانت هادئة، رزنة، كعهدها، وفية... لم تفسد.

الرجل: من؟.

المرأة: اكتب... اكتب له...

الرجل: لا شك... (يهم بالذهاب) أعتقد يجب أن أذهب... ربما أجد سيارة أجرة تنقلني الى الفندق... غداً يجب ان أرحل... (يتحرك... ويلوح للمرأة) لا تنتظري الباص... انه لن يأتي... أما إذا كنت تأملين ان يخف هذا البرد فبالعكس يصبح أكثر وحشية وسعاراً، ويبدأ كما يقول ابني يلحس العظم مثل كلب يعبر عن عميق حبه لسيده. (وقفة) لأسرع... تنبعث اغنية حزينة من المذياع البعيد...

المرأة: (تبكي بحرقة. بصوت مخنوق) إلهي، وأخيراً أتحت لي بعد هذه المدة الطويلة أن أرى زوجي... دعني أحبه مثلما احبك يا الهي حتي لحظاتي الأخيرة... (ترسل نظرة طويلة بالاتجاه الذي سار فيه الرجل...) دعني أحبك مثلما احبه... دعني أحبه مثلما أحبك...

سِتار

زفير الصحراء(*)

مسرحية في فصل واحد

قبل سنوات خرجت بعثة علمية مصرية للبحث عن النفط في إحدى المناطق الصحراوية... وأثر زوبعة رملية قوية ظَلّ الطيار طريقهُ، وإضطر أن يهبط بعد أن نفذ وقود الطائرة في مكان ما من الصحراء... وعبثاً حاولت فرق الإنقاذ معرفة مكان البعثة التي مات طاقمها بعد أيام صعبة من المعاناة، والعذاب، والعطش والجوع.

قرأت هذا الخبر منذ أعوام في مجلة الف باء، ومنها استلهمت هذه المسرحية التي يعود تأريخها لسنوات... الاسماء هي غير اسماء البعثة...

الشخصيات

عماد الامبابي: مهندس جيولوجي في الخامسة والثلاثين، وسيم، هادىء، يعاني بصمت.

محمد السعدني: طيار شاب في الثلاثين . وسيم، حيوي، جاد، نشط...

سعيد مجدي: صحفي شاب.

المنظر

مؤخرة طائرة عمودية تقطع المسرح مثل لوح اسود كبير وترتفع عن الارض بعلو قامة إنسان او أكثر، وتلقي ظلاً مستطيلاً فوق الرمل... بإستثناء مؤخرة الطائرة لا شيء سوى الصحراء... عماد متكور في الظل، وسعيد متمدد... كلاهما مرهقان، بشرة وجهيهما بلون خشب الماهاغوني، وشعر رأسيهما بلون الرمل...

سعيد: هل ستقوم بمحاولة اخرى؟

عماد: خلاص يا سعيد... أسمع، أنا والدي علمني دائماً ألا افقد الثقة بنفسي... علمني

(*) نشرت في مجلة الأقلام العدد الثاني عشر ايلول ١٩٧٧– مثلت من قبل فرقة المسرح الفني الحديث على مسرح بغداد عام ١٩٧٨

العزيمة، الإرادة... لكن هذه الصحراء الكافرة مصت كل إرادتي... عزيمتي... (وقفة) من أيام وأنا أبحث، ومحمد مثل النمل الدؤوب يبحث ويستعمل كل ما لدى الطيار الجيد من حس ومعرفة بالإتجاهات... ايه، ورياح أمس الحارة المسمومة التي ظلت تهب سممتنا... النتيجة... لا أمل... لم يبق شيء يا سعيد يمكن أن نستغني عنه من الملابس إلا وحرقناه في الليل على أمل ان يشاهدنا طيار مثلنا تاه في السماء... لا فائدة... اليوم الرابع في هذه الاتون بدون ماء، وخبز...

سعيد: وهل سنموت هنا...؟

عماد: لو كنا نملك ملء هذه الزمزمية ماء... وقليلاً من كلماتك التي تشحننا بالأيمان... ايه، أنت الآخر مرهق بعد محاولاتك الكثيرة في البحث هنا و هناك... ماذا نملك لكي نستمر سوى القليل من العزيمة...

سعيد: محمد تأخر... محمد مازال مصراً إننا لم نتهِ... (وقفة) ومازال يتصور إننا حاقدون عليه. (وقفة) ربما يأتي هذه المرة ومعه أخبار سارة...

عماد: محمد إنسان صلب... أنا لا ألومه أبداً وهل تلومه أنت؟

سعيد: أنا؟ وما فائدة اللوم؟ المثل يقول خطأ بوصه يضيع أميالاً...

عماد: هل تقصد إننا ندفع ثمن زلته، أو ثمن تلك العاصفة الرملية الحمقاء التي عبثت بالطائرة، وبمحمد... أتعرف.

سعيد: أعرف كان يجب أن نتريث عندما عبثت تلك الزوبعة اللعينة بالطائرة... أعرف اننا تسرعنا... نعم... (وقفة...) اوه، ما هذه السخافة التي أقولها... قررنا جميعا ثم هبطنا... ايه، يا عماد مئات الناس يموتون أحيانا نتيجة حماقة... الطبيعة، حماقة سوء فهم، حماقة براءة... هش هش هش...

عماد: (بصوت حزين ذابل) تكلمنا عن كل هذا أمس في الليل... نعيد الأشياء وكأننا نتكلم عنها لأول مرة... آه، رياح أمس الحارة القاتلة كانت مخيفة... (وقفة) انا الآن يا سعيد لا أؤمن سوى بقطرات من الماء... الحقيقية عندي في هذه اللحظة قطرات من الماء ... السعادة اللامتناهية عندي الآن هي قطرات من الماء... ماء... (وقفة... بتألم) اي شيء عظيم هذا الماء الساحر...

سعيد: ألم نتفق معا عن الكف جهد الامكان من الكلام عن الماء.. أنت تعرف كم.

عماد: (مقاطعا) كم يؤذي، ويوجع ذكره في وضعنا هو الذي يفرض وجوده... شيء رهيب.

سعيد: هو فعلاً... ام، ام انت؟

عماد: لا أعرف... ربما كلانا... (صمتٌ طويل...) المعروف أن الصحراء تقوي البصر، وتجعله حاداً... منذ أن هبطنا أحس ببصري تدهور... أحس كما لو أن يداً وهمية تدخل أسفنجة في عيني وتمص الماء فيها...

سعيد: أسفنجة الصحراء بوسعها أن تمص الآلاف من امثالنا... الشمس، والرمل، والعرق، والرياح الحارة، ثم لعبة الصحراء، والإغفاءة، والسرابات التي تدوخ الرأس...

عماد: الإغفاءة...

سعيد: وأنت تنظر بعيداً...

عماد: يا دين النبي، وترى كل شيء بوضوح.

سعيد: وأي وضوح...

عماد: اللعنة... اهي إغفاءة، لعبة، سحر...

سعيد: ما كنت أعرف أن الصحراء مثل زيوس...

عماد: زيوس!؟

سعيد: نعم زيوس رب الأرباب عند الاغريق القدماء تتخذ أشكالاً غريبة مثل زيوس... فهي تارة سحابة، وتارة واحدة جميلة، وتارة أباراً فيها مياه مثل الزلازل، وتارة لا أعرف...

عماد: (بغضب وحقد) بنت الف كلبة هذه الصحراء.. ياه، بأي صفاء تبعث الاحلام... أجمل بكثير من الحقيقة... أمس عندما إنتهت هجمة الرياح المسمومة الحارة، رأيت بركة فيها ماء نظيف... هرولت دون أن أحس مطلقا انها اللعبة نفسها... وصلت البركة فرأيت أسدا يعب منهاً... تسمرت في مكاني... آه، عندما كان الأسد يرفع رأسه كان خيط من الماء النظيف يتساقط من زاوية فمه...

سعيد: أخيراً...

عماد: ألا تعرف... أفقت وأنا أطلق أناتي المعتادة من العطش... (يسمع صوت بعيد جداً لزوبعة صحراوية...)

سعيد: يا صبر أيوب... مرة اخرى...

عماد: ماذا؟

سعيد: ألا تسمع؟

عماد: أبداً...

سعيد: أسمع صوت زوبعة آتية...

عماد: لا لا... يا رب... آه، إنتهينا هذه المرة الى الأبد... (وقفة) محمد تأخر كثيراً... انه لا يشفق على نفسه... أخشى ان تكون هذه مأموريته الاخيرة.

سعيد: (وهو يتتبع الصوت الذي بدأ يتلاشي ويضيع") آه" نعم... عسكري صلب... رغم الأرهاق الشديد، والعطش، والجوع لا يكل عن البحث...

عماد: مع أنه يعرف إننا تهنا...

سعيد: يعرف...؟

عماد: يا سعيد، أعتقد ان الطيار الجيد في الأوقات الصعبة جداً يمتلك حساً رادارياً بالإتجاهات سواء أكانَّ على الارض،أو في السماء...

سعيد: ربما... لا أعرف... لكن كل شيء في وجهه في عينيه يؤكد مزيداً من الأمل...

عماد: بل الإرادة... أنت الآخر أحياناً تعطي إنطباع من لم يفقد الأمل...

سعيد: ربما بدافع من كبرياء أتصرف كما لو انني لم أفقد الأمل أبدًا. واحيانا كصحفي، وككاتب تغمرني حالة من الشجاعة النادرة تميت الموت... وأحيانا عندما أجد أنني لا أستطيع تغيير وضعي في هذه الصحراء يخف الألم...

عماد: انت رائع يا سعيد... سعادة وانت معنا في هذا العذاب... (وقفة) تلك الزوبعة الرملية الحمقاء... الهي، من أين جاءت...

سعيد: بنت الكلبة بدأت على شكل دائرة صغيرة، وقلت أنظروا، الصحراء تزفر، وفجأة، هبوب مثل الغضب الاكبر إرتفعت لتطاردنا الى مئات الأمتار، ولفت الطائرة...

عماد: وشرح محمد الوضع بالتفصيل.

سعيد: وقررنا الهبوط...

عماد: لا لا لا... إنصافاً، محمد لا ذنب له أبداً... (بعد صمت طويل) لماذا نعيد ما قلناه عشرات المرات... (يسمع صوت بعيد لزوبعة رملية...) أتسمع...

سعيد: ألا يكفي... يا صبر أيوب... (يرهف سمعه...) تتجه شرقاً... اسمع... شرقاً...

عماد: فعلاً... إسمع يا سعيد، يجب أن نمنع محمدا من المشي الى مسافات بعيدة... أشك انه يستطيع العودة... أمس كان محطماً من التعب... للإرادة حدود... (وقفة) اتعرف متي فقدت آخر قابليتي...

سعيد: متى؟

عماد: في جولة امس... وبعد ان فتكت بنا الزوبعة المسمومة... واخيراً الهدوء الذى جاء وكأنه السلام... لكن أي سلام كاذب... من جديد رأيت عشرات البدو، والجمال، والنساء، والاغاني، ثم واحة ساحرة... البدو يؤشرون لي ان أقترب منهم... وهرول البعض صوبي وحملوني الى الأبار... كنت رغم الآمي أُردد، خلاص يا سعيد، خلاص يا محمد أُنقِذنا اخيراً... سترجع الى البيت، والعمال والعمل...

سعيد: (بصوت جد حزين...) وإغفاءات متتالية تمسح كل شيء.

عماد: ثم لا شيء سوى أفق حقير من الرمل...

سعيد: ترى اهي لعبة الصحراء، ام لعبة رغباتنا... ام لعبة حاجاتنا البايولوجية؟ ايه، هنا تعلمت يا عماد إن الكثير من الرغبات الأنسانية هي إنعكاسات جسدية...

عماد: كلام جميل... لم لا... حتما العطش هو الذي جسد لعيني وعقلي تلك المناظر الجميلة... آه، وانت مثل الطفل الذي يلقي نفسه في حضن امه، تلقي نفسك في حضنه بصدق.

سعيد: وأحياناً وأنت تعرف انها لعبة صحراوية.

عماد: فعلاً...

سعيد: ايه يا عماد، ألا تعتقد أن الضعف شيء إنساني جميل؟

عماد: خاصةً عندما لا يمتلك الإنسان الإرادة الصلبة، او يفقدها. (بعد صمت طويل، بصوت حزين) ترى أين نحن الآن... في اي بقعة من مصر الحبيبة... (وقفة.)

لكن من يدري إننا لسنا في مكان خارج مصر... في (ترهوني) بليبيا، او في نقطة بعيدة من القطرون قرب الصحراء الكبرى.

سعيد: ربما في عين صلاح بالجزائر، او في تمور بليبيا...

عماد: اهذا هو اليوم السادس لهبوطنا...؟

عماد: في هذه الاتون... آه، واي اتون... (وقفة) ترى هل انتشر خبر ضياعنا في القاهرة الآن؟ وهل أنطلقت فرق الإنقاذ لتبحث عنا...؟ (وقفة) مثلما جئنا نحن نبحث عن مأمون، حتما يبحثون عنا،،

عماد: (بتعجب) مأمون...

سعيد: نعم... مأمون الاسود...

عماد: الاسود...

سعيد: مأمون هو اله الذهب عند الاراميين...

عماد: آه... مأمون... مأمون الاسود...

سعيد: ترى هل مر الاراميون من هنا... من هنا بالضبط... ايه، كانوا حتما يعرفرن الصحراء... قليلاً من الخبز، واللبن، والعسل...

عماد: مأمون الاسود... (وقفة) لا لا لا يعقل أن يتركوننا...

سعيد: طبعاً يا عماد... عندما أختفى المستكشف النرويجي امندسن في حادث طائرة وهو في طريقه لمساعدة بعثة علمية ظلوا لأشهر يبحثون عنه...

عماد: اشهر... اوه، حتماً يبحثون عنا... ومن يدري كم فرقة إنقاذ تبحث الآن في كل مكان...

سعيد: لكن، أين نحن بالضبط؟

عماد: من يدري... حتماً في منطقة نائية جداً، وموحشة...

سعيد: ماذا تعني موحشة.

عماد: تصور لا في الصباح، ولا في الظهيرة، او في المساء لم نر طائراً واحداً يعبر السماء... (يسمع صوت زوبعة رملية بشكل واضح)

سعيد: وهل الطيور مثلنا لا عقل لها لتأتي الى هذه المنطقة الموحشة... الطيور تملك

حساً عظيماً بالإتجاهات. (يحاول ان يمزح رغم عذابه...) وماذا تعمل الطيور هنا... لتموت عطشا... لتستمع الى عواء الزوابع... او تبحث عن مأمون أسود...

عماد: عواء الزوبعة... يا صبر أيوب من هذا العواء... انه واضح جداً...

سعيد: وتريد ان ترى في هذا المكان طيوراً...

عماد: أقصد طيوراً مهاجرة في طريقها الى بلد ما ولو بالسهو...

سعيد: لا لا... يا حبيبي... كان يجب ان تسأل نفسك سؤالا آخر كجيولوجي هل يجب ان تسأل نفسك لماذا لم ار ولو سحلية صحراوية...

عماد: حقا... سحلية... سحلية صحراوية. (يشتد صوت الزوبعة) وهل (بغضب، وحزن) وهل السحلية تأتي الى هذه الزوابع المخيفة.

سعيد: في اوقات السلم كان جنود رومل ومونتغمري يتسلون بمطاردة السحالي، واحياناً كانوا يراهنون ايهما ذكر وايهما انثى...

عماد: حتما توجد سحالي لا تشرب الماء...

سعيد: سحالي سامة...

عماد: حتما... (يخف صوت الزوبعة...) هربت...

سعيد: من؟

عماد: الزوبعة...

سعيد: الحمد لله.

عماد: هل وجود السحالي يعني شيئا مثلاً...

سعيد: لا اعرف...

عماد: يعني مثلاً أننا على مقربة من قرية، واحة، بادية.

سعيد: لا اعرف... (بغضب....) لم ار ساحرة، بنت كلبة، غاوية، عاهرة مثل الصحراء...

عماد: ولم ار ذئباً أشرس من الصحراء.

سعيد: أما سراب يغري ويعذب، أو شمس وزوابع وحبات الرمل المحمية مثل رؤوس الابر تنغرس في اللحم مثل طلقات الرشاش...

عماد: من كل جانب و تشعر حبات الرمل المحمية في كل مكان... آه، يا الهي أيّ عذاب... أيّ عذاب...

سعيد: وتبكي رغماً عنك... مثل الطفل تصرخ رغماً عنك.

عماد: لا تستطيع المشي، ولا الجلوس، ولا الإنتظار، ولا النوم... يا صبر ايوب...

سعيد: (بعد صمت طويل...) محمد لم يرجع...

عماد: احب فيه عناده... أحترم صلابته العسكرية.

سعيد: آه، محمد يعرف إننا مسحنا المنطقة الى مسافات بعيدة جداً أنا، وأنت، وهو... لا جديد... لماذا يجهد نفسه... (يسمع صوت مثل صوت هدير ماكنة طائرة اتٍ من مسافة بعيدة جداً...) أسمع صوتاً غريباً... صوتاً لا شكل له...

عماد: صوت زوبعة... لا شيء في هذه الصحراء بإستثناء ذاك الصوت.

سعيد: اسمع صوت ماكنة...

عماد: وهل تثق بصوت الصحراء...

سعيد: صدقني صوت واضح...

عماد: صوت ماء... سراب يا اخي... كل شيء كذب في الصحراء...

سعيد: هذا الصوت يؤكد لي إننا لم ننته... إننا على مقربة من مكان ما... فرقة إنقاذ... طائرة عمودية تحاول الهبوط...

عماد: هل فعلاً تثق بصوت الصحراء...

سعيد: ماذا لو حومت بعد قليل طائرة فوقنا... لم لا...

عماد: وهل حلمنا قليلاً...

سعيد: هذا صوت وليس حلماً... (الصوت يتصوره سعيد، ويسمعه لوحده) (ينهض يسير بترنح، ويستمع الى الصوت بانتشاء)

عماد: (يكلم نفسه) من جديد بدأ العطش مجزرته...

سعيد: عما قليل ستهبط برفق هنا... ويبدأ العناق، والقبلات، وقطرات الماء.

عماد: احترق يا سعيد... احترق.

سعيد: (مثل السكران المنتشي.) وتقلع بنا الطائرة الى القاهرة.

عماد: إنني أذبُل... قوة غريبة تعصر بقية الحياة فيّ.

سعيد: (كمن يحلم، ويحاول ان يتهرب من آلامه... يردد هذه الابيات من الشعر للشاعر الانكليزي ماكديارميد...)

المرأة العاشقة ضوء

إنها تشع على كل عظمة من عظامه

تتلوى كالأفعي وتتعرج كحبل الوريد

وتتوهج بسرعة ثم تختفي مرة أخرى...

(ما ان يردد– ثم تختفي مرة اخرى، يختفي الصوت كلياً...)

عماد: كم تحفظ من الأشعار الجميلة يا سعيد... ماذا بعد... (بصوت ذابل) ايه، إن الضعف شيء انساني جميل.. ماذا اعمل اذا كانت الصحراء أقوى مني...

سعيد: (مثل المذهول، عندما يتأكد ان صوت هدير الماكنة ضاع نهائياً. يردد البيت الاخير بحزن...)

وتتوهج بسرعة ثم يختفي مرة اخرى...

عماد: إنني اتدهور... لا أحس بعيب وانا أعترف لك بضعفي.... (بصوت جد حزين ومخنوق...) أشحنّي بالعزيمة...أسمعني كلمات فيها قوة، أمل، حياة...

سعيد: مازلت أسمع الصوت... فرقة إنقاذ تحوم حولنا... إنها قريبة... آه... حولنا...

عماد: أنت تتصرف مثل اليائس.

سعيد: (بصوت راعش مخنوق) لم يبق لدينا سوى اليأس هذا السلام الاخير الذي ربما النصر...

عماد: النصر... (يحل المساء برفق. ظلام شفيف)

سعيد: لم لا...

عماد: ما هذا؟ هل لم أعد أرّ... ماذا حدث.

سعيد: انه المساء... إنتهى نهار آخر...

عماد: نهار آخر... ونظري يذبل... اكثر... ظلام آخر... عما قليل يظهر القمر... هل ستتكلم عن منظر القمر...

سعيد: هذه الصحراء الكلبة لا شيء فيها جميل سوى منظر القمر في الليل... ايه أيتها الدنيا. اي نصيب تعس من الحياة قدرت لنا... أن نعيش مجهولين في عز شبابنا، وأن نموت مجهولين في هذه الصحراء... ماذا أشبعنا من رغباتنا... ماذا أنجزنا للشعب...

عماد: بمن أستنجد يا سعيد إذا كنت أنت تتكلم بهذه المرارة... المرارة... أقبح انواع السموم... اسمعني كلمات قوية، عنيفة... ألا تقرأ لي قليلاً من الشعر... شعر من النوع الذي يملأ الانسان بالقوة...

سعيد: (رغم آلامه، يلقي هذه الابيات من قصيدة لشاعر فرنسي.)

"في معركة الحياة الفسيحة، لا تكن كالماشية العجماء المسوقة بل كن بطلاً في القتال..."

عماد: (بصوت ذابل) هائل.. ولكن من سيشهد لنا أننا في معركة البحث عن مأمون الاسود، ووسط هذا الضياع تصرفنا كأبطال...

سعيد: سيعرفون... (وقفة) وما جدوى أن يعرفوا.

عماد: يعرفون؟ لا لا... إننا على وشك ان نخسر كل شيء.

سعيد: وهل الخسارة مخيفة يا عماد... ما فائدة الانسان الذي ليس لديه ما يخسر... (ينهض عماد، وقد اثرت فيه كلمات سعيد...) أتريد ان أسمعك مزيداً من الشعر...

عماد: (يضع رأسه فوق كتف سعيد...) انت عظيم يا سعيد... مزيداً من الشعر... شعر قوي، عنيف...

سعيد: القصائد العظيمة يا عماد تبني في داخل الأنسان إمبراطورية من الإرادة...

عماد: قصيدة أخرى...

سعيد: (بألقاء مؤثر محشرج يلقي هذه المقاطع من قصيدة لديلان توماس...)

"رغم أنهم يصابون بالجنون ويصبحون أمواتاً كالمسامير سترتفع الرؤوس بين ازهار الأقحوان تتكسر في الشمس الى ان تنكسر الشموس ولن تكون للموت سيطرة..."

عماد: (ينهض بجهد، يحاول ان يتماسك، يعود فيسقط، ويردد بإنفعال) ولن تكون للموت سيطرة... سيطرة على من... علينا... مستحيل... (بصوت خافت...) لكن لكل شيء حدوداً. وللموت سيطرة... (وقفة) محمد تأخر...

سعيد: بعد قليل ستسمع صوته الرخيم وهو يقول – نعم من هنا... واذا بأعرابي ملثم

يدخل مع جَملهِ… ايه، ويبرك الجمل، ويترجل محمد، وينزل الاعرابي خرجا فيه حليب وعسل، وخبز… وننطلق اخيراً على ظهر الجمل الى القرية… من جديد نسمع خوار الابقار، والثغاء الرتيب، ونباح الكلاب… لم لا تثق بي.

عماد: كنت امتلك نفس الثقة والأحلام الى الظهيرة… اما الآن… لا… أنت مازلت تمتلك بقية أمل…

سعيد: آه، الأمل يأتي ببسالة احياناً، واحياناً مثل سراب بعيد… بعيد جداً…

عماد: اي جلاد وحشي هذا العطش الذي أحسه… يا الهي هذه السعة اللامعقولة من الارض ليست فيها قطرة ماء.

سعيد: (يسمع وحده اصواتا مختلطة) لا احد مثل اجدادنا عرفوا لغة هذه الصحراء… عرفوها شبراً… شبراً…(وقفة) عاد الصوت من جديد… ألا تسمع صوتاً يا عماد.

عماد: أنا لم أعد أثق بأصوات الصحراء… ابداً…

سعيد: (يحل الظلام، ويظهر القمر) في الليل يزداد الخوف… خوف لا يعرف الانسان مصدره…

عماد: وتبدأ الوساوس…

سعيد: والافكار المخيفة…

عماد: الإنسان أحياناً يخاف وهو في بيته، في قلب الطمأنينة يخاف، فما بالك هنا…

سعيد: (يحاول ان يغيّر الموضوع) أيه، ترى كم مئات الآلاف من الناس الان ينظرون مثلنا الى القمر في القاهرة، في اسيوط، في الاسكندرية، في بني سويف… (وقفة…) الهي، انقطع الصوت… انا واثق، هناك من يبحث عنا في هذه المنطقة…

عماد: تكلم عن ماجلان…

سعيد: ماجلان… حتما هو الآخر عندما تاه ظل ينظر الى القمر…

عماد: من اين لبعض القادة ارادة تكاد تكون لا معقولة…

سعيد: لا اعرف… مثابرة… ظروف… استجابة… لا اعرف.

عماد: هل اقتنع ماجلان انه تاه فعلاً…

سعيد: ايام قليلة خامره شك… ايه، لكنه تصرف وكأنه على مبعدة أمتار من الأمل…

عماد: ترى كيف كان ماجلان يتصرف لو كان هنا معنا.

سعيد: كان يقول لنفسه: لا مجال للخلاص نهائياً من الصحراء. ليس معك اي شيء لتأكل او تشرب، او اي امل للخلاص… ماذا تعمل؟… صحيح ماذا أعمل؟… لا شيء في هذه الحالة ليس الموت اكبر المصائب. ببساطة يتوصل الى مواساة منطقية…

عماد: ويتقبل أمر الواقع…

سعيد: العظماء من الناس لا يعرفون سرابات طنطلية… ايه، انهم في الساعات الصعبة والمخيفة يكون العالم عالماً حقيقياً بالنسبة لهم…

عماد: انت رائع… محمد تأخر… كثيراً… ليته يرجع.

سعيد: سيرجع مثل الحمام المدرب… سيرجع مع أعرابي، وحليب طازج، وآمال… آه، يا صبر ايوب العطش بدأ ينهشني مثل ذئب جائع…

عماد: (وهو يحاول ان ينسى نفسه) في كل اربع وعشرين ساعة كان ماجلان يشرب قطرة ماء واحدة… (وقفة) من أيام وفي هذا الاتون وأنا لم اشرب ولو قطرة…

سعيد: حماقتنا… قلة تجربتنا… ايه، افرطنا في شرب كل الماء… يا لغبائنا، كنا نتصور إننا سنرتوي بالماء…

عماد: اي تبذير احمق…

سعيد: لنشتعل اذن…

عماد: محمد لم يرجع…

سعيد: يرجع… تأكد…

عماد: اشك أنه يستطيع الأستمرار… من يدري، ربما سقط في مكان ما…

سعيد: ضوء القمر يشع بقوة… ايه، آلاف الناس الآن في الحدائق، يشربون، يتغازلون… اليس كذلك… نمت يا عماد… احسن… اه، ماذا اعمل عادة في مثل هذا الوقت، اما أستنسخ مقالتي اليومية، او العب مع سوسن الصغيرة… وزوجتي تتلصص بين حين وآخر لتتأكد فيما اذا انتهيت من الكتابة. واشم رائحة الأكل… اراها في

منامتها البيضاء وكأنها فراشة كبيرة... اراها بوضوح... (تظهر زوجته، وحبذا لو استطاع المخرج ان يجعلها تبدو مثل الطيف...)

زوجة سعيد: (تقوم بحركات كما لو انها في البيت...) نعم يا سعيد... سمعتك يا حبيبي... ماء... حاضر... يوه، انت تفرط في شراب الماء... طيب حالاً... سوسن نائمة، وهل تبق حتى الان... هل انتهيت من مقالتك...، طولتها حبتين... اسمع يا سعيد هل أخابر ماما لتأتي... ألم نتفق ان نذهب لمشاهدة مسرحية سعدالدين وهبه – يا سلام الحيطة بتتكلم... سعدالدين وهبه يكتب حاجات جميلة جداً... ماذا؟ نذهب لمشاهدة مسرحية اخرى؟ سليمان الحلبي... حقا... رائع... آه، الفريد فرج هو الأخر يكتب بشكل مثير... ماذا؟ آه، انتهيت... لا لا لا... لا تذهب عند سوسن... اوه، تتنحس اذا قامت... لا يا حبيبي... (تسمع من المذياع ليلى مراد. يا مسافر وناسي هواك رايداك والنبي رايداك)

عماد: (يطلق صراخاً حادا... ومع صراخه تضيع زوجة سعيد من المسرح...) يلعن مذهب العطش... العطش... كنت اصرخ على ممرضة ظلت تتصرف معي بقسوة.

سعيد: ممرضة؟

عماد: احلام مخيفة... حلمت بطائرة حطت هنا. هنا بالضبط. (يتكلم باضطراب، وخوف، وحزن...) ثم اخذتنا واقلعت، وبعد قليل سقطت في مكان بعيد... اجروا لي عملية في الفخذ، واخرى في البطن، وكنت انت الاخر تصرخ رأيت زوجتي... آه، والغريب يا سعيد زوجتي كانت تتحول الى ممرضة وتؤشر لي بأصبعها وتقول – لا لا لا... ماء... مستحيل... بعد العملية ماء... يارب، وانا اصرخ. (صمت...) ماذا كنت تعمل...

سعيد: كنت اكلم ام سوسن... كنت في البيت... كنت اتجول في حي الحسين، كنت اتمشى في الدقي...

عماد: لم لا تنام...

سعيد: (لنفسه) حتى النوم صعب هنا... (موسيقى حزينة) حقا لم لا اكتب رسالة لزوجتي... اذا مت وعثروا على جثتي اقرأ... (صمت...) لم لا... (يخرج قلما و ورقة، ويكتب مردداً كل كلمة...) زوجتي العزيزة...

كل يوم أجاهد الا افقد ثقتي بنفسي، هذه الثقة التي تزوغ وتهرب مثل الثعلب رغماً عني... الصحراء... اسفنجة مخيفة تمص الطاقات، وأصلب الإرادات عندما يضيع الانسان فيها... سعيد لانني كلفت بمصاحبة هذه البعثة التي انتهت هنا حيث تنتظر الموت... الجوع شيء مخيف، والعطش آه، وحياة النبي وحش... هل حقاً لن اعيش بعد تلك الايام السعيدة معك! (يسمع صوت تأوهات... يضع الورقة في جيبه بسرعة) من؟ من هناك...

محمد: (يدخل محمد وهو من فرط التعب يترنح مثل السكير) أنا... من عماد ام سعيد... (يبرك وبرفق يسقط. بصوت مخنوق) ما كان... يجب... ان ... امشي... كل تلك المسافة... عملت المستحيل لاجد... ولو املاً بسيطاً... ان اجد نبتة صحراوية... او ضبا تائهاً... او... (وقفة) آه، لا احتاج سوى قطرة ماء واحدة... واحدة فقط...

سعيد: كل واحد منا بحاجة لقطرة واحدة...

محمد: بحماقة... افرطنا في شرب الماء... الذي معنا. (وقفة) كيف وضع عماد؟

سعيد: متدهور... سأل عنك كثيراً... نام بدأ يصرخ... (وقفة) بأي اتجاه سرت عند الصباح؟

محمد: شرقا... يارب... ما هذه الصحراء... (يتلوى من الألم والعطش) فرعونة بنت فرعونة، ظالمة، عديمة المروءة هذه الصحراء...

سعيد: انك جد مرهق... تمدد...

محمد: انني محطم... محطم جسدياً... آه، انا لا أملك الان سوى القليل من إرادتي...

سعيد: فقدنا كل شيء...

محمد: سعيد... هل، هل تعتقد انا المسؤول عن هبوطنا هنا،

سعيد: لا لا لا... الزوبعة اللعينة... لكن الز... و... بعه.

محمد: لكن ماذا؟ صارحني...

سعيد: لا شيء... الزوبعة هي المسؤولة...

محمد: (يصرخ) قلت لكن... صارحني قبل ان اموت... اذا تتصور انا المسؤول قل... ربما تعيش بعدي، ربما تصل فرقة انقاذ... قل، هل أنا المسؤول...

سعيد: خلاص، إتفقنا و قلنا هي المسؤولة... آه، يا محمد ألم نتخذ جميعاً قراراً بالهبوط خاصة والوقود في الطائرة كان على وشك النفاد... تكلمنا عن هذا الموضوع مرات...

محمد: الضمير يا سعيد يلسع احياناً مثل الافعى... سعيد انني بريء.

سعيد: لم هذه الأفكار... طبعاً انت بريء...

محمد: (بعد صمت... وحده يسمع اصوات مختلفة اتسمع يا سعيد)

سعيد: اسمع ماذا؟

محمد: عواء... صهيل...

سعيد: عواء ذئب ام...

محمد: ذئب فعلاً... (ينهض يخرج مسدسه... يترنح، يسقط... يدور حول نفسه...) الا تكفي الشمس... والصحراء، والجوع... والعطش واخيراً ذئب...

سعيد: اجلس يا محمد... (يخاطب نفسه) متى ينتهي هذا العذاب.

محمد: (مثل المحموم) اتسمع يا سعيد... ثغاء خرفان... خرفان خائفة. آه... خوار... (حبذا لو جسد المخرج هذه الاصوات...) اصوات بدو رحل ينتقلون الى مكان آخر... (يصرخ...) اسمعوا... ساعدونا... انتم ها ها ها آ آ آ آ...

سعيد: تمدد يا عزيزي... تمدد...

محمد: بشرفي اسمع ثغاء خرفان... خوار ابقار... (وقفة...) اسمع... صهيلا... فقط لا اعرف من أي اتجاه يأتي الصوت. (وقفة) ايه، الصحراء، بل كل الصحاري ملعونة... (بصوت حزين، ورغم عذابه يواسي سعيدا...) ربما نحن على مبعدة من قرية... ايه، إذا عشنا يا سعيد، سنعيش حتماً، عندئذٍ فقط نكون قد عرفنا لغة هذه الصحراء. (ينهض، يترنح، يسقط، يتكلم مثل السكير) منذ الظهيرة سلمت سلاحي الى الأبد امام العطش... ماذا افعل بقليل من الإرادة... لماذا تعذبني هذه الصحراء...

سعيد: حاول ان تنام... حاول يا عزيزي... أرهقت نفسك كثيراً هذا اليوم...

محمد: (يتمدد...) سعيد... انت دائماً لديك كلمات جميلة... اسمعني كلمات حلوة... آه،

انتم رجال القلم دائماً لديكم كلمات حلوة عند الأزمات... أسمِعنا...

سعيد: (لمجرد ان يلبي طلب محمد، بصوت حزين يردد) أتحداكِ ايتها الصحراء. أتحداكِ مثل الثور المطعون حتى النفس الاخير...

اتحداكِ مهما إمتدت شطآنكِ...

محمد: قلت انك أردت ان تُصبح شاعراً...

سعيد: وهل الشعر لعبة... لكنني لم استطع ان اصبح حتى شويعراً، بل شعروراً... (وقفة...) حاول ان تنام...

محمد: (بصوت خافت ومؤثر...) لم توقفت... ها، نمت... علمني يا عزيزي... شاركني لحظاتي الاخيرة... هذا النهار لعبت الصحراء معي مثل الكرة... ياه، اتعرف كم بئراً رأيت... رأيت اعرابياً وسيماً يشبه عمر الشريف، واعرابية جميلة... أطفالاً يلوحون لي بأيديهم، يركضون والهواء ينفخ دشداشاتهم. (وقفة) وانا اتلوى من العطش (وقفة...) ها ... نمت يا سعيد. الاطفال اقتربوا وقطروا ماء في فمي... الاعرابية غسلت وجهي... (وقفة) ها... نمت يا سعيد... تكلم مرة اخرى عن ماجلان يا سعيد ماجلان كان صلباً... هنا ارعب يا سعيد... البحر والصحراء كافران... لا أمان لهما... هل قلت ان بحارة ماجلان اكلوا جلود السفينة عندما جاعوا... بعد ان اتوا على جميع فئران السفينة... (وقفة)... يا صبر ايوب... لا شيء... ولا حتى نبتة صحراوية... حشرة صحراوية. (يرتفع صوته قليلاً... موسيقى حزينة... يستمر محمد في الكلام بنفس النبرة الحزينة المؤثرة. ينهض... يسير خطوات هنا و هناك... يسقط على ركبتيه...) بهية... أي زواج قصير هذا الذي عشناه... ستة اشهر... بهية اذا مت تزوجي ... (تظهر بهية على شكل طيف جميل) والنبي يا بهية أراكِ بوضوح... رغم آلامي اراكِ... تعالي... تعالي.

بهية: (بأسلوب عفوي وجميل، وبصوت رقيق) جئت يا محمد... من المطار رأساً... يا ألف اهلاً... أبداً... لا لا... فقط ماكنت اتوقع مجيئك... أوه، بمن كنت تريدني افكر... وهل لدي غيرك يا حبيبي... طبعا كنت قلقة... اسمعُ صوت طائرة افكر فيك.... (تطلق ضحكة حلوة...) الطيران الليلي. في غيابك قرأت بريد الجنوب(*) مرة

(*) بريد الجنوب رواية للكاتب الفرنسي اكزوبري.

أخرى. هل تحبني مثل جنيف... كيف ترى القاهرة من إرتفاع عال... مدينة ملونة... جوامع... عمارات... محمد، هل تغني وانت في السماء اغنية سيد درويش – ضيعت مستقبل حياتي في هواك، وازداد عليّ اللوم وكتر البغددة... (ينهض محمد ويجاهد ان يتماسك... يسقط مرات عديدة)

محمد: (بصوت حزين وحاقد) من جديد... حتى في الليل ايتها الصحراء الا يكفي عذاب النهار... كوابيس النهار... من الصباح وانا مع آبار كاذبة، واحات كاذبة، ونخيل لا وجود له... آه... مخي يغلي من العذاب... (وقفة) حتى انت يا اطيب واجمل حبيبة... بهية الا يكفي ظلم العطش، والجوع، والتعب وظلم هذه الصحراء...

بهية: (بصوت مثل الهمس) انت حائر يا حبيبي...

محمد: حائر!! انا من حقي... لكن انت الاخرى حائرة.

بهية: (تطلق ضحكة عذبة، وتغني هذا المقطع من اغنية سيد درويش وهو من مقام نوا اثر...) انت اللطف وليه احتار لأنها تشعر سيد الكل انا طوع امرك. (وقفة...) الله... اكمل البقية يا حبيبي... تتذكر في الاماسي انا اقول المقطع الاول، وانت...

محمد: (رغم تعبه الشديد، ولفرط اندماج في الجو الحلمي يكمل الشطر الآخر من الاغنية بصوت ميت ولكن واضح...) ماقولشي ان الوصل قريب (يمد يده لها) يا مليكي والامر لربك. (يسقط. ينهض وبخطوات مشلولة يهرول بأتجاه بهية التي تنسحب برفق من المسرح يسقط محمد ويتلوي ويصرخ بكل مل لديه من قوة.) حتى في الليل... حتى في الليل ايتها الصحراء تملكين هذا القدر من الغدر...

عماد: (ينهض مثل المذعور.) من ...آه... صراخ...

محمد: عماد... كل جسمي يحترق... ارهقت نفسي حتى الموت هذا اليوم.

عماد: انا الاخر كنت احلم كل شيء يحترق...

محمد: أين...

عماد: كنت في مكان غريب... كل واحد فيه كان حائراً... يوه، حيرة غريبة...

محمد: (بصوت خافت يردد مثل المحموم...) انت اللطف وليه احتار سيد الكل انا طوع امرك.

عماد: انت تعبان جداً...

محمد: محطم...

عماد: متى رجعت...

محمد: لا اعرف... هل انت حاقد علي يا عماد...

عماد: حاقد... أبداً...

محمد: أريد أن ارتاح قبل ان أموت... اريد أن اموت كعسكري شريف قام بواجبه باخلاص... (وقفة) بذمتك هل انا المسؤول عن هبوطنا هنا...

عماد: تكلمنا هذا الموضوع. لا احد مسؤول... (وقفة. يغير الموضوع) هل عثرت على شيء...؟

محمد: لا شيء... سراب... لا شيء سوى الرمل، والشمس.

عماد: تمدد... حاول ان تنام...

محمد: لو استطيع ان انام... رغم هذا التعب لا استطيع ان أغمض جفوني... يا صبر أيوب...

(يتلاشي ضوء القمر برفق... موسيقى صحراوية خفيفة. يسلط ضوء بلون الفجر، ثم برفق يتلاشي هذا الضوء ويظهر لون بلون شمس الظهيرة... هذه الأضواء هى إختصارات للزمن...)

محمد: (ينهض ويحاول ان يتماسك) وأنتهى نهار آخر... (يصرخ) سعيد، عماد... إنهضا... (بعصبية وحركات مضطربة) انهض يا عماد...

عماد: (ينهض وما ان يصير على قدميه يسقط...) أين... من جديد.

محمد: انهض وتكلم مثل عسكري في ساحة قتال...

عماد: اجلس يا محمد... انت مرهق...

محمد: قلت انهض... (مثل المحموم) رغم عدم وجود ذرة امل يجب ان تبحث... أذهب مسافة عشرة كليومترات الى جهة الشمال... وسعيد الى جهة الشرق نفس المسافة... بسرعة... انا خارج... (يخرج).

سعيد: (بصوت ذابل) هل سيعيد نفس الشيء... أين؟ اين يا محمد؟

عماد: لا اعرف.

سعيد: هذه المرة اشك في رجوعه... لا استطيع الاستمرار لساعات اخرى... (بصوت مثل البكاء...) انا انتهيت يا عماد... فقدت كل الماء في جسمي...

عماد: انا الاخر...

سعيد: (وحده يسمع صوت هدير ماكنة... ينهض بصعوبة) اتسمع واللّه صوت طائرة...

عماد: (بفرح) متأكد؟

سعيد: (هدير الماكنة يشبه صوت طائرة) والنبي صوت طائرة. انهض واستمع... (وقفة) اتسمع؟

عماد: ابداً...

سعيد: تعال عندي... إسمع... صوت واضح... والطائرة على مقربة... اسمع... اسمع... (صوت هدير الماكنة يشحنه بقوة وامل) ياما أنت كريم يارب... سمعت يا عماد...

عماد: (مثل الحائر) لا الصوت يخفت، ويشتد...

سعيد: زفير الصحراء...

عماد: والصحراء تتنفس...

سعيد: بنت كلبة تتنفس، تغضب... (بفرح) الصوت يقترب...

عماد: (مع انه لم يسمع الصوت، ومن فرط الفرح الذي يراه في وجه سعيد، وجراء اليأس الذي استبد به يصرخ هو الآخر) فعلا... فعلا...

سعيد: فرقة إنقاذ... وأخيرا... (يحتضن عماد) وأخيرا. مصر كلها الأن مشغولة بنا... أسمع... اسمع... الصوت يقترب.

عماد: إنني اتخليه...

سعيد: ألا تسمعه؟ يا صلاة النبي يا عماد... ألا تسمع... واضح... ياما انت كريم يارب. (يدور حول نفسه... يلوح بيده... يصرخ) هنا... نحن هنا... اسمعوا... آ آ آ آ...

عماد: سعيد! من اي اتجاه يأتي الصوت.

سعيد: من كل الجهات... من كل الجهات... (مثل الاهبل) نعم... اسمع بوضوح... نعم...

نحن البعثة العلمية التي جاءت لتنقب عن النفط... (تسمع أصوات انسان مختلطة لا معنى لها) نعم انا الصحفي سعيد مجدي... (يسمع صوت سقوط ماء) اللّه لماذا تسكبون الماء... اقتصدوا بالماء... اقتربوا... نحن نأتي... حالاً... حالاً... (الى عماد) يا صبر ايوب... انهض بسرعة.

عماد: ومحمد...

سعيد: وهل نترك محمدا... (صوت الماكنة يرتفع) تحرك الى فرقة الانقاذ، يارب... ولا حتى ظل بسمة في وجهك يا عماد... انا اضحك...

سعيد: تحرك... بسرعة. (بحركات مشلولة مهزوزة مضطربة يسيران خارج المسرح... موسيقى خفيفة وحزينة يخفت الضوء، ويحل المساء... يدخل محمد وقد فقد آخر سيطرة على نفسه...

محمد: اين ذهبا... (يصرخ) اين... اين... (يصاب بالجنون) كلاب... لماذا تركتما ساحة القتال... القتال مازال مستمراً... العسكرية إرادة، صلابة، قوة... العسكرية سهر وتحمل... العسكري الجيد اقوى من الصحراء... (يصرخ) تعال اكتب الى القيادة... اننا بخير ومعنوياتنا عالية جدا... نحن نتحدى الجوع و العطش ببسالة. (يسقط... يتلوى مثل المسموم، يعود فينهض، ويحاول ان يتماسك) لكن العطش في الصحراء عدو خطير... مراوغ مخيف... والشمس لها قوة اسكندر المقدوني، ويوليوس قيصر، وروميل ورونشتايد جميعا... عندما تحرق... آه، تحارب بقوة هؤلاء القادة... (يسقط... برفق ينهض ويتماسك) قطرة واحدة من الماء لكل جندي... بوسعي أن أدير المعركة من جديد... (يسقط... يعود فينهض...) يكلم نفسه بقسوة...) على قدميك حتى اللحظات الاخيرة... مت كعسكري بطل... تحدى هذه الصحراء الكلبة... (يخرج مسدسه... يترنح... يدور حول نفسه...) يجب ان اقتلك ايتها الكلبة... أي عيب ان ينتصر علينا الرمل... يفرغ طلقات مسدسه في الرمل... يسقط، ويتلوى، وبرفق يموت... صمت طويل... يُسمع صوت بهية الرخيم وهي تغني

انت اللطيف وليه احتار سيد الكل انا طوع امرك ما قولشي ان الوصل قريب يا مليكي والامر لربك... (بعد الغناء يستمر الصمت... برفق يدخل عماد بخطوات ميتة، هو الآخر على وشك الجنون...)

عماد: ابهذه البساطة وانت الصحفي تصدق سراب الصحراء. (يرى محمد...) آه... محمد... تعبان المسكين... (يصرخ.) ساعات وانت تهرول للوصول الى فرقة انقاذ... اي فرقة انقاذ... اين كنت تأخذني... رمل... اصوات... وهم وهم... كلب... هرولنا لالاف الامتار... ركض فوق الرمل... هن هن هن هن. (يسقط بجانب محمد) تعبان. ايه، يا محمد بذلت جهودا كبيرة... عسكري صلب...؟ انا... انا الذي قال اهبط... (ينهض ومثل السكران يدور حول نفسه) انا... سعيد... سعيد... انني الان أبني في داخلي إمبراطورية الإرادة... هش هش هش هش... هل الجملة صحيحة. (يصرخ بقوة اكثر) ايها الاخوة في الساعات الصعبة والمخيفة فقط يكون العالم عالماً حقيقياً... هش هش هش. وداعاً يا بابا... وداعاً يا ماما... هش هش هش... احبك يا فوزية. غصب عني يا فوزية ... وداعاً... وداعاً... (يسقط... يتلوى... يعود فينهض) يا ستاذ هذا كلام غير منطقي... مستحيل.

عماد: انا عندي دكتوراه في اختصاصي... واعرف كيف اسمي الاشياء... يصرخ) اتعرف ما معنى GEOPHYSICAL ANOMALY

(يردد عماد المصطلحات باللغة الانكليزية ثم يعود فيردد معناها باللغة العربية أيضاً)

آه... معناه شذوذ فيزيائي... طبعا لان الشذوذ لا يوجد في الانسان فقط... طبعا في الفيزياء أيضا... (وقفة... ضحكة هستيرية) انت غلطان... انا عندي دكتوراه واعرف الصحراء العاهرة... في الصحراء لا توجد GEOSTURES... ابداً... لا توجد دروز الأرض... صحراء مخيفة لا متناهية، جسد ممتد... هش هش هش هش... انتباه... انا احاضر في GRAVITATIONAL SEGRWGATION نعم في الفصل الجذبي، نعم فصل النفط و الغاز في مستودع صخري... (يصرخ) مستودع صخري... سكوت... صمت... (وقفة...) اين كنت تهرول بي يا سعيد... عطش... (يترنح... يرى مسدس محمد، يلتقطه، يسقط، يعود فينهض بصعوبة... يدخل سعيد... هو الاخر على وشك الجنون) يا سعيد يا كلب اين... اين... اين... (يصرخ) اين كنت تهرول بي... وراء سراب... آه... انا احترق... اقتلك... فرقة انقاذ... اين... اقتلك بابا... فوزية... هش هش هش... فرقة انقاذ... اقتلك...

سعيد: (لا يعي الا كلمات قليلة لهلوسة عماد) – تقتلني!؟ وهل الصحفي يخاف من

الرصاص... انا سلطة... (يصرخ) انا قوة... انا قلم... وهل يخاف القلم الرصاص...

عماد: (يزفر مثل المطعمون) الرصاصة لا تعرف الرحمة... الرصاصة صحراء... الرصاصة سحلية تهرب هنا وهناك... الرصاصة تعمل GEOLOGICAL SURVEYING مسح جيولوجي في الجسد... هش هش هش... (تذبل ضحكته)

عماد: سعيد... وداعا يا سعيد... (يسقط... يتلوى ويموت بهدوء)

سعيد: اضرب... اطلق... انا خايف من الرصاص... هش هش هش هش... (يصرخ) يا سلام الحيطة بتتكلم (*)يا عماد يا جيولوجي يا عاقل... ما فائدة الانسان الذي ليس لديه ما يخسر... انا قلم... هش هش هش هش... وهل يخاف من جاء الى هذه الصحراء البنت الف كلبة ليبحث عن المأمون الأسود من اجل سعادة الامة، يخاف من الرصاص... يا سلام سلم الحيطة بتتكلم... هش هش هش هش... انا لم اخف من هذه الصحراء التي هي مثل زيوس... صحراء ألف راس مثل ألف أفعى... لا لا لا لا... يا سلام سلم الحيطة بتتكلم، (يسقط مثل ملاكم اصيب بضربة عنيفة... ينهض مثل السكران... يزفر...) ماء... قطرة ماء... (يردد بألقاء حزين قصيدة ديلان توماس)

رغم انهم يصابون بالجنون ويصبحون
امواتاً كالمسامير سترتفع الرؤوس بين أزهار
الأقحوان تتكسر في الشمس الى ان تتكسر
الشمس ولن تكون للموت سيطرة...

(ما ان يلفظ الكلمات الاخيرة يسقط... بصوتٍ مخنوق) لا اريد ان اموت وحيداً ومجهولاً... (يموت...)

ستار

(*) مسرحية للكاتب المصري المعروف سعدالدين وهبه.

هي حرب طروادة أخرى(*)

مسرحية في فصل واحد

ممر طويل شبه مظلم من تلك الممرات الموجودة في السجون الكبيرة... ثمة فوانيس ذات أضواء خافتة متناثرة على طرفي الممر...من بعيد تسمع ضربات أحذية عسكرية منسقة... بعد قليل هدير مكائن زوارق بخارية، وأصوات نساء، وبكاء أطفال... تقترب ضربات الأحذية، ويظهر عدد من الجنود المسلحين... ملابسهم العسكرية هي مزيج من الملابس العسكرية اليونانية، والامريكية، والنازية الالمانية... يسيرون بحركات جامدة على لحن عسكري... بعد قليل تسمع ضربات أرجل حافية، وعويل أطفال، وأصوات نساء تختلط بهدير مكائن الزوارق الذي يخف بالتدريج... تنقطع الموسيقى العسكرية، وتنبعث موسيقى توديعية خافتة... وبأقتراب النساء اللواتي تحمل البعض منهن أطفالاً صغاراً، يقترب عدد من السجناء المرهقين...

ملاحظة:

خارج المسرح، وعلى الجهة اليمني مباشرةً شاشة اكبر من شاشة التلفزيون بثلاث مرات، تعمل عند الضرورة لنقل أحداث وثائقية. يقف السجناء، والسجينات في صف واحد ينشدون كورس غير مرئي...

الكورس: لتشعروا أبداً بضربات الموت يا من تتحرقرن للحرية، والمساواة والعدل... انفخوا زفراتكم في الجزر التي تذهبون اليها لتزدهر أشجار الزيتون بدلاً من الأشنات والطحالب... ان يوناننا العزيزة ستخضر من جديد... (ينتهي النشيد... يتقدم ضابط متجهم الوجه يحمل مجموعة أوراق في يده اليمنى) ويعطي توجيهات سريعة باليسرى...

الضابط الاول: (بعبوس الى زميله) انتقل الى الطرف الآخر... (يصرخ على جندي)

* نشرت في مجلة الآداب العدد ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٧٢ قدمت على مسرح معهد الفنون الجميلة سنة ١٩٧٧

تعال لصقي... اعتقد ان الزوارق جاهزة. اليس كذلك؟

الضابط الثاني: على أتم الأستعداد... (يسمع هدير خفيف للمكائن) حسن... (يكثف الضوء على المساجين وهم في حالة مزرية... يرسل الجميع نظرات حاقدة بجميع الأتجاهات... بصوت عال) سجناء جزيرة (ليروس)*^ الى الأمام سِّر.... (يتقدم عدد من السجناء بخطوات قصيرة، وبعد ان يلقوا نظرات حادة الى جميع الجهات، يسيرون خارج المسرح) سِّر بهم الى الزورق رقم ٣ (تستمر الموسيقى التوديعية الخافتة) سجناء جزيرة (جيورجس) الى الأمام سر... (تتقدم مجموعة اخرى. يخاطب الضابط زميله) اعتقد بهذا العدد يكون السجناء في جزيرة جيورجس*^ ١٢٤٨ . اليس كذلك؟

الضابط الاول: نعم... بالضبط. (الى السجناء بجفاف) الى الزورق رقم ٥ سر... (يخرجون.)

الضابط الثاني: سجينات جزيرة هاليكارناسوس(*) الى الأمام سر... (تتقدم مجموعة من النساء من مختلف الأعمار بينهن من تحمل أطفالاً في سن الرضاعة) الى الزورق رقم ٧ سر... (يخرجون بخطوات بطيئة) يبقى الضابط الأول لوحده، وتسمع أصوات السجناء، والسجينات، وبكاء الاطفال... يعطي الضابط ظهره للجمهور، ويسير بخطوات هي مزيج العسكرية المصطنعة، والتراخي... وسط الممر، وفي الظلام الخافت يتحول الى شكل شبح.... تموت أضواء الفوانيس الواحد تلو الآخر، وعندما يغمر الظلام المسرح، بعد لحظات فوق الشاشة خارج المسرح يظهر الموسيقار العالمي ميكس ثيودراكس يخطب في جمهورٍ غفير...

ثيودراكس: (بغضب) لم اجيء الى باريس لأبحث عن مصير جديد لحياتي، وانما لأولئك الذين دفنوهم أحياء في جزرنا السعيدة... ان السل الذي نخر في جسدي ايتها السيدات والسادة، هو سل هذا الجزء من اوروبا الذي اعطانا كلنا مكانة رفيعة في الحضارة البشرية... انني لا اشفق على يوناني العزيزة

(*) ليروس، جيورجس، هاليكارناسوس اسماء جزر في اليونان... هذه المسرحية كتبت بعد الانقلاب الذي قام به العقداء السود في اليونان عام ١٩٦٧ .

والحزينة لأنها مصابة بمرض العقداء السود، بل علينا كلنا لأننا لم نعمل المطلوب من أجل علاجها... (يتوقف عن الكلام) أصوات فتيات مراهقات... وقع لي هنا أيها العزيز ثيودراكس... (صحفي يسأل) ماهي مشاريعك الموسيقية الجديدة يا سيد ثيودراكيس... (مراهقون يلوحون بالأوراق، يرددون أنغام متقطعة من زوربا... ويصرخون... وقع لنا هنا، (لقطة مكبرة لوجه ثيودراكيس وهو في منتهى الحزن...) يكلم نفسه.

ثيودراكيس: لا أحد يسأل عن السجناء... مصير السجناء... وكأنني طوال هذه المدة كنت أخطُ للأشباح... ظلام في الشاشة، وعلى المسرح. بعد قليل تنبعث موسيقى زوربا كما لو تأتي من بعيد، ويسلط ضوء على شاب وسيم يرقص على أنغام الموسيقى، وأصوات تردد... رائع يا اليناس... هيا يا اليناس... يتوسع الضوء برفق فنرى ثلاثة مساجين في غرفة عارية إلا من ثلاثة فرش... وثمة نافذة عالية في الجدار المواجه للجمهور...

هرموديوس: (شاب في الثلاثين) آه، يا اليناس ما كنت اعرف البتة إنك تجيد الرقص على هذا النحو الرائع (يهز رأسه إعجاباً، ويُصفق بحماس) ترقص وكأن لا عظم في جسدك... برافو... برافو...

هيپارخوس: (رجل في حوالي الستين ... هادىء) أذكر انني قرأت ذات مرة أن جميع الأسرى الذين عادوا من معسكر إعتقال (داخاو) الألماني المرعب بعد الحرب الأخيرة تعلموا فقط حفر الخنادق، ونقل أكياس التراب، والرمل... (يبتسم) الأنذال حولوهم كما تقول الكلمة الأنكليزية الى – كولي – (وقفة) أما اليناس من يدري، لو لم يصب بسوء فيتحول بمرور الأيام الى نجنسكي(*) (يضحك الجميع)

هيپارخوس: أما هيپاس فلو عثر على الألوان التي يحتاجها لنافس غويا.

هيپاس: (شاب في الخامسة والعشرين) أشكرك يا صديقنا العزيز... (هيپاس واقف أمام الجدار المواجه للجمهور ومنهمك في العمل والحفر بأظافرهِ... دون أن يلتفت الى أصدقائه) اوه، مع ذلك سأستمر في التمرين... بأظافري سأرسم... ايه، مع

(*) هو راقص الباليه الروسي الشهير.

أنني احتاج الى عالم مملوء لكي أُبدع، لكنني لن اكف. وأحاول... سأريكم لوحتي... إن جدار السجن الرطب هذا يصلح للعمل عليه...

هيپارخوس: (بسخرية لطيفة) لكن متى سيزيح مايكل أنجليوا الستار عن لوحتهِ...

هيپاس: (يضع قطعة قماش في المربع الذي يعمل عليه. ويتقدم من هيپارخوس) عزيزي هيپارخوس لا تنسى انني أرسم بأظافري... وسعيد لأن رطوبة الجدار تساعدني... انظر الى اظافري! طياتها مملوءة بالجص... لو فقط تعرف كم تؤلمني... (بحركات ساخرة) ان العبقرية تمرين، ثم تمرين... ها ها ها...

اليناس: (وهو يربت على كتف هيپارخوس العجوز برفق) عزيزنا هيپارخوس... لكم لا يليق بك الحزن... بماذا تفكر؟ حتماً بالتاريخ، وبالميثولوجيا... اليس كذلك؟ (وقفة) إنك عندما تخلد الى الصمت فجأةً، أعرف أنك لا تفكر سوى بالتاريخ... (بلهجة حزينة) وأي شيء غير التاريخ يشغلك.

هيپارخوس: اوه، اليناس... هل ثمة جهاز في العالم يستطيع أن يقيس، أو يقدر عدد الأفكار التي تفور في الرأس في الدقيقة الواحدة؟ إن الأفكار تموج في رؤوسنا يا عزيزي اليناس ونحن الآن في أعماق (اوا الليثة) (*)نعاقب لأن ذنوبنا لا حدَّ لها بالنسبة لمفاهيم تلك الأفاعي السوداء. لا... لن يستطيع اوا الليثة ان يُنسينا اي شيء... (وقفة) كنت أفكر في رقصتك... صدقني أثارتني، وجعلتني أنتشي حتى الأعماق... (وقفة) إنهم يتصورون أن مياه اوا الليثة تجعلنا ان ننسى كل شيء... لكن الغضب يا اليناس يصفعنا بأستمرار، ويكسبنا القوة على الحقد... (بصوت اعلى) صدقني ليس نحن، انما هم في أعماق اوا الليثة... او ليس الفرح هو الذي يدفعك وفي هذه الجزيرة النائية الى الرقص... وهيپاس يرسم باظافرهِ، وأنا أحلم بالتاريخ، ومساره الحلزوني... (بحزن عميق) إن دم الفكر البشري يجري في مخ العالم كله، شرارته كانت من أرض اليونان الحبيبة، والمصلوبة هذه الأيام على صليب العسكرية، والفاشية...

(*) اوا الليثة: احد أنهار الجحيم الذي تشرب منه أرواح الموتى بعد أن تظل محبوسة في الترتاروس احد مناطق الجحيم التي يعاقب فيها أشد الناس إتياناً للذنوب ولمياههِ القدرة على أن تجعلهم ينسون أي شيء فعلوه أو رأوه.

(يلاحظ الياس وإنفعال هيپارخوس، يغمز لكل من هيپاس، وهرموديوس، أن يجب ان نغير الجو...)

الياس: (بحركات طفولية) أعتقد حان وقت التفرج من النافذة اليس كذلك؟

هيپاس: بفرح يصفق (اوه... فعلا... حسنا فعلت وذكرتنا يا الياس... الى العمل... دورُ مَنْ اليوم؟

الياس: دوري...

هيپارخوس: أرجو يا عزيزي الياس أن تصف لنا أشياء جميلة... (لنفسهِ بصوت حزين ومأثر) يا لجزرنا الجميلة، والحبلى بالخضرة الأبدية. (يبرك هرموديوس، ويقفز هيپاس فوق ظهره، ثم بشيء من الصعوبة يتسلقهما الياس حتى يصير بمستوى النافذة)

الياس: (بصوت خافت، وهو يتأرجح فوق ظهر هيپاس) لا تتحركا... الهي، لست بهلوان سيرك... إثبتا... آ آ آ... صحيح إنني راقص لكن ليس بهلوان سيرك... هرموديوس لا تتحرك يا عزيزي.

هرموديوس: (بصوت مخنوق) يا عزيزي... إبدأ... ماذا ترى؟

الياس: نهارٌ جميل وكأنه مرآة... كل شيء يشع (وقفة) للمناسبة هل نحن في شهر نيسان؟

هيپارخوس: غير مهم... نسينا الأشهر... إبدأ... ماذا ترى...

الياس: الأشجار ساكنة... الأوراق تلمع... آه... أرى قارباً صغيراً بلون الحليب...

هيپاس: فيه عشاق؟

الياس: كلا... (بسخرية) يبدو انه رياضي بطران يتمرن

هرموديوس: ربما لدورة ميونخ. (يحاول ان يطلق قهقهة) نعم دورة ميونخ...

هيپاس: لا تضحك... إنك تخرب توازني... (الى الياس) إبدأ... اوه... تكلم عن أشياء جميلة... أيها الملعون... أشياء جميلة...

الياس: أرى خفراء سواحل في زورق من النوع الذي نقلنا الى هنا...

هرموديوس: عليك اللعنة... أخي، الا ترى أشياء جميلة...

الياس: إنهم يبتعدون... الزورق يسير بسرعة...

هرموديوس: عيع... عوعو... (يبصق) الياس ايها اللعين، الاترى طيوراً ملونة، وزهوراً...

الياس: اوه... نفس الكلاب مرةً أخرى...

هيپاس: من !؟

الياس: لاعبو الغولف...

هرموديوس: قلت ألا ترى طيوراً... مثلاً.

الياس: آه... ها ها ها... الآن يا هرموديوس مرت أسراب من الطيور الجميلة... آه... كم حرةٌ هذه الطيور... ايه كل السماء لها...

هرموديوس: قلت سنونوات؟

الياس: آه، ما اسرع طيرانها إنها تطير مثل السهام الطائشة

هرموديوس: (يطلق ضحكة قوية) إنه الربيع إذن... إنه الربيع اذن.

هيپاس: وهل السنونو يصنع الربيع؟

هرموديوس: لست أدري... ربما العكس... غير مهم... انه الربيع بالتأكيد... إستمر يا الياس... ماذا ترى...

الياس: إلهي، لاعب الغولف كم بلا مُبالاة ينظرون الى جمال الجزيرة... الى الأشجار... الى الطيور... الى السنونوات...

هيپارخوس: هكذا البرجوازية، تجعل أجمل الأشياء، وأعذبها قضية إعتيادية، باردة...

هيپاس: إستمر يا الياس... تكلم عن الألوان...

الياس: لا أستطيع...

هيپاس: إنزل إذن...

الياس: لماذا؟

هيپاس: لا جديد عندك... إنزل وأرقص لنا قليلاً... (ينزل الياس، ويتمطى ثم يبدأ بالرقص على لحن زوربا يردد هرموديوس بفمه... يغمر هيپارخوس: العجوز نشوةً، وفرح عميقين، يُصفق، ويُردد بحماس رائع... رائع...)

الياس: هيپارخوس... هل حقاً أرقص بشكل رائع...

هيپارخوس: أكثر من رائع...

اليناس: (بفرح طفولي) أتعرف إنني قبل إعتقالي بمدة كنت وأختي تانيا نتدرب على رقصة أطلقنا عليها أسم (بوليفيا تستيقظ) (وقفة) إن أختي تانيا راقصةٌ ماهرة... (مؤكداً) صدقني كنا على وشك القبول في فرقة باليه أثينا...

هيپارخوس: (بعد تفكير) لماذا بوليفيا تستيقظ؟.

اليناس: فكرنا ان نقدمها هديةً رمزية لمرور عام على إستشهاد غيفارا... (وقفة) الشيء الوحيد الذي كان يفسد علينا الفكرة هو غياب الموسيقى الملائمة... (بإنفعال) آه... تانيا العزيزة... أتعرف! كانت لفرط حماسها للفكرة، شجعتني أن أقدمها بطريقة (بانتو ميمية) سأرقصها لكم ذات يوم... (الى هيپاس) حبذا لو رأيتها مرة واحدة يا هيپاس، لا شك كنت سترسمها من مخيلتك... (لنفسه بصوت حزين) الفن ربما هو أكثر الأشياء قوة في الحياة. الفن وحده يجل الأنسان ان يكون مستحقا (وقفة. بصوت راعش) ترى اين انت الآن يا تانيا العزيزة؟ ان حدسي يؤكد لي بأنها معتقلة في معسكر هاليكارناسوس... (وقفة) يا لتلك الجزيرة البعيدة... البعيدة.

هرموديوس: (لنفسه) هاليكارناسوس... (بحزن) إن جزرنا الجميلة إما تحولت الى مُعسكرات للإعتقال او بيعت لأوناسيس.(*) العجوز، وأثرياء العالم، وكأنها مواش...

هيپاس: (هو الآخر بلهجة حزينة) اوه، ايتها الجزر المكسوة بالخضرة الأبدية، وباشجار الزيتون الخالدة... لا... لا لا... لن تكوني ملاجيء للموت للطيبين من الناس... (يلقي نظره الى النافذة) ساعدوني لألقي نظرة من النافذة... يا لعطشي حتى لستنقعاتها... ان لجزرنا الحاناً غامضة...

اليناس: جزرنا حزينة يا هيپاس...

هيپاس: لكنها تبقى جميلة رغم أيام الحداد والأحزان هذه...

اليناس: (يحاول أن يخفف من إنفعال هيپاس) تأكد يا هيپاس أن الأيدي المجربة لن

* هو المليونير اليوناني

تستطيع أن تنال من بهاء تلك الجزر...

هيپاس: (كأنه احس أن اليناس يواسيه) ستبقي جميلة مثل تانيا...

اليناس: أجل... جميلة مثل جزيرة هاليكارناسوس... تانيا فتاة تمتلك روحاً صلبة...

هيپاس: يعجبني فيك صدقك يا اليناس... حتى تانيا هي الأخرى مثلك. (وقفة) كلما تكلمت عنها خزنتُ بمخيلة رسام تقاطيع وجهها في ذهني...

اليناس: لها قابلية على تجسيد أدق الحركات في الرقص... (وقفة) لا أعرف من أين تستلهم كل تلك الأفكار الجميلة والشاعرية، وتصوغها بحركات موسوقة مثيرة.

(يروح في تأمل عميق... يتقلص الضوء، ويغمر النصف الأيمن من الغرفة ضوء أزرق، وبرفق تدخل تانيا في جو حلمي، وبحركات رفيقة تؤدي رقصة... اليناس يستمر في الكلام وبصوت خافت) تصور عندما أردنا أن نصور السير في الأدغال على إيقاعات الرقص كانت تسير بخطوات غريبة، وتتلوى، تنحني مثلما يفعل في الأدغال... وتستمر تانيا في الرقص ثم تخرج بهدوء...

هرموديوس: من يدري كم كانت تحب ذاك القديس الأرجنتيني... الذي اشعل فتيلة الشرف هناك بين الأدغال... (يعود الضوء الى الغرفة...)

اليناس: كم أخاف من ضياع مواهبها... إذا خرجنا من هذا الأتون، سنعمل معاً الكثير على مسارح العالم... صدقني بوسع تانيا أن تصوغ من أبسط المواضيع رقصات جميلة... (الى هيپارخوس) لا أعرف كيف أفسر مواهبها...

هيپارخوس: (يضحك...) اليناس، إسمع، عندنا في اليونان ثمة نساء حسنات مازلن يتصورون ان بوسع الأنسان ان يذهب الى مغارة ابولون(*)ليستمد منها الوحي... إن تانيا ببساطة تستوحي أفكارها من المدينة، من الميثولوجيا، من بوليفيا... من العالم... الواسع... ومن يونانا المبقورة بالفواجع، ومن ينابيع حياتنا المسمومة... (بتألم) إن مجتمعنا اليوناني الآن يا اليناس، كله مشيد على أسس موبوءة وفاسدة...

(*) مغارة ابولون: في دلف يحتوي على مغارة كانت تنبت فيها ابخرة كبريتية منها كانت بيشيا كاهنة ابولون في دلف تستمد وحيها. فقد كانت تجلس على كرسي ذي ثلاث ارجل ثقب منه يأتي بخار تستنشقه الكاهنة فيصيبها الوحي.

(إظلام... فوق الشاشة... عدد من صباغي الأحذية وشحاذين يهرولون خلف السياح في أكروپوليس... السياح يلتقطون صوراً لفلاحات يرفلن بملابسهن القومية يبعن حاجيات مصنوعة من الخشب... أعمى يعزف لحناً لتيودراكس... صوت ساخر لهيپي.

صوت الهيپي: اين البانثيون... لا أرى إلا أحجاراً ضخمة... هنا كان يتفلسف أفلاطون... هش هش هش.

صوت سائحة مراهقة: آه... ربما هذا هو معبد ابولون...

صوت سائح عجوز: هل يعقل أن سقراط كان يدرس هنا... (فوق الشاشة لقطة كبيرة لهيپي طويل يصور عدداً من العمال يعملون في ترميم جوانب من الآثار. الهيپي يردد... الا يذكروننا بعبيد أفرط افلاطون في سبهم وشتمهم... لقطة لسائح يقبل فتاة بين أسمدة الأكروپوليس. وبين كل قبلة وأخرى يردد... تذكري ياروز ماري إنني عضضت على شفتيك في البانتيون.(*) صوت قبلات... لقطة لراعٍ يوناني دوبلس قائد الأنقلاب يتكلم مكشراً عن أسنانه، وملوحاً بقبضتهِ... تتوقف الحركة فوق الشاشة، ويعود الضوء الى الغرفة).

هيپارخوس: أجل يا اليناس... أن مجتمعنا كلهُ مُشيد على أُسس موبوءة وفاسدة... (هيپاس يذرع الغرفة مردداً لحناً جميلاً بفمه... يستمع الجميع الى اللحن بإندماج... يتوقف)

هيپاس: آه... آه من الوحي... إنه لحن والدتي المفضل... ترددهُ بإستمرار في المطبخ، في الغرفة، أثناء الكنس، والغسل، (وقفة) بل حتى عندما كانت تعانق والدي كانت تردده بهوس أكبر...

هرموديوس: وهل مازالت ترددهُ؟

هيپاس: توقفت عن ترديده بعد موت والدي بحوالي سنة، ثم عادت اليه... (هازاً رأسه) عندما عادت اليه صارت تردده من خلال دموعها... (وقفة) وكنت أشاركها في ترديد اللحن... (يتنهد) ثمة أحزان تتعلق بالأفكار، وتزداد إغراء كلما ابتعدت وحتى الزمن كثيراً ما يكون عاجزاً عن تمزيق أشباح تلك الأحزان...

(*) البانتيون: معبد جميع الآلهة.

هيپارخوس: (يطلق تأوهاً حارا) هيپاس أعد اللحن... ارجوك...

هيپاس: حاضر... (يعيد اللحن...)

هيپارخوس: تكاد تكون الموسيقى القوة الأكثر إمكانية في عالم الفنون لتطهير القلب والروح... (كمن يحلم) إعزف... إعزف... (بانفعال) إعزف يا اريون وطهر القلب والروح من كل الأدران... إعزف لنتحمل هموم جبالنا وثلوجنا... (وقفة) أتعرفون من هو اوريون؟؟ (الجميع معاً– كلا...) بل تعرفون... (كما لو يتخيل شيئاً بعيداً...) انه ذاك الشاعر والعازف الشهير... إسمعوا ذات مرة كان أريون يعود الى بلادهِ عبر البحر... وفجأةً فكر البحارة أن يقتلوا شخصاً كان اريون يحبه...(وقفة... موسيقى حزينة) فطلب من البحارة أن يسمحوا له بعزف لحن جميل... أتعرفون ماذا حدث؟ هجم جيشُ من الدلافين جذبته الى السفينة عذوبة اللحن... (يتحدث بمتعة) وتطوع دلفين كبير وحمله الى البر سالماً (صمت قصير...) اعزف... اعزف... من يدري متى، لكن بالتأكيد سيتوجه جيش من الدلافين مثل الطوربيدات الى جزيرتنا، وكل الجزر وتحملنا على أكتافها الى حيث الفردوس.

هيپاس: (بمزح) إستمعوا الى اوريون إذن... (بهمس، مازحاً) لكنني أخشى أن يأتي ذاك العسكري الجلف بدلاً من الدلفين. (يضحكون... يردد لحناً آخر باندماج) تصوروا رغم رائحة البراز القوية في الغرفة، ذكرني هذا اللحن برائحة البيت الأبدية النكهة... إمتلأ رأسي برائحة الخبز، والغسيل، وتلك الرائحة النادرة لوالدتي.

هيپاس: (لنفسه بغضب) أيتها الرائحة الشهية تهبين حتى من قلب هذه الرطوبة والبراز...

هيپارخوس: ثمة أشياء رغم بساطتها تثير تشنجاً قاتلاً.

(يخلد الجميع الى الصمت... يتقلص الضوء خارج النافذة ويظهر لون إرجواني...)

اليناس: (لمجرد ان يبدأ حوار) تأخروا في جلب العشاء...

هيپارخوس: (بمزح) رائحة الخبز، ورائحة الغسيل، وروائح اخرى ذكرتنا بالعشاء...

هيپاس: مرة أخرى قليلاً من الخضار المسلوق، والبرغل، والخبز، والبطاطا... إن

وجباتنا في هذا المكان يذكرني بسخرية برنادشو عندما سألوه عن خيرات أيرلندة...

اليناس: ماذا قال.

هيپاس: قال في أيرلندة نزرع البطاطا والقحط... (الجميع يروحون في ضحك عميق) آه... خضار مسلوق...

(يغيب اللون الأرجواني من النافذة...)

هيپارخوس: (يكلم نفسه) وإنتهى يومٌ آخر... انه الليل مرة اخرى... في الليل، وفي الصمت، ثمة أصوات، وهمسات غريبة، ولذيذة تغرينا بالأحساس والتفكير بأننا فعلا أحببنا ذات مرة، وعانينا، وناضلنا، وتأملنا...

هرموديوس: هيپارخوس، صدقني إنني أحيانا أتمنى ألا أسمع الآن... عذبني أيها الأب هيپارخوس... هذه الكلمات تشبه الشعر.

هيپارخوس: من يستطيع أن ينسى كل ذاك الحب... ويلسعنا الآن حب آخر... إن الأفاعي المتربعة على أثداء يوناننا الحبيبة ترسل لنا الموت في الجزر على شكل حيوان له رؤوس...

هرموديوس: لمن هذا الشعر؟

هيپارخوس: هذا ليس شعراً يا عزيزي هرموديوس...

هرموديوس: وقعه مثل الشعر...

هيپارخوس: (بحزن) الأنسان عندما يحزن ينطلق الشعر من فمه من حيث لا يدري... هكذا نحن أيها الأعزاء كلما أردنا أن ننسى أحزاننا صارت بسعة السماء... (وقفة...) منذ متى وهم يسقوننا مياه – الأشيرون(*) ويضخون لنا رائحة البراز الخانقة؟ (وقفة) وحتى ضوء الشمس يقدمونه لنا بالبوصات... وهذه الرطوبة التي تقلص الرئة وتجعلها بحجم الدراخمة(**) (يؤشر الى أرض الغرفة) أنظروا الى زوايا الغرفة؟ من كان يتصور أن الطحالب تنمو حتى على الأسمنت...

(*) الأشيرون: نهر في تسبروتيا في البيرس. ونظراً الى شكل مياهه الميت، سماه هوميروس أحد أنهار الجحيم...

(**) عملة يونانية

هيپاس: (بمزح) يبدو إنني لست وحدي الذي يتكلم بلغة تشنجية، وحزينة.

هرموديوس: دع هذا المستودع للتاريخ يتكلم لنا...

هيپاس: آسف... لم أقصد شيئاً...

هيپارخوس: لا بأس يا هيپاس... السجن يحب لغة المزح كثيرا... معذرةً لإنفعالي الشديد...ان القوانين (الداركونية)(*) التي تطبق بحقنا الآن، تجعل آبار الحقد الداخلي أن تفور... والفم يتلهب بالنيران... صدقوني ليس ثمة أصعب من الأكتواء بحب الوطن، وبشرط ألا تنتظر من الوطن حتى ما اصاب (ترازيبيلوس)(**)

هرموديوس: يا لعظمة أبطال تأريخنا... آه... ويا لتأريخنا...

هيپارخوس: اجل... يا لتأريخنا... يا لفكرنا الذي خلق جميع الآلهات الأرضية والسماوية... (وقفة... بألم) من أجل أن ترجع يوناننا نقيةً عذراء، لا تريد حتى غصني ترازيبيليوس... (فجأةً تسمع إطلاقات نارية سريعة ثلاث مرات... صمتٌ شديد... يسمع بهدوء نشيد الكورس)

نشيد الكورس: لتشعروا أبداً بضربة الموت يا من تتحرقون للحرية والمساواة والعدل... أنفخوا زفراتكم في الجزر التي تذهبون اليها لتزدهر أشجار الزيتون بدلاً من الأشنات والطحالب. إن يوناننا العزيزة ستخضر من جديد... من جديد.

(بانتهاء الكورس من الأنشاد، تأتي موجة اخرى من الاطلاقات. وعلى الشاشة تظهر لوحة الحرب الأهلية للفنان الأسباني غويا... تبقى اللوحة معروضة على الشاشة، وفي الظلام يدور الحوار التالي:

هيپاس: لقد علقوا لوحة غويا ثانية في غرفة ما...

اليناس: مابك يا هيپاس...

هيپاس: عادوا للغة الرصاص مرة اخرى... علقوا لوحة غويا...

(*) القوانين الدراكونية: نسبة الى داركون، المشرع الأثيني المشهور الذي وضع تشريعاً حوالي سنة ٦٣٣ ق.م اشتهر بشدة القسوة، حتى يقال إنه كان مكتوباً بالدم...

(**) ترازيبيلوس: قائد أثيني مشهور حاول طرد الطغاة، ونجح سنة ٤٠١ ق.م وكان معه ثلاثون من أصدقائه... وكان جزاؤه عن هذا العمل الوطني تاجاً مصنوعاً من غصنين من الزيتون.

هرموديوس: غويا...

هيپاس: صدور عارية... وبنادق... غ... و... يا...

هيپارخوس: (بحزن، كما لو يلقي قصيدة) كل يوم تقريباً يقصون احلاماً جميلة بمقص من الرصاص المصهور... لكن هل تستطيع الرياح، والأمواج ان تعيق أماني ملاحين عشاق يبحثون عن يونان بعيدة عن الموت... ان الثورة مثل هيكانا(*) هي فقط آلهة السحر والفتنة... ولهذا تقدم اليها القرابين، والحملان والعسل في العالم...

هيپارخوس: (بتهيج) نخب لوحة غويا، ونخب من سقطوا في تلك الغرفة البعيدة... (يعود الضوء الى الغرفة مع طَرقات قوية).

هرموديوس: العشاء... (يفتح الباب، يدخل عسكري.)

العسكري: السجين الِيناس، والسجين هيپارخوس. إنهضا... (ينهضان بتثاقل يعود الظلام الى المسرح. فوق الشاشة يظهر عدد من العسكريين في ملابس عسكرية هي مزيج من الملابس النازية الألمانية، وملابس ذوي القبعات الخضر... يقرأ أحدهم بصوت ببغائي.

العسكري: ولقناعة المحكمة... وربما ان المحكمة مقتنعة... هي المحكمة... محكمة القناعة... قناعات حدية... حدية القناعة وثبوت الأدلة... والأدلة الثابتة، وثابتة هي الأدلة بحق كل من الِيناس، وهيپارخوس، لقيامها بأعمال تخريبية بقصد إسقاط الحكومة، قررت المحكمة إصدار حكم الموت عليهما رمياً بالرصاص... تنقطع الحركة فوق الشاشة، ويعود الضوء الى المسرح.

العسكري: (وهو يخرج) إنتظر كما...

هيپارخوس: (يلقي نظرة وداع جريحة الى كل من هيپاس، و هرموديوس) لا تودعني ووجهك ممتقع يا هيپاس... (بتماسك) وانت يا هرموديوس، أعرف إنك لا تستطيع أن تمنع دموعك... ما كنا نريد طرق أبواب الموت النحاسية... هيپارخوس العجوز، والِيناس الشاب بخسران المعركة فقط بعد قليل... اولم

(*) آلهة الثورة، والحب، والسحر...

نعرف سلفاً بأننا سنموت ربما حتى بلا قبور... كنا نعرف أننا سنسقط ذات يوم مثل قطرة مطر في مكان ما، دون ان يكلل رأسنا غصنا ترازيبيلوس...

(يدخل عسكري...) أمستعدان؟

هيپارخوس: (الى العسكري...) تفضل يا من لا حول لك...

الِيناس: كان هذا متوقعاً... (يذهب الى هرموديوس بخطوات ثابتة، ويعانقه... ثم يعانق هيپاس الذي يهتز بين ذراعيه) هيپاس، عندما تسمع صوت الأطلاقات تذكر غويا العظيم... ومن ثم تذكر أختي تانيا العزيزة التي ذبحوا أحلامها مثل طير صغير... من اجلنا كلينا أُرقص... أُرقص... (وقفة) لقد كان أسلافنا يرقصون ويهزجون عند قبور أبطال مثل اخيل، وبراسيوس... (ينشج هيپاس اكثر... يصرخ عليه الِيناس). تماسك... (يتركه) وداعاً هرموديوس... إذا رأيت أختي، تلك الأبنة الوحيدة لأسرتي، أرجو أن تشجعها... إنها شجاعة، لكن ثمة ساعات يحس فيها الأنسان لا إرادياً بالجبن... (يصرخ على هيپاس الذي يروح في بكاء حاد...) هيپاس تماسك... أهكذا تودعني؟

هيپاس: (باختناق) أعذرني... إنه الفراق الأبدي... وهل كثير قطرات من دمعي... أنت يا أنبل من عرفت.

الِيناس: شكراً... وداعاً... تحديا كل شيء...

هيپارخوس: (يلقي نظرة على الجميع. ويحتضن الِيناس بحب) إن حياتك يا الِيناس والتي لم أعرف منها سوى شظايا في هذه الغرفة، كانت حافلة بأحلام خضراء... إسمح لي ان أكلمك الآن، لأنني سأصمت طوال الطريق، وأحاول أن أسترجع ما أستطيع من الذكريات وأنا في طريقي الى الموت.

هيپارخوس: يا الِيناس الوسيم، القوي، الطيب وداعا للمرة الأخيرة. (يحتضنه مرات بقوة) إن عيني تفيضان إعجاباً بك... (يخرجان...)

هرموديوس: (بعد صمت طويل... بصوت مخنوق) وداعاً يا الِيناس لا غناء فيه. لقد صبغت نفسي بكل لون من الوانك. كم تقبلت كل شيء بإباء عبر تنقلنا من غرفة الى أخرى، ومن جزيرة الى أخرى. (بحزن) يا للمُعذبة تانيا... لتشرق من معبد خلودك يا الِيناس، وأنت يا هيپارخوس لك كل حبي...

هيپاس: إن إفتتانه اللامحدود بوطنه، وأحلامه الكثيرة أضرمت كل حواسه وفؤاده... كنتُ أخاف صوته أحياناً، أعماقه، حرارته، تأمله، حركاته وهو يرقص... آه، إن حياته كانت حرباً بين مواهبه وحبه للوطن... وأنتصر الحب الأخير... (وقفة) عما قريب سيعلقون لوحة غويا...

هرموديوس: (بغضب) أي جروح تندمل دون أن تترك ندوباً؟ اما ندوب جراح الياناس، وهيپارخوس ستبقى في جسدي وروحي الى الأبد...

هيپاس: إسمع... قبل أيام عرفت أن والدهُ أستشهد أثناء مقاومة النازية...

هرموديوس: أثينا كلها تعرف ماركوس المراوغ... لقد راوغ الألمان وأذاقهم المُرّ... ان الياناس هو ذاك الشلال الهادر من ماركوس... لقد إشتعل الياناس بنار العقيدة العسيرة الأنطفاء.

هيپاس: عندما كان يرقص زوربا، كان و كأنه يفك الرموز المعقدة للموسيقى... (لنفسه) منذ متى وهذه اليونان الحزينة يحكمها هؤلاء الپيكتون (*) العبيد بالوارثة. (يذهب بخطوات صغيرة صوب الجدار، ويزيح قطعة القماش، ويبدأ بخمش الجدار بعنف...).

هرموديوس: متى تنتهي من الخمش وكأنك خلد؟

هيپاس: كم كنت أتمنى ان يريا لوحتي... عما قريب سوف أنتهي منها... (يخمش ويردد لحنا حزينا من فمه)

هرموديوس: كف عن ترديد هذا اللحن... يذكرني بألياناس، وهيپارخوس.

هيپاس: هذا لحن أخر كان والدي يحبه...

هرموديوس: لعلني الوحيد بينكم لا أتذكر أحداً...

هيپاس: لماذا؟

هرموديوس: لا أعرف... غير مهم... أذكر جدتي فقط... وحكاياتنا عن الأديرة البعيدة في قمم الجبال، وحكايات عن إسكندر المقدوني، وكيف روَّض فرسا جامحة

(*) الپيكتون: في الأصل قوم من اشقوزيا، سمّوا بهذا الأسم ومعناه المصبوغون كانوا يصبغون أجسامهم بمختلف الألوان.

عندما كان في الثامنة من عمره...

هيپاس: والدي كان يحب أن يزرع في حب الموسيقى والشجاعة...

هيپاس: كان يقول، ان الحياة بدون شجاعة تعاسة... (لنفسه) والدتي... آه، إمرأة طيبة حقا... لا تحرميني من رؤيتك في الأحلام يا أطيب أُم...

هرموديوس: أتهذي...

هيپاس: الذكريات أحيانا تستحق الحب واللعنة.

(يسمع صوت إطلاقات... يهتز كل من هيپاس، وهرموديوس، ويترنحان كما لو أن الأطلاقات أصابتهما... ظلام... تظهر لوحة غويل على الشاشة يردد جزء من نشيد الكورس. وبإنتهاء النشيد، هيپاس، و هرموديوس بصوت عالٍ جداً... غويا... غويا... الينا... هيپارخوس... وداعاً.... (بصوت اعلى) تانيا... تانيا إضحكي يا تانيا...)

(اظلام... تبقي اللوحة في الشاشة... برفق يسلط ضوء حليبي على غرفة تماماً مثل الغرفة السابقة من جميع النواحي. تانيا تضحك بمرح وهي تؤدي نفس الرقصة التي قدمتها قبل مدة...)

تانيا: (بصوت رقيق.) موضوع هذه الرقصة كان من فكرتينا. رباه... بأية عذوبة وجمال نادرين كان الياناس يؤدي حركة رجال العصابات في الغابة... (تخاطب صديقتها ايجريا وهي شابة مثلها جميلة، تجلس بصمت في ركن الغرفة، مع إمرأة اخرى... تنادي عليها بينما ترقص) أنظري الى هذه الحركة... (تؤدي حركات صعبة وجميلة) كان الياناس العزيز يؤدي هذه الحركات بشكل رائع... (وقفة. يسمع بكاء طفل) لماذا يبكي الصغير ياسافو... الصغير يبكي...

سافو: (بحزن) يبكي دونما سبب. (تقترب من سافو وهي ترقص، وتداعب الطفل...)

تانيا: السجن لا يتحمل الحزن ابداً... لا شيء سوى المرح يفيد هنا. (تذرع الغرفة) آه... تعبت.

سافو: تبللتِ بالعرق يا تانيا...

تانيا: (وهي تلهث) الرطوبة يا ايجريا تكاد تطوى الرئة في هذا المربع العفن. (لنفسها) لو عاش الياناس، وسيعيش بالتأكيد، لحققنا أحلاماً كثيرة فوق مسارح العالم...

ايه يا سافو، أعتقد ان جزيرة هاليكارناسوس محطة جيدة لصقل مواهبي... (وكأنها تتخيل شيئاً عميقاً) أوه يا اليناس الحبيب أراك بعيني قلبي بوضوح وأنت تضحك، وتتكلم، وتتمرن... ترى اية رقصة تؤدي الآن... (بصوت خافت، وبينما هي تتكلم يتقلص الضوء الحليبي، ويسلط ضوء بلون البنفسج... تستمر تانيا في الكلام، يدخل اليناس على شكل طيف ويؤدي رقصة بحركات بطيئة...) اليناس يا من علمتني كيف نكتشف الجزر السعيدة... يا من حلمت بأسعد الناس... (ترقص هي الأخرى) لقد عشقت تلك الجزر، وأبيت إلا أن تشاركني... كنت تقول لي، حتى إذا عشنا مثل طائر السمندر(*) في اعماق النار ألا ننسى أحلامنا... (تتوقف عن الرقص... يخرج طيف اليناس. تستمر تانيا و بالصوت نفسه الخافت المؤثر) اليناس. أيها الضوء، يا من كرهت الأماكن المظلمة، وسرت اليها مجبراً دون شبكة انقاذ... لِم ارفض.

تانيا: دعوتك للمجيء يا من تتوهج حتى في النور يا أصدق، وأشجع، وأعذب أخ... (اظلام... صورة اليناس على الشاشة مسندة الى جدار، معصوب العينين، والدم ينزف من فمه وصدره... تغيب الصورة برفق، ويعود الضوء الحليبي الى الغرفة...)

ايجريا: (بتأوه) ترى أين هو الآن... في أية جزيرة؟ بماذا يفكر في وحدته؟ لقد بدأت أتخيله أنا الأخرى...

تانيا: (بتألم) حقا أين هو الآن؟)بإباء) أينما كان، فهو لا يفكر الا بأكتشاف الجزر السعيدة، والناس الأسعد، والرقص الذي عشقه من قلب قلبه...

ايجريا: (وقد تأثرت بكلمات تانيا) وحبيبي انا... اين هو؟ لقد أعتقلونا جميعاً، ووزعونا على عشرات الجزر بسرعة حتى انني كثيراً ما اتصور ان كل شيء تم في الحلم... (بغضب) يا لهذا الفوج من الذباب النتن... (بحزن) ترى في اية جزيرة نائية، او معتقل يقبع الآن خطيبي...

تانيا: (بتعجب) خطيبك؟ (تربت على كتفها) ماكنت اعرف أنك مخطوبة... ولم تتكلمي في هذا الموضوع أبداً...

(*) السمندر: طائر خرافي كان يشاع انه يعيش في النار.

ايجريا: (موسيقى خافتة... بصوت مثل الهمس) آه، يا تانيا العزيزة... احبه... احبه بعمق... إنه رجل حقيقي... كثيراً ما اجد بعض صفات اليناس تنطبق عليه... كل ليلة تتكلمين عن اليناس، واتخيله... انهما يتشابهان... اجل كثيراً...

تانيا: (بفضول) اذن... هيا هيا... تكلمي... ماذا كنتما تخططان؟ اين كنتما تذهبان! تكلمي... تكلمي... سافو نائمة مع صغيرها... انها حزينة... تكلمي...

ايجريا: (بمنتهى العذوبة، والحزن) بعد هذا الأنقلاب الدموي، كنا ذات مرة في تلك المنطقة من الشاطيء الأملس قرب الأديرة، نتأمل نيران الليل، والأمواج الفضية... (وقفة) مع انه كان لا يريد مطلقاً أن يثير مخاوفي، وآلامي. كان يقول: ايجريا... ايجريا... تأملي البحر طويلاً، وحدقي بعيون نسر الى هذا الشاهد الوحيد على آلامنا، وتأملي هذه المنطقة الجميلة من يوناننا الجميلة، لأننا سنغيب عنها ربما لفترة، أو الى الأبد... ايه يا ايجريا ان الأنقلابات حولتنا الى طيور مهاجرة، لا نعرف بالضبط أين سنبني أعشاشنا المؤقتة. (وقفة) ثم بلطف، كان يقول، لكن يا ايجريا أينما هاجرنا مثل الحمام الزاجل نرجع... أينما ذهب الأنسان فالوطن أجمل، والذ... ايه ياتانيا كان يرعشني بلغته...

تانيا: ماذا يعمل خطيبك...

ايجريا: عاملاً ماهراً في الخراطة...

تانيا: حقاً...

ايجريا: نعم... أحيانا بوضوح أشم رائحة الزيت في بدلته... هنا.

تانيا: وماذا بعد... تكلمي...

ايجريا: اوه... تانيا. لست ادري هل الظروف، ام انا مارست على نفسي لعنة النسيان... أحس أحياناً أن ذاكرتي غطتها رمال النسيان... لا لا... لا أستطيع ان أفكر لا بالخطوبة، ولا بالزواج...

تانيا: لماذا يا عزيزتي.

ايجريا: لن أستطيع ان اتزوج في جو عبودي... ربما اراه بعد إنقشاع هذا الدخان من سماءِ يوناننا... ربما...

تانيا: (بتألم) من يدري كم من سنوات سيظل هذا الدخان معلق على صدر يوناننا...

(فجأة يطلق طفل سافو بكاء حاراً. تحاول تانيا إسكاته بشتى الطرق...) لا لا... يا عزيزي... ش ش ش... (تأخذه في حضنها وتدور به الغرفة)

سافو: (بصوت ذابل) الهي ما هذا البكاء... لعله يعاني من ألمٍ حاد في مكان ما في جسمه... يبكي بشكل منقطع وحاد. (بغضب) اما كان من الوجدان ان يوفروا لهذا البائس مكاناً أشرف من هذه الغرفة؟ (بألم اموي موجع) انه يذبل يا تانيا مثل الوردة المقطوعة... (يكف الصغير عن بكاء بعد جهود تانيا، ويقف على رجليه... يسير الى مسافة قصيرة) تصوري يا تانيا انه لا يملك حتى مكانا ليتمرن على المشي... الا تلاحظين ان ساقة اليمني تعوج... بالتأكيد إنها أعراض الشلل. (يعود الطفل ويرمي نفسه في حضن أمه) تصوري كنت و والده نفكر أن نعمل المستحيل لهذا الصغير كي يتفتح وينمو خالياً من العقد و الأمراض. والخوف، وها هو يتفتح على صوت الرصاص، وهدير مكائن الزوارق، والجزر البعيدة، ويملأ صدره الصغير برائحة البول، والبراز... (تبكي) لقد حدوا اسنانهم حتى على الصغار...

تانيا: آه، يا ايجريا... لست ادري كيف أُخفف عنك... هل يجب ان اذكرك بكل الصغار المعذبين في العالم (اظلام. على الشاشة. لقطات لأطفال فيتناميين بين المزارع المحروقة... دبابات... نساء يحاولن الأمساك بأطفالهن. لقطات من المجازر النازية... يعود الضوء الى الغرفة)

ايجريا: أعرف... تكلمي أكثر... خففي عني... اجل ثمة أطفال أكثر بؤساً...

تانيا: إضحكي... أنت تشجعينني على لغة الخطابة... وانا أخجل منها... (بمزاح) إسمعي... إن والدتي كلما غمرني حماس مفاجيء كنت أتكلم بلغة خطابية في غرفتي وكأنني فعلاً أُخاطب جمهوراً غفيراً... (تضحك) أتعرفين ماذا كانت والدتي تقول... (وقفة) آه، يا والدتي الطيبة... حسن... كانت تقول، يا شاطرة، إن أجمل الخطب وأبلغها لم يلق بين الجدران... انت تجيدين الكلام فعلاً... فديموستين كان يخطب في المجتمعات الشعبية، وشيشرون كان يتكلم في السوق... (تطلق ضحكة اخرى) ربما عندما أنتهي من الرقص فوق مسارح العالم، أخطب مثل ديموستين... ها ها ها ها...

سافو: (بعد أن تتأكد من ان الصغير نام...) يا لفرح قلبك و عزيمتك، وصبرك يا تانيا...

تانيا: (بإعتزاز، وفرح) إنني ابنة ماركوس، واخي هو اليناس. لقد تعلمنا ان نكرس كل جهودنا للمشاغل المباركة التي تسمو فوق كل العواطف النافلة.

سافو: (تضحك لأول مرة) كثيرا ما أقول لنفسي منذ ان انغلقنا هنا، ترى ما الذي كان سيحدث لي لو لم تكوني معنا يا تانيا...

تانيا: (بابتسامة حلوة) سافو، شكراً لأنك ضحكت أيتها الحبيبة سافو لو لم أكن هنا، لكانت الضرورة تعلمك اشياء اخرى... ربما كنت تتعلمين تأليف ترانيم جميلة لصغيرك... للأنسان مواهب كثيرة يا سافو لا يعرفها بسهولة...

ايجريا: (تحاول هي الأخرى ان ترفه عن سافو) وتسمين ديوانك بعنوان ترانيم إمرأة حجزت جوراً في الجزيرة هاليكارناسوس لأن زوجها مطلوب من حكومة العقداء... السعر خمس دراخمات... (الجميع يضحكن، ثم فجأة ينتبهن ان الصغير نائم)

تانيا: (بهمس، وبجدية) هيا يا عزيزتي سافو... ثمة بؤس صغير، وآخر كبير... لا اظن ان زوجك من الجبن بحيث يسلم نفسه لتتبادلا غرف السجن. هل ثمة معنى أن تخرجي أنتِ، ويدخل هو... اوه، طبعا لا... (بلهجة مشجعة) سافو، اعلمي ان كتائبهم المسلحة تلمع منذرة برعود لا ترحم... (وقفة) انتظري، اذا قيض لنا ان تترك جزيرة هاليكارناسوس سنسمع أوتار قيثارة تعزف لتمجد كل شيء... وسيستمر الغناء، والذكريات. ،

ايجويا: (بحماس) يه، يه يه... ها ها... هم... هم... ان الذي يسمعك وانت ترددين هذه الكلمات وكأنك شربت من ينبوع كستاليا(*) يا لقلبك البعيد عن الحزن...

تانيا: الا يحق لنا ان نأمل، ونحلم وان كان داخلنا اشبه شيء الآن بمرآة مكسورة... (صمت طويل... تسمع زخات من الأطلاقات. ظلام... على الشاشة تظهر لوحة غويا...) ويسمع صوت هيپاس يأتي من بعيد غويا... غ... و... يا يا يا يا... تغيب اللوحة من على الشاسة، ويظهر بعد لحظات ثيودراكس فوق الشاشة، وثمة مراهقات، ونساء مسنات يتزاحمن للحصول على توقيعه، بينما يردد هو.

(*) كستاليا: هو ينبوع في جبل البيرناس، مقدس، وكانت مياهه عذبة باردة، لها القدرة على الهام من يشربون منها بنار الشعر.

ثيودراكس: (في الشاشة) إن ضمير الشعب الفرنسي فكر بي كفنان مصاب بالسل وأنقذني، لكنهُ في سجون جزر اليونان... ان الفاشست ايتها السيدات والسادة، في ارض حضارتكم القديمة يطوفون مثل مراكب تمزقت اشرعتها، وتحطمت سواريها، ولا يحتاجون لكي يغرقوا سوى إدانتهم بقوة... إن اليونان لم تسقط، وحتى اذا سقطت الآن فلكي تتطهر. (صراخ المراهقات تستمر. وقع لي هنا... ارجوك... اريد قبلة... صافحني... برفق يغيب ثيودراكس من على الشاشة) تبقى الشاشة خالية للحظات، وتسمع زخات جديدة من الأطلاقات، ثم بهدوء نشيد الكورس. لتشعروا ابداً بضربة الموت.

يا من تحترقون للحرية، والمساواة، والعدل..... يعود الضوء الى الغرفة من جديد...

تانيا: (بخوف...) ترى من كان هذه المرة، او من كانت!!؟

ايجريا: (بتعجب) من يدري... من يدري.

سافو: (تمزح وتحاول ان تبدد حالة الخوف) ربما كانت من بنادق كتائب زوجي... ها ها ها...

تانيا: لكننا في جزيرة نائية... وهو...

سافو: انهم مثل الهواء... في كل مكان...

ايجريا: كان خطيبي يقول، ستجبرنا الضرورة ان نكون في كل مكان...

تانيا: (تحاول ان تغير الموضوع) تكلمي عن خطيبك... عن عامل الخراطة... ها ها ها... ورائحة الزيت في بدلته... لنتكلم عن ذكرياتنا، هيا يا ايجريا تكلمي...

ايجريا: (بالقاء شاعري) إلهي، هؤلاء هرموا قلوبنا وهي فتية... صحيح إن كل شيء يشيخ لكن برفق. نحن لم نغص بعد بشوق الحاضر، ولم نقطف البعض من أزهار الياسمين... افي هذا العمر نعاني البلاء وسموم الفراق؟ لا بأس...

تانيا: تكلمي عن أشياء حلوة يا ايجريا... كم ارتاح لصوتك، لكلماتك... هيا هيا...

ايجريا: (يظهر منظر بحر للحظات فوق الشاشة...) آه، يا تانيا، يا سافو، يا لتلك الليلة التي كانت كل الليالي... جرينا طويلاً على الشاطيء وتأملنا زرقة السماء الداكنة، سقطنا وتلوينا فوق الرمل... كنا نلقح داخلنا بمئات الذكريات... إلهي، كان الوقت صيفاً وكنا من ألم الأحساس بالفراق نبحث عن مأوى مثل البحر... وظللنا نبحث... ونبحث... كان كل شيء ملتهباً حولنا... النار والدم في السلطة الحاكمة،

كلاب الحراسة في الشوارع، والسواحل... آه... يا لليلتنا الاخيرة على الشاطيء... كان الخوف يطاردني من الداخل، وكنت أحس بضربات سوطه، وكان يؤكد لي بثقتهِ الأبدية. (تتنهد، وبحماس) ويقول: ايجريا، ايجريا، أيتها العزيزة ليس ثمة شيء وراء القبر... آه، كنا أشبه شيء بملاحين سينظران الى سفينتهما الغارقة، ويتأهبان لملاقاة مصيرهما... (وقفة) وكان هو مثل الصقر المطعون يتهيج أحياناً، ويشدني اليه بقوة، وبحب حقيقي.

سافو: (بصوت هامس) ايه يا ايجريا تتكلمين وكأنك تسردين أيام تعرفي على زوجي...

ايجريا: (تستمر وبنفس الالقاء) ربما نام الحجر، أما نحن فلا... فلا... (فجأة تنخرط في بكاء حار)

تانيا: (تحاول إسكات ايجريا) أُسكتي... ان الذي سمعته منك لن يكون أبداً مشروعك الأخير... هيا، هيا، صفقي لي لأرقص مقطعاً من زوربا... صفقي... (ترقص برفق لكن بإندماج... يظهر ثيودرا على الشاشة)

ثيودراكس: أيتها الآنسات إقطعوا هذا الصراخ... فكرن بالآف النساء المنفيات الى الجزر البعيدة... اي عار ان تفكرن بهذه المهازل... ايها السيدات والسادة، إن شعبي من أجل إعطاء وجه أكثر شرفاً لحضارته يعمل المستحيل مع اولئك العقداء السود العاجزين، بل و الخاسرين في هذه المعركة الوحشية... إنني هنا أطلب إيقاف النزف المجاني، والعابث... يغيب ثيودراكس عن الشاشة... يسمع هدير مكائن الزوارق، وأصوات مختلفة في الظلام.

صوت ١: حتماً تهجير الى جزيرة اخرى.

صوت ٢: ايه، ثم ماذا. (بسخرية) فرصة رائعة لمشاهدة جزرنا مجاناً...

صوت ٣: لكن كسجين... لا لا لا...

صوت ٤: إنها لجولة فعلاً... من جزيرة ليروس، الى جورجيوس، ثم هاليكارناسوس...

صوت ٥: يا لنشاط السياحة.

صوت ٦: آه... اين؟ هذه المرة الى الجزر البعيدة... ثم ماذا؟ جزرنا كلها جميلة، وسعيدة...

(... موسيقى خفيفة... يعود الضوء الى الغرفة الأولى... نجد صورة غيفارا محفورة حيث

كان يعمل هيپاس في خمش الجدار... هرموديوس يذرع الغرفة).

هرموديوس: ترى لِمَ لَم يشملنا التنقل الى جزيرة أخرى؟

هيپاس: ربما في المرة المقبلة... هذه الغرفة أصبحت مقرفة، سيما بعد ان لم نعد نصل النافذة... ثم الأهم، بل الأوجع ان ذكريات اليناس، وهيپارخوس تتفرقع هنا، وهناك، وفي رأسي... يسمع صوت الباب... وسط ذهول هرموديوس، وهيپاس يدخل هيپارخوس بخطوات مشلولة... (يغلق الباب... بعد صمت طويل)

هيپاس: وهرموديوس (معاً) مستحيل... هيپارخوس!؟ (يحاول هيپارخوس أن يتماسك، ويعطي وجهه المليء بالكلمات للجمهور... موسيقى خفيفة)

هيپاس: يا لوجهه المشوش... أين اليناس؟

هرموديوس: (غير مصدق نفسه) حقا... اين اليناس؟

هيپارخوس: لقد كانت حياته حرباً أبدية مع الأعداء... ان اليناس لم يعد في حاجة الى غصني ترازيبيلس...

هيپاس، وهرموديوس (معا و بصوت مخنوق) قتلوه...

هيپارخوس: (بصوت راعش) بل قتلهم هو الف مرة قبل ان يقتلوه (وقفة) خافوا من عينيه الميدوزيتين(*)

فيهما رأوا عبوديتهم، والهاوية التي سيقعون فيها...

هيپاس: وانت!؟

هيپارخوس: انا... ابتسموا لي بتوجع... وقالوا إن عمري لا يساعد، وعليّ ان أعيش سجينا مدى الحياة في الجزر... (وقفة) اما مع اليناس، الهي، مثلوا في البداية عملية إعدام وهمية لاجباره على الخضوع...

هرموديوس: (بلطف...) اجلس... انت مرهق. اجلس...

هيپارخوس: (يحاول ان يتماسك) اتركني... (صورة اليناس على الشاشة مقتولاً... يتكلم بصوت راعش ومرهق) ان ابن ذاك الخالد الذكر ماركوس اهانهم... آه، يا اليناس كم تحملت مصيرك ببسالة... ان طبع الحب الأصيل لأي شيء في الحياة هو إما ان ينمو بعنف، او يموت... (وقفة) أهانهم كما لم تهن حتى الكلاب

(*) ميدوزا: جنية يونانية كانت لعينها قدرة على تحجير من ينظر اليها.

المجربة... (بصوت حزين) عندما اوقفوه امام الجدار، وأمروه بالكلام... الف الف سلام الى تلك الروح العظيمة يا اليناس... رفض، وأهانهم ثانية... وفجأة ملأت الغرفة عشرات الأطلاقات... لكنني يا هيپاس لم ار نوافير الدم في صدره... او في بطنه... (وقفة) أرسل الى نظرة طويلة... قال له العسكري انه سيطلق عليه ناراً حقيقية في المرة المقبلة. لقد جربوا معي اللعبة نفسها يوم كنت شاباً في إحدى المعتقلات. (وقفة) ظل اليناس صامتاً... عيناه كانتا تبرقان مثل عيون غجر اسبانيا... صدقوني ثمة نفوس بركانية تعجز الدنيا كلها عن لجمها... كنت استيقظ في عينيه... هرموديوس، هل تصدقني انه كان يريد ان يرقص... (يبكي...) مثل أسلافه... وفي المرة الثانية، بعد زخة الرصاص، تفجرت نوافير الدم في صدره... (يقترب من مقدمة المسرح... حتى عندما مات كان في وجهه ذاك السحر الجميل الشبية بسحر الفجر...

هيپاس: (بصوت مخنوق) الف وداع يا اليناس، وليسترح رأسك على صدر كل شريف...

هرموديوس: (بغضب كما لو يخاطب الجمهور في الصالة) صفقوا نخب موته الشريف. (يصفق الجمهور...)

مشاهد في الصالة: (بصوت عال) كان اندريه مارلوا على صواب عندما قال ان الأجساد المجيدة ليست التي ترقد في القبور.

مشاهد آخر: نحن لا نشفق على اليناس بل على انفسنا.

مشاهد آخر: يجب ان لا ننسى ابداً ان نطالب ببناء بانثيون جديد لأمثال اليناس... (يدخل عسكري بعد ان تضاء الصالة).

العسكري: (بغضب) الهدوء رجاء... الهدوء...

مشاهد آخر: (الى العسكري) اين اليناس ايها العسكري...

العسكري: الهدوء... الهدوء

هيپارخوس: ايها السيدات، والسادة... أيها الجمهور الطيب، الى بيوتكم... شكرا... لا تنسوا الموتى...

سِتار

شفاه حزينة(*)

مسرحية في فصل واحد

غرفة جلوس صغيرة وبسيطة الأثاث... في الجدار المواجه للجمهور نافذة واسعة تطل على شارع فرعي. ،لصق النافذة مكتبة صغيرة فيها عدد قليل من الكتب. مرآة فوق الجدار... بجانب المكتبة منضدة صغيرة فوقها تلفون. على الجهة اليسرى من النافذة خارطة متوسطة الحجم للعالم، وصور ملونة لأطفال في أوضاع مختلفة. صورة للزوج والزوجة في إطار جميل... كراس. منضدة عليها قنينة عرق، كأس، مواعين...

الزوج: (يذرع الغرفة... بين حين والآخر يلقي نظرة على المنضدة التي عليها قنينة العرق... يتنهد... بصوت عال) لا تنسي الثلج.

الزوجة: (صوتها يأتي من بعيد) انتظر... (بعد قليل تدخل تحمل ماعوناً فيه ثلج – الزوجة في حوالي الأربعين وكذلك الزوج).

الزوج: (بفرح) اتعرفين بماذا أُشبه العرق؟

الزوجة: لونه؟ ام مذاقه؟

الزوج: (يأخذ رشفة، ويتلمظ) مذاقه طبعا... بحامض الكبرتيك... هل تتذكرين معادلة حامض الكبرتيك؟

الزوجة: (تفكر...) اعتقد...H_2SO_4

الزوج: (يصفق) رائع... المعادلة الوحيدة التي مازالت في مخي...

الزوجة: (بتقزز) اتعجب كيف تضع هذه النار في جوفك...

الزوج: (يأخذ رشفة اخرى) أريد ان اصحى... (وقفة... يمر سكير وهو يدندن بأغنية بغدادية حزينة...)

الزوجة: (بمزح) هو الآخر يصحو... (تتنهد) بعد الساعة، او ربما اكثر ينتشرون مثل

(*) قدمتها فرقة المسرح الفني الحديث على قاعة مسرح بغداد بتاريخ ١ / ٤ / ١٩٧٨ .

الزنابير في الشوارع، يغنون، ويبكون، ويتأوهون... (وقفة) اسألك... كيف تفسر بكاء ذاك السكير ليلة البارحة على الرصيف، وهو يتقيّء، ويصرخ بين فواق وآخر انه لم يشرب كثيراً، انه متألم فقط لأن صديقه اسمعه كلمة جارحة.

الزوج: رغم كل شيء كان سعيداً....

الزوجة: (بتعجب) سعيداً؟ يا لتلك السعادة البائسة...

الزوج: بدليل عندما نهض وبدأ اخذ يغني... كان يصحو... نعم... صدقيني...

الزوجة: لن يفيدك هذا الكلام... وانت !! آه، صدقني عمرك لن تصحى وانت تشرب هذه النار...

الزوج: (ينظر اليها، ويأخذ نفساً عميقاً) لنتكلم في موضوع آخر. تفضلي... تكلمي.

الزوجة: اوه... مرهقة...

الزوج: كالعادة...

الزوجة حبذا لو صدقتني مرة واحدة عندما اقول لك انني مرهقة...

الزوج: (مازحاً) كم ساعة انتظرت الباص.

الزوجة: (بقليل من الأستياء) هل حقا لا تصدقني عندما اقول انتظره احيانا حوالي ثلاثة ارباع الساعة كل يوم على الأقل... (بضجر) آه، هذا الأنتظار اللعين يرهقني اكثر من ساعات العمل... (تتوقف عن الكلام... يطيلان الصمت، ويكتفيان التحديق ببعض).

الزوج: يضجرني الصمت... يقتلني الصمت... للمناسبة أعتقد تكلمنا عن موضوع الباص أمس ايضاً... (ضاحكاً) تكلمي... أهم شيء ان تتكلمي... الصمت يشعرني بنعاس قوي...

الزوجة: لكن يا عزيزي، انت تعرف جيداً الى أي شيء يؤدي الكلام...

الزوج: تأكدي الى لا شيء... (يسخر) عندما تجلسين مثل قطعة حجر وتحدقين في وجهي بنظرات... (يتوقف، ويبحث عن كلمة ملائمة...) بنظرات تائهة وكأنك (ضاحكاً) ترينني لأول مرة...

الزوجة: (تبتسم) لأنني ببساطة لا أريد ان أفسد عليك أمسيتك... (بغنج) ثم ارتاح

لشكلك وانت تشرب، وتمضغ الطعام بهدوء...

الزوج: (يأخذ رشفة كبيرة...) اللّه... اللّه... تكلمي عن أشياء حلوة... أنتِ إما أن تصمتي او اذا تكلمتي لسعتي نقاط ضعفي...

الزوجة: (بدلع) وهل حقا لديك نقاط ضعف...

الزوج: لم لا... انا ضعيف مثلاً امام جمالك...

الزوجة: (تصفق، وبسخرية محببة) آه... ها ها ها... قل شيئاً آخر... لم تنه بعد كأسك الأولى يا حبيبي...

الزوج: (ملاطفا) حتى لثرثرتك. أتعرفين انك تجيدين الثرثرة في مواضيع حلوة...

الزوجة: اعتقد، حان الوقت لنصمت... (تنهض الزوجة... تتمشى في الغرفة. تذهب الى حيث صور الأطفال، ثم تلقي نظرة الى خارطة العالم... تطلق صافرة طويلة من فيها) اوه، انه الآن في برشلونة، وبعد أيام في مدريد، ثم رأساً الى باريس.

الزوج: مديركم طبعاً... وفي الأسبوع الأول من الشهر الجديد في لندن...

الزوجة: كيف عرفت؟

الزوج: انت... آه... اسمعي لم النساء ثرثارات...؟

الزوجة: طيب... هل تعرف عدد الكلمات التي تفوهت بها وانت لم تشرب بعد نصف الكأس...؟ (بسخرية اسمع. هل تراهن على نصف ساعة من الصمت؟ (متحدية اياه) نعم نصف ساعة فقط...

الزوج: اراهن؟ لقاء اي شيء...

الزوجة: انت حر.

الزوج: (ضاحكا) طبعا الشرب، والتدخين لا يدخلان في شروط الرهان...

الزوجة: اتفقنا... ،كذلك الحياكة...

الزوج: (بغضب) آخ... يعني نخرس حتى الفجر... اسمعي يا عزيزتي، لعبة الحياكة قاتلة...

الزوجة: (بلا مبالاة و غنج) نريد ان نثبت حقيقة الثرثرة... (تنهض وتجلب عدة الحياكة...) اتفقنا... طيب... لنبدأ. (تحيك ببرود. يشرب الزوج، ويشعل سيجارة،

ويرسل نظرات سريعة... هي تتصرف ببرود، بينما نظرات الزوج تتحول الى غضب، ويستمر في الشرب بسرعة، والتدخين بسرعة، مع اطلاق زفرات... ينهض... يعود فيجلس... يتحرك بعصبية... يمشي. واخيراً يطلق ضحكة قوية...)

الزوج: هذه مراهنة سخيفة... بل سخيفة جداً...

الزوجة: (ببرود) هل حقا ان النساء ثرثارات. (تأتي موسيقى جازية من الطابق الثاني في البناية...

الزوج: (بغضب صافعاً فخذه...) عاد هذا الصعلوك لعبته الليلية الحقيرة من جديد... (يثقل لسانه قليلاً) كلما رفع صوت جهاز التسجيل بهذه الموسيقى إضطربت أعصابي... لم بهذا الصخب... لِمَ لِمَ... (الى زوجته) هل أخبرتِ والدته لتنبيه هذا الكلب الأطرش أن هذه الموسيقي وبهذه القوة تخمش أعصابي... توترني، وتبخر حتى العرق من رأسي...

الزوجة: اخبرتها... وعدتني ان تمنعه من رفع صوت المسجل ايه، يا لهذا المراهق... (وقفة) هل صادف ان رأيته؟

الزوج: لا أريد ان أرى شاباً مزعجاً مثله.

الزوجة: (ببرود، وحنان ايضاً) انه صغير، رقيق، له شعر اشقر... ،وجهه مثل القطة... ان نادية لا تملك سواه... لذا لا تضغط عليه.

الزوج: (بغضب) له شعر أشقر... رقيق... وجهه مثل القطة... لكن هذا الأشقر لو ظل يسمعني كل مساء خمساً وست مرات هذه الموسيقى لقتلني... انه يفسد عليَّ المساء كل مساء... (تستمر الموسيقى... يندفع الزوج الى النافذة. يفتح جناحها. يصرخ) خفف الصوت يا ولد... يا ولد يا اطرش خفف الصوت... (يلتفت الى زوجته) إذهبي واخبري نادية اذا لم يكف هذا الفوضوي الأشقر الأطرش عن هذه اللعبة السخيفة أؤدبهُ بنفسي... (تنهض الزوجة وتلقي عدة الحياكة، وتذهب الى النافذة... في هذه الأثناء يخف صوت الموسيقى، ويتلاشى برفق...)

الزوجة: (تضحك) اوه، يا عزيزي. هل بعد كل هذا ان النساء ثرثارات... انتم في اليفاعة صخب، وعنف، وملاسنة. في المراهقة جموح، وغضب، وإنفعال، ثم ثرثرة. (بهمس) وفي الرجولة... (تضحك) انت تعرف... فشلت في الرهان... ها ها

ها... هل حقا إنهن ثرثارات.

الزوج: (نسي انفعاله... ملاطفا) ليس مع الرجال.. مع بعضهن. (وقفة) اسمعي قرأت مرة ان بعض الزوجات والأزواج الأنكليز يعيشون في بيت واحد ولا يتكلمون مع بعض لأشهر...

الزوجة: عيع... اما الى هذه الدرجة فسخافة... طيب كيف يتفاهمون...

الزوج: (يقوم بحركات بنتامايم وهو يشرح مسائل مثل: اريد معطفي... الجو بارد... أريد وجبة غذاء جيدة للظهيرة... اين قبعتي ومظلتي... فات الوقت... لابد ان اصل في الوقت المحدد... آه... الباص جاء متأخراً... يلقي قبعته ومظلته... إنني مرهق...)

الزوجة: (تؤشر الى لسانها) وما فائدة هذا... ولم كل هذه السخافة...

الزوج: (يأخذ رشفة) برودة دم... ألم تراهني على الصمت قبل قليل...

الزوجة: لنصف ساعة. او ساعة، بل اكثر شيء في حاله غضب لنهار واحد... اما لسنة، عيع، عيع...

الزوج: (بعد صمت...) آه... الصمت شيء جميل احياناً.

الزوجة: أحيانا... (تمط الكلمات) أحياناً...فعلاً... بالضبط. هل فعلاً تحب الصمت...

الزوج: قلت احياناً... اوه... جداً... جداً...

الزوجة: لا... لا... انت تبالغ... ما ان تدخل البيت يا عزيزي تريد كل شيء ان يتحول الى خلية نحل...

الزوج: لا تبالغي... قليلاً من الأنصاف...

الزوجة: أبالغ؟؟ ما أن تدخل البيت تبدأ (تقلده بحركات صامتة...) آه... المراجعون يأكلون مخ الموظف. نهار مرهق لحد الموت يا عزيزتي... هذا يصرخ، وذاك يهدد ويقرب حافة عريضته الى ارنبة انفي... وتلك تستجدي وتستعمل الرقة والكلمات الذليلة، واخرى تقول بدلع: اوه... يتصرف كما لو يرزق العالم... صدقيني. صراخ، سعال، عطس، بصاق هنا وهناك، ثرثرة... (وقفة) واخيراً، ما ان تبدأ بالشرب. (تمط الكلمات) افلسنا هذا الشهر، كان يجب ان نقلل من أكل اللحم...

ثم حكمتك الشهيرة: (بالقاء مسرحي) الأكثار من اللحم اكثار من الدود... (وقفة) كل هذا يا عزيزي وانت تحب الصمت... (تطلق ضحكة حلوة، وبعد ان تمسد شعر الزوج بحنان، بدلع) عاس الصمت... عاش حب الصمت. الصمت شيء رائع احياناً...

الزوج: (يأخذ رشفة صغيرة) رائع... هائل... (ببرود) وماذا بعد...

الزوجة: لا شيء...

الزوج: وأنت!! أسمعني إذن. ((ينهض، هو الآخر يقلدها بدقة) الق ولو نظرة واحدة في الأسبوع على اصابعي... انظر... انظر... تلفت من الغسيل... كنس، طبخ، طبخ كنس. تايد صابون (بسخرية) صابون تايد... آه... وفي الدائرة (يقلد صوت آلة الطابعة) عشرات الكتب يومياً... كتب، الهي، مكتوبة بخطوط غريبة وعجيبة أحتاج احياناً ربع ساعة لِقراءة كلمة... ظهري أحدودب... شموخ وبوز رئيس القسم... وذاك الباص اللعين، والأنتظار... (يلتفت بسرعة الى جهة اليمين واليسار...) اظل التفت يمنه ويسره. ربما يأتي الباص الآن... آه... ومشاكسة المارة... (بدلع) آه... المارة... والشاب... طبعاً تؤكدين على المشاكسة أكثر... (صمت...) آه... انت... (يرسل لها قبلة بيده) صدقيني حتى في الأربعين أنتِ حلوة... حلوة...

الزوجة: ارجوك لننته من هذه اللعبة...

الزوج: (يلقي لها قبلة اخرى...) لعبة! وهل انا الذي بدأ اللعبة؟ (يسكب مزيداً من العرق).

الزوجة: هذه الكأس الثالثة...

الزوج: (بغضب) تحاسبينني؟

الزوجة: (بلطف) أنبهك يا حبيبي...

الزوج: (يظهر عليه السكر) فعلاً... نبهيني يا حبيبتي...

الزوجة: لكنك لا تستمع اليَّ... وفي الصباح تردد بصوت مخنوق (تقلده) كان يجب أن أستمع اليك... آه... رأسي... أشعر كما لو ان يداً وهمية تنهال عليه بالعصا...

الزوج: لكنني منتعش هذه الليلة جداً... وسعيد.

الزوجة: هذا المساء فقط... أم...

الزوج: (مقاطعاً) أحس براحة عميقة في ضميري... أنهيت معاملات عشرات المواطنين... كانوا سعداء وهم يستلمون أوراقهم... ايه... لكن يندر ان أُنهي ساعات العمل دون ان أتلقى المسبات المبطنة... والغمغمات، وسخريات كاوية سخريات مثل الملح فوق الجرح... (وقفة) وببرود أعصاب لعمل ولا أهتم... هذا اليوم هو أول يوم عمل من أسابيع لم أسمع منه ولو تعليقاً عابراً.

الزوجة: (ملاطفةً إياه...) لكن السعال، والصراخ، والعطس، والغمغمات إستمرت كالعادة...

الزوج: هذه الأشياء من الطقوس الأزلية لدائرتي...

الزوجة: (بحنان) كان الله في عونك يا حبيبي.

الزوجة: شكراً... وفي عونكِ ايضاً...

الزوج: (يرسل لها قبلة) اليس من حقي...

الزوجة: ماذا؟

الزوج: (يصب مزيداً من العرق في كأسه) أن أشرب كما أشتهي هذه الليلة...

الزوجة: أنت حر... هل أستطيع ان أقول لا... -(يطفو حزن على وجه الزوج... تمسد شعره، وتلاطفه) كثيراً ما أفكر أيضاً رغم الصخب الشديد في دائرتك بالدقة، واليقظة. والأنتباه في طبيعة عملك... (تنحني وتطبع قبلة فوق خده).

الزوج: انتِ زوجة رائعة... هائلة لكن، هل حقاً انت جادة... أقصد، فعلاً تقدرين صعوبة عملي...

الزوجة: (بحنان) اوه، بالطبع يا عزيزي... (وقفة) للمناسبة، هل أُحضر لك العشاء؟

الزوج: الآن؟ لا... لا... لا... إسمعي، اريد ان اتكلم عن ضرورة الدقة في طبيعة عملي... (وقفة) اسأليني لماذا؟

الزوجة: (بلطف) لماذا يا حبيبي...

الزوج: من التزوير... وتقليد التواقيع... اوه... اليقظة ضرورية جداً...

الزوجة: والتزوير فن...

الزوج: بالضبط...

الزوجة: (بمنتهي اللطف) هل تتكلم عن الرجل النحيف الأسمر الذي له وجه مخروطي مثل وجه الثعلب الذي زوّر دفتر تقاعد وظل يستلم راتباً محترماً لسنوات الى ان استطعت انت أن تكشف التزوير...

الزوج: (يهز رأسه) لا... لا... لا...

الزوجة: (اذن، حتماً ستتكلم عن ذاك الرجل القصير الأطرش الذي له وجه بلون الشحم، اقصد ذاك الذي زوّر توقيع المدير العام...

الزوج: ولا حتى ذاك...

الزوجة: ها ها ها... عرفت... بالتأكيد ستتكلم عن المحامي الذي كسب قضية الرجل الأعرج. (وقفة) ولم يعط له حقه...

الزوج: (يطلق صراخاً حاداً) لا... لا... لا... لا... (ينهض. يمشي بترنح، وبرفق يستند الى جدار...) قلت لا... لا لا لا...

الزوجة: (بلطف اكثر...) لا شك يا حبيبي ستسرد لي قصة الرجل الماكر الذي زوّر ثلاث دفاتر دفعة واحدة...

الزوج: بدأتِ بالثرثرة... هذه هي الثرثرة التي كنت اتكلم عنها...

الزوجة: كان الله في عونك...

الزوج: (بعد صمت طويل) هل فعلاً... (يلقي نظرة طويلة الى زوجته... يثقل لسانه... بصوت حزين) هل سردت لك جميع هذه الحوادث...؟ يا لي من إنسان بائس...

الزوجة: بائس؟ لِمَ!

الزوج: تصوري لا اجيد الكلام في هذه المواضيع... وأظل اكررها كل مساء... (بحزن اكثر) لماذا لا أعرف الكلام في غير هذه المواضيع... وانت ترددينها بدقة كما لو انك ببغاء...

الزوجة: (بحنان)إنك فعلاً تصحو عندما تشرب... تصحو بشكل رائع... وهل انسى ما يقوله زوجي... اني التذ في مشاركتك... (تقبله برفق فوق رأسه).

الزوج: (يحاول ان يمزح) انت كومبيوتر... لكن متى، وكيف اتكلم عن هذه الأشياء،

والحوادث... (وقفة) بالتأكيد لم يحدث ابداً ان تكلمت في غير عالم دائرتي... طبعاً... يا لي من إنسان سخيف، محدود...

الزوجة: (برقة) اي ضير ان تتكلم... لكنك تتكلم بشكل جميل...

الزوج: حقاً...

الزوجة: (لمجرد ان ترضيه) ما ان تبدأ باحتساء هذا H_2SO_4، بإختصار تنقل دائرة التقاعد، والمراجعين، والمراجعات، والمزورين، والمحامين، والسعال، والصراخ الى هذه الغرفة... تتكلم لساعات عن احزان مئات الناس، وهذه الأحزان التي انت لست مسؤولاً عنها أبدا، تكلفك أنت العاطفي الطيب كأساً إضافية... (تطلق ضحكة حلوة) من الآن فصاعداً ستتكلم عن اشياء جميلة، وحلوة...

الزوج: (بحزن) وهل لدى موظف بائس محدود مثلي أشياء جميلة... انا اتكلم عن الدائرة، والمراجعين لا إرادياً... احس كما لو اخفف عنهم وعني الأحزان... ارى تعب السنين على وجوههم، وفي عيونهم، وحركات ايديهم، ،نبرات اصواتهم.

الزوجة: افهم مشاعرك... لكن لدينا همومنا أيضاً... ترى من يخففه علينا...

الزوج: الا تعتقدين عندما اتكلم عن هموم الناس أنسى نفسي... (وقفة) لكن الى متى سأبقي اتكلم عن هذه المواضيع نفسها؟

الزوجة: ستكف ذات يوم فجأةً... (تسمع اصوات مختلطة، ووقع احذية سريعة... تذهب الزوجة الى النافذة، تزيح الستارة، وتفتح جناح النافذة... يسمع صوت المرأة).

صوت امرأة: (من خلال بكاء حار) هذه المرة مستحيل... الهي اين يمكنني ان اجده في هذه المدينة الكبيرة... واللّه لو عرف زوجي انه ضاع منذ الصباح لذبحني... (اصوات تستفسر... هل اخبرتِ مراكز الشرطة... ما لون دشداشته، شعره، طبعا اخبرت معظم مراكز الشرطة... من يدري ربما دعسته سيارة... (تبكي) لا اعرف اين اذهب... الهي، ما ان اغفل عنه ربع ساعة يشرد، ويغيب... (يستمر البكاء و اللغط.)

الزوجة: (تغلق النافذة... تذرع الغرفة، وتتوقف امام صور الأطفال... تتنهد بعمق) هذه المرة الثالثة يضيع ابنها الأصغر... يا لهذه المهملة... لديها خمسة أطفال... كل شهر يضيع أحدهم... (بغضب) مهملة...

الزوج: (بحزن) ونحن نحلم بطفل واحد... فقط... عملنا المستحيل... (يأخذ رشفة كبيرة) آه... لو كان لنا طفل واحد... (يبتسم... وبحنان) شيء جميل ان نضع المهد ما بيننا، ونهزه (يغني بصوت جميل وشجي)

دلل لول دلل لول

يا ولد يا بني دلول

لول لول يا قمبر

ها، تعيش وتكبر...

الزوجة: لا تجدد احزاننا...

الزوج: لا نتكلم في شيء الا وفيه من الحزن لنا... (يدمدم بأغنية حزينة)

الزوجة: اتعجب لماذا لم تعد تغني كما كنت؟... صوتك مازال جميلاً...

الزوج: كان يجب ان تشجعينني...

الزوجة: اتعرف عندما تغني أتذكر ايام حبنا.

الزوج: وهل لم نعد نحب البعض الآن؟

الزوجة: بالنسبة لي، مازلت أحبك بنفس القوة. (وقفة) بفارق أن طعم الحب في تلك الأيام كان له مذاق خاص...

الزوج: (يضحك) إنتظار، قلق، مطاردات، ارشادات، رسائل، وهدايا... ثم سهر، أرق.

الزوجة: عشناها يوماً بعد يوم، وبلذة، وحرقة... (بحزن) أنظري الى صورتي! الهي لكم تغيرت...

الزوج: مازلت جميلة... بل انصافاً انت الآن اكثر جمالاً، وانوثة... كم كنت صغيرة وجذابة... أنظري الى وجهك... اتعرفين ان وجهك الصغير يذكرني بذاك الشارع الفرعي الذي طاردنا فيه ثلة من الأطفال... كنا نتكلم عن الحب، ونحلم بالأطفال والصغار الملاعين يصرخون...

الزوجة: هل تتذكر الزقاق الآخر، الصامت المظلم ايام الشتاء، حيث كنا نتواعد... تذكرت؟ ذاك الذي كنا في الشتاء نغوص في وحله...

الزوج: آه... مرة التقينا فيه بشاب تصورته أخاكِ...

الزوجة: يا لذاك الشبه اللامعقول، ويا لخوفي ... بدأ كل جسمي يرتجف. واقتنعت أنه حتماً سيذبحني مثل النعجة. وانت... تكلمت عن صفار وجهي، والأرتعاشة في جسدي... كنت على وشك ان يغمي عليَّ...

الزوج: ووجهك صار بلون الليمون...

(تسمع اصوات صفارات، وقع احذية سريعة... يظهر السكر بشكل واضح في حركات الزوج) هذه الصفارات كأنها لازمة ليلية...

الزوجة: يارب، هذه المطاردات... ترى ماذا حدث...

الزوج: لصوص. ل... ص ... و... ص.

الزوجة: (يمشي بتثاقل) اللصوصية مهنة كلاب... لالا... (يجد صعوبة في الكلام) لكن الكلاب لا تسرق... (ساخراً)... لماذا كلما ازدرينا شخصاً سخيفاً، أو دنيئاً قلنا كلب... او إبن كلب... مع ان الكلب حيوان وفي... يجب أن نقول ابن القطة. (وقفة) تذكرين قطتنا... كنا نعمل المستحيل من اجل راحتها، ونعطيها كل شيء، كانت رغم ذلك تسرق منك اللحم... (بمزح) لم لا نقول ابن الثعلب، او إبن ذئب... (يتكلم بصعوبة...) مسكين هذا الكلب... المهم اللصوصية... (يتوقف).

الزوجة: مهنة تعساء

الزوج: يا لذكاء البعض منهم...

الزوجة: التعاسة تفتح المخ أحياناً...

الزوج: (بجهد) يزوّر البعض منهم خمسة من أصعب التواقيع، ويسلمنا دفتر التقاعد، ونحن نصرف له راتب شخص مجهول... تصوري يراجعنا وهو يتزاحم مع الآخرين ويتقدم بصلافة دون ان تظهر ولو خلجة واحدة على وجهه... ياه من اين يأتون بتلك الأعصاب الفولاذية.

الزوجة: التعاسة تمنح القوة احياناً... (صمت...) قبل أن نرجع يا حبيبي الى جو الدائرة مرة اخرى، هل أحضر العشاء...

الزوج: ليس الآن... (موسيقى تسمع بقوة اكبر. صارخاً) هذا المجنون بدأ من جديد... إبن القطة هذا، هل يتصور ان البناية لا يوجد فيها سواه... إبن الثعلب هذا... آه... آ آ آ خ خ خ من هذا الأزعاج... أخبريه ان يكف... هذه الموسيقى تنغرس في

مخي... (يصرخ) اذهبي وكلمي هذا المراهق... (تسرع الزوجة الى النافذة).

الزوجة: (بصوت عال) محمود خفف من هذا الصوت يا عزيزي. أنت تثير اعصابنا بهذه الموسيقى... نادية... نادية كلمي محمود... ماذا؟ اهو اطرش... الا يحق لنا ان نرتاح قليلاً في الليل... (تخف الموسيقى برفق... وما أن ينقطع صوت الموسيقى، تبدأ اصوات الصفارات، ووقع الأحذية...) هل حقا يتمتع بهذه الموسيقى الصاخبة...

الزوج: (يقلد بفمه موسيقي جاز...) اشك... اشك انه يستمتع... ايه، فوران دم... (وقفة) سأنبه هذا الأشقر الذي (ضاحكاً) له وجه قطة، وأفرك له اذنه... (تأتي اصوات الصفارات بقوة اكثر) وهذه موسيقى ثانية... بعد صمت قصير تأتي طرقات سريعة متتالية على الباب...).

الزوجة: (بصوت هامس وبخوف) من!؟ (يستمر الطرق يسمع صوت لاهث وراء الباب)

الصوت: ارجوك افتح... ارجوك... ارجوك... (ينهض الزوج بتثاقل، ويذهب الى جهة اليسار...)

الزوج: من!؟

الصوت: ارجوك... إفتح الباب... بسرعة. إمنحني فرصة خمس دقائق فقط...

الزوج: من أنت!

الصوت: كيف أستطيع ان اعرفك بنفسي من وراء الباب... أرجوك امنحني مجرد دقائق... أسرع... أرجوك...

الزوجة: (يريد ان افتح الباب) لا تَعقل ولا تفتح...

الزوج: لماذا تخافين... ربما انسان نعرفه... (يستمر الطرق. يفتح الزوج الباب... يندفع شاب نحيف حزين الوجه، مضطرب... يلهث... يلقي نظره الى زوايا الغرفة... يتأمله الزوج بعينين مخمورتين، في حين تتأمله الزوجة بخوف). الشاب: (لاهث) لو فقط سمحتم لي ان أُخبىء نفسي في مكان ما لنصف ساعة. ارجوك... انها مسألة حياة بالنسبة لي... ارجوك...

الزوج: (يتصرف بهدوء ورباطة جأش) لص؟ (يهز الشاب رأسه بالنفي) مجرم!!؟ (يهز

الشاب رأسه بالنفي) سجين هارب!؟ (يهز الشاب رأسه بالنفي)

الشاب: (لاهثاً) لا لا لا... إرشدني الى مكان اختبيء فيه. أرجوك...

الزوجة: نحن في غنى عن المشاكل...

الشاب: (بأستجداء) مجرد نصف ساعة...

الزوج: (يؤشر الى جهة اليمنى) هناك باب يؤدي الى غرفة صغيرة... أسرع... (وقفة) لكن إسمع اذا ظهر انك لص، او مجرم سلمتك لأول شرطي يسأل عنك...

الشاب: أعدك... (يخرج... تبقى الزوجة مضطربة... تقترب من زوجها بخطوات قصيرة...)

الزوجة: (بصوت مثل الوصوصة) من تعتقد ان الشرطة تطارد في مثل هذا الوقت من الليل؟ طبعا اللصوص، والمجرمين...

الزوج: (يأخذ رشفة بسرعة) لنتريث... انه شاب رقيق... ومرهق... قد يكون برئياً وفي حاجة الى المساعدة... (وقفة) لماذا انتِ متوترة الى هذه الدرجة.

الزوجة: آه، يا لطيبتك...

الزوج: إجلسي... لا تنفعلي... (تسمع صافرة طويلة، ووقع اقدام)

الزوجة: (بخوف) انه مجرم بالتأكيد...

الزوج: ما الدليل...

الزوجة: هذه الصافرات، والمطاردات...

الزوج: سخافة عشرات المرات في الليل وحتى في النهار نسمع صافرات، وأبواق سيارات الشرطة، والإسعاف... اوه، مدينة كبيرة، حتماً فيها أحداث كثيرة... إنتظري. لنمنحه نصف ساعة كما طلب...

الزوجة: (بهمس) مسكين... كان يلهث مثل المخنوق.... من يدري منذ متى وهو يركض...

الزوج: لا تتكلمي بخوف...

الزوجة: لا اعرف لِمَ، إن حدسي يؤكد لي بأنه خطير... او قام بعمل مخيف... (وقفة) عيناه كانت تشعان ببريق غريب... (وقفة) هل تسمع الصافرات...

الزوج: مسألة إعتيادية.

الزوجة: (بهمس) إسمع، اعتقد من الأحسن ان تذهب اليه وتكلمه... ربما تتوصل الى نتيجة... اذا إقتنعت بأنه بريء او مطارد لمسألة بسيطة مثلا اتركه... وإلا يا عزيزي يجب أن نتخلص منه بسرعة...

الزوج: (يشرب، وبمنتهى البرود) ها ممم...

الزوجة: كف عن الشرب... فكر...

الزوج: لنتريث قليلا... اراد منا نصف ساعة... لم العجلة.

الزوجة: اخشى ان يورطنا في مسائل نحن في غنى عنها. إسمع استدعيه الى هنا، وقدم له قليلاً من العرق، وتكلم معه بهدؤ... تحرك...

الزوج: (يفكر للحظات... يقفز من مكانه. يسير بترنح الى حيث ذهب الشاب. تبقى الزوجة متوترة... يعود الزوج ومعه الشاب... يجاهد الشاب أن يتصرف بشكل طبيعي. يجلس على أقرب كرسي، ويتأمل الغرفة)

الزوج: هل ترغب في شيء...

الشاب: (يهز رأسه بالنفي...) شكراً...

الزوج: كوب ماء...

الزوجة: (بلطف رغم خوفها) كوب شاي.

الشاب: شكرا... (يبلع ريقه بصعوبة) فقط احتاج الى قليل من الراحة...

الزوجة: ارجوك اذا رغبت في شيء أخبرني...

الشاب: اشكر لطفك ...

الزوج: فمك جاف... اشرب قليلا من الماء... (يملأ له الكأس)

الشاب: حلقي جاف مثل ورق النشاف... منذ ساعات وانا اتعذب، واشتعل من العطش... (يتنهد) الماء شيء ساحر... (ينظر الى الزوجة) يؤسفني جدا لأقلاقكما... الصدفة وحدها، ولطفكما اوصلانني الى هنا... شكرا...

الزوج: (يشرب) اوه... صدف الحياة كثيرة... إرتاح...

الشاب: (بصوت حزين) ان جزءا كبيراً من حياتي ضاع في الصدفة.

الزوج: هل ترغب في كأس من العرق...

الشاب: (يتصرف بشكل طبيعي) لا... لا شكراً... إنني مرهق، ولا اثق كثيرا بحيويتي ثم... ثم لم اجربه من قبل.

الزوج: (يتأمله الزوج طويلاً، ثم يرسل نظرات الى زوجته ما معناها: انه ليس من النوع الخطر...) انت مرهق فعلا،، ألا تعتقد انك بحاجة لتتخدر قليلاً، وتنسى نفسك...

الشاب: لدي اشياء كثيرة... إنني ايها العم في وضع أريد ان أستنجد ببقايا شجاعتي، وصحوي... أنني بحاجة الى صفاء ذهني... (بخجل... ينكس رأسه) شكراً... إستمر انت في الشرب... إني آسف.

الزوج: (يرتاح له... بمزح) هذا يصفي الذهن... جرب. (ضاحكاً) خذ رشفة...

الشاب: لا... مع انني لا اجربه ابداً، واثق انه سيخلق عندي حالة من عدم الأطمئنان. لا... شكرا...

الزوج: (بلطف وهدوء) عدم الاطمئنان من ماذا؟؟

الشاب: من حقائقي.

الزوج: (بحيرة) لا افهمك...

الشاب: وكذلك أنا...

الزوج: (يتأمله طويلا...) انت انسان رقيق فعلاً... انت من النوع الذي يجعل الواحد ان يمنحه ثقتهُ بسهولة.

الشاب: (بخجل) شكراً... لو فقط تعرف ان منح الثقة بسهولة احيانا كم يكلف الانسان من العذابات والأحزان...

الزوجة: (متدخلة) مع ذلك انت تشجع الواحد ان يمنحك الثقة... (وقفة) انت مرهق، وحزين... لكم اشفق عليك...

الشاب: (بتألم) سيدتي، أرجو الا تكثري من الكلمات الشفوقة، انها تحسني بانحطاطية... (وقفة... الى الزوج) المهم... اشكركم...

الزوج: آه، لا تكن حساساً الى هذه الدرجة... إسمع، طالما سمحنا لك بالدخول الى بيتنا فمن اصول الضيافة ان نعاملك بلطف... (وقفة) خفف من حساسيتك.

الشاب: اشكرك... انا بعد كل الذي عانيت، اصبحت من النوع الذي يشمئز من نفسه احياناً، عندما يغدق عليه العطف...

الزوج: لماذا؟

الشاب: (بقليل من الضيق) هل تريدني ان اقدم لك كشف بحياتي... (وقفة. بتألم) آسف، لست في وضع نفسي يسمح لي ان أتكلم عن نفسي...

الزوج: (بفضول سكير) عندك أب، أم...

الشاب: وهل يجب ان اجيب على هذه الأسئلة لقاء إيوائي؟

الزوج: (بلطف) آه... أبداً... أبداً... انت حر...

الشاب: لا تنفعل... ارجوك... اتعرف ماالذي يشجع الواحد ان يكلمك... طيبتك... رقتك... وجهك... بإختصار انت إنسان لطيف...

الشاب: هل حقاً تريد ان تعرف اين والدي؟

الزوج: غير مهم... يهمني فقط ان تتكلم في الشيء الذي ترتاح انت له...

الشاب: (يروح في تأمل طويل) انا اريد ان اعرف اين هو... اين هو...

الزوج والزوجة: (معاً) ماذا؟ لا تعرف اين هو...؟

الشاب: (ينهض... يذرع الغرفة... يتوقف عند الخارطة فوق الجدار... يلقي نظرة طويلة اليها، ويتأمل صور الأطفال) اتعرف ماذا يعني التخطيط الصارم؟

الزوج: (ببلاده) أعرف مثلا بعد التزويرات الكثيرة عندنا في الدائرة، اضطررنا ان نخلق نوعا من التخطيط الدقيق لمعالجة التواقيع المزورة، والمزورين.

الشاب: (يلتفت الى الزوج) لا اقصد هذا النوع من التخطيط... (يشير الى صور الأطفال) التخطيط الذي يجرد الأنسان منذ الطفولة ويحوله الى هيكل... (يضرب الجدار بقبضته) الى جماد... (وقفة) هل لديك طفل؟

الزوج: (بحزن) لا... بعد هذا العمر... (وقفة... بسخرية جميلة) لا... هب بياض.

الشاب: (يدعك جبينه) عجيب... (بغمغمة كما لو يكلم نفسه) اينما اذهب يثار هذا الموضوع رغما عني...

الزوج:أيّ موضوع...؟

الشاب: هل يهمك ان تعرف ان والدي ثري جداً... جداً...؟

الزوج: لا...

الشاب: (بتوتر) الثراء جعله يعتقد ان هناك غايات لا نهائية في الحياة... (وقفة) ليبني مشاريع تحتاج لعشرات السنوات، وهو، هزيل وفي عقده السادس... لمن، ولماذا؟ يتصور ان عظمة الإنسان في مئات الآلاف من الدنانير... (بحزن) من صغري وهو يخطط حياتي تخطيطاً صارما في عالم الصكوك، والعقارات، والمضاربات، والكذب بأستمرار... ،

الزوج: وهل تعيش لوحدك الآن...؟

الشاب: كان حلمي ان أعيش لوحدي... لكنه، وذاك الأستاذ الصعلوك زجياني بين أربع جدران لأعيش مع كائنات تعيش بين الوهم والحقيقة...

الزوج: لا أفهم (يمزح) انني أحيانا لا اتفهمك

الشاب: (يروح في تأمل عميق...) ايه، يا لتلك الأيام الشديدة البؤس. الشديدة الوجع على الروح والقلب... (موسيقى حزينة) كم من سنوات ستظل تلك الأيام الصعبة ملتصقة بذهني، وبروحي... آه، وكم من الشجاعة، والصبر، والتأني أحتاج لأكون نفسي من جديد... (وقفة) سأحاول... سأحاول...

الزوج: (الموسيقى تتلاشى برفق) لا افهم ماذا... (يطلق فواقاً قويا... يعود اليه السكر...) ماذا تقول...

الشاب: فكر فقط انك لا تملك سوى القليل جداً من الذكريات الجميلة، والكثير من الذكريات المخيفة وهي مثل الجراد تأكل مخك...

الزوجة: (بحزن...) انت مرهق بشكل فظيع... اجلس... تمدد...

الشاب: فعلاً... (يجلس...) شكرا... (يضحك هازاً رأسه) اللعنة... اللعنة... الغريب ان الذكريات المخيفة تأتي دون مقدمات...

الزوج: قلت ان والدك كان يريدك ان تصبح تاجراً؟...

الشاب: بل كان ان يلخص حياتي في عالم المضاربات، وهو يقول: انظر كم سهل هذا العالم، بمجرد تلفون واحد ولباقة لسان دون اي جهد تحصل على مائة دينار في دقائق... (وقفة) وما ان كنت ارفض، كان يضطهدني آه... كان يريدني ان اقاتل مثل الثور المطعون من اجل امواله حتى النفس الأخير... (ينكس رأسه) وبعد قليل يرن جرس الهاتف...

الزوجة: الو... الو... مي نعم يا عزيزتي... او... الو... لا افهمك. طبعا أسمعك بوضوح... تكلمي بهدوء... لا تمطي الكلمات. ماذا حدث... ابدا... الو... سيطري على نفسك... لماذا تبكين... اوه يا عزيزتي الأطفال دائماً يسقطون الآف المرات حتى... لا تصرخي... من اين... من فوق الدرج. (تسمع موسيقى الجاز الصاخبة...) دقيقة مي... انتظري. (تزيح الستارة وتفتح النافذة...) نادية... نادية... الا يكفي هذا الصخب... (تصرخ...) بس... بس... نادية... (تنقطع الموسيقى) الو... مي.... ماذا بعد. شج رأسه... ياه... حالته خطرة... في المستشفى. اخ خ خ... لديك طفل واحد لا تعرفين كيف تهتمين به... تعالي عندنا... طيب... تأكدي من النتيجة اولاً... لا تخافي... طيب... في امان... (تعيد السماعة)

الزوج: ماذا ايضاً... مي حائرة بوحيدها...

الزوجة: سقط عامر من فوق الدرج، وهو في وضع خطر...

الزوج: (ببرود) كالعادة... ان نساءً من امثال مي، وتلك التي تملك اربعة لا اعرف ربما خمسة وتضيع كل يوم واحد منهم، وجارتنا المزعجة نادية وابنها الصاخب، يجب ان يكن عقيمات... (وقفة) لكن العقم اللا محترم يحل ضيفاً على امرأة رائعة مثلك، ويحرمك لذة الأمومة. (وقفة) اما مهملات فظيعات لا مباليات، او كما (يؤشر الى الشاب) يقول ضيفنا يستعملن التخطيط الصارم... الم أقل لك يا عزيزتي ان تربية الأطفال فن... (يشرب. ينهض. يترنح... يقترب من الشاب ويربت على كتفه...) لا تهتم... ان امثال والدك من الجشعين يستحقون ال... م... ق... ت...(يلتفت الى زوجته)

الزوجة: (سارحة) لكن من يدري كيف سقط ذاك العزيز عامر... كيف تدحرج... واي جانب من رأسه الجميل اصطدم بحافة الدرج...

الزوج: انا لا اتكلم عن إبن مي... اتكلم عن والد ضيفنا.

الزوجة: آه... والده انسان صعب...

الشاب: (فجأة يتوتر ومثل المصاب بالصرع يرتجف، ويلتقط سكيناً من فوق المنضدة، ويقوم بحركات من يطعن جسدا) هكذا بقوة، وبقوة اكثر، هنا، وهناك بعنف، وبوحشية...

الزوج: (يفيق، وبخوف) وهل طعنته؟

الشاب: (بنفس التوتر) اطعنه وانا افكر بحياتي التي سرقها مني قطرة فقطرة... (ترسل الزوجة نظرات مليئة بالرعب الى زوجها...) وصديقي الشاحب المسلول كان يصفق لي ويؤيدني ويردد: استمر استمر... (صمت) اما ذاك القصير الصامت ظل يقهقه ويردد: هل انتهيت؟ اذاً لا فمتى؟ هل بدأت، اذا لا فمتى.

الزوج: (بخوف شديد) وهل طعنته حقا؟

الشاب: اجل.. طعنته في تلك الغرفة مئات المرات... بوسعي ان اتخيل جسده الآن... طعنته بعدد الدنانير التي يملكها...

الزوجة: (وقد تحولت الى كتلة خوف) وهل... ما... ت...

الزوج: (بخوف) ارجوك... ا... ج ... ل ... س... وهدّيء ا... ع... ص... ا... بك...

الشاب: كنت اقول له... اينا اقوى الآن اموالك ام سكيني... صبري ام لجاجتك؟ حبي للحياة ام حبك لصكوكك؟ كتبي التي حرمتني منها ام سنداتك المالية وكومپيالاتك؟ الأصدقاء الذين كنت اختارهم بجهود... أصدقائي الذين كانوا يضيئون حياتي،أو اولئك الذين كانوا كلما التقيت بهم تكلموا عن سياراتهم الفارهة، وعن مشاريعهم المالية...

الزوج: وذاك المسلول... الذي... هل... شاركك في قتله...

الشاب: (بحزن) كان يكتفي بالتصفيق... كنت احيانا اطعنه من اجل وجهه الحزين... كنت اتصور ان والدي هو المسؤول عن سله... آه... كان ينتشي ويضحك حتى تخنقه سعلة مباغتة، ويردد: انتقم هملت لا من عمه، بل من ابيه... (وقفة) كان يحلم ان يصبح ممثلاً (يتنهد) فجأة كان يقفز من مكانه يمثل مقطعاً من إحدى المسرحيات بشكل رائع... لكن صدره المنخور، ورئيته التعبتين كانتا تقتلانه وهل شارك في الطعن؟

الشاب: ابداً... (ملاطفاً الزوج) ابدا... مثله لم يخلق للطعن... كان رقيقاً... (بحزن) كان يتصور انني أثأر لهملت...

الزوج: اين حدثت الجريمة...

الشاب: جريمة...

الزوج: عفوا اقصد اين قتلته... (تسمع صافرة سيارة اسعاف، ووقع احذية...)

الزوجة: إذهب الى الغرفة... بسرعة...

الزوج: فعلاً... اسرع... ضع السكين هنا... اذهب.

الشاب: سأحتفظ بالسكين... (يذهب)

الزوجة: (بهمس) قلت لا تفتح الباب... شاب قتل والده...

الزوج: مع هذا فهو إنسان طيب... أنا لم افهمه بشكل جيد... (تأتي طرقات على الباب).

الزوج: (بخوف) من!؟

صوت من الخارج: شرطة... افتح الباب رجاء...

الزوجة: افتح... افتح بسرعة... (يفتح الزوج الباب... يدخل مفوض وشرطي، وثلاث رجال... في ملابس مستشفى)

المفوض: نأسف لأقلاقكم... مسألة أمنية فقط... انه هنا...

الزوج: نعم... هل هو قاتل؟

المفوض: لا... مجنون هرب من المستشفى. هل حاول ان يؤذيكم.

الزوج: ابداً... ابداً...

الزوجة: إنتبه... معه سكين...

المفوض: غير مهم... (يلتفت الى الشرطي...) اخبر الأستاذ علي انه هنا... (يخرج الشرطي) هل كانت السكين معه عندما دخل هنا؟

الزوج: لا... السكين من الحجم الصغير... التقطها من فوق المنضدة... (وقفة) لكنه أبداً لا يبدو كمجنون...

الزوجة: في البداية كان طبيعياً، ثم فجأة توتر...

الزوج: هل حقا قتل والده...

المفوض: أبداً... (يدخل الأستاذ علي...)

علي: انا صديقه، ومن أقاربه... اين هو...

الزوجة: (تؤشر...) هناك غرفة صغيرة...

علي: اريد منتهى الهدوء... لا اريد أن يقاطعني اي منكم عندما أتكلم معه... (يتحرك بالأتجاه الذي اشارت اليه الزوجة... يخرج الشاب، وبيده مدية كبيرة).

الشاب: (يجاهد ان يكون طبيعياً) استاذ علي خلتك اكتفيت بعد ان اذقتني الكثير من العذاب... لم لا تحاول ان تهمس بكلمة شريفة، وصادقة لضميرك... (وقفة) اعرف ان لباقة ابي، واحواله، وملعنتك، ثم اختي الطيبة البرئية هي التي اعمتك، وجعلتك ان تكون خادماً امينا... استاذ علي بشرفك هل حقا انا مجنون...

علي: (ببرود) لكن يا سعيد متى اعترف المجنون بجنونه.

سعيد: (بصلابة) حتى هذه اللحظة تغالط نفسك؟ الهذهِ الدرجة تحول المصالح، والأنانية الأنسان الى قلب من حجر؟ من اجل ارضاء نزواتك اذقتني الكثير... من اجل ان تسيطر على اموال والدي، ومن اجل الأستحواذ على اختي الطيبة اتتهمني بالجنون... بل بملعنة ما بعدها من ملعنة جعلت من هذا الجنون الوهمي حقيقة... (وقفة... بسخرية) ان البعض يا استاذ علي مع الأسف الشديد عندما تزداد مواهبهم تزداد سوء استعمالهم لها... والدي رغم دهائه، وحنكته، ونفوذه، فشل ان يبعدني عن اهتماماتي الفكرية، والثورية... (بغضب) اتذكر بأي تملق سخيف، وبأية حفلات ليفرج عني يوم اعتقلت؟ كان يتصور انه شيء عار وشنيع ان يكون له ابن مسجون لأسباب سياسية... (وقفة... وبعنف) وانت يا استاذ علي... الألم الخفيف في ظهري، والصداع النصفي، آه كيف رحت تشككني به، وتعرفني على هذا الطبيب، ثم ذاك، وتعطيني عقاقير حطمتني... واخيراً اودعتني ببرود اعصاب في غرفة المجانين... (وقفة) اتعرف ايها الجلاد كيف قضيت الأيام والليالي طوال ثلاث سنوات في تلك الغرفة... ايام كلها عذاب... موسيقى... اظلام. يسلط ضوء احمر على مجنونين... الأول نحيف طويل، حزين الوجه، والآخر مكتنز... سعيد جالس مثل بوذي في حالة استغراق، بينما المجنون القصير يقوم بحركات كما لو انه يراقب ويترصد احداث من خلال كوة الى الجمهور...

المجنون القصير: (يطلق زعيقاً، ثم ضحكة طويلة) دراجة جميلة سيارة... سوداء كبيرة تلمع... حديقة... (يلتفت الى المجنون الطويل) تعال انظر... انظر... اسرع.

المجنون الطويل: (ينهض بسرعة... يسعل سعالاً طويلا... بالقاء مسرحي) اي مكبث

الشريف نحن (يخنقه السعال) نحن رهن اشارتك... (وقفة ينظر) هل جاءوا من جديد... (بفرح يمط الكلمات) آه... دراجة... السيارة السوداء نفسها (يبكي) هذه المرة الدراجة لي. (يقترب من المجنون القصير) يحتضنه

المجنون القصير: هل سبق وان رأيت إمرأة؟

المجنون الطويل: إمرأة!؟ من زمان... انظر انها جميلة...

المجنون القصير: لا تتكلم بصوت عال... انهم يسمعوننا (بجدية) هؤلاء يسمعون بسرعة... (يضحك)

المجنون الطويل: لا تضحك... انظر سمع ضحكتك والتفت الينا...

المجنون القصير: من؟

المجنون الطويل: لا ترفع صوتك... اوه... صوتك غليظ.

المجنون القصير: اعرف... هذا شيء مكروه في (يبكي) لماذا صوتي غليظ؟

المجنون الطويل: انظر... بصمت... آه... عال... (يصرخ) السيارة تحركت... الدراجة في مكانها... انها لي...

المجنون القصير: خفت صوتك... ها هو آت... انه قبيح بصلعته... مقطب ... (يقطب هو الآخر وجهه) اكرهه.

المجنون الطويل: انه ينظر إلي... بدلته دائماً انيقة... (يسعل) لكنه يشبه الخنزير...

المجنون القصير: اني لا اراه؟... اين الدراجة...

المجنون الطويل: انه يؤشر لي... يهددني... يقول لي اذهب. (يأخذ وضع من يتحدى، ويلقى هذا المقطع من مكبث) ما اشبهك بطيف بنكو... اذهب رؤية تاجك تحرق عيني...

المجنون القصير: ذاك هو... فعلاً (ضاحكا) انه أصلع... اي تاج تقصد؟

المجنون الطويل: إنصرف... آه... الكلب... هددني...

المجنون القصير: مرة اخرى... يتركون الخادمة لوحدها...

المجنون الطويل: إنها سوداء...

المجنون القصير: من؟

المجنون الطويل: من أخبرك ان أسمها من؟

المجنون القصير: من سنوات وأنا اغازلها من هنا.

المجنون الطويل: مستحيل.

المجنون القصير: (يبكي) سأنادي عليها... (بصوت عال) من... من

المجنون الطويل: ها ها ها... لم تلتفت...

المجنون القصير: (باكياً) اسمها من... (يبكي) اسمها من...

المجنون الطويل: هش هش هش. جاءت صديقتي الشقراء... أنظر... ركبت الدراجة (يصفق) جميلة... (يؤشر) هالو...

المجنون القصير: من تعمل خادمة...

المجنون الطويل: والشقراء ملكة...

المجنون القصير: الشقراء كلبة.

المجنون الطويل: من خادمة سوداء بشعة... (يتضاربان بقوة) الجميع ذهبوا... (يبكي) عاد الأصل... تفو... تفو...

المجنون القصير: (بفرح) ومعه من... الآن يتجول في الحديقة...

المجنون الطويل: يجب ان يخرج...

المجنون القصير: لماذا يجب.

المجنون الطويل: انه يفسد كل شيء... انه سخيف.

المجنون القصير: ابن كلب... صلعته.

المجنون الطويل: تلمع... تلمع.

المجنون القصير: (يصفق) جاءت الشقراء... هذه المرة الشقراء لي... انظر... معها كلبها... تحب الكلب اكثر مني.

المجنون الطويل: ليتني كنت كلبها.

المجنون القصير: او دراجة... آه... لديهم كل شيء... (يطلق من فمه صوتاً مثل ذاك الذي ينادي به على الكلب) كلب... لا يهز حتى ذيله...

المجنون الطويل: خرج الأصلع... انتصرنا... (بالقاء مسرحي) ما اشبهك بطيف بنكو... (يصرخ) اذهب... اذهب

المجنون القصير: لا تصرخ... اجفلت الكلب والشقراء.

المجنون الطويل: اعتذر... هل خرج الأصلع بسيارته...

المجنون القصير: (يقلد صوت محرك السيارة) وغاب... هل تحب الشقراء.

المجنون الطويل: بقدر ما تحب انت من.

المجنون القصير: لكن من خادمه...

المجنون الطويل: وانا! من انا؟

المجنون القصير: انسان مجنون.

المجنون الطويل: (يصفعه) انت كلب.

المجنون القصير: (هو الآخر يصفعه) انت كلب مجنون.

المجنون الطويل: (يصرخ) ها ها ها جاءت الشقراء...

المجنون القصير: والخادمة من معها... ها ها ها...

المجنون الطويل: ياه ياه... آ آ آ الشقراء عندها سيارة صغيرة...

المجنون القصير: كذاب... لديها كلب فقط...

المجنون الطويل: انظر... انظر (ضاحكا) حتى الكلب يركب سيارة...

المجنون القصير: قلت لي انا كلب...

المجنون الطويل: يمكنك بعد الآن ان تركب سيارة...

المجنون القصير: (يصفعه) انت عديم الشرف.

المجنون الطويل: لماذا؟

المجنون القصير: انظر بأتجاه يدي... رأيت؟ يقبلها...

المجنون الطويل: (بعصبية) سافلة... (يبكي) هي تقبله اكثر...

المجنون القصير: انظر الى من... تنظر اليهما... الشقراء تعانقه... (يصفق) انها عاهرة... سقطت الشقراء.

المجنون الطويل: (بعد صمت... بالقاء مسرحي) ولماذا انساقت الى الرذيلة... وبحثت عن الحب في اغوار الجريمة [*]

المجنون القصير: وداعا... باي... باي... باي... باي... باي...

المجنون الطويل: هل ذهبا... (يبكي، ويذهب الى سعيد. يتمدد وبهدوء يوسد رأسه فوق فخذه) خيانة... نذالة...

المجنون القصير: من!؟ لا... من رائعه... من خادمه وفيه.

المجنون الطويل: والشقراء.

المجنون القصير: عاهرة. الجميع راحوا... الحديقة خالية... اخذوا حتى الدراجة... (يذهب هو الآخر ويتمدد في الطرف الآخر من سعيد).

المجنون الطويل: (من خلال نشيج) ظلت تقبله... تغازله.... (بالقاء مسرحي) وبحثت عن الحب في اغوار الجريمة... (وقفة) كان يجب ان اقتلها... (الى سعيد) وانت،، الا تبدأ بقتل والدك والأستاذ علي كما تفعل كل ليلة... (يقلده بلهاث) طعنة هنا وطعنه هناك... (يخنقه سعال حاد...) آه... ايهما ستقتل هذه الليلة... الأستاذ علي... لا تجرحه اقتله... (ضاحكا...) طعنه هنا وهناك... (بالقاء مسرحي من مكبث) جرحنا الثعبان ولم نقتله، فهو سيشفى ويستعيد قواه، وسنبقى متعرضين للسعاته (يبكي) اقتله... (صمت يكف الجميع عن الحركة... بعد قليل يغط الجميع في نوم عميق. موسيقى... يتقلص الضوء الأحمر برفق إظلام. يعود الضوء الى المنظر السابق)

علي: (بإبتسامة ساخرة) سعيد، مرة اخرى تعود لتلك المحاضرة نفسها... انت لا تعرف وضعك مثلما اعرفه أنا... انت لا تعرف اوهامك...

سعيد: لم تكن لدي اوهام... كانت لدي حقائق... انني ادفع ثمن اوهامك انت... كان والدي يريدني ان اعيش في فرح ميت...

علي: (يطلق ضحكة ساخرة) وهل هناك فرح ميت؟

سعيد: (بحزن) فرح عبثك الصبياني مع اختي... (اظلام منظر نافذة تطل على حديقة...

(*) من مسرحية مكبث.

يسلط ضوء حليبي على النافذة. موسيقى خفيفة)

هيفاء: (فتاة شابة رقيقة) الا تبدو الأشجار اكثر خضرة تحت الأضواء؟ (بهمس) يا لهذا الخضار الرائق.

هيفاء: انظر الى اوراق شجرة التين... تشبه اليد المفتوحة (تطلق ضحكة حلوة) هل نظرت الى ورقة التين في ضوء الشمس...

علي: لا... ماذا فيها...

هيفاء: فيها مئات الشرايين... ساحرة هذه الطبيعة...

علي: (يحاول ان يقبلها) لماذا تهربين مني... تعالي.

هيفاء: ما لون التين تحت الأضواء... انظر... هنا... اي عنقود كبير...

علي: (بصوت شبق) تكلمي في اشياء اخرى...

هيفاء: انظر الى شجرة السرو تلك...

علي: اوه... انها مجرد شجرة.

هيفاء: الا ترى فيها شيئاً آخر؟

علي: (يقرب فمه من رأسها) انها مجرد شجرة... شجرة عادية.

هيفاء: كان يجب ان تستمع كثيراً الى سعيد... ايه، علمني ان أرى الأشياء، بل حتى الأشياء الخالية من الجمال...

علي: لكن ماذا يمكن ان يرى الواحد شجرة عادية مثل شجرة السرو...

هيفاء: استقامتها، شموخها، تحديدها لكل الفصول سخريتها من شمس الصيف. فيها كبرياء... خضراء في كل المواسم... لهذه الأسباب أحبها كثيراً...

علي: وهل للشجرة كبرياء... تكلمي في مواضيع اخرى...

هيفاء: قلت ان سعيداً يتماثل للشفاء... ثلاث سنوات... (وقفة) متى سيترك المستشفى؟

علي: بعد اسابيع...

هيفاء: لكن هذه الأسابيع تطول... كلما سألتك قلت بعد اسابيع...

علي: وهل الجنون مرض سهل... (يحاول ان يقبلها)

هيفاء: انظر الى تلك السحلية فوق الجدار...

علي: وهل ثمة جمال في منظر السحلية...

هيفاء: انظر بأي مكر تزحف لأبتلاع تلك الحشرة... بلمحة بصر تحط عليها... (تضحك ماكرة...

علي: تكلمي في مواضيع اخرى... اسمعيني اشياء جميلة.

هيفاء: للمناسبة، لماذا لا تسمح لنا بزيارته... هل فعلاً لو زرنا سعيداً زدنا وضعه صعوبة... ثلاث سنوات. بوسعنا ان ننتظر اسابيع اخر...

علي: (يقترب منها) تكلمي في مواضيع اخرى...

هيفاء: يجب ان اذهب... إنني مرهقة...

علي: أبهذه السرعة...؟

هيفاء: مرهقة، و ضجرة... (تخرج... إظلام... نعود الى المنظر نفسه)

علي: (الى سعيد بجفاف...) كفى... الا تكف عن المحاضرة...

سعيد: الفرح الميت يا استاذ علي هو فرح تبجحك بسيارتك الجديدة... فرح التباهي بأربطتك الايطالية الصنع التي تكلف الواحد منها سبعة دنانير... (يتوجه الى حيث الخارطة) تعرف الريفيرا... بفضل فلوس والدي، والنساء... هذا هو الفرح الميت...

علي: (بسخرية) هل ستبقى مثالياً؟

سعيد: (هو الآخر بسخرية) في عرفك أنا مجنون، ولست مثالياً... لا اعرف كيف لا تشمئز من نفسك... منذ ان عرفت نفسي وجدتني غريباً عن والدي... انتم فعلاً موتى...

علي: (ببرود) هذا الكلام لا يثير عندي اي شفقة، ولا يمكنها ان تحرك عواطفي...

سعيد: انا اعرف انك ميت... ميت...

علي: القي المدية ودعنا نذهب... انت بحاجة الى علاج... هناك امكانية كبيرة لعلاجك... لا تعاند... تعال.

سعيد: كم ارثى لك... الهى، كم تحتاج لكي تصبح انساناً...

علي: هل ستأتي ام لا... ام تريدني ان استعمل

سعيد: (مقاطعا) لا تستعمل معي لغة الجلادين... مستحيل ان ارجع مرة اخرى الى تلك الغرفة... الى الأحزان... استاذ علي من سنوات وتطوقني مثل الجذام... سنوات ثقيلة مع مجانين اتلفت الكثير من حياتي... (وقفة) لدي بقية ارادة، وشجاعة لأبني نفسي من جديد. استاذ علي لدي شوق كبير للفكر، للكتب... لا أريد ان اكون وريثاً لأموال والدي... اذهب... اذهب وتمتع انت بكل شيء... ماذا تريد اكثر...

علي: (ببرود) هل سنبقى نثرثر، ونقلق راحة الناس في بيوتهم؟

الزوج: (يتدخل) لكن فعلاً لا شيء فيه يدل انه مجنون... انه على العكس عاقل...

علي: اخي... ارجوك... انت سكران...

الزوج: صحيح... حتى السكران يستطيع ان يقول هذا الأنسان طبيعي...

سعيد: (الى علي) ايها الثعبان... كان يجب ان اقتلك...

علي: تعال... والا سأضطر ان استعمل معك القوة...

سعيد: اين... مرة اخرى الى تلك الغرفة... الى تلك المقصلة... (يهجمون عليه، ويأخذونه بقوة... صمت...)

الزوج: اقسم انه لم يكن مجنوناً...

الزوجة: شيء غريب...

الزوج: تألمت كثيرا له... اريد ان... اين سيأخذونه. وماذا سيعملون به...

الزوجة: في الليل... تعال... لا تخرج... (يخرج الزوج... بعد قليل يأتي صوت المرأة التي فقدت ابنها)

صوت المرأة (بفرح) وجدته... آه لو تعرفوا اين كان ابن الكلب. (اصوات... أين... حتماً في بيت الجيران...... كان نائماً تحت الأريكة... أصوات مختلطة... صفارة سيارة إسعاف... أصوات أطفال...

ستار

١٩٧٥

جيفارا عاد، إفتحوا الأبواب

مسرح

جيفارا عاد، إفتحوا الأبواب

إلى هناء الشيباني التي بحثت في التحرير والفداء عن كمالها البشري.
الى هناء التي نافستني في حب جيفارا ، أقدم مسرحيتي...

(ظلام، تُسمع موسيقى شعبية تُعزف برفق. بعد لحظات يسلط ضوء أحمر خفيف على وجه جيفارا حتى أسفل العنق. السيكار في زاوية فمه. يُطلق موجات خفيفة من الدخان. يسمع صوت نسوي واضح وإن كان يأتي من بعيد)

الصوت: ارنستو، ارنستو. (صمت. يسمع صدى كلمة ارنستو)

جيفارا: (يستمر الضوء على وجه جيفارا. يلتفت جهة الصوت. يُخرِج السيكار. ينتبه جيداً، يبتسم. لنفسهِ) إنه صوت والدتي. (ينادي) من هناك؟

الصوت: ارنستو.

جيفارا: (يُغمض عينه الواحدة. يستمر في رسم الإبتسامة على وجههِ) ماذا تُريدين؟

الصوت: (بجرسٍ حزين) بل أنت ماذا تريد في النهاية. هل ستبقى جوالاً؟

جيفارا: جوالاً؟ لا تقولي هذهِ الكلمة.

الصوت: ألا يكفي. قُلّ، يا ارنستو ماذا تريد في النهاية؟

جيفارا: إسمعي، لن أستطيع بعد الآن أن أعيش في ذلك الركن الهادىء. المبتذل بالنعمة. أُتركيني...

الصوت: (يزيد الصوت حناناً) لكن ماذا تريد في النهاية؟

جيفارا: أعرف ماذا أريد. (صوت أقدام) لن يفيدك الإستجداء.

الصوت: لكن ألا تخبرني ماذا تُريد في النهاية؟ ثم ألا يكفي؟

جيفارا: إريد كل شيء أو لا شيء. أريد أن تلذ الحياة لكل إنسان.

الصوت: وهل تستطيع ذلك حقاً وسط هذا الخراب؟

جيفارا: المهم أنني ألقيت على عاتقي جميع أنواع الإلتزام.

الصوت: لماذا أنت؟

جيفارا: لا تسألّيني لماذا أنا. لم تعد هذه العاطفة البرجوازية تثيرني. إسمعي، ما كان

بوسعي أن أعيش مخاصماً نفسي. (بصوتٍ عال) إنسي ارنستو، وخفّفي من حمى حواسك. ارنستو لم يعد موجوداً. إذهبي(صوت أقدام) لا تتسلقي السراب.

(يذبل الصوت، ويُسمع صدى بعيد. تستمر الموسيقى الشعبية. يختفي الضوء الأحمر من وجه جيفارا. ظلام. ضوء فانوس ووجه بلون النحاس المطروق، ثم وقع أقدام في الطين. يدان طويلتان تنبشان في الطين. يتقدم شبحُ طويل في إتجاه ضوء الفانوس. يضيع ضوء الفانوس. بعد قليل يسلط ضوء بلون الفجر)

القس: (الى فلاحٍ منهمك في نبش الطين) لماذا أطفأت الفانوس؟ حتى في الليل تجمعون السراطين.

الفلاح: (يرسل نظرة طويلة الى القس) ألا يجب أن نأكل؟ إنها حيوانات بريئة تخرج في مثل هذا الوقت للتجوال.

القس: جرب أن تأكل شيئاً آخر.

الفلاح: أنا سيدي القس لا يأتيني الأكل على طبق من الفضة مثلما يأتيك. (بسخرية) والغريب أن كلانا أكثر نحولاً من الأفعى.

القس: أنا الآخر لا أتناول سوى وجبات ميتة.

الفلاح: تصومون برضاكم، ونصوم مُرغمين.

القس: (يطلق ضحكة) عودونا على الصوم.

الفلاح: (بسخرية) كلانا بأمر الدين على ما أظن.

القس: (بأندهاش) جمعت كمية كبيرة من السراطين.

الفلاح: لحمنا الوحيد.

القس: ألم تجرب عملاً آخر؟

الفلاح: أين مثلاً؟ هل تقبلونني في الكنيسة؟

القس: في المدينة، في إحدى الورشات.

الفلاح: لا أعرف إلا الحرث والزرع. حتى هذا العمل الذي أجيده لا أحصل عليه هنا.

القس: إعمل شيئاً آخر.

الفلاح: آه، يمكن أن أجد عملاً بسيطاً واحداً، ولكنه يحتاج ...... (يصمت).

القس: يحتاج الى ماذا؟

الفلاح: أوه، لا يحتاج الى شيء. سأقوم به ذات يوم. أشتم الكنيسة، وجنرالاً، لا على التعيين، ثم الدولة وأدخل السجن، وأعيش هناك على نوع آخر من الحساء والخبز.

القس: لو كنت في مكانك لقذفت الدولة بألف شتيمة.

الفلاح: (ينهض ويقترب من القس)أنت قسٌ ديمقراطي... هل تستطيع أن تشتم الكنيسة، وجنرالاً؟

القس: لو عشت طوال حياتي على السراطين لما تركت كلمة واحدة إلا وقلتها للكنيسة.

الفلاح: تشجعني أن أقول أن الكنيسة هي مبعث مآسينا.

القس: (بلا مبالاة) قُل أكثر.

الفلاح: يعيش فيها غُربان ينقلون دخان التخدير للناس جميعاً.

القس: أكثر... أكثر.

الفلاح: ويشاركون الدولة في ظلمنا.

القس: أكثر يا أخي.

الفلاح: (ضاحكاً) لا أجيد الشتم أكثر من هذا، (ظلام. يسلط الضوء الأحمر نفسه على جيفارا، في حين يعود الضوء الشبيه بالفجر الى القس والفلاح. يدخل شاب بملابس القتال نطاق الضوء مسلط على القس والفلاح).

الشاب: (بفرح) أوه، أرمان إنها حصيلة كبيرة... يالها من سراطين كبيرة.

أرمان: (يندفع ليحتضن الشاب) معذرةً يا روبير يداي موحلتان.

روبير: إحتضني. هل تخاف أن تلطخ بدلتي. يا لك من فكاهي.

أرمان: متى وصلتهم؟

روبير:الآن. هل كنت تعمل في الظلام؟

أرمان: كلا. أطفأت فانوسي عندما إقترب هذا القس. إنه قس رائع. (يتبادل القس وروبير نظرات طويلة. موسيقى خفيفة) كنت أتهجم على الكنيسة وهو يستمع إليّ بِلذة.

روبير: وماذا يعمل قس في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل هنا؟

أرمان: يهربون أحياناً من بين جدران الكنيسة.

القس: (مقاطعاً) أو لنلتقي بمقاتلين من أمثالكما.

أرمان: إنه قسٌ متحرر وديمقراطي.

روبير: (يطلق ضحكة عالية، ويلتفت صوب الضوء الأحمر) تشي، تشي هل سمعت بقس متحرر وديمقراطي؟

جيفارا: (من نطاق الضوء الأحمر) سمعت عن قس ثوري. ألم تسمع عن كاميليو توريس. (بأسف) من هناك غير أرمان تكلمه؟

روبير: قس.

القس: (بأنشداه) هل تشي هناك؟

روبير: هل تعرف تشي؟

القس: شخصياً؟ كلا... لكنني دائماً عرفته بقلبي.

جيفارا: (يرى القس. يدخل جيفارا نطاق الضوء. يقترب القس منه) عم تبحث في هذا الوقت من الليل؟

القس: قيل لي أنك ستأتي الى هذه المنطقة في مثل هذا الوقت.

جيفارا: (بوجهٍ متهجم) من؟

القس: المهم جئت لأراك.

جيفارا: ماذا تريد؟

القس: أريد أن أحمل السلاح معكم.

جيفارا: لماذا؟

القس: ألم تعرفوا السبب عندما حملتم السلاح. أيها الرفيق، يوم دخلت الكنيسة كنت أبحث عن جوهري كإنسان في الدين. غير أنني إقتنعت عبر التجارب، إنه معكم في الموت.

جيفارا: (يرتاح لكلام القس) إقترب. (يقترب القس) أنت قس نحيل.

القس: من العذاب أيها الرفيق. عذاب الضمير، وهذا الضحك المستمر على الشعب. هل يعقل أن يؤمن الإنسان في هذا العصر بالذات، بأن الرق كما قال القديس أوغسطين عقاب على الخطيئة، وأن تكون تمرداً على إرادته محاولة إلغاء هذا

الرق. وهل ثمة رق أفحش من ذاك الذي في نصف قارتنا.

جيفارا: (يطلق ضحكة ساخرة) لطيف جداً أيها القس. وهل تريد حقاً أن تتمرد على إرادته؟

القس: وهل يبقى الرق كعقاب على الخطيئة. ثم أية خطيئة أيها الرفيق.

جيفارا: هل سمعت بكاميليو توريس؟

القس: أنت وهو الهمتمانني. أرجوك علمني حمل السلاح.

أرمان: إخلع هذه الجبة أولاً.

جيفارا: (يرسل نظرة حادة الى أرمان) أتعجب كيف أصبحت قساً؟

القس: أيها الرفيق، الإنسان قد يصبح أي شيء إذا إقتنع. كنت في مستهل حياتي أتصور أن الدين هو الإحتجاج الحقيقي ضد الشقاء. ثم إتضح لي، أنه إحتجاج على كل مفهوم إحتجاجي من أجلِ إزالة الشقاء. (يبتسم القس، ثم يضحك).

جيفارا: لماذا ضحكت؟

القس: لأنني سعيد. بل لم أحس بالسعادة قدر إحساسي بها الآن. فرحت كثيراً عندما دخلت الدير. وفي غمرة إنشغالاتي، وإجتهاداتي الدينية، كنت أتصور أن السعادة هي في إمتلاك الله في الداخل. (يهز رأسه) لكن، هل حقاً يمكن أن يمتلك الإنسان سراباً.

جيفارا: تعجبني جداً هذه المحاولة الصعبة في التغلب على تربيتك السابقة.

القس: حكيمُ جداً أنت أيها الرفيق.

جيفارا: أبداً... لست كما يصورني البعض. أنا مقاتل، ولست فيلسوفاً.

القس: أجل لكنك تقول القليل وبعمق. صحيح أنني مثل الأنبيق الذي يقطر فيه الصيدلي مواده الكيمياوية، قطروا في داخلي أفكاراً كثيرة، قبل أن أجيء الى هذه المنطقة حاربت نفسي كثيراً. أو ربما ساعدتني قراءاتي الكثيرة في غير اللاهوت أن أجد نفسي أكثر.

جيفارا: رائع. (يلتفت جيفارا حوله) إنه لشيءُ جميل أن يدخل الواحد في حوارٍ فكري بعد منتصف الليل وفي هذا المستنقع الطيني.

القس: ألا نجلس في مكان لنتكلم أكثر؟

جيفارا: أحب الوقوف. حاول أن تتعلم الوقوف لساعات طويلة.

القس: هناك، تعلمت أنواع التقشف. بين تلك الجدران حيث عملية إسكار الجسد بالحماسة، وتلك الإهتمامات النافلة، بالمصائب، والآخرة علمتني أنواع الصوم، والتحمل.. تعرف حياة القساوسة.

جيفارا: أعرفها... إسمع، هل تعتقد بعد تلك التربية، أنك لن تندم لأنك إلتحقت بنا؟

القس: ولِمَ الندم وبولفيا تعيش في الخوف والجهل. لِمَ الندم وأنا جئتكم بنفسي.

جيفارا: مجرد سؤال. إنه لشيءُ رائع أن يموت الإنسان مطمئن الضمير.

القس: أيها الرفيق تشي، أعتقد وجود أنبل الأشياء في أيدي ثلة من رجال الأعمال، والمقامرين في نصف قارتنا المطمورة برمال الضياع، يجعل الواحد منا يحس أن أكثر الأشياء سخاءاً هو التضحية بحياته.

جيفارا: (الى روبير) روبير أعطه رشاشاً. (يقدم روبير رشاشاً للقس. يستلمه القس. بعد أن يتأمل الرشاش)

القس: آمل، أيها الرفيق أن أكون عند حسن ظنكم.

جيفارا: في خطوط النار سنتعرف عليك أكثر.

القس: بل أضيف أيها الرفيق، آمل أن نتعارف في خطوط أبعد من فكرة الموت. (تسمع أصوات أقدام، وأغنية شعبية تأتي من بعيد).

جيفارا: (لأرمان) من؟

أرمان: الفلاحون... في طريقهم الى العمل..

القس: تأمل أيها الرفيق كم من الأجيال اليائسة عاشت وماتت في المستنقعات وعلى هذه الأرض.

جيفارا: (متنهداً) كثيرون...

القس: هل سمعت بسانت اكزوبري؟

جيفارا: يعجبني هذا الكاتب.

القس: قال مرّة: الفلاح لا الروائي هو الذي يحس أكثر من غيره بشعر الأرض.

جيفارا: ثم يقدم قصائد الأرض الغنية على طبق من فضة للحثالة.

القس: تلك هي المأساة.

جيفارا: (لأرمان) تهيأ يا أرمان... وانت يا روبين ضع السلاطين في كيس ولننطلق. (الى القس) تذكر هذه البداية.

القس: أذكر جيداً بدايتك، وكلماتك الدافئة أثناء تعرفك بكاسترو في بيت آنا ماريا.

جيفارا: من البداية. وعندما تقترب النهاية تذكر الواحد بأكثر من حنين.

(يبتسم للقس، يلتحق القس بروبير. يرجع أرمان)

أرمان: إنه فرحٌ جداً.

جيفارا: فرح الأبطال... إذا لم يخني الحدس.

أرمان: هل سندربه على الرمي؟

جيفارا: وعلى السير الطويل، وتسلق الجبال، والجري، إفسح له المجال... يعجبني هذا القس. يا أرمان، يبدو أن كاميليو توريس أشعل فتيلة جديدة في الكنائس.

أرمان: أعجبتني لغته.

جيفارا: الجميل هو أنه يستلهم الأشياء الثورية من فكره المثالي.

أرمان: إنه نحيل جداً. (يدخل روبير).

روبير: (لارمان) إلتحق بالقس. (يذهب أرمان) يبدو أن الكنيسة علمته منتهى الهدوء. أعجبتني جملة اكزوبري.

جيفارا: كم تمثل الحقيقة. بل أكثر من الحقيقة يا روبير... (يرجع القس).

القس: أيها الرفيق تشي، ترى من الذي سيصدقنا لو قلنا أننا كنا نتكلم عن أكزوبري وسط مستنقع طيني، والرفيق أرمان مثل مالك الخزين ينبش في الطين عن السراطين، والفجر على وشك أن ينبلج.

جيفارا: كل شيء الى الذين لم يجدوا كمالهم البشري وجوهرهم، يصبح حقيقة.

القس: هل تقصد أن الإنسان في الموت يكتشف جوهره البشري؟

جيفارا: ربما عند البحث عن الموت بوعي من أجل الآخرين، أو من أجلِ هدفٍ شريف.

القس: (يبتسم) من جديد ذكرتني بكلمة أخرى لأكزوبري. قال: الحب لا يتحقق بأن ينظر كل منا الى الآخر، بل بأن ننظر معاً في إتجاه واحد.

جيفارا: لننطلق إذاً.

(موسيقى درامية، يسلط ضوء دائري أحمر على صورة لجيفارا على جدار

طيني، وتحت الصورة رقم ٢٠٫٠٠٠ بيزا ثمن لرأس جيفارا حياً أو ميتاً، يسمع خوار أبقار، وثغاء خرفان، وأصوات متناثرة. تتسع دائرة الضوء برفق. يدخل فلاحان وإمرأة قروية وصبي نطاق الضوء الأحمر. تنقطع الموسيقى الدرامية. تسمع موسيقى من قيثارة.)

الفلاح الأول: صور هذا الإنسان غطت جدران القرية. لم يحدث أن قدمت الحكومة مثل هذا المبلغ الخيالي ثمناً لرأس إنسان واحد .

الفلاح الثاني:(رجل كهل) أمثال هذه الرؤوس كانت غالية الثمن ذات مرّة في المكسيك، وفنزويلا.

الفلاح الأول: هل هم سحرة، أم لماذا؟

الفلاح الثاني: كانوا يقولون أن لزاباتا الأمي الذي جرّ وراءه جيشاً من الفلاحين، قوة السحر.

الفلاح الأول: ماذا كان زاباتا هذا؟

الفلاح الثاني: إنساناً، لكنه كان يريد لأمثالنا من مدبوغي الجلود تحت الشمس، والمتعفني الدماء من لحم السراطين أن يعيشوا بشرف.

المرأة: (وهي توزع نظراتها بين صورة تشي، والفلاح الكهل) أين هو الآن؟

الفلاح الثاني: حتى لا قبر له... أمثال هؤلاء لا يحصلون حتى على حفرة حقيرة ليُدفنوا فيها.

المرأة: وأين صاحب هذه الصورة؟

الفلاح الثاني: في مكان ما في الأدغال... ربما تعود أرواح زابتا، وسيمون بوليفار، وخوسيه، من جديد الى أرضنا، سترون المزيد من هذه الصور. (ظلام. يظهر الطفل الصغير لصق الجدار نفسه، ومعه ثلة من الأطفال).

الطفل: أنا جيفارا، وأنتم رجال البوليس والجيش، تطاردونني.

الطفل٢: (ضاحكاً) أنت لا لحية لك... ولا شارب.

الطفل: لا بأس طاردوني.

الطفل٣: قبل أن نطاردك يجب أن تختفي.

الطفل: سأختفي.

الطفل٤: سنطلق عليك الرصاص. (يخرج من فمه أصواتاً من الإطلاقات).

الأطفال:(بصوت واحد) ظهر جيفارا، أتبعوه.(ظلام)

(المنظر السابق نفسه بدون المرأة والصبي، والفلاح الأول. الفلاح الثاني يتأمل بحزن صورة جيفارا. يدخل عسكري، ويقترب من الفلاح الثاني).

العسكري: (هازاً رأسه أمام الصورة) مبلغٌ كبير، أليس كذلك؟

الفلاح الثاني: كبير، لاشك. لكن أين الرجل الذي يستطيع الإقتراب من مكانه؟

العسكري: (بلا مبالاة) كثيرون.

الفلاح الثاني: أخشى أن يقبضوا طلقات على صدورهم بدلاً من ٢٠ر٠٠٠ بيزا، أيها العسكري، يقولون، وأنا لم أرى طبعاً شخصياً، أنه عندما أطلقوا على زاباتا أكثر من خمسين طلقة مدّ يده مع ذلك الى بندقيته.

العسكري: من يكون زاباتا هذا؟

الفلاح الثاني: رأسٌ آخر كان له الثمن نفسه.

العسكري: (يترك الفلاح، بعد ان يرسم على وجهه علامة خوف)...

(صف من صفوف الجامعة. لا أحد في الصف. صورة بالطباشير لجيفارا وتحت الصورة هذه الجملة: حوصر جيفارا، وإستشهد مع رفاقه السبعة عشر. تدخل ثلة من الطلاب، ويتبعهم بعد قليل أستاذ، يُلقي الأستاذ نظرة سريعة الى السبورة).

الأستاذ: (بعد أن يتأمل الطلاب) قلنا في المحاضرة السابقة، أن بوسع الفرد في جميع الظروف أن ينمي ملكاته الذاتية، وأن يكون حراً حتى بمعزل عن الآخرين.

طالب: لا تصبح حرية الفرد ممكنة إلا بين الجماعة. ذلك أن ممارسة الأشياء التي هي معيار الحقيقة ليست فردية بل جماعية.

طالب٢: ولهذا قتلوهم جميعاً في الأدغال.

طالب٣: وبوليفيا حزينة أكثر من اللازم.

طالب٤: نرجو أن يترك الأستاذ الصف ليسمح لنا أن نقف حداداً على روح جيفارا، وأن يريح آذاننا من فلسفته المثالية.

(صراخ، حوار، مناقشة، يخرج الأستاذ. يملأ الطلاب السبورة بعشرات الشعارات.ظلام. هدير ماكنة هليكوبتر، طلقات سريعة ومتقطعة. أضواء

كاميرات تلمع في الظلام، وجه جيفارا وهو ميت. يسلط ضوء بلون الفجر على القس. يتقدم القس مقدمة المسرح ضمن دائرة الضوء).

القس: لم يبعثني جيفارا كي أشرح. تعرفون كلكم، إنه أستشهد. تعلمت منه، ومن رفاقه التضحية بالنفس نوع من الحب يطهر الإنسان من أشياء كثيرة. إتهموه بالمغامر. ليكن. كان مغامراً أمميا. أنتم أيها السادة تعرفون جيداً بأن للنصر آباء كثيرين، أما الهزيمة فطفلٌ لقيط. لست أعرف أي عسكري قال هذا الكلام. كان ارنستو يريد أن يرى بإصرار حياة الحياة. في حياة الخطر تضامنت معه ضد الموت. لنتضامن الآن لا ضد الموت وحسب، بل كذلك مع أفكاره. أذكر ، أنه قال لي نقلاً عن كاتب فرنسي نسي أسمه: أيها القس، الوفاء الحقيقي هو أن نحتفظ لا بالرماد من تراث الأقدمين. بل بالشعلة الحية التي أوقدوها. وأنا لا أطلب أكثر من أن تبحثوا في الشعلة الحية التي أوقدها هو. كان تشي إرادة بسيطة. أقول بسيطة، ذلك لأنه كان إنساناً قبل كل شيء. غير أن تلك ومتقطعة. أضواء كاميرات تلمع في الظلام، وجه العالم عملاً له قيمة حقيقية. لنرَّ بعضاً من تلك القيم ورائحة دمه ما زالت ساخنة. (ظلام)

(منظر ليلي لشارع في نيويورك. باعة الصحف يهرعون، ويصرخون:أقرأوا موت قديس أمريكا اللاتينية. إقرأوا حياة الطبيب، والمتمرد الجوال. صورة على الصفحة الأولى للجريدة).

إمرأة أمريكية: وواوو... وواوو... يالشكله الرائع.

إمرأة أمريكية٢: أهو هذا... عيناه أكثر من جميلتين.

(أصوات: إقرأوا. إنتهت حياة الأسطورة تشي)

(ظلام)

(ضوء على إجتماع طلابي في بلد أوروبي)

شابٌ أشقر: (بحماسة) أيها الأخوة، إذا كان ينقصنا نبي ليُلهِم إرادتنا ويدفعنا لكي نكون سادة على كل شيء، فها هو تشي جيفارا، بكل سلوكه أثبت ذلك... المجد لتشي.

(تسلط أضواء على صور لتشي تتصدر مظاهرة. ظلام. شارع فرعي في

دمشق. فدائي ملثم يلصق منشوراً على جدار–عملية تشي جيفارا. ظلام. المظاهرة نفسها. صور تشي، وهو تشي منه، وماو. هتافات. وقع أقدام تصادم. يخيم صمت على المسرح للحظات. يسمع الصوت نفسه كما في بداية المسرحية. موسيقى خفيفة).

الصوت: لكن ماذا تريد في النهاية يا ارنستو؟

جيفارا: (دون أن يظهر هذه المرّة) أعرف ماذا أريد. لن يفيدك الإستجداء. أريد كل شيء أو لا شيء. أريد أن تلذ الحياة لكل إنسان.

(يتلاشى الصوت. تسلط ثلاث دوائر من الأضواء البنفسجية على صور جيفارا على جدار طيني. يقترب القس من الصور، وهو يرتدي ملابس قتال).

القس: أيها السادة. ربما الآن تتفقون معي، بأن البطولة تنمي الفرد وتوسع كثافة الحياة، وتقرب الإنسان الى أعماق الإنسانية. تعرفون جيداً أنه ليس بوسع كل واحد أن يقول للواقع ألذي أعطي له لا... وإذا أستطاع، ومن ثم دفع حياته ثمناً لكلمة لا، يصبح مثل نبع اميليه الذي قال عنه أفلاطون لا يمكن لوعاء أن يمسكه. أن تشي أصبح مثل اميليه لا يمكن لوعاء أن يمسكه.

يوم التقيت به في المستنقع مع ارمان وروبير، وبعد أن أنطلقنا، أجرت الشرطة تفتيشاً، وتعذيباً دموياً في كل مكان في تلك القرية المسكينة، حتى أن بعض أفراد القرية من فرط التعذيب أصيب بأمراض الهلوسة، والجنون، ورؤية الكوابيس. يمكنكم أن تدخلوا بيت الفلاح بيترو لتروا جانباً من ذاك الكابوس. (ظلام).

(غرفة عائلة فلاحية كبيرة. نافذة في الجانب الأيمن. على الجدار المواجه للجمهور صور للمسيح، والعذراء، ولبعض القديسين. تتكون العائلة من الأب بيترو وهو رجل كهل. ولينا زوجته عجوز بعمر الزوج. ريكاردو وهو شاب وسيم يعمل مع أخيه الفونسو في المزرعة. ماريا أبنة بيترو في العشرين جميلة وحيوية. العائلة كلها في حيرة، وإضطراب، وخوف. ما عدا ريكاردو وماريا يحاولان تخفيف الإضطراب عن الآب، والأم).

بيترو: (بذهول وهو يلطم جبينه) لو عرفت من الذي نشر الخبر في القرية كلها.

لينا: (هازة رأسها) لِمَ نحن دون هذه القرية؟ (بصوت حزين) لماذا زارنا نحن؟

ريكاردو: (صارخاً بغضب) كل يوم من الصباح حتى المساء هذا الصراخ. لماذا زارنا

نحن، أو لماذا لم يزُر بيتاً آخر. زارنا وإنتهى.(يحاول أن يخفف من هياجه) ماذا، إنه إستشهد قبل أكثر من أسبوعين، إفهمي. ما هذا الهوس المجنون. ربما تخيلته أمس أكثر من اللازم، وتذكرت كيف عذّبوا أندريوس الذي باعه الدجاجات قبل إستشهاده عندما زار القرية، ثم تصورت ما الذي سيحدث لك، ولي، ولوالدي لو زارنا. أليس كذلك؟ ثم أمس كان عيد جميع القديسين، ربما تخيلت شكله ومن ثم حلمت به وهو يزورنا ويريد شراء بعض الحاجيات. إنه مجرد وهم.

لينا: (بفزع) وهم؟ رأيته بعيني. خاطبني، بل أنه لمس شعري بيدهِ.

ريكاردو: وهم... وهم يا ماما. في يوم جميع القديسين بؤساء من أمثالنا يصلون ساعات طويلة. ويتخيلون وجوه القديسين. ألا يشبه وجهه واحداً من القديسين؟

لينا: لكنه خاطبني.

ماريا:(زاعقة) خاطبكِ. ثم ماذا؟ أهو دنس؟

بيترو: ماريا... ماريا. أنكِ بهذه الصلافة ستجلبين لنا الموت.

ماريا: ماما قتلتنا قبل أن تموت فعلاً... ثم أي ضير في أن يدخل شبح بيت إنسان؟

بيترو: الشرطة... الجيش... عما قريب سيأتون للتحقيق معنا.

ماريا: (بغضب) لأنك روجت، وأفهمت القرية أنه جاء يطلب مواد غذائية. بابا أفهم أن الرجل إستشهد. إنه ليس مثل المسيح الموعود بالمجيء. إنه بإختصار إستشهد.

بيترو: سمعت بعضاً من الفلاحين يقولون أن الشرطة ستحقق معنا.

ماريا: ليحققوا. (تبصق) إن وساوسهم، ورعبهم أكثر منك، ومن ماما. ثم من أي شيء خائفٌ أنت؟ من بقراتنا الخمس، أو من قطعة أرضنا التي تنتج قليلاً من التبغ، أم من مصيرنا؟

بيترو: الشرطة ظالمة. فكر في مصير اندريوس الذي باع له الدجاجات. إن مصيره مجهول، بل القتل. (الى زوجته) بنت الكلبة لماذا خرجتِ وزعقتِ في الأزقة. أما كان بوسعكِ أن تصمتِ؟

لينا: خفت ألا يراه أحد عندنا.

بيترو: (يضرب رأسه بكلتا يديه) سيصادرون أرضي وبقراتي.

لينا: ويقلبون البيت كله على رؤوسنا.

ريكاردو: (صارخاً) لا يمكن أن يحدث مثل هذا الجنون في البيت بمجرد حلم سخيف. شبح زارنا في حلم إمرأة عجوز، والشرطة تريد أن تحقق معنا. أتسمي هذه حياة؟ أنا والفنسو نعمل أكثر من النور من الفجر وحتى المساء ثم لا نجد الراحة في البيت.

بيترو: ماذا لو حرقوا بيتنا، وصادروا الأرض، والبقرات.

ماريا: نهجر الى المدينة... ريكاردو رجل، والفنسو رجل وبوسعهما أن يعملا. يمكنني أن أعمل أنا الأخرى. رباه، هذه البقرات وقطعة الأرض حولتنا الى عفونة، وكومة جبن.

لينا: كل هذا من أجل لا شيء.

ريكاردو: لا شيء. إنها تهرف من أجل لا شيء وتهذي في القرية.

بيترو: لكنه زارنا، والقرية تعرف ذلك.

ريكاردو: إسمعوا، لتأتِ الشرطة، أنا الذي يتكلم. أنا المسؤول.

لينا: (بحنان) اوه، رفقاً بشبابك.

ريكاردو: اللعنة على شبابي الذي يتعفن مع الأبقار، وأوراق التبغ، وهذا الهوس.

ماريا:(بحيرة) أيها المسيح... هل يعقل حقاً أن يحول الإنسان وهماً الى مثل هذه الحقيقة؟

الفونسو: أندريوس با ع الدجاجات لجيفارا ثم غاب مثل لقمة الخبز. وهل نحن اندريوس؟

بيترو: حتى تثبت إنك لست أندريوس، أو لم تبع شيئاً له، تكون قد ذبت في حامض الكبريت.

لينا: رجل يضعون ٢٠ر٠٠٠ بيزا ثمناً لرأسه، والحكومة مثل النمل منشغلة بمصير هذا الرجل. فإذا به يدخل بيتك. ما الذي يمكنك أن تقوله للشرطة؟

ريكاردو: لكنه لم يدخل. تصوري ببساطة لم يدخل، ولن يدخل . إنه إستشهد...

ماريا: (بحزن، لكن بجفاف) مجرد شبح وضعنا على حافة الموت. (صارخة) ماما، ألا يكفي. (صمت قصير) من الذي روج هذه الشائعة؟

لينا: أنا... لأنني خلته المسيح في البدء.

ماريا: وهل رأيته فعلاً؟

لينا: (وهي تمثل المشهد) إسمعي. دفع الباب ودخل بهدوء، وجلس على هذا الكرسي الذي كثيراً ما يجلس عليه والدك. (يحدق بيترو في الكرسي بخوف) إبتسم لي. ولأكثر من دقيقة حاولت أن أعرف من يشبه من القديسين. إبتسم مرة أخرى، ووضع يده اليسرى على صدره. نهض، وإقترب مني ومسد شعري. قبلت بركاته. لكنني رأيت مسدساً يتدلى من حزامه، ورشاشه فوق كتفه. صرخت. طمأنني. لكنني من خوفي تركت الغرفة ورحت أهذر لا شعورياً خارج البيت. قالوا لي أنه...

ريكاردو: (مقاطعاً إياها)ماما، يالأحلامك الكثيرة. لكن لماذا أخبرت النساء في القرية بهذا الحلم؟

بيترو: ريكاردو. أما أن تهزأ فلا... حسنا، زارني مساء أمس وطلب مني أن أبيعه قليلاً من الخبز.

ريكاردو: ماذا قلت له؟

بيترو: رجوته أن يتركنا بسلام.

ريكاردو: وماذا قال؟

بيترو: قال إنه لا يعرف سبباً لخوفي، وأضاف إننا تحولنا الى كتلة خوف.

لينا: (متداخلة) آه، نسيت قال إنه جاء لينقذنا من رجال الحكومة. (بخوف) ماذا لو سمعت الشرطة هذا الكلام؟

ماريا:(بنفاذ صبر) أيها الرب، الى متى هذا الوهم؟ وهم... (يسمع هدير سيارة. بعد قليل يدخل شرطي طويل يحمل رشاشاً، بعد لحظات يتبعه آخر بعصبية. ينتاب بيترو وماريا خوف شديد).

الشرطي الأول: (الى زميله) أخرجهم من هنا. سوف أنادي كلاً منهم على إنفراد. (يخرج الجميع بصحبة الشرطي الثاني. يقوم هذا بتفتيش دقيق للبيت. يجلس على الكرسي. ويخرج ملفاً. ينادي الأب. يدخل بيترو، ويقف بخوف)

الشرطي: ما معنى هذه الشائعات التي تروجونها في القرية؟ لا شك أن لديكم معلومات كثيرة عن بقية أولئك المخربين.

بيترو: (بخوف) نحن لم نروج أية شائعة. (مؤشراً الى صدره) صحيح أنني رأيته أمس في بيتي. أراد أن يشتري بعضاً من دجاجاتي. لكنني رفضت أن أبيعها.

الشرطي: (محدقاً في وجه بيترو بتعجب) وهل جاء حقاً الى بيتك؟

بيترو: أقسم بالمسيح... بل بدم المسيح.

الشرطي: هل تعرفه؟

بيترو: هو بلحيته الطويلة، وشعره الطويل، وبدلته. أعرفه.

الشرطي: (صارخاً) تعرفه؟ متى تعرفت عليه؟

بيترو: عندما زارني أمس.

الشرطي: لكنه قتل قبل ثلاثة أسابيع. هل تفهم. قبل ثلاثة أسابيع.

بيترو: هنا الحيرة يا سيدي. (يخرج الشرطي صورة لجيفارا ويقربها من عيني بيترو) هو. أجل هو...

الشرطي: هل تحلم؟

بيترو: (بخوف) خلتني أحلم في البدء. لكنه تكلم معي.

الشرطي: هل أخذ الدجاجات بالقوة؟

بيترو: مع إنني رأيته يعاني من جوعٍ واضح، رفض أن يأخذها بقوة. (صمت قصير) طبعاً كان بوسعه أن يأخذها بالقوة.

الشرطي: هددك؟

بيترو: كلا... ربت على كتفي بحنان وإنصرف.

الشرطي: أتعرف أنك ستلقى في السجن، إذا لم تقل الحقيقة؟

بيترو: (بذِل) هذه هي الحقيقة، أنا لست أندريوس...أنني بيترو.

الشرطي: (وهو يغالب ضحكة قوية) هل ستطرده إذا جاء مرةً أخرى؟

بيترو: إنه يتصرف بلطف. أقصد لا يترك مجالاً لأن يطرد.

الشرطي: هل كانت تلك زيارته الأولى؟

بيترو: (بخوف) زارنا مرة أخرى مع بعض رجاله. لكنه كان يدخل بيتي وحده.

الشرطي: ماذا كان يريد؟

بيترو: خبزاً... أو لحماً...

الشرطي: (يسجل بسرعة). أخرج. (ينادي لينا... تدخل بخطوات قصيرة، وتقف) وأنتِ؟ متى رأيته أخر مرّة؟

لينا: أمس، مسد رأسي، وأراد أن يقبل كتفي. لكنني رفضت. تصورته للوهلة الأولى قديساً. لكنني عندما رأيت مسدسه، ورشاشه...

الشرطي: ماذا قال لكِ؟

لينا: إبتسم... وعندما تذكرت الصور علي جدران القرية. عرفته. أخبرته أن يترك بيتي. لأن لي ثلاثة أولاد. أخرج هو صوراً من جيب قميصه وقال إن عنده ثلاثة.

الشرطي: هل طلب شيئاً؟

لينا: كلا، أنا أعرف أنه مطلوب من قبلكم، لذا تركت الغرفة وهذيت خارجت الدار حتى سمعتني صديقاتي.

(يأمرها بالخروج. ينادي ريكاردو. يدخل، ويتبادل مع الشرطي نظرات إستفسارية).

الشرطي: وأنت؟ متى رأيته؟

ريكاردو: رأيته قبل أن يستشهد. مرّ مع رفاقه من أسفل الوادي.

الشرطي: هل رأيته شخصياً؟

ريكاردو: ما كنت أعرف أنه هو. أما بعد إستشهاده عرفت أنه كان هو.

الشرطي: ماذا تعني بكلمة إستشهاده؟

ريكاردو: ألم يستشهد؟

الشرطي: (هازاً رأسه. يسجل بسرعة). ما وراء هذه الشائعات التي روجتها والدتك في القرية؟

ريكاردو: بل أود أن أعرف ما سبب إهتمامكم اللامعقول بزيارة شبح إنسان إنتهى؟

الشرطي: أقصد، كيف، ولماذا يختاركم أنتم؟ ثم لماذا تروج والدتك هذه الشائعات؟

ريكاردو: إنه الرعب.

الشرطي: من أي شيء؟

ريكاردو: عندما زار القرية، فرضتم أكثر من كابوس على أهلها، حتى أن الواحد صار يخاف من ذكر أسمه لنفسه. إن والدتي مرتعبة. أما والدي. فكلما تذكر مصير أندريوس مات من الخوف. إجراءاتكم هي التي خلخلت والدتي.

الشرطة: (بغضب) لا تتصور إنني أمزح. في أية ساعة يزوركم؟

ريكاردو: إنه مجرد وهم، وخوف. لقد هجر كما تعرف بعض الفلاحين أراضيهم بعد أن تبين لكم بإنه مرّ بهم، أو تعامل معهم. إنها تلك الإجراءات القاسية التي إتخذتموها بحق البعض هي التي خلقت حالة الوهم عند والدتي...

الشرطي: ووالدك؟

ريكاردو: هو الآخر خائف.

الشرطي: كلام سخيف. أنتم كما يبدو، على إتصال به وبقية رجاله. (صمت قصير) تكلم. تكلم بهدوء.

ريكاردو: ببساطة، والدتي خائفة. أنت تعرف جيداً أنه أستشهد. حرقتم حتى جثته، وهدمتم المدرسة. ودفنتم رفاته بل أكثر من هذا حاصرتم جميع من التقوا به. ماذا تقصد من قولك نحن على إتصال به؟

الشرطي: (بذهول) والدتك تعرف الكثير إذن. (صمت) ربما أنت أيضاً.

ريكاردو: (بعصبية وغضب) هل تريد أن تلقي علينا تهمة مزيفة؟

الشرطي: القرية كلها تعرف أنه يزوركم.

ريكاردو: (بصراخ) لكنه إستشهد. إنتهى.

الشرطي: أعذبك.

ريكاردو: لماذا؟

ريكاردو: لماذا لا تبقى في البيت ليل نهار وتنتظره. (يطلب من ريكاردو أن يقف في زاوية الغرفة. ينادي آخر. يدخل فلاح شيخ يحمل على ظهره كيساً صغيراً).

الشرطي: (بآلية) وأنت، متى رأيته، وكيف؟

الفلاح: جئت لأراه.

الشرطي: تقصد لم تره. (يضع الفلاح الكيس على الأرض)

الفلاح: يقولون أنه يجيء دون موعد. ولهذا طلبت من بيترو أن يسمح لك بالمكوث هنا ريثما يأتي. (صمت قصير) جلبت له قليلاً من الخبز.

الشرطي:(يرفع رأسه، ويتأمل الفلاح – بتعجب) من أنت؟

الفلاح: أنا مدين له بالكثير.

الشرطي: كيف؟

الفلاح: (يجلس القرفصاء) علمني أن حياتي ضاعت سدىً. إثنان من أبنائي رافقاه. سعيدُ أنهما رافقاه.

الشرطي: (دون أن يعرف من ألذي يخاطبه) إذن أنت مع الحركة؟

الفلاح: فاتني القطار... أعطيت للحركة أثنين من أبنائي.

الشرطي: قُتلا معه.

الفلاح: ربما... هذا غير مهم... (بفرح) تصور وفاءهُ، إذ يعود لزيارتنا.(بتعجب) لستُ أدري لماذا أختار هذه البناية بالذات... (بجرس حزين). مُباركة هذه البناية. (صمت) هل تنتظره أنت الآخر؟

الشرطي: أنا؟ طبعاً.

الفلاح: (يقترب من الشرطي. بتعجب). أخشى أن يغضب منك.

الشرطي: لماذا؟

الفلاح: هل أنت من رجال الحكومة؟

الشرطي: ألا تراني؟

الفلاح: بصري ضعيف. تشبه شرطياً. أنا لم أرى رجال الحكومة من قبل. بفضل تشي العزيز، ملأوا القرية.

الشرطي: هل زارك أنت الآخر؟

الفلاح: مرة واحدة، سهر معي طوال الليل. ملأت له غليونه ثلاث مرات.

الشرطي: ماذا قال؟

الفلاح: أوه... لو سمعته. قال أشياء كثيرة... ذاكرتي ضعيفة. في الليل نام متأخراً، وشخر.

الشرطي: هل سمعت أنه قتل؟

الفلاح: سمعت... لكنه يزورنا.

الشرطي: وهل زارك؟

الفلاح: قلت مرة جاء شخصياً. أما الآن، فأراه في الحلم. الجميع يرونه في الحلم.

الشرطي: من هم الجميع؟

الفلاح: القرية كلها...

الشرطي: أتعرف أنني عما قليل سأعتقلك؟

الفلاح: لماذا؟

الشرطي: لأنك تعمل مع الحركة؟

الفلاح: هل لأنني أقدم له خبزاً؟

الشرطي: خبز. وأبناؤك. وحلمك. والغليون... وو.

الفلاح: (دون أن يصدق نفسه) لكن لا يمكن أن يمنع عنه الخبز. إنه جاء ليكثر منه، فهل ثمة ضير لو أكل منه القليل. (ينهض الشرطي، ويمسكه من كتفه ويدفعه الى زاوية الغرفة).

الشرطي: (بغضب) قف هناك.

الفلاح: (بإندهاش) ما هذا! تمنعني من إنتظاره؟

الشرطي: أنتظره في السجن. (ينادي بصوت عال آخر).و أنتِ؟ ما أسمكِ؟

ماريا: ماريا.

الشرطي: ماريا... (يردد الإسم لنفسه مرات عديدة).

يبدو أن لا عمل لكِ سوى خلق الأراجيف، والشائعات في طول القرية وعرضها. أليس كذلك؟

ماريا: أن تنهمكوا أنتم أكثر من أهالي القرية بمجرد هذيان والدتي، وتقتحموا بيتنا البائس هذا، وتستجوبوا كل واحدٍ منا بهذه الطريقة، فأكثر من عار.

الشرطي: (يحدق فيها بغضب) تكلّمي بهدوء.

ماريا: (بإنفعال) هدوء... كيف يكون الهدوء بعد أن جمعتم علينا القرية كلها.

الشرطي: متى رأيته آخر مرة؟

ماريا: (بحيرة) هل يعقل فعلاً هذا الكلام؟ وهل تخافون منه الى هذه الدرجة؟ ألم تحرقوا حتى جثته؟

الشرطي: وهل أنتِ متألمة لحرق جثته؟

ماريا: متألمة لهذا الهوس الذي تفعلونه معنا. أخي. أن والدتي متدينة جداً. وأمس في عيد جميع القديسين حلمت طوال الليل وصلّت أن ترى واحداً منهم في حلمها.

ربما، وهذه هي الحقيقة رأت أحدهم في حلمها فتصورته هو، ثم ألا يشبه هو القديسين في شكله؟ ربما رأت القديس بولص، أو القديس أوغسطين، أو شاؤول. وتصورت... (بحيرة) مجرد حالة نفسية.

الشرطي: ووالدك؟

ماريا: كِلاهما خرِّف...

الشرطي: (هازاً رأسه) لا يمكن... لا يمكن.

ماريا: (بغضب) حسنا، طالما أنك لا تقتنع، ولا تريد أن تقتنع، رأيناه، وأجلسناه معنا، وأطعمناه... ماذا تريد...

الشرطي: (بأرتياح) تكلمي من الأول. أنا أحب الإيجاز.

ماريا: (بغضب أكثر) ووعد أن يجز رأس أمثالك من الصعاليك والثرثارين، والخدم.

الشرطي: (ينهض ويصفعها) إخرسي.

ماريا: (تضع باطن يدها على وجهها) جبان... سافل... جبانُ جنرالك أيضاً. حتى حكومتك جبانة تخاف من شبح إنسان، بل إسم إنسان.

الشرطي: إذن كلكم كنتم معه.

ماريا: فاتنا هذا الشرف، لذا بقينا تحت رحمة هذا التحقيق القذر.

الشرطي: (ينهض ويدفعها بقوة الى حيث الفلاح).

الفلاح: (كمن يفيق) ماذا حدث؟

ماريا: جبناء يخافون من شبح إنسان ظهر في مخيلة عجوز مريضة.

الفلاح: (بذهول) ألم يأتِ هذا المساء؟

ماريا: (بألم) ليت معجزة تحدث ويأتي حتى يبول هذا المأفون تحته.

الشرطي: (صارخاً لماريا) إخرسي. (ينادي آخر. تدخل إمرأة في حوالي الأربعين تحمل في كيس من ورق بضعة سراطين. تقف لصق الشرطي). و أنتِ؟

المرأة: جلبت لك سراطين طرية.

الشرطي: (بذهول) ماذا؟

المرأة: سراطين طرية. (تبحث في جيبها. وتُخرج صليباً معدنياً) وهذا الصليب.

الشرطي: من أنتِ؟

المرأة: مادلينا دي بارو.

الشرطي: وهل كان ذاك المُلحد يؤمن بالصليب؟

مادلينا: سيقبلهُ مني.

الشرطي: حتى أنتِ خدعكِ؟

مادلينا: متى يأتي؟

الشرطي: أيتها الثرثارة المخدوعة، هنا نحقق مع كل واحد كان له إتصال، أو يفكر فيه، أو حتى إسمه. سأضعكِ في السجن وهناك ربما تستفيدين من سراطينكِ. (لنفسه بحيرة) من أين جاء هذا الرجل ليخلق لنا هذه الفوضى كلها؟

مادلينا: أمضيت أكثر من ساعتين أنبش في المستنقع وفي الطين البارد حتى عثرت على هذه السراطين، وأنت؟

الشرطي: (مُقاطعاً) نعم أنا. (ينهض ويأخذ منها الكيس ويلقيه بعيداً...) نعم أنا ، أصمتي.

مادلينا: (بذهول) والله لو كان هنا لما أستأسدت عليّ.(تلتفت الى ماريا. والفلاح) إشهدا عندما يأتي أنه عاملني بهذه القسوة.

الفلاح: اوه... إذ ذاك يقول وبلهجة خانعة، عفوك، أمرت.

مادلينا: ما أكثر حججهم.

ماريا: لكن لن تنطلي علينا بعد الآن.

الشرطي: إنتظروا... سأعرف كيف أعذبكم...

الفلاح: ماذا تقصد بتعذيبنا؟ ألا يكفي.

الشرطي: (مقاطعاً) بلا ثرثرة.

الفلاح: المهم أنا شاهد.

مادلينا: وأنا شاهدة.

الشرطي: وأنا المعذب. حسناً. (ينادي آخر. يدخل الفونسو). وأنت؟

الفونسو: لا أعرف شيئاً.

الشرطي: هل أنت من عائلة بيترو؟

الفونسو: نعم. (يلتفت الشرطي الى مادلينا، والفلاح) أنتِ يا مادلينا من عائلة بيترو؟

مادلينا: كلا. جئت مع الآلاف لأقدم هديتي له.

الشرطي: (الى الفلاح) وأنت؟

الفلاح: أنا الآخر جئت مع الآلاف؟.

الشرطي: إذن جئتما لمشاهدته. بل مثل الفراشة البائسة جئتما للنار.

الفلاح: أنا جئت من مسافة بعيدة. (صمتٌ قصير) لا تُفسد عليّ حلماً طالما أشتقت له منذ أن رأيته آخر مرّة. (لنفسه بإنتشاء) ليته يطلب إليّ أن أملأ غليونه مرةً أخرى.

الشرطي: (بسخرية) ستحلم به في السجن كثيراً.

مادلينا: (بخوف) في السجن؟ لماذا في السجن؟ (صمت) وهل تضعون جميع الناس في السجن؟ وأين تضعون هداياهُم؟

الشرطي: (وهو يكتب)آه، هذه العائلة. (الى مادلينا) أسكتي . سجننا يسع الجميع.

مادلينا: لكن الآلاف خارج الدار تنتظر أن تقدم الهدايا.

الشرطي: كل من يجلب هدية بحجة تقديمها له يوضع في السجن.

الفلاح: (مقاطعاً وبسخرية) إذن لا بأس، (ضاحكاً) خلتني سأدخله وحدي. (ينهض الشرطي، ويتقدم من الفلاح، ويصرخ في وجهه).

الشرطي: ألا تلاحظ أنك تثرثر أكثر من اللازم؟

الفلاح: لنحتكم الى هاتين السيدتين... أينا أكثر ثرثرة.

الشرطي: (يغضب ويصفعه بقوة) مكانك. مكانك. أسكت.

الفلاح: (بتألم) ودم المسيح ما كنت تستطيع أن تصفعني لو كان هنا، أو لو لم أكن في هذا العمر.

الشرطي: لو ماذا؟ لو كان هنا؟

الفلاح: لو لم أكن في هذا العمر. كان يجب أن تخجل من لحيتي البيضاء.

الشرطي: كفى. أخرس.

الفلاح: تحيا الدولارات.

الشرطي: ما شأني بالدولارات؟

الفلاح: هي ألتي صفعتني. (بغضب) هي التي حولتك الى هذا الفم القذر . أيها القذر.

الشرطي: (يتقدم منه) أنا قذر؟

الفلاح: وجبان كذلك.

الشرطي: سيكون حسابك عسيراً أكثر من الجميع. إنتظر.

الفلاح: وماذا يفيد التعذيب مع جلدٍ عذبته ودبغته الشمس والأرض. ماذا يفيد التعذيب مع جلد أفسدته السراطين. تعقل أيها الرجل. مرة في كل ربع قرن يظهر قديس لا يريد أن يحشو رؤوسنا مثل قسس الكنيسة، بل يعطف على جلودنا المدبوغة، وأيدينا المشققة، ويستشهد بأختيار من أجل أن نأكل لقمة الخبز بشرف، فإذا بكم مثل الزبور المضطرب تلسعون حتى الحجر. أمس، أقول أمس، لأنني أتذكر شبابي، قتلتم زابتا. أمس. قتلتم كاميليو. تقتلونهم بأسمنا.

الشرطي: قلت. كفى.

الفلاح: أنت شابٌ صغير. منذ حكم الإسبان، حتى حكم اليانكي ونحن نتوارث البؤس كأننا ملعونون. آه، ماذا بوسع صغير مشوش مثلك أن يفعل؟

الشرطي: (ينادي آخر. تدخل لينا بإضطراب) وأنتِ؟

لينا: (بخوف) لماذا بقيت إبنتي هنا؟ وريكاردو؟

الشرطي: هل حققتُ معكِ؟

لينا: أنا لينا، زوجة بيترو. إبنتي وإبني لم يخرجا؟

الشرطي: مُعتقلان.

لينا: لكنهما لم يرياه، أنا التي رأته.

الشرطي: لو رأياه لكان الأمر أهون. إنهما يعشقانه. أخرجي. أخرجي بسرعة.

لينا: أرجوك. تأكد أنا وحدي رأيته مع زوجي.

الشرطي: قلت أخرجي.

ريكاردو: (الى والدته) ليطمئن والدي لبقراته، وأرضه... يالرعبكما، يالعشقكما لتلك الأرض، والبقرات.

ماريا: أتركينا بسلام وأخرجي.

الشرطي: هل سمعتِ يا سيدة لينا. هل بعد هذا أتركهما بسلام؟

ريكاردو: إذهبي ، ولا تستجدي هذا الإنسان. أتركينا.

لينا: (تبكي بحرقة) لكن أنا التي رأته. أنا وحدي. إسمع، عندما هذيت وقلت هناك أن جيفارا جاء لزيارتنا، أردت أن أخبر الحكومة حتى لا تعتقلنا، أو تدمر بيتنا، وتصادر أملاكنا. لهذا السبب خفت. أنت تعرف ما الذي حدث لأولئك الذين إلتقوا به.

ماريا: (بغضب). ماما... ماما... لِمَ هذا الإستجداء؟ إذا كنا ندفع ثمن وهمك، وحلمك، فلندفعه بشرف على الأقل. لنر، يجب أن لا ينسى هذا الشرطي مصيره.

الشرطي: (الى لينا) أعتقد أن كل شيء واضح الآن. ها هي إبنتك. تكلمت بمنتهى الوضوح.

الفلاح: (متداخلاً) هل ننتظره حتى يجيء؟

الشرطي: لا تتكلم.

الفلاح: أنا أكبر معمر في هذه القرية، كنت أُستشار في كل حادثة قتل، أو سرقة. أما اليوم فلا.

الشرطي: أما اليوم فلا، لأنك قلت الكثير.

الفلاح: لو تركتني أتكلم . نحن رغم فقرنا كفلاحين نكرم الغريب. ألم يقل القديس بولس: لا تنسوا ضيافة الغرباء؟

الشرطي:(يفقد أعصابه) وهل أنا غريب، أخي، كفى. أسكت.

الفلاح: حبذا لو كنتُ غريباً، لدللناك، وأكرمناك، ألم تكن قروياً ذات مرة؟ أن هذه البدلة السوداء لا تغير.

الشرطي: (فاقداً أعصابه) أخي. كفى. كفى، أيها العم كفى. أيها المحترم كفى.

الفلاح: محترم. وهل يُصفع المحترم. نحن نكرم المحترم ونقدم له الخبز والسراطين، لذا جئنا الى هنا.

مادلينا: وهل نحن نعتقل لمجرد تقديم سراطين له.

الشرطي: أيها المسيح، أن هؤلاء لا يعرفون الصمت.

الفلاح: وهل الصمت جزاء آخر. أخي، أنا لا يهمني أي شيء سوى أن أقدم هذا الكيس المملوء بالخبز.

الشرطي: إحتفظ بالخبز للسجن. هناك ستحتاج إليه بالتأكيد.

الفلاح: ولكنني لن أترك هذا المكان حتى يجيء.

الشرطي: سأخذك ركلاً.

الفلاح: لن تستطيع.

الشرطي: كيف لا أستطيع؟

الفلاح: قلت لا تستطيع. (يتقدم الشرطي منه، ويهزّ الفلاح بقوة).

الشرطي: أظن أنني أستطيع.

الفلاح: (يبصق في وجه الشرطي) هل رأيت ثمن هزِّك إياي؟

الشرطي:(يرفع يده ليصفع الفلاح، يمسكه ريكاردو من رسغه) أبعد يدك.

ريكاردو: أما أن يصل الجبن الى هذه الدرجة فلا.

الشرطي: إذن معك تجدي الصفعة.

ريكاردو: لو صفعتني لأعدت لك الصفعة بأقوى منها.

الشرطي: (صارخاً) عصابة حقيقية. (ينادي الشرطي الثاني. يدخل هذا بإرتباك. يلويان يد ريكاردو الى الخلف).

الفلاح: ياالكما من مسعورين. تقيدانه. ألم يقل بولس: أذكروا الراسفين في الأغلال.

مادلينا: ماذا يفعلان به؟

ريكاردو: قليلاً من الحرمة للبيت، أيها الكلبان. جمعتما القرية علينا من أجل لا شيء.(يحاول أن يتخلص منهما. يضع الشرطي الثاني الطوق في يديه) لا تنسيا هذه الفوضى.

ماريا: وحوش وحوش. كان يجب أن تحضرا أقفالاً لكم الأفواه.

(يدخل الشرطي الثاني. ينادي الشرطي. يدخل صبي في العاشرة).

الشرطي: أسمك؟

الصبي: لا إسم لي.

الشرطي: لا إسم لك؟

الصبي: نعم.

الشرطي: أين والدك؟ والدتك؟

الصبي: لا أعرف؟ تربيت في القرية.

الفلاح: (متدخلاً) أوه، إنه أوزفالدو اليتيم. ياله من صبي عاقل.

الشرطي: متى رأيته؟

الصبي: لم أره، جئت لأراه.

الشرطي:لماذا جئت لتراه.؟

الصبي: الجميع قالوا إنه كان والدي.

الشرطي: والدك؟ وهل ضحكوا حتى عليك. (لنفسه) حتى على الأولاد؟

الصبي: عندما وصفته مديرة مدرستي. كانت أوصافه بالضبط كما قال لي السيد دون كارلو.

الشرطي: من هو دون كارلو؟

الصبي: رجلٌ كريم ربّاني.

الشرطي: يجب أن تعقل.

الصبي: أنا عاقل، والأول في صفي.(صمت قصير) وهل أنا مشاغب؟

الشرطي: يعلمونك الشغب من الآن.

الصبي: ومجرد زيارته تشكل شغباً؟

الشرطي: ماذا تريد منه؟

الصبي: لا شيء. أحبه. لأنه والدي.

الشرطة: ألا تعرف، أو تسمع ماذا كان يعمل والدك؟

الفلاح: (متدخلاً) كان فلاحاً شريفاً يعمل عند السيد دون كارلو.

الشرطي: (دون أن يهتم الى الفلاح. الى الصبي) كان جيفارا طبيباً. إسمع أيها الصبي، لا تستمع الى هؤلاء إذهب وتعقل.

الصبي: أفضل أن أبقى مع هؤلاء لإنتظاره. ثم أنني جلبت له قليلاً من السراطين. يقولون أنه ورفاقه يحتاجون الى الأكل.

الشرطي: (بعد أن يتأمل الصبي بتعجب) حسناً. ضعها هناك. سأسلمها له بنفسي.

الصبي: لكنني أريد أن أكلمه بنفسي.

الشرطي: لكنه مات. حاول أن تفهم.

الصبي: للمرة الثانية يزور هذا البيت.

الشرطي: أخرج عندما يأتي أناديك. (يخرج الصبي) تسمع أصوات مختلطة، وصرخات. يدخل الشرطي الثاني.

الشرطي الثاني: حضر جميع أهل القرية الى هنا.

الشرطي الأول: لماذا؟

الشرطي الثاني: يريدون رؤيته.

الشرطي الأول: السيدة لينا، والسيد بيترو خلقا لنا مشكلة، حاول أن تفرقهم.

الشرطي الثاني: مستحيل. ثم أن لدى الجميع هدايا.

الشرطي الأول: يجب أن نتصل بمدير الشرطة.(يشير الى زميله أن يُخرج كلاً من ريكاردو، وماريا، والفلاح الكهل. يخرجهم جميعاً. بعد قليل يدخل. تستمر الأصوات، والصرخات خارج الدار- نريد أن نرى القديس. أخرجا كي يدخل. لا تفسدا البيت. ليتني أراه. يالشكله الجميل. ترى كيف يظهر ومتى؟)

الشرطي الثاني: أرى أن نترك المكان وبسرعة.

الشرطي الأول: وماذا نقول في تقريرنا؟

الشرطي الثاني: أن الرجل مات. ما هذا الهراء الذي يفكر به المدير العام؟ لنذهب. سمعت أهل القرية يتحدثون عن أشياء غريبة. إنهم متحمسون، ومتهيجون. إذا لم نترك القرية حالاً ذبحونا.

الشرطي الأول: أما هذا المدير فمجنون. آه، من هنا سيدة لينا.

الشرطي الثاني: قالت أنها من شدة خوفها هذت، وكانت تنوي أن تخبر الحكومة. ثم أنها أكدت لي أنها رأته في الحلم.

الشرطي الأول: حقاً، أن إجراءات الحكومة كانت وحشية بحق القرويين الذين تعاملوا مع جيفارا. أندريوس قتِل تحت التعذيب.

سمعت البعض يردد أنه سيزور بيت بيترو كمن يحج.

الشرطي الأول: عشقوه حتى العبادة.

الشرطي الثاني: لنهرب.

الشرطي الأول: لكنني إعتقلت ريكاردو، وماريا، ومادلينا، وذلك الحرون الكهل.

الشرطي الثاني: لننطلق قبل أن نُمزق. إرفع تقريراً، وقل أن كل شيء مجرد وهم.

الشرطي الأول: الحقيقة أن إمرأة رأته في عيد جميع القديسين وهذت هذه القرية. (صمت قصير) لكن تصور هذا العشق.

الشرطي الثاني: وماذا رأيت بعد؟ الآلاف في الخارج تنتظر زيارته.

(أصوات عصبية في الخارج: هل أنتهيتما. أطالا التحقيق. لن يأتي وأنتما هناك. أتركا هذا المكان، يخرج الشرطيان. تدخل الجماهير الى الغرفة، النساء والرجال. الصغار يأخذون بالتحديق في كل زاوية من الغرفة. يخيم صمت على الغرفة. تدخل لينا شاقةً طريقها بصعوبة . تتأمل أهل القرية بفرح. موسيقى خفيفة).

لينا: إفسحوا الطريق، رجاءاً، تراجعوا الى الخلف.

(تذهب قرب النافذة تتكلم بلهجة هي مزيج من الخوف، والإعجاب. تترصد عيون الناس. بعد لحظات تشعر بسعادة كبيرة)هنا وقف (تهز رأسها) أجل هنا. ثم أقترب وجلس على هذا الكرسي الذي كان الشرطي جالساً عليه.

إمرأة من بعيد: (بسخرية) دنس هذا المقعد الشريف. (تندفع وتمسح الكرسي) أجل دنسهُ. (ترفع الكرسي عالياً) أقسم أن رائحة عرق تشي ما زالت على الخشب.

إمرأة عجوز: (تقترب من السيدة لينا) إستمري. ماذا قال لكِ؟

لينا: (بإعتزاز) مسد شعري، وحيّاني، كان متعباً، وسرواله مغسولاً بالطين. إبتسم لي. جلس على الكرسي. (عندما ترى منتهى التأثر في عيون الجماهير، تبدأ مبالغة) كان العرق يتصبب من جبينه، ومن شعره الطويل. يبتسم لي. خلته للوهلة الأولى واحداً من القديسين. تعرفون كنا في عيد جميع القديسين. صليتُ كثيراً في الليل من أجلِ بقراتنا، والأطفال، والأرض. لكنني عندما رأيت بندقيته، ومسدسه، خفت. وبرزت صورهُ التي على الجدران أمام عيني. هربت خارج الدار.

رجل: ماذا قال لكِ؟

لينا: أشياء لم أسمعها.

إمرأة عجوز: ياللعار. وهل يخاف الإنسان أمثاله. ليتني كنت مكانك.

(يدخل بيترو. ويذهب الى حيث زوجته)

لينا: (بفرح) حتى العزيز بيترو رآه.

(يحس بيترو بجيشان شديد في عواطفه، ولا يصدق نفسه وهو يرى هذا العدد الغفير من القرويين)

بيترو: (وهو يحاول أن يسيطر على عواطفه) آه، لو جاء هذه المرة، آه، لو شرف بيتي مرةً أخرى. سأعطيه بقراتي كلها. وهل غيره يستحق المساعدة.

رجل من بعيد: (بسخرية) وهل شعرت بالشهامة الآن؟

بيترو: وكل دجاجاتي، ونقودي.

رجلُ آخر: بدأ بيترو يستيقظ.

بيترو: شكراً لله لأن الشرطيين تركانا بسلام.

صوت رجل: كان يجب أن نوسعهما ضرباً.

صوت إمرأة: هربا بجلدهما.

بيترو: أواه. هل سيأتي هذا الأرجنتيني العزيز مرةً أخرى؟

أصوات: المهم نحن ننتظره هنا.

بيترو: (بإنتشاء) سأعطيه كل شيء.

صوت إمرأة: لكنك منعته من المجيء.

بيترو: (بإنفعال) أرجوك، لم أمنعه. رفضت أن أبيعه أي شيء.

صوت رجل: عيب. بل عار.

بيترو: (بقلق) سأعتذر له. نعم سأعتذر. الآن أتركوا الغرفة، ربما بمجرد عودة الهدوء يأتي.

صوت إمرأة: ربما هذه المرّة سيطل من أجلنا. (يخرج الجميع. يبقى الفلاح الكهل الذي دخل أثناء التحقيق).

الفلاح: إذا جاءت الشرطة لا تخف. القرية كلها معك.

بيترو: وهل تأتي الشرطة من جديد؟

الفلاح: ربما صادروا أرضك، وبقراتك، لكن لا تخف.

بيترو: (بخوفٍ شديد) لكنهم إقتنعوا بأنني لم أتعامل معه.

الفلاح: ماذا؟ هل غيرت رأيك؟ أرضك تصادر؟ ثم ماذا؟

بيترو: أقصد أنني لم أتعامل معه أبداً. (يدخل ريكاردو)

الفلاح: ماذا تعني أنك لم تتعامل معه؟

ريكاردو: (غير مصدق نفسه) ماذا؟ الحوار نفسه.

الفلاح: والدك.

ريكاردو: ماذا به؟

الفلاح: مثل الحرباء.

ريكاردو: أعرفه، لو سمعك أهل القرية لأنتهيت في لحظات.

بيترو: لكن لماذا يصادرون أرضي وبقراتي؟

(تدخل ماريا، وتزعق من الفرح.)

ماريا: ريكاردو، إذهب وأنظر. النساء يقبلن رأس ماما، لأن تشي مسد شعرها.

بيترو: (كمن يهذي) لكنهم سيصادرون أرضي.

ماريا: (بغضب) مرة أخرى أرضك. ألم تعد الجميع أنك ستعمل المستحيل من أجله لو جاء؟

؟بيترو: لكن!!!!

ريكاردو: غيرت فكرك.

بيترو: أرضي وبقراتي، ومئات الدجاجات... هذه كلها تصادر.

ريكاردو: (بتعجب) أي مصلحي متقلب هذا الرجل؟

(تدخل لينا)

لينا: ستعود الشرطة يا بيترو بعد قليل.

بيترو: كان يجب أن ننتظر.

لينا: وأنا كان يجب أن أقطع لساني. سيقصون لي شعري الذي مسده.

ماريا: (تزعق) يا دجالة، ياكذابة.

(يخرج الفلاح الكهل بغضب)

ريكاردو: يجب أن أترك هذا البيت العفن. لم يعد لي مكان بين أبوين حرباوين. (بعد قليل يحدث هرج في خارج الغرفة. تدخل مادلينا)

مادلينا: هل بدأت تلعب على الحبلين أيها السيد بيترو؟

بيترو: من أنتِ؟

مادلينا: (بصراخ) وبخني الشرطي بما فيه الكفاية والقى سراطيني التي تعبت في جمعها ساعات. وها أنت تبدأ بأستجوابي. أعطني دجاجة لأقدمها له بأسمي.

بيترو: ماذا؟ أعطيكِ دجاجة؟

الفلاح: (يدخل الفلاح الكهل، يصرخ بغضب) أيها الممثل بيترو. قطعة أرض حقيرة جعلتك تتأرجح مثل البهلوان على الحبل. أما تلك البقرات العجفاوات فقد سممت حتى حياتك.

ريكاردو: (بحزن) إنها ثلاثون قطعة من الفضة الحقيرة.

الفلاح:(بغضب وبصوتٍ عال) يا يهوذا الأسخريوطي.

لينا: (تصرخ) وهل زوجي يهوذا؟ ماذا يريدون منه؟

ريكاردو: زوجكِ يكذب على القرية. يريدون أن يسهروا هنا حتى مجيئه.

بيترو: لكن الشرطة لا تحبذ هذا التجمهر.

ريكاردو: القرية كلها مسؤولة.

بيترو: وهل تريد أن أحول بيتي الى مسرح؟

ريكاردو: وأي ضير في ذلك ما دامت هذه إرادة القرية.

(فجأةً يقفز الفلاح ويمسك عنق بيترو، ويحاول، رغم عدم تمكنه، أن يخنقه)

الفلاح: أنا سلمته ولدي. زرعهما في الأدغال للطيور والحيوانات، وأنت تخاف على بقراتك الحقيرة وأرضك الميتة. أيها الميت... أيها المنبوذ.

بيترو: (مستنجداً) أنقذني يا ريكاردو. ماريا. آه... لينا.

لينا: (صارخة ومستنجدة بريكاردو) أنقذه. (يترك الفلاح عنق بيترو.)

بيترو: وهل بيتي محجة؟

ماريا: أهل القرية يصرون أن يحولوا هذا المكان الى محجة، أو متحف، أو مسرح. هل فهمت؟

بيترو: (يتراجع ويستند الى الجدار) لكن...

الفلاح: سأعلن إعتقالك وموتك الآن.

بيترو: وهل أنت دولة؟ وهل القرية دولة؟

الفلاح: أكثر من دولة. (يبدأ عراك جديد بينهما)

ريكاردو:(يفصل بينهما) أترك هذا المتذبذب.

(أصوات من الخارج: يبدو أنه ظهر. ربما... لا مواعيد لديه. يأتي مثل الهواء. ترى هل يتكلم. أم يكتفي بالتحديق فينا. لا تتحلقوا حوله. إنه يعاني من الربو. يدخل عدد من الرجال والنساء. ويرسلون نظرات زائغة في أرجاء الغرفة. هل ظهر؟ هل ظهر؟)

الفلاح: (يحاول أن يقنعهم) لم يظهر بعد. أخرجوا... ربما بدأ يظهر. (يخرج الأشخاص الذين دخلوا) ما رأيك يا بيترو. هل تريدني أن أسلمك لهم؟ سيأكلون لحمك.

بيترو: (كمن يصاب بغيبوبة) لا أعرف... آه...

الفلاح: أنت مثل بعض الفلاحين في الريف الروسي كلما طالبتهم حكومة الثورة بالإنضمام الى كولخوز قتلوا بقراتهم. أما هنا فسنقتلك قبل أن نقتل بقراتك. (تدخل الجماهير وتهجم على بيترو. ظلام. موسيقى حزينة. يظهر القس في ملابس القتال نفسها).

القس: ربما تتفقون معي أن الوضع التراجيدي ينشأ عن موت الشيء الجميل. كان أرنستو جيفارا جميلاً على كل مستويات الجمال. شكلاً، وروحاً، وفكراً. لذا عندما مات، صارت تراجيدية العصر. قال القديس اوغسطين: إن مجرد وجود الشجاعة دليل على وجود الشر. لكن ليس بوسع كل إنسان أن يعمل ويقول أن هذا شر. إن تشخيص الشر والعمل للقضاء عليه يتطلبان أن يكون الإنسان بطلاً. ولكي يكون الإنسان بطلاً يجب أن يدرك كماله البشري. كثيرون جداً أولئك الذين لم يجدوا كمالهم البشري، ربما عن جبن، أو عن جهل. لذا يقعون كتعويض في حب البطل التراجيدي.

عندما إنتحر فرتر بطل رواية غوتيه، إنتحر معه عدد من الشبان. وتخيله البعض حياً في مكانٍ ما في المانيا. أوَليست الأساطير من صنع مخيلة ملايين البشر؟ ترى أي قوة تستطيع منع شعوب أمريكا الاتينية من نسج عشرات الأساطير حول هذا الأنسان الأممي.السنة المنصرمة، وفي هذا العصر المهلوس أصيب الناس في مكانٍ ما من هذا العام بهذيان ظهور العذراء. ترى كم من آلاف

المرات الأخرى، سيظهر جيفارا في أحلام المعذبين من الفلاحين، والمقاتلين، والعمال. علينا مهمة واحدة، وهي إنتشالهم جميعاً من فكرة إنتظاره، ودفعهم الى حيث أستشهد هو.

(ظلام. موسيقى حادة. يظهر جيفارا داخل دائرة ضوء. يبتسم، وبعد أن يضع سيكاراً في زاوية فمه)

جيفارا: تعرفون جيداً أنني لم أكن أكثر من جندي مخلص أمين في جيش الأشتراكية. أُتهمت بالمغامرة لمجرد أن ثورتي في بوليفيا فشلت. قبل أن أودعكم، أقول للنصر آباء كثيرون، أما الهزيمة فطفلٌ لقيط. (يبتسم) معذرة إذا طلبت أن ترددوا معي جملة ابولينير الرائعة. هيا رددوا: لنفقد، لكن لنفقد حقيقة، لكي يتاح لنا أن نجد. (ظلام)

ستِار

غرقوا في رائحة الظلمة

(غرفة واسعة بشكل شبه أهليجي، تبدو كأنها مقسمة الى قسمين دونما حاجز.

في النصف الأيمن من الغرفة نشاهد على الجدران ملابس ملونة، ومرايا دائمية، سيوفاً. رماحاً، وسجاجيد ملونة. وثمة لوح كتب عليه ما يلي:

إستثمارات عام ١٩٦٧ للعلم فقط:

٢٥٦٠٠٠٠ طن فلزات،

٦٠٠ مليون طن بترول

٢٦٠٠٠٠٠ كاوتشوك

وبقية الأرقام تأتي......

أما النصف الثاني من الغرفة فيحتوي على بارٍ أنيق، ومحل للجلوس فيه كراسٍ جلدية مريحة. خلف جدار البار الخشبي مجموعة ديكورات خشبية، ولوحات صيد، ورؤوس حيوانات مُحنطة. وثمة باب بلون البلوط يؤدي الى الخارج، وفي وسط الغرفة على بعد أمتار من الكراسي قريباً من مقدمة المسرح قفص حديدي كبير مثبت على أربع قوائم حديدية. وثمة درج يصعد منه الى القفص – في داخل القفص أسدٌ هرم. عند رفع الستارة نسمع موسيقى خافتة. إثنان من الخدم خلف جدار البار يحدقان في الأسد)

الخادم الأول: أخيراً أدخلوه الى القفص.(يتعجب) ألا يبدو إدخال هذا الوحش في القفص مثل كابوس؟كنت أتصور أنه آخر من يذعن للسجن.

الخادم الثاني: يبقى هناك الى الأبد، ولن يسمع غير زئيره. سيحنط عما قريب للذكرى. (وقفة) إسمع، كان يجب أن يضيقوا ما بين القضبان. كثيراً ما يمد مخالبه الى الخارج.

الخادم الأول: سيتعود هذا الأبليس على نيره. أقسم أنه أخطر من أبليس. لن ينفعه حب جميع رواد الحانة. سيموت هذا الطفل الشرس من الدلال.

الخادم الثاني: إنهم يعبدونه. هل تعرف الرجل القصير الذي يرتدي قبعة سوداء طويلة؟

تعرفه، الأصلع القصير (وقفة) صاحب شركة الشوكلاته المشهور. (وقفة قصيرة) آه، نسيت أسمه. المهم، القصير الذي يأتي بصحبة تلك السمراء الجميلة التي توبخه لأفراطه في شرب البيرة.

الخادم الأول: (ضاحكاً) آه، هم. عرفت ذو الكلية الواحدة. نعم... نعم تذكرته.

الخادم الثاني: هو... هو... طلب مني أن أسقي الأسد ملء سطل من البيرة؟

الخادم الأول: (بتعجب) مستحيل.

الخادم الثاني: مستحيل؟ لقد عاش هذا الأبليس ملكاً. (وقفة) طبعاً رفضت طلبه. لا يهمني أن أملأ عشرات الأسطل لكنني لن أقترب من القفص. لست مثل بعض الصعاليك الذين يدّعون أنهم لا يخافون الإقتراب منه، أو أنهم حاربوه في الأدغال. آه، كلا... سمعت خادماً قميئاً يدّعي أنه أمسكه من ذيله ولفه حول رسغه عند إدخاله القفص.

الخادم الثاني: هل لاحظت أن جميع رواد الحانة منذ دخل هذا الأبليس القفص يجلبون أشهى المأكولات، لكنهم أجبن من أن يقدموها له. أمس في الليل جاءني أحد الزبائن ومعه حمال يحمل صينية كبيرة عليها غزال مسلوخ. (بعد صمتٍ قصير) طلب من الحمال أن يقدم الصينية للأسد، ولكن الحمال رفض. وزأر الأسد عندما شمَّ رائحة الغزال. ليتك رأيته يتوسل الى الحمال ليقترب من القفص.

الخادم الأول: وماذا حدث؟

الخادم الثاني: وضع الحمال الصينية على الأرض، وبصق على الغزال، وترك الحانة وهو يسب الرجل، والأسد. وظل الرجل يحدق في الغزال. (بسخرية) أراد الحقير أن يكلفني، لكنني أفهمته بسرعة أنه يطلب المستحيل. أخيراً حمل الصينية بذل وترك الحانة.

(يطلق الخادم الأول ضحكةً طويلة).

الخادم الأول: آه، لا أحد يستطيع الدخول اليه إلا الرجل الذي يعرف كيف يلوي عنقه.

الخادم الثاني: كلا يا عزيزي... كثيرون تعلّموا كيف يلوون أذنه. (صمتٌ طويل) الساعة العاشرة وما من زائرٍ واحد (وقفة) أما مللت العمل هنا؟

الخادم الأول: ما زلت أشعر برغبة قوية في العمل، هنا أتعلم الكثير... لكن الزبائن

تغيّروا كثيراً منذ دخول الأسد الى القفص. (وقفة) ألا ترى وجوههم عابسة طوال الليل؟

الخادم الثاني: سيتعودون مثله على النير... (تستمر الموسيقى، تدخل إمرأة جميلة في العقد الرابع، ترتدي ثوباً خليعاً. وبعد أن تحدق في القفص، تنفض كتفها، وتسير بخطوات وئيدة وتجلس في مكانٍ بعيد، تضع سيجارة طويلة في مبسم طويل وتدخّن بصمت).

الخادم الأول: (بهمس) عاهرة بائسة. تصور إنها تجلس في ذلك المكان نفسه حتى منتصف الليل دون أن تتكلم، وتخرج أخيراً مع أحد الزبائن بصمت...

الخادم الثاني: حقاً إنها أصمت عاهرة رأيتها في حياتي.

الخادم الأول: وهي كريمة لدرجة البذخ. (وقفة) مهما كانت منهكة أو حزينة، أو مضطربة لا تنسى مطلقاً أن تدفع لي بسخاء.

الخادم الثاني: كنزها بين فخذيها. (بسخرية) وهو كنزٌ لا ينضب.

الخادم الأول: وهي، مع ذلك عاهرة إنسانة... إنني ببساطة أودها....

العاهرة: (بصوتٍ جميل الجرس) قنينة بيرة مثلجة. (يأخذ الخادم الأول قنينة، يضعها فوق المائدة. في هذه الأثناء يدخل رجلٌ أنيق طويل القامة جداً. ويتبعه بعد قليل حمّال على رأسه صينية فضية. يحدق الرجل الطويل في القفص، وفي العاهرة، والخادمين)...

الخادم الأول: (بعد أن رجع لتوه خلف جدار البار.) أهو الذي جاء بالصينية؟

الخادم الثاني: إنه هو... يتلهف هذا السخيف لتقديم الصينية الى الأسد.

الرجل الطويل: (الى الحمّال بلطف) هيا. هيا إصعد الدرج من هناك وإدفع بالصينية في القفص.(يزأر الأسد زئيراً طويلاً عندما يشم رائحة الغزال. يضطرب الحمّال، ويتسمر في مكانه.) لا تقف. تحرك.

الحمّال: (بخوف) قلت أنه أليف ومُجامل.

الرجل الطويل: أليف... (بتعجب) طبعاً أليف... (بغضب) كان شرساً. صيرتموه مُخنثاً...

الحمّال: وماذا لو إفترسني؟

الرجل الطويل: وهل تصورتني أحمق لا يرى أبعد من أنفه؟ لماذا إذن دفعت لك أكثر

مما تستحق؟ إنها مجازفة ألم أقل لك ذلك... ألم أقل أنه أليف.

الحمّال: (بأنشداه) إنها أكثر من مجازفة. كان يجب أن تقول أنها مسألة حياة أو موت – (يطلق الأسد زئيراً طويلاً)

الرجل الطويل: تخاف؟

الحمّال: (بخوف مشوب بسخرية) تصور أن الأقداح تهتز كلما زأر.

الرجل الطويل: ما دخل الأقداح في الموضوع؟

الحمّال: مثل لا غير. أنت... (وقفة) تكلفني أن أقوم بشيءٍ مرعب.

الرجل الطويل: لماذا قبِلت؟

الحمّال: (وهو يهز رأسه) لم أتصور المسألة بهذه الخطورة.

الرجل الطويل: لكنك وافقت...

الحمّال:، أُلغي الإتفاق.

الرجل الطويل: (بحنق) جبان... جبان.

الحمّال: أرجوك. لست أجبن منك. إذا كنت مصراً على أن تقدم محتوى الصينية للأسد فأفعل بنفسك. (يطلق الأسد زئيراً حاداً).

الرجل الطويل: لهفي عليك، أعرف إنك تتضور جوعاً.

الحمّال: تريدني أن أتقدم منه في أسوأ حالاته. أبداً. إسمح لي بالإنصراف.

الرجل الطويل: (يتملق) حسنا، أُضاعف العطاء لو صعدت الدرج. هيا.

الحمّال: أبداً... أبداً... ماذا لو إفترسني، أو شوهني... هذا الحيوان يعشق اللحم النيء... (وقفة) يلتهمني أنا أولاً. مستحيل... (يزأر الأسد من جديد).

الرجل الطويل: رباه، إنه يموت موتاً بطيئاً. (كمن يخاطب نفسه) تمرد حتى علينا. آه، لو صمت قليلاً لعملنا المستحيل... إنه يذوب مثل الشمعة.

الحمّال: أعطني أجرتي.

الرجل الطويل: إتفقنا أن نقدم الصينية للأسد.

الحمّال: لا أستطيع.

الرجل الطويل: لن أدفع.

الحمّال: (يقترب من القفص، ويلقي ببصقة كبيرة صوب الأسد، ويخرج راكضاً)

الرجل الطويل: إهانة هذا العزيز من قبل حمّال عادي أكثر من الموت لنا جميعاً.

(الى الأسد) الى أي درك، وصلت أيها العزيز. كيف حدث هذا كله؟ (يحمل الصينية بصعوبة ويخرج وهو يترنح تحت ثقلها. يطلق الخادم الأول ضحكات متقطعة، ويعقبه الثاني بقهقهات ساخرة).

الخادم الثاني: هذه هي المرة الثانية التي يأتي فيها بتلك الصينية ويخرجها بنفسه. تحولت الحانة الى سينما حقيقية. (وقفة وبهمس) هل رأيت العاهرة عندما كان الرجل الطويل يساوم الحمّال؟

الخادم الأول: كانت تضحك بسخرية، وتهز رأسها. ربما كانت تداري قهقهات مدوية في داخلها...

الخادم الثاني: وأنا عضضت على شفتي بقوة. أوه، سنرى الكثير في هذه الحانة... أجل الكثير...

(ينصرف الخادم الأول للعمل، ويجلس الثاني. تدخل شابة فتية، تتقدم بخطوات قصيرة من القفص، وتقف بخوف...)

الفتاة: (تخاطب الأسد بلهجة حزينة) لم تكن بهذه الكآبة أيها العزيز. هل كبرت؟ الأسد لا يشيخ. ما بك تحدق فيّ بغضب؟ بدأت تتقزز منا، بل تثور علينا، وترفض أن تأخذ أي شيء. نحن نخاف أن نقترب منك. (تطلق أصواتاً حيوانية من فمها) أن تشيخ بهذه السرعة مثل الحصان أمرٌ غريب... (يزأر الأسد) ها أنت تجد في كل كلمة تقولها إهانة. (تلتفت الى البار) هل قدم له أحد شيئاً؟

الخادم الثاني: من يجرؤ أن يقدم له شيئاً؟

الفتاة: رباه، إنه يعاني الكثير هذه الأيام، تماماً مثلما يعاني الإنسان القلق والإنهيار.

(يدخل شاب طويل، وسيم يرتدي ملابس بيضاء. بعد تحديق طويل في كل شيء)

الشاب: (بفرح) أخيراً عثرت على المكان. (يقترب من الفتاة... بعد أن يحدق فيها طويلاً) ألستِ الآنسة م؟

الآنسة م: (بتعجب) لماذا! نعم. أنا...

الشاب: ألا تعرفينني؟ (وقفة قصيرة) لا أدري لماذا كنت واثقاً بأنني سألقاكِ حتماً في المتحف.

الآنسة م: متحف؟ (بتعجب) متحف... أي متحف؟

الشاب: يجب أن تعرفيني أولاً، ومن ثم يمكننا أن نستمر في الكلام. تحولت حانتكم الى متحف. الجميع يزورون الأسد المقدس.

الفتاة: (بعد أن تتأمل الشاب طويلاً) إنك تشبه...

الشاب: إنه أنا... نعم أنا...

الآنسة م: لكنك قتلت منذ مدة. (بإستفسار) ألم تكن مراسلاً لمجلة (ل)؟

الشاب: لكنني عدت الى الحياة. كانت بي رغبة مجنونة للعودة الى الحياة. إجلسي...

الآنسة م: لكنني على موعد مع خطيبي.

الشاب: (بسخرية) أما زلتِ على علاقة بذلك القميء. (وقفة) (نسمع موسيقى أكثر دفئاً) لست هنا لأعاتب. أبداً. لقد إنتهى الحب بالنسبة إليّ. و أهلت عليه التراب، أما أنتِ فما زلتِ تضحكين على ذقن ذلك البائس الذي سحبت الأرض من تحت بناياته المعقدةَ، وتقولين له دجلاً كلمات معسولة في الشرفة. (وقفة) هل تعرفين أن الإنسان يعيش خلوداً حقيقياً في لحظة إلتقاء الموت بالحياة؟ أنني الآن عائد من المقبرة. أجل، من المقبرة. (وقفة) متى ينتهي حبكم للأشياء الحقيرة؟

الآنسة م: (بغضب) حقيرة! (بغضب أكثر) وهل كان بوسعي أن أحب مراسلاً أفاقاً، ومغامراً لا يعرف الهدوء؟

الشاب: (بسخرية) وهل كنتِ تريدين مني أن أمضي الليالي في تلك الشرفة الهرمة أشاهد النجوم من خلال أشجاركِ اليانعة؟ أو أشاهد القمر وهو يستريح من عناء الترحال، بهذه العقلية كنتِ تريدينني أن أعيش؟ كنت أريد أن أموت ميتةً نظيفة. غير أنني مع الأسف، فجأةً وفي ظلمات القبر عرفت أنني كنت دنساً، وأنني أقتات على القشور مثلك.

الآنسة م: أرجو ألا تتجاوز حدودك.

الشاب: (ببرود) حدودي. (صمت، تطلب العاهرة قنينة أخرى من البيرة المثلجة) هل تعتبرين رثائي لعلاقتكِ الفاشلة مع ذلك القميء الذي لا يملك سوى المال تجاوزاً لحدودي؟

الآنسة م: نعتز به. نعشقه.

الشاب: هل شكلتم جمعية لعبادة أسدكم الهرم؟

الآنسة م: ومن لا يعشق هذا السيد الـــ...

الشاب: (مقاطعاً) لكن هذا السيد غير المحترم أدخل في قفص حديدي ليموت موتاً بطيئاً. (وقفة) كل العشق الذي تكنونه لهذا التاريخ البائس لا يعطيكم الشجاعة الكافية لكي تقدموا له فأراً واحداً.

الآنسة م: إن كنا نخاف الإقتراب منه، فهو مع ذلك عزيزنا...

الشاب: أيٌّ عزيزٍ تافه. (بسخرية) إسمعي، لا تقاطعي كلامي، عدت من القبر لأحتفل بموت أسدكم جوعاً بعد أن إلتهم أشهى مأكولات العالم.

(يدخل رجل قصير أنيق الملابس يسير بخطوات قصيرة. وعندما يرى الآنسة، يرفع قبعته بحركة آلية. تركض الآنسة إليه).

الرجل القصير: (بصوت شحمي) إتصلت بك مرتين. في الحقيقة أردت الإمتناع عن المجيء. ظهري يؤلمني. (في هذه الأثناء يأخذ الشاب كرسياً صغيراً. ويجلس بعيداً. يخيم صمت قصير على المكان، بعد لحظات نسمع موسيقى خافتة).

الرجل القصير: حقاً ظهري يؤلمني...

الآنسة م: وهل يجب أن أكرر عليك نصائحي بضرورة عدم الإفراط في شرب البيرة. يا عزيزي، ببساطة بقيت لك كلية واحدة.

الرجل القصير: أعرف... ولكن الكلية مثل الصمام تحتاج الى التنظيف بإستمرار. والمنظف الوحيد لكليتي الوحيدة هو البيرة. (ينادي أحد الخدم) أعطني قنينة مثلجة. (عندما يقترب الخادم الأول.) إسمع، أعطيك مبلغاً كبيراً إذا قدمت للأسد ملء سطل من البيرة.

الخادم الأول: رفضت هذا الطلب مرة. لا أستطيع.

الرجل القصير: حاول... أي ضرر في المحاولة؟ هيا... حاول.

الخادم الأول: لا أستطيع.

العاهرة: (بعد أن تطلق موجة كثيفة من الدخان) كم تدفع؟ (تلتفت الرؤوس صوب العاهرة بخوف).

الرجل القصير: (بتعجب) أنت؟ أنتِ؟

العاهرة: أجل أنا... يبدو أن الثقة بالعاهرات مستحيلة.

الرجل القصير: حقاً أنتِ. (بصوت راعش) ستكون نهايتنا إن جرؤت على الإقتراب من القفص.

العاهرة: أريد أن أنتحر على مخالب حيوان أعرج.

الرجل القصير: أعرج؟

العاهرة: يقولون أنه سار مثل السرطان طوال حياته.

الرجل القصير: (مردداً لنفسه) حتى أنت يا بروتس! (بعد قليل يردد بصوتٍ عال) حتى أنت يا بروتس!

العاهرة: تعلمت الكثير، بل الكثير جداً بين جيشٍ من الأحضان... (وقفة) نعم أنا...

الرجل القصير: ما كنت أعرف أنكِ تجيدين الكلام بهذه الطلاقة.

العاهرة: ومن يجيد الكلام غير العاهرات؟ شممت رائحة آلاف الأفواه، وعجنت جسمي عشرات الآلاف من الاصابع. (وقفة) أكون غبية كبيرة إذا لم أتعلم الكثير بعد هذا المسار الطويل. (وقفة) هل شعرت بجرح لتحدي الإقتراب من قفص عزيزكم. إنني، كما تعرف، أعيش أكثر من أي شخص آخر على حافة الموس. لذا، كم تدفع؟

الرجل القصير: (يغمغم)مئة دينار...

العاهرة: حسنا، أدفع أنا لك مئة دينار.

الرجل القصير: (بإضطراب) لكنني... لا أستطيع.

العاهرة: هل تساوي حقاً حياة إنسان مئة دينار؟

الرجل القصير: (بلا مبالاة) ثمة حيوات لا تساوي ربع ذلك المبلغ.

العاهرة: أنا مثلاً، رمز للسقوط، أليس كذلك؟ لنتكاشف، إنني أتكلم بصراحة... أنا عاهرة، وأنت تعرفني جيداً، بل تعرف كل شيء عن هذا الجسد... (وقفة) أخشى أن تغار صديقتك؟ هل حقاً أساوي مئة دينار؟

الرجل القصير: حسناً كم تريدين.

العاهرة: فكر، إنني أجازف بحياتي.

الرجل القصير: أدفع مئتي دينار.

العاهرة: أي ما تدفعه عن إعلان بسيط في إحدي المجلات، أو الجرائد الواسعة

الإنتشار. لا بأس، أريد أن أكون ضحية على مخالب هذا التعس.

الرجل القصير: (الى الخادم الأول) إملأ سطل كامل من البيرة فوراً...

(يجلب الخادم الأول السطل ويسلمه الى العاهرة)

الخادم الأول: (بعد أن يقترب منها ، يهمس) سيفترسكِ أيتها المجنونة... أرجوكِ فكّري... يؤلمني أن أراكِ مشوهة... فكّري.

العاهرة: (بصوتٍ عال) ليشرب هذا الحيوان الهرم آخر قطرات البيرة من يد عاهرة. (فجأة تلتفت الى الشاب الذي ظلّ طوال الوقت صامتاً) قال هذا الشاب (تشير إليه) أن الأيدي التي زرعت الأسد في القفص مباركة. أما يدي أنا فدنسة طبعاً. لكنني.

الشاب: (يقاطعها) لا بأس إذا جرؤت. أن الأيدي المباركة أدخلته في القفص بعد دم كثير. هيا نظفي يديكِ أيتها الجميلة.

الرجل القصير: (موجهاً الكلام الى الشاب) إننا نعبده. وما يضير أن يقدم الإنسان كل شيء لمولاه؟

الشاب: (بإزدراء) هذا المولى المسخ. رباه، كم من المولى إتخذتم. وأخيراً إنتهيتم بهذا الذي زأر لكم طويلاً. هذا المولى الذي كان بمثابة المؤخرة.

الرجل القصير: (ببرود) الشبان يحبون الإنفعال.

الشاب: (بسخرية) ألا تعرفون لغةً أخرى؟ الشبان يضطربون، ينفعلون، يهسترون، قليلو التجارب، يسخنون بسرعة. كلا أيها السيد. حبذا لو تعلمتم لغةً أخرى...

الرجل القصير: لا أفهم سبب غضبك.

الشاب: لست غاضباً. على العكس أشعر بسعادة التحدي.

الرجل القصير: (بتألم) التحدي، وصل بنا الى هذا اليوم. التحدي وضع أسدنا في القفص. آه، ليتني أملك أنا الآخر شيئاً من التحدي لأطلق سراحه. ولكنني صرت كبقية أفراد طبقتي أعاني أمراضاً كثيرة. أنا بكلية واحدة، وذاك مربوط على مقعده يعاني شلل الأطفال، والآخر يعاني السرطان، ،...

الشاب: أجل، شختم مثل أسدكم، (تأخذ العاهرة السطل وتتقدم من الدرج. يدخل رجل أنيق يحمل على كتفه ببغاء كبيرة، ويتقدم من القفص. سأطلق على هذا الرجل

إسم –الرجل الببغاء– يقوم بحركات غريبة).

الرجل الببغاء: (بصوت حزين مخاطباً الببغاء) الى متى هذه القطيعة؟ حسناً، إذا كنت ترفض الكلام معي، تكلم مع الأسد... منذ أسبوع وأنت أصم أيها الحقير، تلفت حياتي، ما هذا الدلال ما هذه الغطرسة؟ (تضع العاهرة السطل على الأرض. يخيم صمت طويل نسمع خلاله عزفاً خافتاً على المزمار).

العاهرة: (لنفسها) ها قد جاء، يجب أن نستمع الى شكواه من جديد.

الرجل الببغاء: (مخاطباً الببغاء) إذا كنت ترفض الكلام معي، فتكلم مع عزيزنا الأسد. منذ دخوله القفص والنحس يطاردنا. تكلم... هل قطعت عنك طلباتك؟ ألم أصحبك معي الى كل مكان؟ هل قطعت عنك الويسكي؟ أعترفت لمرات عديدة أنني قلق لفساد الأعمال، والركود في البورصات. هيا قل كلمة للأسد العزيز. (ترقى العاهرة الدرج بصعوبة، وتصل الى القفص بعد جهد. تقرب السطل كثيراً وتحنيه برفق. يخرج الأسد فمه ويبدأ يلعق البيرة، يصفق الرجل القصير، ويقوم بحركات طفولية، بينما يلطم الرجل الببغاء فخذه، ويطلق هو الآخر كلمات تعجب. الجميع يحدقون فيها بإعجاب شديد).

العاهرة: (بعد أن ينسحب الأسد داخل القفص). إنه مثل الجرو...

الآنسة م: (بغضب) لا تهينيه... برافو...

العاهرة: إنه يهين نفسه.

الرجل الببغاء: (وهو يمط الكلمات) هذه بطولة، من منا إستطاع أن يقترب منه منذ دخوله القفص... بطولة...

الشاب: إنزلي أيتها القديسة. إنزلي.

العاهرة: (بإعتزاز) أستطيع أن أروضه لكم. (تنزل الدرج برفق. وتسير بخيلاء صوب الرجل القصير الذي يقدم لها شيكاً) شكراً. (تدفع للخادمين مبلغاً من المال وتترك المكان.)

الرجل الببغاء: (مخاطباً الببغاء) كيف وجدت هذه الإهانة... تكلم.

الآنسة م: (الى الرجل الببغاء) أخشى أن يكون مريضاً.

الرجل الببغاء: (يتقدم منها) من منا بلا مرض؟ سيدتي، رأيتكِ قبل أمس تتوسلين أحد

الخدم كي يقدم قطعة لحم للأسد. لا تقاطعيني، الآن رأيتِ ماذا فعلت تلك العاهرة، لم تخف الإقتراب منه؟ إن ببغائي يعاني مرضنا نفسه. الكآبة، التدهور، الدخول في ضائقات مالية ونفسية، وشيخوخة في كل شيء... في كل شيء... (وقفة) لقد شخنا وعبثاً ندعي الشباب، ونرفض التسليم. تصوري أنني لم أتزوج من أجل هذا الببغاء، لا تتعجبي، نزواتنا كثيرة، خصوصاً نحن الذين لم نفكر إلا في أشياء سقيمة... آخذه معي الى المكتب، وأحياناً الى دورة المياه. ومؤخراً سجلت جميع ثروتي بأسمه. منذ أسبوع وهذا العزيز أصم.

الآنسة م: هل يتكلم بوضوح؟

الرجل الببغاء: ببغاء... مجرد ببغاء! كثيراً ما نتكلم نحن مثله. (بصوت راعش) أما أن يصمت منذ أسبوع دونما نأمة واحدة فهذا أكثر من موت. (يبكي) مؤخراً أضرب السخيف عن الطعام، وصار يكتفي بالماء وحده. (وقفة وبصوت حزين) تصوري يا سيدتي انه مدمن على الويسكي، ويحدث مثلاً أن ينفذ عندي في البيت، يحدث هذا اليس كذلك؟ فيثور ويطالب بالويسكي... منذ أسبوع لا يريد أي شيء... أي شيء، لعله يريد أن يتعلم مثلنا على التقشف بعد النكسات الكثيرة التي صارت تلم بنا لكنني أشك. (يلتفت الى الببغاء) تكلم أيها العزيز. (مخاطباً الآنسة م) كلميه أنتِ...

الآنسة م: (تطلق أصواتاً مختلفة) هيا، هيا كفى عناداً... لا تغضب صديقك. تكلم...(تضحك) حقاً إنه جميل... (تلتفت الى الرجل القصير) حبذا لو تبتاع لي واحداً مثله.

(تمد يدها، وتمسد رأس الببغاء) تكلم... (تأخذ الببغاء في حضنها، وتحركه مثل الطفل) لا يليق بك مثل هذا الصمت.

الرجل الببغاء: (بحزن) إفتحي فمه، ربما قطع أحدهم لسانه... (تفتح الآنسة م منقار الببغاء، وتحدق بتعجب).

الآنسة م: آه، ها هو ذا لسانه... (وقفة)، أخشى أن يكون مريضاً.

الرجل الببغاء: أشك، إسمعي، أمس أنتهيت من مراجعة الطبيب النفساني. تصوري، دخل معي الى عيادته، ووقف بصمت يتأملني. وسألني الدكتور وأنا مستلقٍ بإرتخاء على المقعد فيما إذا كنت أفرط في شرب الكحول، قلت كلا، لكنني

أشرب في حدود المعقول. (وقفة) غير أنه راح يردد للطبيب – يشرب كثيراً... يشرب كثيراً. وملأ الدكتور الغرفة بقهقهة طويلة، وطلب مني أن أبيعه له. ومنذ أسبوع وهو اصم... (فجأةً يطير الببغاء ويحط على جدار البار). إبق حيث أنت أيها السخيف، يا ناكر الجميل... (يردد بصوت عال) يا ناكر الجميل.

الآنسة م: (ترفع هي الأخرى صوتها بتعمد) لا عتب على الحيوان. ثمة شبان جعلتم منهم مشاهير إنقلبوا مثل الحرباء... لا عتب على الببغاء... (ينهض الشاب من مكانه بعد أن فهم أنه هو المقصود، ويقترب من مائدة الرجل الببغاء).

الشاب: تتكلمين مثل الببغاء. صوتك يدغدغني.

الآنسة م: (بغضب، مخاطبة الرجل القصير...) ألا تعتقد أنه يبحث عن الموت؟

الشاب: من ظلمات القبر جئت لأغسل عني الخزي. كتبت ما يرضيكم، ويسعدكم – لكن حين قلت أخيراً بأن ثمة فيالق من الناس لا يملكون حتى الماء النظيف للشرب، إستقرت رصاصة في فمي... حقيقة واحدة اسلمتني الى الموت، وما أكثر الحقائق بعد...

(يطير الببغاء فجأةً ويحط على القفص. نسمع موسيقى حزينة. ينهض الأسد، ويحاول أن يضرب الببغاء بكفه، لكنه لا يطاله. يقفز الرجل الببغاء مثل المجنون من مكانه، ويدور بكثير من الخوف على بعد مترين، حول القفص).

الرجل الببغاء: (بإستجداء مخاطباً الببغاء) إنزل أيها العزيز. إنزل يا حياتي. آسف إن كنت أهنتك. هذا أختيارٌ مخيف للموت. أعتذر... أعتذر. إنزل أيها العزيز (بذهول، يلتفت حول نفسه كالمذعور) أين العاهرة التي قدمت البيرة للأسد. أين هي؟ آه. لست أدري من قال إننا سنقبل ذات يوم أيدي العاهرات. آه لو جاءت لقبلت يدها ألف مرّة. (يحاول أن يتقدم من القفص. يزأر الأسد. يتراجع بخوف) ساعدوني أرجوكم. (الى الآنسة م) سأموت حزناً لو التهمه الأسد. (بصوت مخنوق) لكن من الواضح أنه سيلتهمه. أقسم أنني سأنتحر هنا. سأنتحر. (الى الرجل القصير) ما العمل؟ (لنفسه) ربما لأنني وبخته كثيراً... لم هذا التمرد الأحمق؟ (كمن يصاب بذهول، ويتكلم بلغة شاعرية). عزيزتي، إذا كان مقامنا في هذا المكان قد إنتهى فلنرحل معاً الى غاباتٍ أجمل. يحق لعاشقين أن يبتعدا عن الناس ما داما يحملان الحب في قلبيهما. فلنرحل،

ولنكن في مأمن على الدوام، لا بأس، أصمت ما حلا لك. أصمت حتى الموت ولكن إنزل. تذكر أغنيتنا الحزينة في الأماسي، سأغنيها، إذا نزلت. (يغني بصوتٍ حزين) في المساء. وتحت حلمنا العتيق سنتذكر كل شيء، ونأكل اللوز المحمص، ونشرب الويسكي (يخاطب الببغاء) هيا... هيا... كرر معي. (في هذه الأثناء يحاول الأسد بإستماتة أن يمسك بالببغاء) رباه، ما كنت أنتظر مثل هذه النهاية المؤلمة. تأكد أن نهايتي ستكون أفظع لو ألتهمك هذا الأسد الحقير. (يصرخ) هذا الناكر الجميل... هذا الناكر الجميل.

الشاب: (ينهض ويتقدم من الرجل الببغاء) ها هو ذا الأسد يفترسكم، ويفترس حتى ذكرياتكم، وماضيكم.

الرجل الببغاء: (بذهول) هذا صحيح. إنه أكبر نذل رأيته... يالجهودي، والأموال التي صرفتها، وصرفها والدي، وجدي من أجل أن يكون هذا الحقير أسداً... (يستجدي الشاب) تأمل يا عزيزي، إذا أفترس طائري العزيز، سأضع البقية الباقية من ثروتي للتعجيل في قتله. إنه نذل حقير... (يطلق الرجل القصير صوتاً مخنوقاً).

الشاب: أهذا هو إلهكم نصف الميت؟

الرجل الببغاء: (بإنفعال) كنا نريد أن نشفيه من جديد.

الشاب: لن تفيده ملايين الحقن. السرطان ينهشه كل يوم. سينام الى الأبد، ويحنط للذكرى. (يخرج من الطرف الآخر للغرفة زنجي متين، يتقدم من اللوح، ويكتب بصمت – ٢٤٠٠٠ فلزات الحديد، وينصرف بهدوء)إسمع وضعتم ثقتكم الأبدية في إلهٍ مشلول حطم لكم ملايين البشر، وها هو اليوم دونما شفقة يحطم بقايا ذكرياتكم.

الرجل الببغاء: (بجنون) أين العاهرة؟ ربما كانت الوحيدة التي يمكنها أن تنقذ ذكرياتي، حتى هي لن تستطيع الحصول عليها. آه. لو عرفت أين هي، أعدك أن أسجل بقية ثروتي بأسمها لو أستطاعت إنزال طيري العزيز من فوق القفص. أرجوك، من أجل ماضيّ...

الشاب: لو بقيت في القبر مع دنسي لصرت رمزاً للدنس. لكنني جئت لأكفر عن خطاياي. عن طريق ثروتكم مسخت. تأمل، حتى ثروتك تعجز عن إنتشالك من بؤسك.

الرجل الببغاء: (بحزن) آه، الآن أدركت أن حياتي كانت تعاسة... أردت أن أكون غير ما أنا عليه. تصور لم أستطع أن أحب أحداً بصدق مثلما أحببت هذا الطائر. ربما لجفاف عواطفنا، بل قل وعينا، كنا مهووسين بعشق الحيوانات.كان والدي يربي القطط...

الشاب: فاتك القطار... فاتكم القطار جميعاً.

الرجل الببغاء: (بإستجداء) أنزل لي طيري... أنزله. أرجوك. إنني ضحية حب هذا العاهر.

الشاب: (بسخرية) أنتظر... أنتظر ليفترسه كي ترتاح. قد يضعك موت طائرك في قلب هذا الحاضر المعجون بالشقاء. قد تطرق باباً آخر. أن الحياة تمر بآلاف السبل لخلق الذكريات (يصمت الرجل الببغاء. ويطلق الرجل القصير أنات مخنوقة بشكل مستمر).

الرجل القصير: آه ظهري. ظهري كأن خنجراً غُرس فيه... (صراخ مخنوق) من أين يأتيني هذا الألم كله؟

الآنسة م: يا عزيزي هذه هي القنينة العاشرة من البيرة المثلجة. تملأ نفسك كأنك زق. (تتصنع التأثر) كيف تستطيع الكلية الواحدة أن تصرف كل هذه الكمية من البيرة...

الرجل القصير: (يزفر، بصوت مخنوق) أخاف الترسبات، ألا تعتقدين أن الكلية تشبه المصفاة؟ أي... أوف... أي... أحس وكأن أحدهم يقطعها بالسكين... أريد أن أبول... أبول... أريد.

الانسة م: كف عن الشرب... أنهض، أذهب الى دورة المياه.

الرجل القصير: (بخوف) عيناي تريدان الإندلاق. بطني ينتفخ. (برعب) ربما إنفجرت كليتي... إنفجرت بالتأكيد. (وقفة) أن ببغاء هذا التعس أنساني نفسي، وذكّرني بوالدتي عندما بكت على كلبها الذي مات... وي... آي... من أين جاء هذا التعس؟

الرجل الببغاء: (ما زال مضطرباً) لا تقل تعس. أن طيري العزيز مثل كليتك الوحيدة بالنسبة إلي.

الرجل القصير: (الى الرجل الببغاء) لكن إذا أنفجرت كليتي الأخيرة إنتهيت الى الأبد.

(الى الفتاة) أحمليني، أرفعيني. هيا... أرفعيني. (بصوتٍ خافت) أين؟ (بذهول) الى دورة المياه... أجل... الى هناك.

الآنسة م: (تستنجد بأحد الخدم، يرفعان الرجل القصير من فوق المقعد. بصعوبة).

الخادم الأول: بال على المقعد... أنظري... المقعد مغسول بالبول.

الرجل القصير: (بصوت مخنوق) لديّ كلية واحدة. فكري جيداً. كلية واحدة وهي الأخيرة. (يسير مفتوح الساقين) ربما إنفجرت.

الآنسة م: (وهي تغالب الضحك) كلية واحدة وعشر قناني بيرة.

الرجل القصير: (مغمغماً) كنت أحتسي ملء سطل كامل منها أيام شبابي. (يخرج الرجل القصير، والآنسة م والخادم الأول. بعد صمت قصير نسمع موسيقى كأنها تنبعث من بعيد.)

الشاب: جثث... جثث كثيرة... (وقفة) ألا تعرف أن تبكي من أجلِ شيء آخر؟ (بتألم) آه، أيها المسكين، لو كنت معي في الأماكن البائسة من العالم لتعلمت الكثير، ولرأيت جحافل الناس تعيش آمالاً وأعراساً في قلب الفقر. (وقفة) أجل، ما جئت من أعماق القبر إلا لأكفر بهذه العبودية.

الرجل الببغاء: (بصوتٍ حزين) مسختني الثروة، والأعمال التافهة. لقد ربطت حبي، وعقلي بهذا الببغاء حتى إنغرس في دمي. (وقفة وبجرس أكثر حزناً) إسمع. لا تقاطعني، ألا يحدث أنك لا تحب شيئاً لكنك فجأةً تجد نفسك تتمرغ في طينهِ. كثيراً ما تبحث عن الوعي، فإذا به في إجازة، وأنت أشبه شيء بعربة فارغة، فارغة من كل شيء. انني إنسان ضعيف خائر لا يعرف ماذا يريد، ولا يعرف إذا أراد، لماذا؟ أسمع ما دمت تصر أن تدفعني الى مسارٍ آخر، دعني أثرثر قليلاً. كنت أيام تفتحي الحقيقي على الحياة لا أريد شيئاً وأريد في الوقت نفسه كل شيء. كنت أختار إتجاهاً لأنني كنت أريد بإصرار أن أسير في جميع الإتجاهات. وأختاروا لي طريق الثروة، وحب الأسد، وأضاعوا حريتي... آه، أن الإنسان مجموعة ظروف . لا تهز رأسك. أعرف ماذا تريد أن تقول. أجل، ببساطة اسأت إختيار طريقي الحقيقي، وتهت، وصرت عضواً في الجمعية التي تعمل ليل نهار لإعطاء الديمومة الأبدية لهذا الأسد الحقير الذي يحاول قتل طيري العزيز. (بإستجداء) أنقذه... أرجوك.

الشاب: أبدأ من جديد. بوسع الإنسان أن يبدأ دوماً من جديد. رجعت من القبر لأبدأ من جديد...

الرجل الببغاء: تقصد رجعت مثل العازر... (وقفة) رجعت من القبر...

الشاب: العازر كان جثة لا غير. أنا أعيش الموت والحياة معاً...

الرجل الببغاء: (بتعجب) أنت تمزح. (هنا يدخل شاب نحيف يحمل كماناً. يتقدم من الخادمين. وسأطلق عليه إسم عازف الكمان).

عازف الكمان: (بصوت عال) عجيب... الحانة خالية تماماً.

الخادم الثاني: (يتثاءب) إنه الكساد يا عزيزي.

عازف الكمان: مررتُ على ثلاثين صالة وكلها كانت مهجورة مثل الكهوف. سأنتظر قليلاً... أعطني قنينة بيرة. (يترك الشاب الرجل الببغاء ويجلس في مكانه، بينما يحاول الرجل الببغاء أن يتقدم من القفص).

الرجل الببغاء: ألا يكفي أيها العزيز؟ إنزل يا حبي الوحيد. إنزل لنذهب من هنا، أقسم لن أطأ هذا المكان بعد الآن. (وقفة) سأبقى حيث أنا مثل الحجر حتى تنزل...

عازف الكمان: (بسخرية) كل هذه الصلاة من أجل الببغاء.

الشاب: إسمع يا عزيزي، وتعلم.

عازف الكمان: إذا كنت حقاً تحمل هذا الحب كله لطيرك فأصعد فوق القفص وأنزله.

رجل الببغاء: (يتخاذل) أجل، إنني جبان، ثم أن فكرة تحولي الى فريسة، تحول ظهري الى قالب من ثلج.

عازف الكمان: إذن لست في مستوى حب طائرك؟

الرجل الببغاء: آه، ما كنت في يوم ما في مستوى أي حدث رجولي. (ينهض عازف الكمان ويتقدم من الرجل الببغاء).

عازف الكمان: تسفح عواطفك ببذخ على هذا الطائر. لو كان لديّ هذا المقدار من العواطف لعزفت الف مقطوعة دونما توقف.

الرجل الببغاء: لماذا الأُم في حبي البرىء؟ يا عزيزي أنني أحب مثلما يحب جميع الناس .

عازف الكمان: لكن أن تحب طائراً عادياً بهذا الهوس... طائراً يوجد منه الملايين باللون

نفسه تقريباً، والمنقار نفسه، والصوت نفسه، شيء أكثر من جنون.

الرجل الببغاء: ألا توجد ملايين النساء بالشعر نفسه، والجسد نفسه، والأثداء نفسها تقريباً؟ لما لا يعاب حبكم لهن؟

عازف الكمان: إسمع، من أجلِ هذه العواطف التي تسفحها أمام هذا الطائر، سأعزف لك مقطوعة حزينة، فإذا كان طيرك شريفاً نزل من فوق القفص.

الرجل الببغاء: (بذهول يحدق في عازف الكمان، ويقوم بحركات شاذة) أيها النبي من أي سيناء، أو جزيرة أتيت... أنقذني... (يدخل الرجل القصير برفقة الآنسة م، ويذهبان الى مكانيهما السابقين).

الرجل القصير: (بصوتٍ خافت) حسناً فعلت أشتريت لي سروالاً داخلياً، وإلا كان البول يحرقني(وقفة) صديقنا ما زال ينتظر طيره. آه. ما كنت أعرف أن الطيور تعرف الحرد. (وقفة) لا... لا... إن كلب والدتي هو الأخر كان يحرد... (وقفة) أي... أو... تعرفين يا عزيزتي ما زلت غير متأكد من سلامة كليتي... إذا لم تكن قد إنفجرت فقد أصيبت حتما بشرخ. (وقفة) ما رأيك أن أجرب قدحاً آخر من البيرة.

الآنسة م: (بغضب) آه، مستحيل، مستحيل.

الرجل القصير: أحقاً تخافين عليّ، أم تتصنعين الخوف، وصيتي كتبتها. أوه. أن يعيش الإنسان بكلية واحدة أصعب من الموت.

الرجل الببغاء: (يطلق الرجل الببغاء زعيقاً حاداً)

الرجل الببغاء: أسكت... أسكت. ألا ينتهي موضوع كليتك ، وبولك. أترك هذا الفنان ليعزف لنا شيئاً. ربما ينزل طائري وأهجر هذا المكان العفن. (يصمت الجميع. ينتهى عازف المكان من شد أوتار آلته. ويبدأ بالعزف. يتأثر الجميع. يسير الرجل الببغاء. ويدور حول القفص).

الرجاء الببغاء: (بصوت خافت جداً) يا حبي قل شيئاً ولو تافهاً من فمك الجميل. إستيقظ. ما هذا الصرع الذي أصابك؟ منذ أسبوع وأنا أعاني الحمى. ذبلت عيناي (يستمر في الطواف حول القفص. يتوقف عازف الكمان. بعد صمت قصير نسمع لحناً حزيناً. ويسقط الببغاء فجأةً في القفص، ويلتهمه الأسد في

الحال). يطلق الرجل الببغاء صراخاً مكتوماً، وتنتابه حالة جنون.)

الرجل الببغاء: آه، لا... لا... أيها الحقير... يا ناكر الجميل... أتركه. رباه... ساعدني.

(يندفع بجنون ويصعد الدرج المؤدي الى القفص، ويمسك بالقضبان، ويصرخ) أتركه أيها الملعون تقيأه (يبكي) ما كان يجب أن تقترب من هذا الوحش. (يتقدم الأسد من الرجل الببغاء، ويخرج يده اليمنى ويصفعه بقوة محاولاً جره الى داخل القفص، يسقط الرجل على الأرض. بعد لحظات ينهض بتثاقل، ويمسح وجهه المدمى، المجروح في أماكن متعددة. يسقط، وينهض من جديد. يندفع الشاب، وعازف الكمان، والآنسة م لمساعدته. يصرخ بزعيق) إبتعدوا. لقد خدعني. (بصوت حزين) لماذا أقنعني أنه كان جاداً معي. (يكرر هذه الجملة مرات عديدة).

الرجل القصير: (كمن يصلي) رباه، من الذي يستطيع أن يتحمل هذا البؤس. كان يغار على طيره العزيز حتى من البعوض، وها هو الآن يطحن تحت أقوى العصارات المعدية. (يزعق الرجل الببغاء ويزفر بحرقة).

الرجل الببغاء: (مخاطباً الأسد) أيها الأخطبوط القذر، يؤلمني ألا أستطيع مصارعتك، إن الذين جعلوا منك إلهاً كلهم كلاب. (يزأر الأسد) كنت أتصور أن الآلهة تكره القهقهة الحمقاء (بتألم) هل ما زلت تسخر مني، أنا النجم الشاحب التائه، أن الآلهة التي أدخلتك القفص لتتعفن فيه الى الأبد، هي الآلهة الحقيقية (يزداد غضبه وإنفعاله، ويبدأ يصفق) إنني أصفق لتلك الآلهة الخالدة. أيها الملعون. يبدو أنك ما زلت قادراً على الإحساس بالإهانة. لقد انحسرت مثل موج تافه داخل هذا الحديد البارد بعد أن ركلت في كل بقعة من جسدك الهرم الممسوخ، تاركاً خلفك تلك الرسالة المهينة... (يشير الى صدره) بأسمي كنت تفترس. بأسمنا كنت تدنس... أيها الدنس... نحن دنسون...

(يندفع بجنون صوب البار، ويأتي بقنينة طويلة يحطمها على الدرج الحديدي، وتتحول نهاية القنينة الى شفرة حادة. يرقى الدرج، ويتقدم من القفص، ويحاول أن يجد فرصة ليطعن الأسد. في هذه الأثناء تدخل العاهرة، وتقف عندما يقع بصرها على الرجل الببغاء، وترسل إليه نظرات تعجب. يتزحلق ويسقط على الأرض. ينهض بتثاقل).

الرجل الببغاء: تحديتك أيها الملعون، لكنك أقوى مني.

العاهرة: (بتألم) ساعدوه... أرجوكم ساعدوه.

الرجل الببغاء: (وهو يتقدم نحو العاهرة) آه، أيتها الشريفة لماذا تأخرتِ؟ أيتها القديسة. أما كان بوسعكِ أن تأتي قبل الآن؟

العاهرة: (وهي تمسك بكتفه) ماذا حدث؟ إجلس... (ينشج مثل طفل صغير، وبعد أن يطلق صراخاً، يعقبه بعويل طويل، يطعن نفسه بالقنينة الحادة مرات عديدة، ويسقط. تطلق العاهرة عويلاً طويلاً).

العاهرة: كان يجب أن يستمر في تحدي الأسد. لا يمكنني أن أتصور أن طعنات مخالب الأسد أشد فتكاً من هذه الزجاجة. يالهذه الميتة.

الرجل القصير: مسكين...

الآنسة م: (وهي تغسل الرجل القصير بنظراتها) لم أرّ إنساناً يحب بهذا العمق...

عازف الكمان: كان مخلصاً في حبه مثل القديس... ما كنت أعرف أنه يملك هذا الحب كله.

العاهرة: (الى عازف الكمان) خذ هذا المبلغ، وأعزف مقطوعة شريفة لروحه. هيا...

(يبدأ عازف الكمان بالعزف. تخلع العاهرة شالها وتضعه على وجه الرجل الببغاء. بعد العزف يمتلىء المسرح بضحكات عالية تأتي من الباب المؤدي الى الخارج. يدخل جمع من الرجال، والنساء، والفتيات. وعندما تقع أبصارهم على جثة الرجل الببغاء، يقفون بشكل نصف دائرة. ومن الطرف الآخر للغرفة، يدخل رجل أسمر يرتدي جلباباً فضفاضاً عليه خريطة العالم، ويحمل بيده سوطاً. يخاف الجميع. وسأطلق على هذا الرجل أسم: الصوت).

الصوت: ما هذا الهرج... ما هذه الجثة؟

العاهرة: (بصوت حزين) لقد أنتحر...

الصوت: إذا كنتم تخافون آلهتكم، فأطلبوا منا المساعدة على الأقل. (يلتفت الى الوراء، ويتكلم بلغة غريبة. بعد قليل يدخل رجل زنجي، وآخر صيني، يحملان الجثة الى الخارج. العاهرة تتبع الجثة بصمت... لقد بدأ يفترسكم. (بلهجة يشيع فيها الإشفاق، وإن كان يغلب عليها الشعور بالإنتصار) هل يجرؤ واحد منكم أن

يدخل على سيده. الجواب كلا بالطبع. حسناً. أزيحوا الأقنعة عن وجوهكم لتروا هذا المولى بين يدي. (نسمع موسيقى سريعة. يفتح الصوت باب القفص، ويدخل بثقة كاملة. يطلق الأسد زئيراً خافتاً، ينهال عليه بالسوط حتى يتكور الأسد في القفص مثل القنفذ. تخفت الأضواء بالتدريج ويُخيم ظلام كامل على المسرح أخيراً يسلط ضوء أحمر حيث نرى وجه الشاب ورأسه موسداً الى صخرة، والدم يتدفق من جبينه. يرفع يده اليسرى، فإذا هي معلقة بآلة تصوير، يضعها على صدره).

الشاب: (بصوت كأنه ينبعث من مكبر الصوت) من الممكن أن يموت الإنسان ميتةً عنيفة لا تستغرق برهة زمنية واحدة. وفي هذه البرهة الزمنية اللامتناهية في الصغر والتي تقع بين إطلاق المسدس وإستقرار الرصاصة في المخ، يمكنه أن يحيا حياة جديدة، وأن يتذكر الدائرة الكاملة لعلاقاته وصداقاته. أحبكِ أيتها العاهرة القديسة.

ستِار

التدريب على تحطيم القناني الفارغة

(الواجهة دائرة كبيرة تشبه الساعة تماماً تملأ مسافة كبيرة من المسرح، مثبتة على مربع من الأسمنت الفخم. وبدلاً من الأرقام توجد إثنتا عشرة نافذة واسعة وكتابة فوق كل نافذة. النوافذ من السعة بحيث يمكن أن يمر من خلالها إنسان بمنتهى السهولة والسرعة. أما عقربا الساعة فبمثابة عارضتين كبيرتين تبدوان للرائي كأنهما درجان يستعملان للتسلق لتنظيف زجاج النوافذ. كل شيء في هذه الواجهة الدائرية يشبه الساعة بالضبط. وتطل الدائرة على صحراء لا متناهية. تسمع موسيقى صحراوية حزينة. يطل من الرقم ١٢ رجل في حوالي الأربعين. يرتبك، ويرسل نظرات عبر الصحراء هي مزيج من الدهشة والفزع)

الرجل في ١٢: بهية... بهية... يا بهية... متى، من، كيف (صمت قصير. بمزيد من الإندهاش) متى فتحت هذه النافذة؟ (دون أن يصدق نفسه) لكن مهلاً. أية منطقة غريبة هذه؟ (لنفسه)لا، لم أشرب أكثر من قنينة جعة و.(صمت) لم أر هذه المنطقة من قبل. (يحدق في النافذة ويلمس الزجاج والإطار) أين كانت هذه النافذة من قبل؟ (مفكراً) أنها تشبه منطقة (ع)... ربما النخيل والبيوت الطينية في الجهة الأخرى. (صمت)لا... (لنفسه) الذي أعرفه أن تلك المنطقة تحولت الى مدينة كاملة. (يسمع صوت زوجته).

الصوت: من تكلم هناك؟ أخشى أنك أفرطت في الشرب كعادتك؟

الرجل: (بذهول) قنينة جعة واحدة.

الصوت: لكنك بدأت تكلم نفسك... أتحلم أم ماذا؟

الرجل: أحلم! كلا. (لنفسه) إذا كانت هي المنطقة التي تحولت الى مدينة كاملة، فلا شيء هنا سوى الصحراء.

الصوت: أية صحراء؟

الرجل: منطقة (ع) ألم تتحول الى مدينة كاملة؟

الصوت: يا رجل هل تعتقد أن جميع المواد التي درستها في التاريخ صحيحة؟

الرجل: (بتعجب) ألف مقالة قرأت عنها... آه، إذا كانت هي؟

الصوت: هيّ! عمّ تتكلم؟ (بضجر) أبواق السيارات تثير أعصابي، السيارات تكثر مثل النحل في الربيع (صمت) رأسي يطن من تلك الموسيقى الصاخبة. موسيقى الجاز، وصوت الترومبيت القوي.

الرجل: (بمنتهى الإستغراب) هي نفسها. ترى متى فتحت هذه النافذة هنا؟

الصوت: أما زلت تخاطب نفسك؟

الرجل: هذه الصحراء! إنها المنطقة.

الصوت: هل نثرثر في أحداث تاريخية؟

الرجل: (مستمراً في التحديق بذهول) أعرف عندنا صحراء، بل صحاري، أما هذه المنطقة فقد حولوها الى جنة. ألم تسمعي عن منطقة ع. ألم يسكن فيها الغجر. والنوبة. والبدو الرحل. ألم يقيموا فيها المصانع؟

الصوت: ألا تخلع ملابسك؟ أنت لن تكف عن مخاطبة نفسك كأنك في الصف. (تطل إمرأة بعمر الرجل، وتحدق بفزع)

المرأة: الله، خلتك تخاطب نفسك. (تحدق حولها) من أين جأن هذه النافذة؟ (ترسل نظرات خائفة الى البعيد) ما هذا المكان؟

الرجل: يبدو أن زلزالاً حدث دون أن تحس.

المرأة: زلزال! وهل تقلب الزلازل الأشياء الى صحاري؟

الرجل: ربما الى خرائب. أما الى......

المرأة: (مقاطعةً إياه) ما أسم هذه المنطقة؟

الرجل: تشبه منطقة ع. أليس كذلك؟

المرأة: بحسب أوصافك تشبه منطقة ع فعلاً. (صمت) لكن منطقة ع تحولت الى مدينة كاملة.

الرجل: إذا كانت فعلاً هي منطقة ع، ففي الصحف فقط تحولت الى جنة. إسمعي. منذ أن تزوجنا بدأوا بالثورة العمرانية فيها.

المرأة: (تحدق بإستغراب في زوجها) أخشى إننا نحلم. (صمت) رغم أنني أرى كل شيء بوضوح لكنني أتصور أنه من تأثير الموسيقى والجعة.

الرجل: لكن كل هذا الوضوح، والصفاء، (يتقدم إعرابي يسحب جملاً، ويلتقط بخوف

بنادق ملقاة على الرمل ويضعها بسرعة في خرج ملون فوق ظهر الجمل).

الرجل: (ينادي الاعرابي) يا عم... أيها الاعرابي. (يختبىء الاعرابي بحركة خفيفة خلف القوائم الخلفية للجمل) أيها الاعرابي...

المرأة: (بخوف) ماذا يفعل هناك؟

الرجل: (لزوجته) يلتقط ما يشبه البندقية. أو، من يدري، ربما يلتقط أعشاباً برية جرفتها سيول الربيع.

الرجل: (بذهول) كل شيء يوحي بالبداوة هنا.(يبتسم، ويتصنع الفرح) آه، كثيراً ما أتصور وأنا أتأمل مثل هذه المناظر أن الحلاج يظهر فجأةً وهو وسط ثلة من تلامذته، أو المتنبي وهو يسير مع تابعه الى دمشق.

المرأة: كم الساعة الآن؟

الرجل: الثانية عشرة.

المرأة: طبعاً ليلاً... (يحدق الى الخلف، ثم الى الصحراء).

الرجل: (بذهول) تلك هي الشمس. والرجل يلمع مثل حبات الرمل، وظل الجمل. (بتعجب) الظل قصير.

المرأة: إنها الظهيرة إذن.

الرجل: متى رجعنا من الملهى؟

المرأة: قبل نصف ساعة. قبل قليل إنتهيت من نزع ملابسي.

الرجل: (ينظر الى ملابسه، وغلالة زوجته) الآن.

(بخوف) ماذا تقصدين الآن. (صمت بجرس مضطرب) لماذا تحدقين فيّ بتعجب؟

المرأة: أرى أن نتصل بصاحب العمارة ونتأكد متى ولماذا فتح هذه النافذة.

الرجل: (بحيرة) لنتأكد أننا لسنا في حلم.

المرأة: وكل هذا الوضوح.

الرجل: أعرف. لكننا مشهورون بالأحلام. (يغير رأيه، وينادي الاعرابي، ثم يخاطب زوجته) المهم فتح لنا النافذة. هل وجودها ضار؟

المرأة: كلا... لمجرد أن يزول الخوف.

الرجل: لا بأس. (بشجاعة) هل تخافين وأنا معكِ؟(ينادي الاعرابي بقوة) يا عم...

(الاعرابي لا يرد) واثق أنه سيجمع دون ملل عشرات الأطنان من ذلك العشب التافه.

المرأة: (ترسل نظرات ثابتة الى يدي الاعرابي) إسمع لو حدقت جيداً في يديه.

الرجل: ماذا بهما؟

المرأة: إنه يلتقط بنادق.

الرجل: (يحدق بدقة) فعلاً. (بتعجب) ربما هي بنادق قديمة تركها نابليون بعد أن أنسحب.

المرأة: بدأت تفسر. (بحيرة) أسمع، أرى من الضروري أن نتصل بصاحب العمارة، ونستفسر منه عن كل شيء.

الرجل: (ما زال في ذهوله) ثمة أدلة تقول أن نابليون مرّ من هذه المنطقة. (صمت) ربما مجرد تخمين. (يعبث الاعرابي بزناد إحدى البنادق، وفجأة تنطلق رصاصة، ويملأ المكان دويٌ مثل العويل. وبعد قليل تخرج من الرقم٦ شابة جميلة ترتدي غلالة نوم وردية شفافة. تقف على المربع الأسمنتي، وتتمطى بحركات مثيرة، وتطلق أصواتاً طفولية. تقفز فوق الرمل، وتركض، ثم تقفز).

الشابة: (بفرح) ياالهذا السحر. (تقفز على الرمل، وتحدق في الواجهة الدائرية) ما كنت أعرف أن لهذه البناية وجهين... إنها تشبه لوحة ضخمة (تشير الى الرجل والمرأة في الرقم١٢) هي، ها ها. شيء رائع لكنه يبعث على الدهشة.

الرجل في١٢: (يرى الشابة) ساحر، وجميل. أيتها الشابة هل لديكِ أية فكرة عن أسم المنطقة؟

الشابة: (تعبث في الرمل) أوه، أبداً. خلتني أحلم. (تطلق ضحكة حلوة) ما كنت أعرف أن لغرفتي نافذة تطل على هذا المنظر الساحر. (صمت) لكن.

الرجل في ١٢: لا تسألي متى، ولماذا؟ نحن مثلك في دهشة، الذي أعرفه أننا كنا خلف جدار سميك مثلك.

الشابة: (بلا مبالاة) لماذا لا تستفسر؟

الرجل: الأستفسار لا يجلب سوى المصيبة. أسمعي هل تقرأين الجرائد؟

الشابة: فقط عندما أستقيل من عملي وأبحث عن عملٍ آخر.

الرجل: سكرتيرة؟

الشابة: (تطلق ضحكة عالية) لا... راقصة.

الرجل: مع ذلك، هل سبق أن سمعتِ عن ثورة تقريب الريف من المدينة؟

الشابة: قلت أنني راقصة... (بصوت عال) راقصة.

الرجل: (بإندماج كأن الشابة تفهمه) تقريب الريف من المدينة. هذه المنطقة حولوها من ريف الى مدينة.

الشابة: ربما يفتحون فيها الملاهي.

الرجل: لا بد.

الشابة: إذن سأحاول أن أجرب العمل في إحدى...

الرجل: (مقاطعاً) لكن المنطقة ظلت صحراء.

الشابة: المنظر جميل... ربما سيأتي بعض السياح، آه ياالهذا الدفء(يريد الاعرابي أن ينصرف. تخاطب الاعرابي. يقف. ويرسل نظرات شهوانية الى جسم الشابة) ما أسم هذه المنطقة؟

الاعرابي: (محدقاً بتركيز في بطن الشابة) لا أعرف.

الشابة: (تقترب منه) أنت خائف؟

الاعرابي: (يهز رأسه وبآلية) لا أعرف. هذه صحراء.

الشابة: (بعد أن تتأمل وجهه) يا لك من بدوي وسيم.(صمت) ماذا تفعل هنا. (يقع بصرها على بندقية في يده) هل تطارد أحداً؟

الاعرابي: (يرفع بصره الى صدر الشابة) كلا.

الشابة: (ترسل نظرات سريعة في إتجاه اليمين واليسار) بنادق كثيرة.

(ترفع واحدة وتوجهها بحركة أطفال الى الرجل في ١٢) إنها بندقية جميلة.

الرجل: أهي بندقية حقيقية؟

الشابة: حقيقية؟ وهل أفهم أنا في البنادق!

الرجل (بخوف) إذا كانت حقيقية لا تعبثي في الزناد. خرجت من أحداها طلقة قبل قليل.

الشابة: إنها تشبه مناطق الأطفال. (تلمع ماسورة البندقية تحت الشمس) جميلة لكنها ثقيلة.

الرجل: إنها حقيقية إذن.

الشابة: كيف عرفت. (صمت) هل جربت الإطلاق؟

الرجل: أبداً. (توجه فوهة البندقية بعفوية الى الرجل).

الشابة: سأطلق.

الرجل: (بخوف) لا تعبثي بآلة لا تعرفين لغتها... (بحيرة) لو فقط عرفت من الذي زرع كل هذه البنادق هنا. أتركيها...

الشابة: إنها ثقيلة.

الرجل: (لنفسه بصوت عال) يالهذه القطة. إنها تريد أن تفسد علينا كل شيء.

المرأة: (الى زوجها) لماذا تصرخ كأنها إبنتك... إنها تمزح.

الرجل: لكن؟

المرأة: (بفرح وهي تتبع الشابة) إنها تشبه فراشة صحراوية.

الرجل: (بحنق) هل حقاً توجد فراشات صحراوية؟ الفراشة تحتاج الى قليل من العشب ولا أقول زهور. هذه صحراء يا عزيزتي.

المرأة: (ما زالت تترصد الشابة) مجرد تشبيه. (تبتسم) إنها جميلة.

الرجل: جميلة... إتفقنا. لكن أن تعبث بآلة حمقاء...

المرأة: تقول أنها بندقية أطفال.

الرجل: (بغضب) وهل عرف أطفال القرى والصحاري الدمى، وبنادق الأطفال؟

المرأة: (تلاطف الشابة) أيتها الحلوة صوبي في إتجاه أنفي.

الشابة: (توجه فوهة البندقية بإتجاه المرأة) لو فقط أستطيع أن أهدف بدقة.

المرأة: (بلطف) ألا توجد العاب أخرى هناك؟

الشابة: (تلقي البندقية على الرمل، وتذهب بعيداً الى وسط المسرح، وترسل نظرات بعيدة. بصوت عال وهي تؤشر) مجموعة بيوت طينية مهدمة، وخيوط من الدخان. (تطلق ضحكة حلوة) ألله، إن الدخان بلون المنديل الشفاف... ما أجمل كثبان الرمل... إن بعضها تشبه جبلاً من البن... رباه بعض الكثبان ضخمة.

الرجل: (بشوق) ماذا بعد؟

الشابة: الدخان يتمطى مثل قطع الحرير.

الرجل: وبعد؟

الشابة: أسمع عويلاً يشبه عويل الكلب المطعون.

الرجل: وبعد؟

الشابة: بضع أشجار نخيل تتحرك. أوه، إنها تخيفني.

الرجل: (بحيرة) ياه، كأننا في سفينة ضاعت في البحر.

المرأة: إنها الصحراء.

الشابة: (بصوت عال) أرى ما يشبه سيارات مقلوبة.

الرجل: (بسخرية) بدأت ترى السراب. عما قليل ستقول أنها ترى دبابات. وجيشاً يتقهقر.

المرأة: (بصوت قوي) ماذا بعد؟

الشابة: سيارات مقلوبة تسير على ظهرها.

الرجل: وعفاريت. (بسخرية) وجنيات.

الشابة: (هي الأخرى بسخرية) أطمئن. كل شيء هادىء.

الرجل: (يطلق ضحكة عالية) يا لها من جنية تتكلم مثل جنود الإستطلاع (مستمراً في الضحك) كل شيء هادىء في الجبهة.

المرأة: أيتها الحلوة أطلقي بضعة عيارات صوب السيارات.

الشابة: (ترجع، وتلتقط بندقية) بعضها عاطل مثل بنادق الأطفال.

المرأة: أضغطي بقوة على الزناد مثلما تفعل النساء في أفلام رعاة البقر. (تلتقط الشابة واحدة وتسدد فوهتها بإتجاه المرأة).

الرجل: (بخوف) لا في إتجاهي.

الشابة: لا تخف.

الرجل: (صارخاً) إنتبهي. (بخوف شديد) قلت إنتبهي.

المرأة: ما الذي حدث لك... إنها تعبث.

الرجل: لكنها فجأة سوف تحشو رأسك بطلقة.

المرأة: مثلما تحشو رؤوس طلابك ببطولات عنترة ونابليون، والمتنبي.

الرجل: هؤلاء ليسوا طلقات بندقية.

الشابة: (تطلق ضحكة ساخرة)مو تا نبي. عنترة.

المرأة: (تلاطف الشابة بعد أن راحت هي الأخرى تستمرىء كل شيء فيها) لفظة واحدة يا عزيزتي. متنبي كان شاعراً.

الشابة: (تكثر من الضحك) أوه، شاعر. يزورني ثلاثة، أو أربعة منهم في الملهى كل ليلة، ويجلسون بصمت ثم يبكون بعد قدحين من الجعة، ويقولون إنهم شعراء.

المرأة: تقصدين يثرثرون بكثرة.

الشابة: أحياناً... لكن في أكثر الأوقات يصمتون، ويكتبون عن الحب، والحرب ثم يبكون. ترى ماذا يكتبون.

المرأة: (مازحة مع الشابة) الناس كلهم يحملون سلاحاً، لكن ليست كل ذوات المخلب السبع...!

الشابة: هو، ها، هي. قال لي أحدهم أن أظافري تشبه المخلب، وكتب أحدهم عن أظافري، وقال إنني ثمرة، وشعري بحر. أعرفهم. (صمت. تسدد الفوهة صوب المرأة وتضغط على الزناد. تخرج طلقة. تسقط الشابة على الرمل، وتصرخ)

الشابة: آه... صدري... إنكسر عظمي.

الرجل: (بأرتياح) ما هكذا يبحثون عن الموت أيتها الصغيرة. لو عرفت فقط أي مجنون مبذر زرع هذه القذارات في الصحراء! (يتقدم الاعرابي بعد هذا الصمت الطويل. ويرفع الشابة ويتفحص عنقها، وصدرها بحركات غريبة).

الاعرابي: الحمد لله لم يحدث أي شيء. إنهضي.

الشابة: (وهي تحدق في عيني الاعرابي الواسعتين) أنها بندقية حقيقية.

الاعرابي: (يتأمل جسدها بإشتهاء، ويمسد من جديد عنقها). كانت رصاصة.

الشابة: من أين هذه البنادق؟

الاعرابي: يقولون في القرية أن الصحراء لا على التعيين تقذف مرة في كل عشر سنوات أعداداً ضخمة منها وتزرعها في الرمل.

الشابة: (بشيء قليل من الخوف) أخشى أن تأتي الشرطة.

الاعرابي: منذ مدة لا شرطة هنا.

الشابة: لكن الشرطة موجودة حول البيت والملهى.

الاعرابي: هنا لا توجد شرطة.

الشابة: لماذا؟

الاعرابي: خالية من كل شيء. (يضع بلطف يده فوق كتفها العاري، وبعد لحظات يلتهب) تمددي.

الشابة: (تتمدد) جرحت نفسي.

الاعرابي: لا.

الشابة: ربما خدشت عنقي.

الاعرابي: (مستمراً في التمسيد) لا.

الشابة: ربما إزرقت رقبتي.

الاعرابي: لا. (صمت) جربي طلقة أخرى.

الشابة: (تنهض وتجلس قبالة الاعرابي) لكنها هزتني بقوة.

الاعرابي: كيف؟

الشابة: هكذا. (تهز كتفها بحركة راقصة. يصاب الاعرابي بذهول).

الاعرابي: (بآلية) كيف؟

الشابة: (تعيد الحركة بغنج أكثر وهي تحدق في وجه الاعرابي المضطرب من الألتهاب)تصورت أن أحدهم خضني... لكن لا بأس أنا متعودة على الخض.

الاعرابي: (كمن في غيبوبة) كيف؟ كيف؟

الشابة: (تعيد الحركة بهيستيرية. فجأة يصفق الاعرابي مثل المأخوذ، ويغني لا شعورياً –على حسب وداد قلبي. وتطلق الشابة مسحورة بصوت الاعرابي ضحكة شهوانية، وتنهض بسرعة وتبدأ في الرقص.) صوتك رائع.

الرجل في١٢: والله يا عالم في الجحيم لن نكف عن الرقص، ولا عن الغناء. (لنفسه) يا لها من لبؤة. والله لو مرّ أبو نواس من هنا الآن لأقتنع أنه لم يمضِ على موته سوى ساعات.

المرأة: (بإنتشاء) يالصوته الجميل، آه. لو أستطعت فقط أن أجد طريقاً الى هناك. (تهز الشابة أردافها بإندماج، ويرفع الاعرابي طبقة صوته – وأنا كل ما أقول للزين سلامات، على حسب وداد قلبي يا بوي)

الشابة: (الى المرأة) إنزلي.

المرأة: لا طريق... الاعرابي صوته رائع. (الى الاعرابي) إرفع صوتك.

(يغني الاعرابي بصوت عال. تحرك المرأة نفسها هي الأخرى على إيقاع الأغنية).

الشابة: (وهي مستمرة في الرقص) الرمل يدغدغني... جسمي يقشعر. (يتوقف الاعرابي عن الغناء، ويلتقط بندقية وفي فورة هياج نفسي وجنسي يبدأ بإطلاق عدة عيارات. يغلق الرجل في ١٢ النافذة ساحباً زوجته بقوة. يلقي الاعرابي البندقية ويضع باطن يده على كتف الشابة. ويأخذها لصق الجمل. يبرك الجمل. يجلسان متكئين الى بطنه. صمتٌ طويل. تطلق الشابة صرخةً مخنوقة).

الشابة: أنظر... ياله من جرذٍ كبير.

الاعرابي: إنه جرذ الصحراء. أُنثى.

الشابة: وكيف عرفت؟

الاعرابي: الإناث تضرب أذيالها على الرمل بقوة.

الشابة: لماذا؟

الاعرابي: (ينكس رأسه، ويشعر بشيء قليل من الخجل).

الشابة: (بإلحاح) لماذا تضرب ذيلها على الرمل؟

الاعرابي: هكذا تعمل الإناث لتلفت نظر الذكور من الجرذان.

الشابة: حقاً؟

الاعرابي: عما قليل سيخرج لها الجرذ. الذيل يعني تنبيهاً.

الشابة: تنبيهاً الى ماذا.

الأعرابي: (بحرجه البدوي المعروف) الى... (يغني بصوت خفيف. يا نخلتين في العلالي يا بلحهم دوى).

(تُفتح النافذة رقم ٩، وتطل إمرأة عجوز وبفزع ترسل نظرات مثل فأر في مأزق الى الصحراء)

المرأة العجوز في ٩: ما هذا بحق الإله. ألم يمنعوا بعد الإطلاقات في حفلات الزفاف؟ نحن لم نتمدن أبداً. يتحمس الواحد. ويريد أن يلفت الأنظار إليه ويبدأ بإطلاق رصاصات مجنونة في الهواء.

الشابة: (تحرك يدها للعجوز) أيتها الجدة... شيءُ ساحر. أليس كذلك؟

المرأة العجوز: (بخوف) ماذا أرى؟ صحراء؟ إعرابي؟ وشابة؟ أوه (تنادي زوجها) تعال... تعال يا عوض.

صوت رجل شيخ: (بعصبية) قلت أزيحي تلك اللوحة من هناك. يبدو أنكِ ستظلين تعشقين المناظر الصحراوية. كم سنة أمضيتِ في منطقة ع. أربع سنوات. بالهوس نفسه تحتفظين بهذه اللوحات الصحراوية.

المرأة العجوز: (بذعر وهي تترصد الصحراء) اللوحات بعيدة عن النافذة. وهل تتحرك اللوحة؟ تعال يا عوض أنظر.

صوت الرجل: لحظة تذكرني هذه اللوحات بأقسى الأيام، والتمارين، والتدريب الشاق، والسهر، تلتذين أنتِ بها كذكريات.

المرأة العجوز: قلت تعال يا عوض.

الشابة: (معانقة الاعرابي) أيتها الجدة... تعالي.

الاعرابي: أتركيها.

الشابة: لماذا؟

الاعرابي: يتكلمون كثيراً.

الشابة: ثرثارون.

الاعرابي: نحن في القرية نكره الثرثرة.

الشابة: أنتم مثل الصحراء. تجيدون التحديق بعيونكم المُكحلة.

الاعرابي: (يضطرب) تعالي معي الى القرية.

الشابة: لأجمع الحطب والروث.

الاعرابي: (يضطرب أكثر) عندي آلاف البنادق. أبيعها ونهرب.

الشابة: من أين لك هذه البنادق؟

الاعرابي: جمعتها.

الشابة: أنت نظيف.

الاعرابي: أعرف أنني قذر... سأغتسل.

الشابة: لا أقصد.

الاعرابي: أستحم مرّة أو مرتين في الشهر. رائحتي كريهة... منذ أيام وأنا أجمع البنادق في الصحراء.

الشابة: لماذا لا تأتي معي الى الملهى؟

الاعرابي: (بحرج) اه... عيب.

الشابة: تغني وأنا أرقص.

الاعرابي: (يلتهب، ويمد يده الى فخذ الشابة بإندفاعة مجنونة) أنا أغني في الملهى.

الشابة: وانا (تطلق ضحكة ساخرة) وأنا أضرب ذيلي مثل الجرذ بقوة.

الاعرابي: (يلتهب أكثر) وأركض أنا خلفكِ.

الشابة: مثل الجرذ.

الاعرابي: بالضبط (يصاب الاعرابي بحالة خدر، ويردد بآلية) بالضبط.

الشابة: وتقرص بطني.

الاعرابي: (وكأنه في غيبوبة) قبلت... قبلت. (يتكيء بظهره الى بطن الجمل ويغني بصوت خفيف (طوحنا يا هوى يا هوى طوحنا) (يطل رجل شيخ، ويقف لصق المرأة العجوز في الرقم ٩، ويرسل نظرات قاسية الى الصحراء، ودون أن تظهر أية علامة إرتباك على وجهه يستمر في التحديق. تحتضن الشابة الاعرابي للحظات، ويقوم هذا أثر هيجان نفسي ويهرع الى أقرب بندقية ويطلق ثلاث رصاصات في إتجاه الشيخ لمجرد العبث. يرتبك الشيخ ويتحرك الى الداخل، ثم بعد قليل يأتي الى مكانه نفسه. ما زال غير مصدق نفسه).

الرجل الشيخ: (بجفاف) ربما من جديد سمحوا بإطلاق الرصاص في حفلات الزفاف. هذه المشكلة البدوية لن تعرف وقف إطلاق النار.

المرأة العجوز: (بإندهاش) ألم ترّ بعد؟

الرجل الشيخ: (بالجفاف نفسه) أرى ماذا؟ زفافاً جديداً. لا أدري ماذا تعني هذه الإطلاقات في حفلات الزفاف، خمسة عشر سنة أمضيتها في الجيش حرقنا ملايين الرصاصات على أهداف ميتة بحجة التمرين. أما هؤلاء فبأيةِ حجة؟ هل لمجرد شحن العريس بالعزيمة؟

المرأة العجوز: أية عزيمة... ألم ترّ المنظر بعد؟

الرجل الشيخ: (بلا مبالاة) رأيت حفلات زفاف من هذا النوع بكثرة.

المرأة العجوز: وهل هذه حفلة زفاف؟

الرجل الشيخ: أناس عاطلون... الوقت عندهم مثل الرمل. ماذا لديهم غير حفلات الزفاف، وإطلاق الرصاص. (تفتح النافذة في الرقم١٢ – ويطل الرجل).

الرجل في١٢: (غاضباً) ألا توقفون هذا الإحتفال؟

الرجل الشيخ: (بسخرية لزوجته) ها هو رجل أكثر ضجراً مني من هذه التقاليد البالية.

الرجل في ١٢: (بعصبية) أما أن تعشق راقصة العبث مع البنادق فشيءٌ سخيف. (الى الشابة) دعي الاعرابي ينصرف.

الشابة: إننا أحرار. غنى لنا، ورقصت. اقذفوا له شيئاً.

الرجل الشيخ: (بسخرية) ها هم بعد الإطلاقات يقدمون العاب الحاوي القروي ثم يستجدون النقود.

المرأة العجوز: (بذعر) هل ما زلت تحلم؟

الرجل الشيخ: أحلم! إنها حفلة زفاف، وإطلاق رصاص. راقصة، إعرابي، وجمل، ماذا ترين أكثر؟

المرأة العجوز: لكن هل سبق أن رأيت مثل هذا المنظر منذ أن جئنا الى هذه البناية؟

الرجل الشيخ: لست أدري. (يخيم صوت. يعبث الاعرابي مع الراقصة. يغلق الرجل في النافذة١٢ جناح النافذة. يبقى الشيخ وزوجته صامتين. تستمر الموسيقى الصحراوية)

الشابة: هل تجيد التصويب بدقة؟

الاعرابي: بمنتهى الدقة.

الشابة: البندقية خضتني... أخاف منها... (يأخذ الاعرابي بندقية، ويسهب في شرح كيفية إستعمالها، ينزع عباءته، وعقاله).

الاعرابي: لو كانت لدينا بضع قناني. (تنهض الشابة وتذهب الى النافذة ٦ وبعد قليل تجلب ثلاث قناني. يأخذها الاعرابي ويزرعها على مسافة بعيدة. يعود مهرولاً وينكفيء على وجهه ويطلب إليها أن تتمدد لصقه ويصوب في إتجاه القناني. تسحب الشابة بندقية وتقلد الاعرابي بالضبط) أغمضي عينكِ الواحدة. تماماً...

الشابة: كأننا نتغامز...

الاعرابي: (ينفخ مثل ثور هائج بعد أن يقع بصره على نهدي الشابة المندلقين) أبسمي.

الشابة: لماذا؟

الاعرابي: لا تطلقي. (تفتح عينها المغمضة).

الشابة: (تلاحظ أن الاعرابي يحدق بِنهم في صدرها) أين تحدق؟

الاعرابي: (ناسياً نفسه نهائياً) في القناني.

الشابة: إنهما بيضاوان مثل القناني.

الاعرابي: لم يحدث إن رأيت. كنت أتصورهما كضروع البقر.

الشابة: بدوي.

الاعرابي: أشتميني... (يدير فوهة بندقيته ويصوبها الى صدر الشابة) أشتميني.

الشابة: (بشيء قليل من الخوف) ماذا تعمل؟

الاعرابي: أستطيع أن أصيب الأبرة.

الشابة: وهل في صدري أبرة؟

الاعرابي: الواحدة منها تشبه بطن طير البط... (تصفعه الشابة بلطف. يفتح الرجل في ١٢ النافذة بخوف).

الرجل في١٢: كل شيء تحول الى ساحة تدريب... (ينادي) أنت أيها الاعرابي منهمك كأنك تصوب الى أبرة. (يرفع الاعرابي رأسه. يغلق الرجل في ١٢ النافذة بغضب).

الشابة: يبدو أنه يعرف أنك تستطيع إصابة الأبرة.

الاعرابي: إذا وافقتِ ضربت له أنفه.

الشابة: لا... حاول أن تضرب ذيل جرذ الأنثى.

الاعرابي: (يحدق فيها طويلاً) لكن.

الشابة: تفقد إشارتها. (يضحكان بقوة) حسناً. ستكون معي بعد الآن لتضرب أنوف من يعتدون عليّ.

الاعرابي: خادمكِ أنا... (يقهقهان. يقترب الرجل في الرقم ٩ ويطل بجسمه. يرتبك ويرى الأشياء بوضوح)

الرجل الشيخ: ما هذا؟ ما هذا؟

المرأة العجوز: حمداً لله بدأت ترى بوضوح.

الرجل الشيخ: أما هذا فزفاف من نوعٍ جديد. إنه تقدم... لم ار شابة حلوة متمددة على

الرمل بكامل جسدها هكذا دونما حياء... ائتني بالمنظار. (يسمع صوت إطلاقات وتطاير شظايا الزجاج).

بدأوا بتحطيم قناني الزجاج.

الرجل في ١٢ (يفتح نافذة) أيها الاعرابي إذهب وأصطد ثعلباً، أو أرنباً. رفقاً بالطلقة التي تعطيها للهواء... ألا تتأسف على الطلقة الواحدة وأنت تحطم بها القناني؟

الرجل الشيخ: (الى زوجته) إسمعي هذا المجنون. يتأسف على الطلقة الواحدة.

الاعرابي: أتسلى... تعلمتُ أن أتسلى بالرصاص.

الرجل الشيخ: مثلنا تماماً يوم كنا نتدرب. (يصمت الرجل في١٢ يضع الرجل الشيخ المنظار على عينيه.يشتهي منظر الشابة وهي متمددة تعبث بالرمل). زفاف جديد.

المرأة العجوز: هل تحدق في الشابة؟

الرجل الشيخ: في أرداف هذه القطة. (بإندهاش) ربما حتى أشكال الزفاف تغيرت. (متأثر) ماذا تفعل تلك اللبؤة.

المرأة عجوز: بصري ضعيف... لا أرى بوضوح. أهي منبطحة على الرمل؟

(ترفع الشابة بندقية أخرى وتطلق رصاصة. بعد ذلك تطلق عويلاً حاداً).

الشابة: اه كتفي... كتفي.

الرجل في ١٢ (يظهر. بحقد) آمل أنها كسرت ترقوتها... تعبث بالبندقية كأنها تمثل دور بدوية في الصحراء.

(يطل الرجل الشيخ بكامل جسده ويرفع رأسه عالياً، ويلقي نظره على الرجل في ١٢)

الرجل الشيخ: (الى الرجل في ١٢) أما أن تفسد علينا منظراً هذا اليوم، يا هذا، فأمر ينم عن قلة ذوق. ألم تسمع صوت إطلاقه؟ حتى النساء ذهبن الى الفضاء في صواريخ تزلزل أصواتها كل هذه الصحراء.

الرجل في١٢: (مخاطباً الشيخ الذي رآه لأول مرة) خلتك شاباً. حتى أن أرذل العمر تستمرىء منظر شابة. يا عم إنها أطلاقات حقيقية. كادت واحدة أن تحطم لي جمجمتي.

الرجل الشيخ: وهل تخاف الرصاص الى هذه الدرجة؟

الرجل في ١٢: يا سلام... أخشى.

الرجل الشيخ: (مقاطعاً) نعم بوسع تلك اللبؤة أن تعيد العشرات من أمثالي الى شبابهم.

الرجل في١٢: يا سلام على الوقار... ألهذا الحد تشجعت (يحدق الرجل الشيخ بالمنظار إليه).

الرجل الشيخ: (ضاحكاً) هل تبولت؟ آه، ليتك كنت معي يوم كنت أصغر منك وأنا أهرب في الصحراء بعد أن خسرنا المعركة. كان الرصاص يمطر مثل ثرثرتك. (بسخرية) تضحك... ياللجبن. (تنهض الشابة، وتسير بخطوات ثقيلة الى النافذة رقم ٦ وتختفي).

الرجل في١٢: حمداً لله إختفت.

الرجل الشيخ: (بغضب) أفسدت عليّ هذا المنظر الجميل.

الرجل في ١٢: إنزل وجرب أنت الآخر.

الرجل الشيخ: لو كان ثمة طريق فعلاً لنزلت، وأريتك كيف تطلق الرصاصة.

الرجل في١٢: تسلق إحدى هاتين العارضتين.

الرجل الشيخ: تقصد أتحطم وأنغرس في الرمل مثل رمحٍ أعوج.

الرجل في١٢: الذي لا يخاف الرصاص لا...

الرجل الشيخ: (مقاطعاً) لا أخاف... أما أن يسقط الواحد من هذا المرتفع...

الاعرابي: (الى الرجل في ١٢) هل تشتري واحدة؟

الرجل في١٢: اللهُم إجعله خيراً... (بحيرة) أخي، قل لي هل تغيرت الأمور فجأةً. أنا أعرف أن الغجر عندما يأتون الى أي مكان كانوا يبيعون حجب الحب، والأدعية، والرُقي، والعقاقير. أما في هذا الموسم اللعين فيبيعون الأسلحة.

الاعرابي: الأسلحة رخصت هذه الأيام. إنها كثيرة. أنظر الى هذه البندقية. قبل بضعة أشهر كانت الواحدة تكلف مقداراً كبيراً من المال، أما الآن فسعرها رأس غنم.

الرجل في١٢: لم هذا الإنخفاض اللامعقول في الأسعار؟

الاعرابي: (يهز كتفه، ويلقي البندقية في الخرج على ظهر الجمل) لا أعرف.

الرجل الشيخ: (يحدق في البنادق بالمنظار) إنها أسلحة غريبة. لم ارّ مثلها من قبل، ربما ستبدأ حرب أخرى. (صمت) أما لو بدأت حرب أخرى (لنفسه) كم سنة مضت على الحرب الأخيرة؟

الرجل في١٢: (مخاطباً الشيخ) الحرب الأخيرة؟ يا عم أكثر من عشرين سنة مضت على الحرب الأخيرة. كنت إذ ذاك طفلاً أبيع الحلوى الى الجنود في معركة العلمين.

الرجل الشيخ: أسكت يا رجل. أعرف كم سنة مضت... الذي يحيرني هو هذا الإنخفاض اللامعقول في أسعار الأسلحة.

الرجل في١٢:(بسخرية) كان يجب تخفيض الرتب الكبيرة.

المرأة العجوزة: (متدخلة) وهل حصل على رتبة بالدجل. ماذا تفهم أنت في العسكرية؟

الرجل في ١٢: الرتب مؤخراً صارت تمنح مثل الألقاب في العهد القديم. من رتبة عقيد الى مشير، ثم الى ما لا أعرف من الأسماء.

المرأة العجوز: آه، لو خدمت يوماً في تلك المناطق، وفي مثل هذه الصحراء لعرفت معنى العسكرية. أنا رافقت زوجي في بعض تلك المناطق وأعرف كيف حصل على رتبه.

الرجل في ١٢: يا الف سلام أيتها الجدة. تعرفها. غرفة نظيفة، وتلفون، وساحة تدريب ثم الى البيت والسهر. هووو... معرفة.

المرأة العجوز: (بغضب) هل حقاً فكرت يا أستاذ التاريخ كم تكلف أنت الدولة، لمجرد أنك تثرثر عن البرامكة، والزنج، والدولة الأموية... أبلع لسانك.

الرجل الشيخ: (بحدة) لو كان ثمة طريق فعلاً لألتقي بك لمزقتك.

المرأة العجوز: (لزوجها) أتركه. تعلم أن يثرثر عن الخلفاء أكلة ألسنة الطيور.

الرجل في ١٢: (بسخرية) إذا كان الخلفاء مغرمين بأكل السنة العصافير، فالبعض يحبذون أكل ألسنة النسوة العجائز.

المرأة العجوز: إقطع لسانك أيها السافل.

الرجل الشيخ: (بغضب) لا بد أن أقابلك.

الرجل في ١٢: (بسخرية) الأسلحة رخصت. أطلب بندقية من الأعرابي وأطلب أنا واحدة ونتراشق بالرصاص.

الرجل العجوز: أنت أيها الجبان.

الرجل في ١٢: العسكرية ليست خوذة، ونياشين، ومشية أوزة أيها العم.

الرجل العجوز: أنت تتراشق بالرصاص؟ كدت تبول تحتك عندما سمعت صوت الرصاص.

الرجل في ١٢: (بخوف) لنجرب.

المرأة العجوز: هل أمسكت ببندقية، أو مسدس؟ أسال زوجي. كم مرّة نظفت له المسدس في الليل. (بغضب) إذا عبثت بمسدس بلت تحتك.

الرجل في ١٢: مرحباً بجان دارك العصر الحديث.

المرأة العجوز: تعرف إسم هذه الإنسانة في الصف فقط. أيها الثرثار.

الرجل في ١٢: أيتها الثرثارة.

الرجل الشيخ: (تنتابه حالة عصبية) أما هذا فمنتهى التحدي والصلافة. لو فقط أستطعت الوصول إليك.

المرأة العجوز: (الى الرجل في ١٢) يا لك من ببغاء. (تطل زوجة الرجل في ١٢).

المرأة في ١٢: ما هذا الصراخ؟

المرأة العجوز: ببغاؤك. يبدو أنه لم يُلقِ محاضراته هذا الصباح... يا له من نزق.

الرجل الشيخ: (بإنفعال) لو أستطيع الوصول إليه.

المرأة في ١٢: (للرجل الشيخ) نعم... نعم... أنت تهددنا.

(يخرج الرجل الشيخ بكامل جسده ويحاول أن يمسك بالعارضة. في هذه الأثناء تخرج الشابة وتقفز على الرمل. تركض، ويركض الاعرابي بدشداشته التي كلما إمتلأت بالهواء بدت مثل بالون. يطارده. تقع الشابة، ويجلس هو قبالتها).

الرجل الشيخ: (يكف عن المحاولة، ينتشي الاعرابي ويطلق ثلاث إطلاقات. يَخرُج ضابطُ شاب من النافذة رقم ٧ بعد أن يحدق بذهول في كل شيء يقفز من فوق المربع الأسمنتي على الرمل. تقترب الشابة منه).

الضابط: ما هذا؟ (ترتبك الشابة قليلاً) ماذا تفعلين هنا؟

الشابة: أتسلى. المكان جميل. (يأخذ الضابط نظرة سريعة من الواجهة) غريب...

الرجل الشيخ: (بعد أن يرى الضابط. بصوت عال وجاف أيها العسكري – يكلمك العقيد المتقاعد عوض محمود).

الضابط: (دون أن يراه يستعد لا شعورياً) نعم سيدي.

الرجل الشيخ: ألقِ القبض فوراً على هذا الصعلوك.

الضابط: أي صعلوك يا سيدي. (بآلية) لكنني لا أستطيع.

الرجل الشيخ: حاول أن تجرب.

الضابط: (كل شيء بالنسبة إليه مثل الحلم) آسف سيدي لا أستطيع (لنفسه) حقاً ما هذا المكان؟ (يلتفت ويلقي نظرة في إتجاه الرجل الشيخ).

الشابة: منذ الصباح وهو يعربد ويصرخ.

الضابط: (ما زال لا يفهم أين هو) أساتذة في الصراخ.

الشابة: وأنت؟

الضابط: سوف أتعلم أنا الآخر.

الشابة: الصراخ.

الضابط: مهمة صعبة.

الشابة: أما كان بوسعك أن تصبح شيئاً آخر.

الضابط: خدعني شكلي.

الشابة: تقصد وسامتك.

الضابط: نعم.

الشابة: لكنك ستذبل من كثرة الصراخ.

الضابط: إنها مهنة.

الشابة: (بتعجب) لماذا أنت مستعد وكأنك في ساحة التدريب.

الضابط: العقيد المتقاعد يحدق فيّ. عندما يتكلم ذوو الرتب الكبيرة يجب أن نخرس.

الشابة: لكنه متقاعد.

الضابط: أوامرهم تنفذ.

الشابة: كيف؟

الضابط: قوانين.

الشابة: تخشاه من هذا المرتفع؟

الضابط: كأنه لصقي.

الشابة: تخاف أن تبتسم.

الضابط: (ما زال واقفاً بإستعداد) إنها العسكرية. سأحاول أن أبتسم. (يبتسم).

الشابة: ما فائدة هذه الطاعة العمياء.

الضابط: حولتني الى جثة من المرمر. أمام الرتب الكبيرة يجب أن نخرس.

الرجل الشيخ: (صارخاً) أيها العسكري أنا لم أطلب منك أن تستعد. أحضر ذاك الصعلوك فوراً.

الضابط: سيدي لو أرشدتني فقط الى طريق للصعود إليه.

الرجل الشيخ: (يطل بكافة جسده في فورة غضب، ويمسك العارضة في محاولة مجنونة. يتشبث بالعارضة فجأة تدور العارضة ساحبة العجوز معها. وتدور العارضة دورة كاملة وتستقر على الرقم ١١).

المرأة في ١٢: إقترب أكثر لأثخنك ضرباً.

الرجل الشيخ: (بفزع) جرفتني هذه العارضة اللعينة. أين أنا؟ (الى زوجته) إسحبي العارضة... إسحبيني.

المرأة العجوز: كيف أستطيع سحبها. ما هذه المغامرة السخيفة؟ لماذا أمسكتها؟ (بغضب) لم يحدث قط أن غامرت، وفي هذا العمر تركب عارضة لا تعرف عنها أي شيء.

الشابة: (تترصد العجوز) ها هو يطير.(الى الأعرابي) إنه يطير.

الأعرابي: (ضاحكاً) إنه هدف جيد.

الرجل في ١٢: (بسخرية) دونكيشوت الجديد. دونكيشوت العصر.

الرجل الشيخ: رأسي يدور.

المرأة العجوز: (وهي تصرخ) أنقذوه... سيموت.

الشابة: حقاً لماذا صعد على العارضة؟

المرأة العجوز: (متوسلة) أنقذيه... إنه يعاني من ضغط قوي، ودَوَخان.

الشابة: أنا؟ كيف أنقذه؟

الرجل الشيخ: (بصوت مخنوق) أيها العسكري يكلمك العقيد المتقاعد عوض محمود. أنقذني فوراً. (يغير جرس صوته. بلهجة آمرة) قلت فوراً وهذا أمر.

الضابط: (لنفسه) لا يوجد طريق الى هناك. (ما زال مبهوراً، وغير مصدق نفسه من المكان) لا أعرف سيدي.

الرجل الشيخ: فكر... ألم نعلمك الإبداع، وسرعة البديهة؟

الضابط: (لنفسه) ماذا يعني بالإبداع؟ (بصوت عال) كيف أبدع وأنت هناك؟

الشابة: (بتعجب) هل ركوبه العارضة كان إبداعاً منه؟

الضابط: (بحيرة) ربما... لهم إبداعات كثيرة.

الرجل الشيخ: (يمسك العارضة بقوة) ألم تتعلم التسلق وصعود المرتفعات؟

الضابط: نظرياً فقط سيدي.

الرجل الشيخ: حاول تطبيقها فوراً.

الضابط: أحتاج الى حبل.

الرجل الشيخ: أطلب من أي شخص حولك.

الضابط: (يحرك رقبته بإتجاه المكان) هل لديكم حبل؟

الرجل في ١٢: لدينا خيط.

الضابط: (بآلية) لديهم خيط. فقط خيط سيدي.

الرجل الشيخ: خيط؟ (كمن يفيق) سأسقط. (يضع رأسه فوق العارضة) لقد إرتفع ضغطي.

الضابط: (الى الاعرابي) ماذا تفعل هنا؟

الاعرابي: هذه منطقتي... أتجول.

الرجل الشيخ: (يطلق أصواتاً غريبة) هل وصلت الى نتيجة؟

الضابط: (محدقاً في الاعرابي) ليس بعد سيدي.

الشابة: إنه يرتجف... أنقذه... (تقترب منه وتبتسم له) حاول.

الضابط: كيف؟

الشابة: فكر. (بلطف) فكر. تسلق المربع الأسمنتي وأقفز. (بسخرية) ألم تتعلم الإبداع؟

الضابط: (محركاً رأسه) هل هذا أمر؟

الشابة: أمَركَ قبل قليل.

الضابط: مجرد شكليات.

الشابة:(ملتفتة الى الأعرابي الذي راح ينظر بغضب الى الضابط) الاعرابي يغار منك.

الضابط: بوسعي أن أؤدبه.

الشابة: كلا... صوته جميل. إنه لطيف جداً.

الضابط: إسمحي لي أن أطرده.

الشابة: أخشى أن يغضب.

الضابط: أؤدبه.

الشابة: إنه يطلق النار بدقة غريبة.

الضابط: (مترنحاً) متأكدة؟

الشابة: يضرب رأس القنينة في لحظة. قال أنه يضرب الأبرة في السرعة نفسها.

الضابط: (بذهول) أطرديه أنتِ.

الشابة: لا أستطيع.

الضابط: (صمت) أنتِ جميلة.

الشابة: أنقذ رفيقك في السلاح.

الضابط: هل حقاً تعيشين هنا؟

الشابة: نعم.

الضابط: نتفق بعد أن أنزله. (يقفز فوق المربع الأسمنتي، وبعد محاولات عديدة يمسك بالعارضة الثانية، والتي تمثل العقرب الصغير. تدور العارضتان بسرعة حول الدائرة. تارة يكون الرجل الشيخ عند الرقم ١٢، والضابط عند الرقم ٦، وبالعكس... نسمع موسيقى عسكرية خفيفة).

الرجل الشيخ: زلزال.

الضابط: زلزال.

الرجل الشيخ: أين أنا؟

الضابط: أوقفوا هذا الدوران.

الرجل الشيخ: الصحراء صارت فوق. (ينادي زوجته) أحس أنني في عام ٥٦ والصحراء تهتز.

الضابط: سأسقط.

الرجل الشيخ: قتلني هذا الدوران. النجدة.

الضابط: النجدة.

الرجل الشيخ: أين غرفتي و...

الضابط: تورطت.

الرجل الشيخ: أنا عسكري. آه، لكن هذا أعنف تدريب رأيته في حياتي.

الضابط: هذا موت، وليس تدريباً عسكرياً.

الرجل الشيخ: (يهذي) الجمل يرتفع.

الضابط: ما هذه الريح؟

(تتوقف العارضتان عن الدوران تلقائياً. تقف الجهة التي عليها الشيخ في الرقم٩، والجهة التي عليها الضابط في الرقم, ٣ تسحب المرأة العجوز زوجها بصعوبة الى الداخل، ويبقى الضابط فوق العارضة. يتمدد عليها. تتوقف الموسيقى العسكرية. تغلق المرأة العجوز النافذة).

الرجل في ١٢: (بشجاعة) كان مشهداً رائعاً. (يغلق هو الآخر النافذة) بدلاً من المحاضرة عن الدولة العباسية سأحاضر عن هذه المغامرة. (صمت. الموسيقى البدوية نفسها. يغني الاعرابي لحناً حزيناً. تقترب الشابة منه).

الشابة: هل أنت غجري؟

الاعرابي: بي قليل من دمهم.

الشابة: هل سحرت الضابط وطيرته فوق.

الاعرابي: بعضهم يطير دونما سحر. (محدقاً فيها) من صنع له جناحين، أنا أم أنتِ؟

الشابة: أتركه هناك. سيتعلم الكثير. (صمت) تعال معي الى غرفتي. (يحمل الاعرابي الخرج الثقيل من فوق الجمل ويتبع الشابة. تنقطع الموسيقى البدوية... يسلط ضوء بلون الشفق على الصحراء. موسيقى حزينة. بعد قليل يدخل عدد من الجنود يسيرون بخطوات ثقيلة وترنح. ملابسهم ممزقة. وبعضهم مجروح في ساقه. يقفون أمام الواجهة ويرسلون نظرات إستفسارية حزينة. النوافذ كلها مغلقة. الآن تشبه الواجهة ساعة عادية بالضبط).

الجندي الأول: (بصوت يطغى عليه الألم والعاطفة) منذ متى ونحن نسير؟

الجندي الثاني: (هازاً رأسه) من يعرف؟

الجندي الثالث: كم الساعة الآن؟

الجندي الرابع:(يقرأ الوقت) إنها الثالثة إلا ربعاً.

الجندي الأول: إنها التاسعة إلا ربعاً.

الجندي الخامس: تقصد ساعة بداية الحرب.

الجندي السادس: بالضبط... (يقع بصره على بضع بنادق) أنظروا، بنادق...

الجندي الأول: (ينحني ويلتقط واحدة بيد متشنجة) زرعوها مثل الرمل هنا وهناك. (بحزن) إذا كانت الساعة التاسعة إلا ربعاً فهذا يعني أنه لم تمضِ على الحرب سوى دقائق.

الجندي السادس: بالضبط.

الجندي الخامس: (بتعجب) هذه المنطقة غريبة.

الجندي الأول: أنظروا... ما ذاك اللون الكاكي فوق عقرب عداد الساعة؟

الجندي الثاني: يشبه عسكرياً ضربته شظية قنبلة وأوصلته الى هناك.

الجندي الأول: أنه ميت.

الجندي السادس: بالضبط.

الجندي الأول: لكنه يتحرك.

الجندي الرابع: ناده.(ينادونه. يرفع الضابط رأسه).

الجندي الأول: هل أنت بخير سيدي؟

الضابط: أنزلوني فوراً.

الجندي الأول: حاضر سيدي.

(يصعد أربع جنود بسرعة فوق المربع الأسمنتي وبحركة مذهلة يقفز الواحد على كتف الآخر ويشكلون جسراً. يتشبثون بالعارضة. تتحرك العارضة بسرعة وتدور حول الواجهة الدائرية. وسط صخب عال تنفتح النوافذ وتطل منها رؤوس نساء وأطفال. ورجال تضربهم العارضتان وتسقطهم جميعاً على الرمل جثثاً. وبعد قليل تسقط العارضة الأولى، ثم الثانية وسط الصمت على الرمل. يسمع صوت أحد الجنود يردد بإختناق. ربما بدأ هجوم أعنف.)

سِتار

ها نحنُ نتعرى

مسرحية من فصل واحد.

تلعب الأضواء المختلفة التي أذكرها عند تغيير المشاهد دوراً كبيراً في تجسيد المناظر. وعلى المخرج أن ينتبه لتصميم الديكورات بغية إبرازها على نحو يلائم جو الأحداث.

تُرفع الستارة والمسرح مظلم. تسمع أخلاط من الأصوات تنبثق تدريجياً. تتجسد هذه الأصوات كأنها تأتي تارةً من مكان بعيد جداً. وأخرى من قريب، أو من بوق.

صوت رجل١: (بخوف) لكن ما علاقة الدولة بماضيّ أنا؟ ماذا تقدم لها معرفتهُ أو تؤخر... ثم أنني أكبر رمز للتعاسة. (بضحك ساخر) أستطيع أن أُدون كل شيء بنفسي.

صوت رجل٢: أحمل ماضيّ تحت جلدي.

صوت رجل٣: إنه في دماغي... في عيني... أستطيع أن أشمه.

صوت رجل٤: لكن ما جدوى أن أعرف ماضيّ. ثمة أناس يتلذّذون برفع غطاء البالوعة. ها ها ها ها.

صوت إمرأة١: (بصوتٍ كصوت الأفعى) لكن كيف تستطيع هذه الآلة أن تقرأ ماضي الإنسان. أهي عرّافة؟ حبذا لو فكرت الحكومة أن تجلب آلة تقرأ مستقبل الإنسان.

صوت إمرأة٢: (بصوتٍ مزغرد) إبدأوا بعزف الموسيقى. بدأنا نمزح (ضحكُ ساخر) المستقبل... أيُّ مستقبل؟

صوت رجل٥: (بجرسٍ ساخر) أتعجب كيف ستقرأ هذه الآلة ماضي بالضبط. هل تكتشف، مثلاً إني عملت مرة حمالاً ثم قفزت أخيراً مثل المهرج.

صوت رجل٦: (مقاطعاً) أنا كذلك كنت شخصية بارزة. لكن لا أعرف بأيةِ قدرة.

صوت رجل٧: أسكت. الآلة هي المحك. رباه، بدأ الناس يتحولون الى ذهب خالص. ها

ها ها ها. سنعرف كثيراً من الصعاليك.

صوت رجل٨: وكثيراً من القوادين.

صوت رجل٩: الجرائد تقول. بوسع الآلة أن تقرأ كل شيء بالتفصيل. واه... الويل لمن كان ماضيهِ دنساً.

صوت إمرأة٣: (بزعيق) ماذا لو كان ماضيّ دنساً. هل سأعاقب عليه؟

صوت رجل٩: (بسخرية) هل تربيت في ماخور؟

صوت إمرأة٣: (بغضب شديد) في الماخور الذي صنعته أنت أيها القواد. لا بد أنك كنت قواداً في الماخور ذاته.

صوت رجل٩: يا عزيزتي، الآلة لا تفعل أكثر من أن تقرأ سيرة حياتك كلمة كلمة. (بضحكٍ ساخر). لا بد أنها ستقول عني أشياء تندلق على أثرها بطونكم من الضحك. أقول كنت كنت كومة نتانة. لتسمعني الآلة... كنت كومة نتانة... آه، أيتها الدنيا، أين الشجاعة...

صوت رجل١: ها نحن على المحك... قسموا المدينة الى أربعة أقسام، على أن يتقدم أهل كل قسم للكشف عن ماضيهم.

صوت إمرأة٤: (بصوت متحشرج) هل صحيح أن منع التجول فرض على بقية أجزاء المدينة؟

صوت رجل١٠: نعم، نعم. هذا اليوم مقرر لمنطقتنا.

(يمتلىء المسرح بغمغمات) ما يحيرني أيها السيدات والسادة، هو كيف سينطق هذا الحديد الأحمق.

صوت رجل١١: نفذ صبري. مرة إلتقيت رجلاً كان يعمل معي في تنظيف البالوعات. (تنطلق أصوات غريبة شبيهة بثغاء تارةً، وبمواء تارةً أخرى) لنتكاشف. يقولون أن الآلة لا ترحم.

صوت إمرأة: رباه... الناس تلقي أوراقها الأخيرة. هَلِلّوا!

صوت رجل١١: لا تهلّلي أيتها السيدة. أعترفت بذلك في حينه وأودعتُ السجن وعانيت ما عانيت. حتى في السجن كنت مسئوولاً عن تنظيف البالوعات. (ضحكٌ قوي) سيدتي، لمجرد العلم أردت أن القي شخصاً أخر في البالوعة.

(تنقطع الأصوات فجأةً، ويسلط ضوء حاد للحظات على نفق رطب مخيف. تسمع ضربات قليلة على طبل كبير تطير على أثرها مجموعة من الخفافيش. يعاد الضوء على المنظر مرات عديدة بسرعة، ويخيم الظلام على المسرح. تنقطع الأصوات، ويسلط الضوء برفق ليصور الدهليز ويعود مرة أخرى الى تصوير الباب. نرى وجوهاً شاحبة في فتحة الباب. يحرس الباب رجل في ملابس سوداء. ينطلق صوت من مكانٍ ما من المسرح: (أيها السيدات والسادة. إن مثل هذا الهرج يضيع علينا الكثير من الوقت. لذا نرجوكم أن تخلدوا الى السكوت) تتحرك الرؤوس. ينطفيء الضوء البرتقالي. وبحلول الظلام على المسرح تنطلق موسيقى جافة وضرب طبل – وأخيراً رنين كمان حزين. يسلط ضوء حليبي على أربعة أشخاص سمح لهم بالدخول. تنقطع الموسيقى. يعوي أحدهم مثل كلب جريح ويتقدم الى الأمام بخطوات ميتة. تاركاً الأشخاص الثلاثة في الظلام. تظهر تشنجات كثيرة على وجهه، يحدق هنا وهناك،، يضطرب الرجل كثيراً).

الرجل المضطرب: (بصوت مخنوق) حتى إذا أستعاد الإنسان ماضيه بواسطة الذاكرة، يكون ماضياً مشكوكاً فيه... لأن الرغبة تلونها كما تشاء. هل تعرف الآلة هذه الحقيقة؟ يجب ألا تشك الآلة فيّ، وفي إدراكي الآني.

(يجلس على الأرض، ويضربها بقبضته بوحشية كمن ينتقم من شيء. يسمع صوت طبل. يتقدم الأشخاص الثلاثة بخطوات بطيئة الى مقدمة المسرح، وإذا بأحد الأشخاص الثلاثة إمرأة شابة).

المرأة: (بخوف، وهي تحدق في الرجل الذي ما زال يضرب الأرض بقبضته) إنه يعرق بغزارة. يعرق. أنظروا. ماذا حدث له.

الرجل١: تحول الى قطعة هيستيرية... لم أرّ أحداً يعرق بهذه الغزارة.

الرجل٢: لماذا دخل؟ كان يجب أن يبقى في الخارج.

المرأة: من أجبره على الدخول؟ أنه يرتجف. لكن ما الذي حدث له؟ ربما ضربه أحدهم على بطنه. إنه يمسك بطنه.

الرجل١: (مخاطباً الرجل المضطرب) ما بالك؟ لماذا ترتجف؟

الرجل٢: يتلوى كالذبيح... سينهار المسكين. أخرجوه من هنا.

المرأة: (بذهول) سيموت. (تخاطب الرجل١) أخرجه من هنا. أخرجه بسرعة.

الرجل٢: (يتقدم من الرجل المضطرب ويمسك بكتفه في محاولة عاجزة لرفعه) ما الذي حدث لك؟

(فجأةً يتقيأ الرجل المضطرب، ويأخذ بالعواء.)

المرأة: (بخوف) ربما لا يريد أن يعرف أحد شيئاً عن ماضيه؟ ألا يمكن أن يتصور أن الآلة ستعمل على تشويه ماضيه؟ (بخوف) ياللهول، غسل نفسه بالقيء.

الرجل المضطرب: (يرفع رأسه ويحدق في المرأة، ثم يقول بصوت مخنوق) أتركيني، (يشير بعد صمت قصير الى الرجلين) أتركوني وحدي. (بزعيق) إنها تختنق... تموت... تموت... رباه، أيُّ منظر مؤلم ومخيف هو منظر لحظات الموت الأخيرة. (بصوت حزين) أيُّ تأزمات روحية أعيشها الآن. (يعوي) شاركوني في الرؤيا... شاركوني. آه، ما هذا الصرع الذهولي؟ حفرت هذه التَعِسة أعمق بئر في عواطفي ووجداني. لكن. (عواء) شاركوني الرؤيا. إنها تموت... تموت.

المرأة:(بإستفسار) من هي التي تموت؟

الرجل١: حقاً من هي التي تموت؟

الرجل المضطرب: آه، أفي هذه اللحظة المجنونة تلمع شعلة ندمي؟ رباه، إن هذا الندم يقطر بمنتهى القسوة أنبيق دماغي.

المرأة: ماذا حدث؟

الرجل المضطرب: قبل ثلاثة أيام فقط حدث كل ذلك. أريد أن أهرب.

الرجل المضطرب: (ينهض بصعوبة، يعود فيسقط) لا أريد مواجهة الآلة. (يبكي) لا أريد. أعترف بكل شيء لنفسي...

(يخيم ظلام على المسرح، بعد قليل يسلط ضوء أزرق على وجه محروق لإمرأة تدور حول نفسها بجنون وتقوم بحركات يائسة، ونسمع صوت رجل يردد): ضاع جمالها. رباه أي جمال تشنجي ذاك الذي تحول الى رماد.

(ينقطع الضوء الأزرق، ويسلط اللون الحليبي على الأشخاص الأربعة من جديد).

الرجل٢: لا يريد أن يتكلم؟

الرجل المضطرب: قبل ثلاثة أيام سكبت ماءاً مغلياً على وجه زوجتي عندما كانت نائمة في الفراش.

المرأة: (صراخ مخنوق) وي... وي... كيف؟

الرجل المضطرب: دونما سبب... لا أدري حتى اللحظة التي وقع فيها لحم وجهها كنت أتصور أنني أمزح معها. أو ربما كانت تبدو جميلة للغاية في أثناء نومها.

المرأة: (برعب) يالك من مجرم... مجرم.

الرجل المضطرب: لأنها كانت جميلة جداً وهي نائمة... ربما لأنها خَلقت لدي حالة جسدية ساخنة... كنت أعجز من أن أتحمل ذلك الجو بعقل رؤوف. أردت كل شيء على نحو محموم.

المرأة: أنت وحش... أنت حيوان.

الرجل المضطرب: هل أنتِ هي الآلة؟

المرأة: كلا. هل كنت تريد إخفاء هذه الجريمة؟

الرجل المضطرب: كنت أنوي ذلك. عرف الجميع أنها أحرقت نفسها.

(بصوت مخنوق) من أين جاءت هذه الآلة؟

(يضطرب صوته ويتكلم بجرس غريب) أنا الآلة... أنا الآلة. (بضحكٍ مجنون) إنا الماء المغلي... أنا.

(فجأة يعوي عواء طويل – ينطفيء الضوء الحليبي. تسمع موسيقى حزينة. يسلط ضوء أحمر حاد على مشنقة تبدو مخيفة بشكلها المعقد، في أسفل المشنقة ثلاثة كلاب تدور بغنج حول سيقان المشنقة وهي تبول هنا وهناك. تتوقف الموسيقى. ينطفيء الضوء الأحمر. يعاد الضوء الحليبي على وجه الرجل المضطرب).

الرجل المضطرب:أختنق... أختنق... إسحبوا هذه الأيدي من حول عنقي... إسحبوها (يتقدم من المرأة ويجلس على الأرض، ويصيح بصوت مخنوق) إسحبي هذه الأيدي من حول عنقي... أسحبيها... (يذهب الرجل١) أرجوك ساعدني، ليتيني سبحت في ذاك الماء المغلي. ما زلت أحبها. (يسقط على الأرض ويتلوى، يختفي الضوء الحليبي، تضاء المشنقة. يظهر إثنان من الكلاب. تختفي المشنقة. يعاد الضوء الحليبي على وجه الرجل المضطرب).

الرجل المضطرب: لماذا كانت تلك التعِسة تضع القدر فوق النار وتنام؟

المرأة: إبتعدوا عنه... إنه مجرم...

الرجل المضطرب: لكنني ما زلت أحبكِ. (يبكي) تعالي... تعالي الى جانبي. (يزحف نحو المرأة، بينما تلتصق المرأة بالرجل١)

الرجل٢: أكره مثل هذا الهوس، والخنوع، يؤلمني أن أرى ضياع الرجولة. (يلتفت الى الرجل و المرأة) سأتركُكما.

الرجل١: الى أين؟

الرجل٢: الى مكان أخر. لا أطيق هذا التشويه الأخلاقي والنفسي للإنسان.

الرجل المضطرب: (يخاطب الرجل٢) ألا تؤمن بوحدة الإنسان. حاول أن تفهمني أرجوك.

الرجل٢: في مصح المجانين فقط. (يخرج الرجل٢ من نطاق الضوء).

المرأة: أين ذهب؟

الرجل١: لا أدري.... (بعد صمت قصير) ليذهب!

المرأة: أعجبني كلامه.

الرجل المضطرب: (للمرأة) عزيزتي، لا تعكري عليّ لحظاتي الأخيرة. تعالي.

المرأة: مجنون. ما جدوى تقديم هذا التعس للآلة.

الرجل المضطرب: ألم أنقذك من حياتك الدنسة؟ ألم أكن مبعث سعادة كبيرة لك؟

المرأة: من أنت؟ (بغضب) لا أعرفك أبداً. من أنت؟

الرجل المضطرب: لا أريد أن أكذب ولا أن يُكذب عليّ. أريد أن أحمل صحوي حتى النفس الأخير. ها انذا من جديد أشعر بتشنج وكآبة أمامك.

المرأة: (بعصبية) أغلقوا فم هذا الجبان. أخرس (تصرخ) أخرس.

الرجل المضطرب: ألم تكوني عاهرة يوماً من الأيام؟

المرأة: (تلطم وجهها بباطن يديها) وي... وي... عمَّ يتكلم هذا الكلب؟ ما معنى هذا العدوان الوقح؟

الرجل١: (متدخلاً) لماذا تهينها؟

المرأة: أي هوس هذا؟

الرجل المضطرب: كان لك شفعاء كثيرون. عندما كان وجهك ملطخاً بالقذارة غسلته بماء بارد، وعندما أعجبني شكله حرقته بماء مغلي.

المرأة: (بذهول) لكن، أيها السخيف، لست زوجتك. لا أعرفك. (تصرخ) هذا الرجل يهينني. (تلتفت الى الرجل١) أضربه... أركله... أرعبت الآلة هذا الجبان.

الرجل١: (بخوف) لا تردي عليه.

المرأة: (للرجل المضطرب) جبان.

الرجل المضطرب: أنقذتك من كل الركل والضرب، ومن جحيم فقدانك للحب. لكم تحملت أعباء عهرك بوداعة.

الرجل١: (بتلعثم مخاطباً المرأة) ينازع... سيموت لا تردي عليه.

الرجل المضطرب: بهذه السهولة تنسين ماضيكِ وأنتِ على موعد مع الآلة العزيزة؟

المرأة: أنت مجنون.

الرجل المضطرب: كلما عاتبتك أتهمتني بالجنون. جفت عواطفي. لم أقدر أن أفكر البتة أنكِ ستكلفين هذا القدر من الدم.

المرأة: (بهيستيرية) أف لهذا المجرم التعس.

(تصرخ) تعس... تعس.

الرجل المضطرب: هل ما زلتِ تشفقين عليّ؟ أنا ألذي لم أحرم من أي عذاب، ولم يفتني أيُّ شقاء؟

المرأة: عم تتكلم؟ (تصرخ) عم تتكلم؟

الرجل المضطرب: لا تصرخي. أنا لم أنشأ مثلكِ في أدغال من الكذب، ولم أعاشر السوقة. وإذا كنت قد عاشرتهم فترة قصيرة فلأنني كنت أسير ذاك السحر المرعب فيكِ.

الرجل١: (متدخلاً) تتعدى على صديقتي. إذا لم تسكت قتلتك فوراً.

الرجل المضطرب: بل قل عشيقتك. لا أريد أن أنكر ذلك عليك . كانت عاهرة معروفة.

(ينقطع الضوء الحليبي. تضاء المشنقة هذه المرة بلون بنفسجي، يسمع صوت الرجل المضطرب وهو يعوي، وصوت إمرأة تردد بلهجة مؤثرة للغاية. «أريد وجهي. أين وجهي... أحترق وجهي. أعطوني مرآة لأرى وجهي... وجهي». بينما صوت الرجل المضطرب يردد «عواطفي جفت... إنتهيت». يعود الظلام الى المسرح. بعد لحظات نسمع من جديد أصواتاً كتلك التي كنا نسمعها في بداية المسرحية).

صوت رجل١: يبدو أن الآلة معقدة؟

صوت رجل٢:حقاً يبدو كذلك لأن العملية تستغرق وقتاً طويلاً.

صوت رجل٣: (بصوت شبيه بضربات الطبل) ربما كانت هناك أسئلة. أسئلة. رباه من الذي يتحمل الأسئلة؟

صوت رجل٤:لا بأس لو كانت هناك (يردد بنفس الجرس) أجوبة. أجوبة.

صوت رجل٥: (بصوتٍ ساخر) سينتهي كل شيء. أفرحوا... هَلِلّوا.

صوت رجل٦: كيف؟

صوت رجل٥: (بضحك سخيف) لأن هناك أسئلة وأجوبة، أسئلة وأجوبة.

صوت رجل٧: هل تعني أنك تطرح السؤال وتتلقى الجواب دونما تفكير.

صوت رجل٥: أجل، أية نعمة هذه!

صوت رجل٧: أتسمي هذا الشيء نعمة؟ إذا تلقينا على كل سؤال جواباً دونما تفكير نتحول الى بلداء... بلداء.

صوت رجل٨: (يردد كلمة بلداء، وأثر كل ترديد للكلمة يضرب على طبل. بلداء. طبل. بلداء. طبل).

صوت رجل٩: آه، أيها الأعزاء. من أراد أن تفكر الآلة بدلاً عنه فهو (ضربات على طبل) بليد. بليد... بليد.

صوت رجل١٠: لكن ألا تريد أن ترتاح قليلاً؟ ألم تفكر طويلاً؟

صوت رجل١١: هل تريدنا أن نتحول الى شجرة؟ سيارة؟ الى طفل؟

صوت رجل١٠: وماذا تريد إذن؟

صوت رجل١١: أريد أن أقول نعم ولا في آنٍ واحد. أن أقول هذه وحشية، وذاك عهر، وهذا حب. أريد أن أعمل كل شيء دون أن أعرف لماذا. هذه الآلة ستجفف عقولكم... أنا ضد الآلة.

صوت رجل١٢: أنا كذلك ضد السهولة في تنفيذ رغباتي، أنتم تريدون كل شيء بسعر الهواء...

صوت إمرأة١: صلوا من أجلِ الأمل. صلوا من أجلِ الكذب. السبب الذي من أجلهِ حدث هذا السبب هو سبب اوه، من يدري ربما هذه الآلة تعقبها آلات أخرى

أكثر غرابة. آلة تخبرنا عن المستقبل، وآلة تطعمنا ونحن في الفراش. (بصوت مثل الهمس) من المحتمل أن تكون هناك آلة أخرى تخبرنا نحن النساء متى نقع في حب حقيقي أو متى سنتزوج، أو كم طفلاً سننجب ها ها ها ها، احلموا... (تنقطع الأصوات بغتة. يسلط الضوء على المشنقة فإذا بالرجل المضطرب يتأرجح عليها بصمت مثل رقاص الساعة وعلى نغمات موسيقى خافتة حزينة، وفي الأسفل الكلاب الثلاثة تحاول أن تقفز وتمسك برجليه. ينطفيء الضوء. تضيع المشنقة. يعاد الضوء الحليبي على الرجل والمرأة).

المرأة: كان يعرف أنه لن يستطيع إخفاء جريمته.

الرجل١: (بذهول) لم يكن مجرماً... كان زوجاً طيباً.

المرأة: كيف عرفت ذلك؟

الرجل١: أولم يكن زوجكِ؟

المرأة: هل أنت الأخر مجنون؟

الرجل١: لكنه كان زوجك. تعذب من أجلكِ كثيراً. كان يحبكِ.

المرأة: (بذهول) نعم كان يحبني...

الرجل١: هل حقاً كنتِ عاهرة ذات مرّة؟

المرأة: أنت الاخر! كنت عاهرة لنفسي.

الرجل١: (بلطف) لم أعرف رجلاً أقسى منه. إسمعي اية جدوى في إخفاء الأشياء التي مررنا بها، أو عانيناها؟ يقولون أن الآلة ظالمة.

المرأة: ماذا تعني أن الآلة ظالمة؟

الرجل١: أعني أنها ستقول كل شيء.

المرأة: لم أكن عاهرة. كنت عاهرة في نظره فقط، لأنني كنت أبحث عن لذة أكثر سمواً من اللذة التي كنت أتلقاها منه ومن الأخرين. كنت مصابة بإلتهاب العاطفة المزمن. أما هو فكان مصاباً بمرض الحدة والنزق. كنت أبحث في كل مكان عن الحب وأغرق نفسي فيه حتى الفيض.

الرجل١: وهل قمتِ بكل ذلك عن قناعة مطلقة؟

المرأة: نعم، عن قناعة. بل كثيراً ما كنت أقوم بتنفيذ الكثير من رغباتي الغبية والسخيفة

بلذة. ولا أجد ضيراً في إعادة تلك اللذة ما دامت عندي القوة.

(يبتلع الظلام المسرح. يظهر شبح قطة على السرير. وبعد لحظات يظهر ظل جسدين عاريين وهما يقومان بحركات مثيرة. تقف القطة على الأرض. يسمع ضحك مغناج، وأصوات ناعسة، وكلمات تعبر عن منتهى الإثارة).

صوت إمرأة: أسحقني... أسحقني.

صوت رجل: ها أنا أعجنكِ أيتها الدنيا.

صوت إمرأة: (تُقبل الرجل) آه، إنك تعجنني. أخنقني قليلاً... (بعد صمت) ها ها ها... قفزت القطة. إنها تخجل منا.

صوت رجل: أتعرفين أن الضحك يسيل اللعاب من فمي.

صوت إمرأة: (تطلق مزيداً من الضحكات الهيستيرية) لماذا تقرص لحمي؟

صوت رجل: (بصوت مخنوق. يتحرك الظلان بإتجاهات مختلفة). تملصين مني كالسمكة... يااللحمكِ الزلق. (أنفاس مخنوقة، زفرات).

(مواء قطة، ضحك. بعد قليل ينهض ظل الرجل عن السرير ويسير بحركات كسلى صوب كومة ملابس، ويبدأ بارتداء الملابس. يدخن سيجارة. الدخان يرتفع على شكل حلقات. تقفز القطة فوق السرير، وتحاول أن تمسك بحلقات الدخان. يسير الرجل بخطوات قصيرة ويضيع في الظلام. يسمع صوت إصطفاق باب وكلمة أراك فيما بعد. يعود الظلام للحظات، ثم يسلط ضوء هو خليط من أزرق وأحمر على إمرأة جميلة غاطسة في الفراش حتى عنقها تحت لحاف ملون تداعب قطة سوداء).

المرأة: أيتها الملعونة،لكم أحسدكِ أحياناً دون أن أدري لماذا. أتعرفين أنكِ تبدين أكثر إمتلاء مني في بعض الأحيان. أسمعي، ماذا لو وضعت قطعة لحم نيء على صدري؟ ألا تمزقين صدري؟ ألا تعرفين أين ذهب؟ يدللكِ كثيراً. لماذا لم تتبعيه؟ سأطلب منه أن يجلب لكِ هراً. عندئذٍ سوف أراقبكِ. (تداعب رأس القطة) ليعرف كل منا أسرار الآخر. (بضحكٍ مثيرٍ) واثقة أنكِ ستهجرينني لساعات طويلة عندما يجيء هركِ، واحدنا يهجر الآخر أحياناً (ضحك مغناج طويل. ينطفىء الضوء، ويسلط الضوء الحليبي على المرأة نفسها والرجل١، ونسمع بكاءاً حاداً موجعاً للمرأة وهي في حضن الرجل١).

الرجل١: أية مصيبة هذه التي تورطنا فيها؟ لماذا لا يخرجوننا من هذا المكان؟

المرأة: (وهي تزفر بحرقة) هل رأيت؟ هل رأيت؟ أيتها الكلاب، أيتها الوحوش... هل رأيت؟

الرجل١: لم أرَ شيئاً. ما الذي حدث؟

المرأة: ألم ترّ أي شيء...؟

الرجل١: إطلاقاتً.

المرأة: كنت عارية في الفراش. إقتحموا عليّ حتى خلوتي. كنت عارية.

الرجل١: أرجو أن لا تصابي بالهوس مثل ذلك الرجل المضطرب.

المرأة: كان كل شيء واضحاً. واضحاً. كنت عارية في الفراش.

الرجل١: أنتِ مثل الرجل المضطرب. تعذبين نفسكِ. لكم تحبون العذاب.

المرأة: إقتحموا عليّ خلوتي. شهروني وأنا عارية.

الرجل١: أسكتي.

المرأة: لكنني كنت بلا دفاع ضد اؤلئك الذين عروني.

الرجل١: (وهو يحدق في السماء) رباه، أية حساسية متقلبة تسكنها الأشباح، ويمزقها قلق. ذاك الرجل المضطرب كان مصاباً بمرض العذاب الدائم الذي لا شفاء منه وها هي هذه البائسة تصاب بالهوس نفسه.

المرأة: (تصرخ) لكنني لم أستطع أن أدافع عن نفسي.

الرجل١: هل أصابكِ مس؟ ما الذي حدث؟

المرأة: عروني. (بعد صمت طويل) ليعروني. قمت بكل ذلك عن إقتناع. ليشنقوني أنا الأخرى.

الرجل١: (يحاول إسكاتها) لا تنفعلي. ما الذي حدث لكِ؟

المرأة: (بغضب) ألم ترّ؟

الرجل١: أرى ماذا؟ إنكِ تحلمين.

المرأة: كنت عارية تماماً.

الرجل١: أقسم أنني لم أرّ شيئاً. أخشى أنكِ تهذين. رباه، بدأ كل واحد يهذي ونحن لم نرّ الآلة بعد.

المرأة: فضحوني كأنني حيوانة.

الرجل١: تفضحين نفسكِ بنفسك، أنا لم أرّ كائناً يحب أن يعذب نفسه الى هذه الدرجة.

المرأة: ألا يكفي ما رأيت؟ لماذا إقتحموا عليّ خلوتي، أتعرف كيف يتصرف الإنسان في خلوته. كثيراً ما يكون مثل الحيوان.

الرجل١: لن يفيد معكِ الكلام.

المرأة: لحمي... لحمي شهروا به وكأنني حيوانة.

الرجل١: وهل يخجل الإنسان من لحمه.

المرأة: أريد أن أُشنق. شهروا بي في ألذ لحظاتي. أو لم أقم بأفعال أشرف؟

الرجل١: لكنكِ قمت بكل شيء عن رغبة. عن لذة. لماذا تدينين نفسكِ بهذا الإفراط؟

المرأة: (بصوت راجف) وحدتي... عزلتي... لذتي.

(ينطفىء الضوء. تضاء المشنقة من جديد، فإذا برجلين يسوقان الرجل٢، الذي ترك الرجل١ والمرأة، وهو يرفض السير. يلتفت يميناً ويساراً، ويلعن ويسب بكلمات حاقدة).

الرجل٢: أيها السفلة... أيها القوادون... هل تعتقدون أنني أهاب المشنقة؟ أيها السفلة، أنني أرفض أن تدنس قضيتي بهذا الشكل. أشعلوا القناديل، أشعلوا الأضواء. أنا النور الذي لن ينطفىء.

(ينحسر الضوء عن الرجل، والرجلين اللذين يسوقانه، وتظهر بعد قليل على جدار من الآجر أشباح جمهور غفير يسير على شكل مظاهرة. ويضع المسرح بكلمات مختلفة، والحان هي مزيج من نشيد الشباب العالمي، والمارسيليز، والله أكبر. وبعد فترة تخف الألحان عندما يسمع أزيز الرصاص، وأصوات مخنوقة ثم صمت... تختفي الأشباح والجدار الأجري. يسمع صوت حزين للحظات. تضاء المشنقة والرجل، يتأرجح منها. وحول أعمدة المشنقة أكوام من الجثث الواحدة فوق الأخرى. تعزف موسيقى حزينة نصف دقيقة. من بعيد يتقدم رجل بصحبة طفل. يحمل كل واحد منهما شمعة ضخمة. يتقدمان من الجثث. يعطي الطفل الشمعة للرجل ويصعد فوق الجثث ويثبت الشمعتين على عارضة المشنقة على طرفي رأس الرجل٢، بعد قليل ينزل الطفل ويقول بعد أن يلقي نظرة طويلة على الرجل٢ والجثث. (أنتم ملح الأرض. أنتم نور العالم). ينطفىء الضوء. بعد لحظات يسلط الضوء الحليبي نفسه على الرجل١ والمرأة).

الرجل١: (كالمصعوق) شنقوا والدي... شنقوه... ياللسفلة.

المرأة: (وهي تبكي) والدك....أرجوك، إنني في حاجة إليك.

الرجل١: (بإضطراب) لكن شنقوه.

المرأة: لم يشنق إلا ذاك البائس.

الرجل١: شنق رجل آخر الآن. الآن... أين كنتِ؟

المرأة: أنك تحلم.

الرجل١: رباه، تحولنا الى حيوانات حالمة. لكنه شنق. والدي لكم تقبل موتي برجولة. (بعد صمت قصير) ألم تسمعي عنه شيئاً. إنه معروف في المدينة مثل قديس شهير.

المرأة: كلا. لم أسمع عنه أي شيء.

الرجل١: الجميع يعرفونه. لكم يؤلمني ألا أستطيع أن أكون مثله.

المرأة: لماذا؟

الرجل١: لأنني أفتقد الشجاعة. لكم تهون هذه الحياة لو أمتلك الإنسان الشجاعة.

المرأة: يمكنك أن تكون شجاعاً أليس كذلك؟

الرجل١: كيف! أملك موهبة واسعة لكل شيء سوى الشجاعة.

المرأة: فكر أن الجبن والحرية ضدان... حاول أن تتفجر كقنبلة. الرجل١: لماذا فقدت نفسك عندما شهروا بكِ؟ هل أنتِ شجاعة؟

المرأة: الآن فقط تعلمت الكثير عن الشجاعة. لم أعد أهتم لأي شيء بعد أن تعريت أمام العالم. تعلمت كل ذلك في لحظة صمت. إنني مستعدة أن أواجه، كل شيء دونما خوف.

الرجل١: مثل والدي.

المرأة: والدك.

الرجل١: نعم والدي، والدي الذي سار الى المشنقة قبل قليل.. والذي لم يعرف الندم في حياته.

المرأة: كيف تعرف؟

الرجل١: والدتي هي التي أخبرتني. والدتي تشعر بندم متواصل لأنها كانت تصر أن

تكون عقبة أمام عالمه الذي لم يقدس سواه. ذات مرة قرر أن يهجرها، وهجرها فعلاً حتى شنق قبل قليل.

المرأة: لماذا هجرها؟

الرجل١: لأنها قالت أنه ربط حياته بقضية الشعب الذي لم يجلب له غباؤه وهوسه سوى المشاكل لأنه لا يفهم الحقيقة. بينما والدي، كما تقول والدتي كان يؤمن بحقيقة واحدة، وهي أن لا أحد يدرك الحقائق كلها مثل الشعب.

المرأة: وأنت، بأي شيء تؤمن؟

الرجل١: لم يفتني القطار بعد. كنت أبحث عن والدي، إذ كنت أعشق مثله... هجرني وأنا صغير من أجل مُثُلِه... لست أدري ما الذي يجب أن أفعل... شوهت.

المرأة: وهل عثرت على والدك؟

الرجل١: قلت أنه شنق قبل قليل. لحظة وجدته ضاع الى الأبد. لم يحدث قط إن شعرت بضياع حقيقي قبل الآن. لكم كنت أقلده في خلوتي.

المرأة: ولماذا لا تكون ذاتك؟

الرجل١: سأحاول بعد اليوم. رغم الإلتباس الذي غلف حياتي تعلمت الكثير في الساعة الأخيرة. لم أكن أتصور أبداً أن بوسع الإنسان أن يتغير الى الأحسن وفي وقت قصير... الآن فهمت أن العري الذي تحدثتِ عنه كان شيئاً منطقياً.

المرأة: بدأت أقتنع. أنا مقتنعة الآن تماماً.

الرجل١: بأن يتعرى الإنسان من الأوراق؟

المرأة: وكل القذارات.

الرجل١: وهل يهمكِ أن تتعري الآن؟

المرأة: أشك في ذلك. (ينطفىء الضوء الحليبي ويظهر شبح الكلاب الثلاثة، إثنان منهما يقومان بحركات شاذة. يختفي منظر الكلاب. يسلط ضوء أزرق على الرجل والمرأة).

المرأة: إحضني بقوة... بقوة... هل رأيت الكلاب.

الرجل١: بهمس... تكلمي بهمس.

المرأة: لكن هل رأيت؟

الرجل١: أحلمي.

المرأة: هذا شيءٌ أزلي حتى عند الحيوان.

الرجل١: هكذا كانت والدتي تقول.

المرأة: أنس والدتك. قلت لي ستكون ذاتك بعد الآن.

الرجل١: آه... نعم... نعم.

المرأة: يبدو أنك كنت تحب والدتك كثيراً. (صمت) ماذا كانت والدتك تقول لك؟

الرجل١: إن والدي لم يكن ينسى هذا الشيء رغم كثرة أعماله.

المرأة: (بصوت راعش) إعانقني بقوة أكثر... أكاد أعتقد أنه حتى الحيوان يتسامى في هذه اللحظات.

الرجل١: ألا تشعرين أننا نتسامى الآن؟

المرأة: ثقل لساني. أجل أشعر... أشعر كأنني أطير.

الرجل١: كم هي أصيلة لغة هذا العالم... بدأنا نتفاهم.

المرأة: إنها لغة أزلية.

الرجل١: تكاد تكون لغة الحجر والصخر. (يقبلها).

المرأة: لـ... غـ... ـة جـ... ميـ... ـع الأشياء.

(يغلف ظلام المسرح، وفي لحظات يظهر ظلا الرجل والمرأة وهما عاريان. تتدفق أصوات غريبة من زوايا المسرح)

صوت١: إفتحوا الباب! إفتحوا الباب.

صوت٢: أين ذهبوا؟ ربما دخلوا في جوف الآلة.

(أصوات كثيرة في آن واحد(إفتحوا الباب. تعبنا من الإنتظار) يعود الظلام الى المسرح. تظهر المشنقة وقد ذابت الشمعتان على العارضة الى أكثر من النصف. تضيع المشنقة. يظهر الباب الخشبي من جديد تحت الضوء البرتقالي. ووجوه كثيرة تبدو أكثر إمتقاعاً، وشحوباً تريد أن تدخل. ويسمح لأربعة أشخاص بالدخول. بعد أن يدخلوا يبتلع الظلام المسرح، ونسمع موسيقى خافتة من كمان).

سِتار

نجنسكي، ساعة زواجه بالرب

مسرحية من فصل واحد

(غرفة واسعة مستطيلة الشكل تغلفها أجواء حالمة، وشاعرية لا معقولة. ثمة ما يشبه المسرح عن جهة اليسار. في خلفية المسرح ديكورات هي مزيج من ديكورات باليه (روح الحيوان) و (بتروشكا)، في الجهة اليمنى غرفة جلوس تحتوي على جميع أنواع الترف البرجوازي لعام ١٩١٠ في الجدار المواجه للجمهور نافذة كبيرة عليها ستارة بلون القرنفل.

يرن جرس الباب. تسرع الخادمة وتفتح، يدخل ساعي البريد، وبسرعة يفرغ كومة من الرسائل على منضدة قرب الباب).

ساعي البريد: (يزفر) ألا ترين أن إدارة البريد تحتاج الى حمار أقوى مني لحمل هذه التلال من الرسائل. (بلهاث) بالإمكان (ضاحكاً) أن يعيش الإنسان سنة كاملة من فلوس الطوابع الملصقة عليها.

(تكوم الخادمة الرسائل، وترفع بعضها عن الأرض). لكنني رغم ذلك سعيد بعض الشيء. لأنني أحمل رسائل العزيز نجنسكي.

الخادمة: هل تحبه؟

ساعي البريد: جداً.

الخادمة: ماذا يفهم شيخ مثلك من نجنسكي؟

ساعي البريد: هذا الساحر يزلزل عظامي... يذكرني بشبابي...(يجلس) إسمعي لا أعرف لماذا يرتاح الإنسان الى التحديق في عينيه المنحرفتين (يطلق أنة خفيفة ويضرب ظهره بيده) لو رأيت كتفي. تعرفين كم مرّة جلست في الطريق من البريد الى هذا المرتفع؟ (يهز رأسه) الشهرة... حتى في هذه الجبال يطاردونه... الناس يفقدون عقولهم في الحب.

الخادمة: أعرف... إنها مسافة طويلة.

ساعي البريد: (بلطف) الناس في المنطقة يحسدوننا.

الخادمة: لماذا؟

ساعي البريد: لأننا نرى نجنسكي، ونتكلم معه، ونضحك في حضوره، ويضحك هو معنا.

الخادمة: هو، هو... ليت الأمر يقف عند الحسد... أمس وأنا في طريقي الى السوق، تحلق حولي جمعٌ من الشابات، قتلنني بالأسئلة... ياللحالمات... (بتعجب) تصور؟ أسئلة مجنونة. ما لون عينيه؟... أهما حقاً منحرفتان... ماذا يأكل؟ كيف يأكل؟ هل يفضل السباغتي... كيف ينام؟ (تنشغل بتكويم الرسائل). آه، ياللمعذب.

ساعي البريد: معذب! أهو مريض؟

الخادمة: ياليت.

ساعي البريد: ماذا إذن؟

الخادمة: كيف أعرف... إنه معذب...

ساعي البريد: وهل يشعر بالعذاب عندما يستلم هذه الرسائل؟

الخادمة: لا أعرف... ربما هذه الرسائل هي سبب عذاباته...

ساعي البريد: (يمزح) في كل واحدة منها ألف قبلة، ألف دعاء، ألف عزاء.

الخادمة: أيها العم، لا أستطيع الإسترسال بالكلام. أعرف شيئاً واحداً، وهو أنني يجب أن أترك هذا المكان.

ساعي البريد: أخشى، (بسخرية) أن تكون عدوى الشهرة أصابتكِ. (صمت قصير) أمس ركضت فتاة شقراء جميلة خلفي. وقالت (بضحك عال) إنها مستعدة أن تعمل خادمة في بيت نجنسكي. مقابل التحديق في عينيه.

الخادمة: أوه... للناس مشارب و أمزجة مجنونة.

ساعي البريد: (بعد أن يحدق طويلاً في عيني الخادمة) إسمعي، أرجوكِ كوني طيبة معي. لقد أتفقت مع بعض الصحفيين أن أجلب لهم أخباراً. (يهز رأسه) صغيرة، أو كبيرة عن السيد نجنسكي لقاء بعض المال. هل بالإمكان تزويدي ببعض الأخبار؟

الخادمة: (بتعجب) أخبار مثل ماذا؟

ساعي البريد: مثل... (يفكر) متى سيترك جبال الألب أو كيف يتكلم في البيت؟ كم ساعة يتمرن على الرقص عندما يكون وحده. ما هي مشاريعه للمستقبل... متى سيزور

أمريكا أو فرنسا... أي الأكلات يفضل؟ كيف يختار ملابسه؟

الخادمة: أنت تشبه البقية... كثيرون يريدون التكسب من شقاء هذا المسكين.

ساعي بريد: إنها مساعدة لساعي بريد مُتعب... أرجوكِ الناس في شوق لمعرفة كل شيء عنه. إسمعي، قبل أيام عندما جئت، وأفرغت حقيبتي، إبتسم بحنان ، لي، وجاملني، وأشار الى كومة الرسائل وهزّ رأسه. بعد قليل أقترب مني . وقدم لي بسرعة مبلغاً كبيراً، وقال أنني أشبه جده الذي إنتحر. تصوري بعت هذا الخبر بمبلغ محترم لصحفي. الصحفيون يطاردونه مثل ظله... (صمت) ماذا قلتِ؟

الخادمة: لا أستطيع... أرجوك... أنت تريد أسرار شخص ائتمنني في هذا المكان... (بخوف)أرجوك ستدخل السيدة رمولا... إنها لا تريد أي ضوضاء في هذا البيت أرجوك أخرج... تعال في وقت أخر. (يخرج ساعي البريد، تكوم الرسائل، وتنشغل في تنظيف بعض الأشياء. فجأة تبكي بحرقة، وتهرب بحركة غريبة الى غرفة أخرى، يسمع صوت نشيجها الذي يشبه صداه الضحك أحياناً. تدخل رمولا وتبحث عن نجنسكي. يستمر صوت النشيج).

رمولا: (بصوت عال) فاسيلاف، فاسيلاف أين أنت؟

(تنادي الخادمة) ماريا... ماريا... (تدخل الخادمة وتقف أمام رمولا منكسة الرأس) ما هذا الضحك والبكاء؟ تكلمي...

الخادمة: أحبكما حباً عميقاً.

رمولا: (بذهول) شكراً يا ماريا، لكن لماذا تبكين...ماذا حدث؟

الخادمة: الحب هذا... (تبكي من جديد).

رمولا: (تهزها من كتفها) غريب تصرفك هذا يا ماريا...

الخادمة: (تتوقف عن البكاء) سيدتي، سبق أن أخبرتك أنني عندما كنت طفلة صغيرة في قرية سلس ماريا كنت أعمل عند السيد فريديريك نيتشة. وعندما كان يصعد الجبل ليعمل في الهواء الطلق، كنت أحمل حقيبتهُ... ثم أخذ يتصرف مثلما يتصرف السيد نجنسكي يسير في الطرقات وهو يعلق في عنقه صليباً كبيراً، ويستوقف الناس، ويلح عليهم في الذهاب الى الكنيسة.

رمولا: (بإندهاش) ماذا تقولين.

الخادمة: (بتشنج) بل أكثر من هذا، يتعرى أحياناً في الغرفة، ويرقص، أو يقفز فوق الأرائك، ويصرخ... إنه يقوم بحركات غريبة.

رمولا: (بخوف) يسير عارياً في الغرفة.

الخادمة: (تهز رأسها) نعم سيدتي. (تضع يدها على فمها)أخشى أن يبعدوه مثل نيشته.

رمولا: (تشير الى الخادمة بالخروج) لا... لا...(تبكي بحرقة) أهكذا يعانقه الذهول باكراً؟ لم يعش بعد. (تشهق) أيها العزيز فاسيلاف. أفي الربيع يشيخ الإنسان؟ من الان يموت على شفتيك، ويديك، وصدرك طعم الحياة . هل تكون سرعتك مثل طلقة بندقية قديمة بردت في منتصف الطريق. يا إلهي، سمعت الكثير من التعليقات على تصرفاته الأخيرة... لكنني لم أره عارياً حتى الآن... مع هذا، الخادمة صادقة... (بحيرة) صادقة.

(يدخل نجنسكي وهو يرتدي زي فلاح روسي، وحول عنقه مسبحة كبيرة تنتهي بصليب كبير...)

رمولا: (بيأس، بعد أن تحدق طويلاً في هيئته) أيها الحبيب فاسيلاف... ألم تجد من تقلده غير ذاك التعس تولستوي... أنت الذي تقلدك نساء العالم وشبابه... (بإنفعال) تقلد، بعد أن غصت مثل نصل حاد في لحم العالم، شيخاً وصل الى حالة من التعقيد الفكري عجز أن يتجاوزها، فراح يبحث عن الصليب.

فاسيلاف: (كمن يفيق من غيبوبة. ينزع المسبحة، ويلقيها على أقرب أريكة) رمولا، الإله وعد أن يقابلني في مكانٍ ما... شعرت أن صداقتي معه ستكون أبدية.

رمولا: (بإرتباك) فاسيلاف... أيها العزيز الدنيا بأكملها أمامك... لماذا تنزلق الى مثل هذه الأوهام... فكر في أحلامك، وفي مشاريعك.

فاسيلاف: لكن الإله وعد بتبني جميع مشاريعي. وعدني أمس في الليل... رمولا أيتها الحبيبة، فكري في لقائي معه... سأحاول أن أقدمكِ إليه. (بصوت غريب الجرس) يا ليوم لقائنا.

رمولا: أيها الحبيب، لم يحدث إن عشت بالوهم الى هذه الدرجة المخيفة...

فاسيلاف: كانت حياتي سلسلة من الأوهام... الآن ضاع الوهم. الآن عرفت الحقيقة...

رمولا: الحقيقة هي مسرحك، رقصك، إبتكاراتك. (تهز رأسها) الحقيقة هنا، هنا على الأرض فقط.

فاسيلاف: (يقف بإستقامة، ويسير بخطوات ثابتة، ويتحرك كأنه يستعد للرقص) في الرقص كنت أبحث عنه... رمولا، كان يراني، ويهمس أنه يكشف لي عن وجهه لو رقصت بعشق أكثر... (يقترب منها ويعانقها) رمولا، كنت أبحث عنه. ذات مرة رأيته يمد لي أكثر من يد ليسحبني إليه. كنت وأنا على المسرح أسمع صوته يردد – فوق... مكانك فوق... (يحدق في سقف الغرفة) أن أكون فوق...

رمولا: (تبكي) وهل يبحث الإله عن الإله... أنت إله يا فاسيلاف... الناس يجدون الخلاص فيك، وأنت تبحث عن الخلاص هناك.

فاسيلاف: لا أريد أن أكون مثل آلهة الأغريق... لست مجرد مرمر بارد... (بحركات مجنونة) سترين عندما أعانقه... سترين... (صمت طويل. بذهول) أين نحن؟ أقصد في أية مدينة؟

رمولا: في قرية سان موريتز. نحن في جبال الألب يا عزيزي.

فاسيلاف: (بحنان) رمولا، تعرفين كم أحبك... أحبك. ربما، كان الرب يطلب مني أن أقوم بدور القديس بولص. ساعديني... العالم يقلدني. كل النساء السخيفات يقلدن بذلات رقصي، وأنتشرت موضة الأعين المنحرفة الى الأعلى في كل مكان لمجرد أن الطبيعة جعلت وجنتيّ بارزتين... فلماذا لا أعلمهم معرفة الله.(صمت). أسمعي، ما دمت قد أصبحت مِثالاً يُحتذى، فلماذا لاأضع أمام الجميع مثالاً يدفعهم للبحث عن الحقيقة.

رمولا: (موسيقى دافئة... بحنان) علمهم أشياء أخرى... بعد الحرب دخل الناس في حيرة جديدة ومعقدة... علمهم الحقائق الدموية الجديدة... لم يعد الإله تقديم الحل لحيرتهم... كان خبزاً مخدراً في حينه... أما الآن فلا... فاسيلاف، رغم كرهي الشديد لدياجليف، ما زلت معجبة بمنطقه... تذكر عندما قال أن الرقص وسيلة من وسائل التعرف على العالم والتأثير فيه... أن حضارة هذه الأوروبا تتدحرج مثل حجر كبير وستسقط في مستنقع آسن عما قريب. فاسيلاف. (بحرارة) فاسيلاف، هل عليّ أن أذكرك بملايين التراتيل التي ملأت الكنائس لمنع الحرب عبثاً... تقطعت حبال حناجر القديسين من التراتيل لمنع الحرب، وأصرت الحرب

أن تبتلع كل شيء... (صمت قصير) تأمل يا فاسيلاف، رقصة واحدة قدمتها زلزلت الجماهير، وأفهمتهم بشاعة الحرب. قارن بين الصلوات التي رفعت الى السماء، وبين مجهود واحد منك...

فاسيلاف: (بذهول) سأخبره عندما التقي به أن يكون أكثر حذراً، وأنتباهاً في حالة الحروب...

رمولا: أهذه حقاً خلاصة تجاربكِ؟ أهكذا يفكر من أستطاع أن يجسد ضروب الآلام من خلال وجوده على خشبة المسرح... (بتألم) فاسيلاف، لن يعدك... الحرب ستستمر... الأشياء يا فاسيلاف مبنية على أسس خاطئة... أنت علاج يهدم بعض تلك الأسس... الأنسانية كما قلت لي ذات مرة معذبة. (ينتفض نجنسكي، ويطلق صرخة مكتومة).

فاسيلاف: أنا... (يطلق ضحكة مدوية، ويضرب صدره بقبضته) أنا قشة تصفعها الرياح... أنا... أوه، يا رمولا لا تؤلهيني... ربما التمجيد هو الذي مسخني... إن مجرد التفكير بهلاك الملايين في الحرب، يدفعني الى الأنتحار. رمولا، الف رقصة لا تستطيع أن تكون مرهماً لجراح هذه الأوروبا. أسمعي، في الوقت الذي أحاول فيه تجسيد حلم إنسان واحد، تمتلىء سهول ستالينغراد بمئات ألوف الجثث... آه، أريد الخلاص... الخلاص...

رمولا: لكن فنك أيها العزيز نوع من المشاركة الشريفة في أحزان الآخرين... علم الآخرين أن الإنسان أكثر الأشياء خلوداً.

فاسيلاف: (يردد كلمة خالد لنفسه) إنه خالد! (يطلق صرخة حادة، ويقوم بحركات مجنونة، ويقفز عالياً، ويدور حول نفسه. بصوت عميق وحزين) رمولا، هل أنا ضحية؟

رمولا: ضحية! أوه، أبداً... أبداً... بالعكس، أنت لك ضحاياك.

فاسيلاف: ثمة أشياء في داخلي تؤكد لي بأنني أموت كشجرة مشوهة. (ينزع ملابسه بسرعة، ويتعرى، ويصفع جسده بقوة في أماكن متعددة) ربما كنت ضحية هذا الجسد... هذا الجسد الذي جعل مني أسطورة، نيزكاً لا يقع على الأرض وإنما يدور في السماء... هذا الجسد صعد كل صراعاتي القديمة والحديثة... لقد فقد

جسدي بتوليته... أن دياجليف. (يقف، وينتابه ذهول عميق) دياجليف. (يصرخ) هذا القواد... أيها الرب لماذا عرفتني به. لقد سممني هذا الأفعوان المثلث الرأس... زرق فيّ سمومه وأنا بعد طفل... طيرني عالياً، عالياً مثل طيارة ورق ثم قطع الخيط بي وأنا في السماء. (يصرخ) رمولا، ما زلت في السماء، لكنني أهبط هكذا. (يقفز عالياً ويقوم بحركات من يسقط من مرتفع) أهبط. سأصطدم بالأرض ذات يوم وأعانقها الى الأبد. (صمت) ساعديني على الإرتفاع يا رمولا. السقطة مخيفة يا رمولا... (صمت قصير) الله وحده يقدر أن يسحبني، لأتلاشى في لازورده الأبدي.

رمولا: (بحيرة وهي تراقب زوجها) عزيزي فاسيلاف، تعذبني. (بجرس حزين) إنزل الى الأرض... السماء خواء، فراغ. فاسيلاف القوانين الإنسانية كلها هنا على الأرض. السقوط هو أن ترتفع هروباً من تلك القوانين. تأمل الحرب... إنها لا تطحن الملائكة التي تحلم بلقائها، بل تطحن البشر... تذكر رقصتك عن الحرب، وحركاتك الساحرة وانت تقفز فوق الجثث.

فاسيلاف: من جديد تحاولين غرسي في الأرض مثل مسمار كبير. الجثث... (بذهول) الجثث... (ضاحكاً) الجثث. (يبتلع الظلام جانب الغرفة. وبعد موسيقى دافئة من البيانو، تسمع ضحكة متقطعة، وأصوات نساء تفيض بحرارة، وصوت فاسيلاف كأنه يتدفق من خلف ديكورات المسرح الأسطوري) الحرب... الحرب... (يدور الحوار التالي في الظلام).

رمولا: (بصوت مزغرد) فاسيلاف، جاءت السيدة آسيو... إنها مخلصة لمواعيدها.

فاسيلاف: (الى السيدة آسيو) أهلاً... تفضلي.

السيدة آسيو: كالعادة تفيض بحيوية ألف شاب أيها السيد نجنسكي، بالمناسبة ماذا تريد أن أعزف لك؟

فاسيلاف: سوف أقول لك بعد قليل ماذا تعزفين.

صوت رجل١: بمجرد أن يظهر على المسرح تنتاب الإنسان قشعريرة لا إرادية.

صوت إمرأة: آه من عينيه المنحرفتين الجميلتين.

صوت رجل٢: هذا الإنسان مخيف لفرط روعته. أسطورة.

صوت رجل٣: عندما يندمج في الرقص، أتلاشى أنا أكثر منه. (يضاء المسرح. يظهر نجنسكي من بعيد. ويسير بخطوات ثابتة الى وسط المسرح دون أن يلتفت يميناً أو يساراً. يسلط ضوء على وجه السيدة آسيو وهي خلف البيانو، ولصقها زوجة نجنسكي).

فاسيلاف: سأريكم كيف نعيش، كيف نعاني، وكيف نخلق نحن الفنانين. (يجلس على كرسي في مواجهة الجمهور، ويحدق فيهم بتأمل دقيق).

رمولا: (بصوت فرح) ألا تبدأ أيها العزيز؟

فاسيلاف: (يطلق صراخاً حاداً) كيف تجرؤين على إزعاجي – لست آلة، سوف أرقص عندما أحس بالرقص. (ينهض ويفرد قطعاً كبيرة من القطيفة البيضاء والسوداء صانعاً منها صليباً على إمتداد المسرح). سوف أرقص لكم الحرب بكل مآسيها، وآلامها، ودمارها، والموت الذي تنشره. (بصوت عال) الحرب التي لم تمنعوها، لهذا أنتم مسؤولون عنها جميعاً. سأجركم الى الحرب، الى الدمار، الى الرعب، الى الأرض المحروثة بالقنابل، والجثث، والرؤوس المقطوعة... لنذهب معاً الى تلك العيون التي ظلت تحدق في الرب الذي أستمرأ هو الآخر منظرها (ينهض). تعالوا معي الى الآلات الضخمة التي ما زالت تدور وترن في الفضاء... الى الطيور الجارحة التي عافت لحم البشر... الى الذئاب التي حبلت بلحوم الإنسان حتى ماتت من البطنة. (صمت) أيتها السيدة آسيو أعزفي. (يرقص بإندماجٍ رائع، ويصارع بعضلاته الفولاذية وبقفزاته، برشاقته، يصارع مُجسِداً الإنسان الذي يريد أن ينجو من مصيره المحتوم وهو في دوامة الحرب المجنونة. وبحركات أخّاذة يجسد الحياة وهي تصارع الموت. ويستمر بالرقص بحمية. يتوقف – يبدأ من جديد مصوراً جندياً وهو يقفز فوق الجثث في محاولة للهروب. يتوقف، يبدو عليه كأنه قادم من بعيد. ينطفىء الضوء. ويدور الحوار التالي في الظلام).

السيدة آسيو: (بصوت مخمور) أيها العزيز فاسيلاف، معذرة إذا خانتني أصابعي... آه، أين أخذتني. (تصفيق حاد). أتعجب من أين جاءتني كل هذه القوة لأعزف وأتتبعك في آنٍ واحد.

صوت رجل١: (يدور هذا الحوار وكأن الجمهور يترك القاعة) كيف لا نحس بعد هذا

أننا مسؤولون عن الحرب؟ لقد صُفعنا صفعةً شريفة نستحقها جميعاً.

صوت رجل٤: أسمعوا، إذا أراد مصور أن يجسد الرعب فليصورني الآن... دون أن أرى وجهي، أعرف أن سحنتي قد تبدلت.

صوت إمرأة: أيتها الإنسانية المعذبة لك أرفعُ ألفَ دعاء.

صوت رجل٥: (بلهجة خطابية محاولاً تقليد نجنسكي). أيتها السيدة ماذا رأيت بعد حتى ترفعي ألف دعاء. إنني صحفي، قبل أيام رجعت من الجبهة، ورأيت مئات الجثث. لكن، أقسم بكل ما هو شريف، عندما جَسدَ منظر الجثث وهو يقفز عليها خلتني أقفز معه. عندما رأيت الجثث لم أتقزز مثلما قززني هذا الإله الآن. أنا واثق أن هذا الإنسان الرقيق، لم يرّ جثة واحدة في حياته... وهل رأيتم كيف عامل الجثث...الف قبلة لتلك العيون المنحرفة المنغولية. سأحلق حاجبي مثله، وأرتدي مثل ملابسه.

صوت إمرأة٢: أثارني مثلما كان المسيح يثير الناس السذج. (يعاد الضوء الى الغرفة. نجنسكي جالس على إحدى الأرائك بملابس صيفية، يحدق بصمت في زاوية الغرفة).

رمولا: لم هذا الصمت؟ لم هذا الشكل البوذي؟

فاسيلاف: (دون أن يتحرك) الحرب...

رمولا: هل تريد إعادتها؟

فاسيلاف: ليس الآن، إنني أتحول الى حرب... الحرب عاهرة بألف إمكانية... الحرب عربة موتى حقيرة. (ينهض، ويقترب من زوجته، ويمد ذراعيه أمامها) تأملي هاتين اليدين.

رمولا: ما بهما يا عزيزي؟

فاسيلاف: تصوريهما مبتورين... بهاتين اليدين أكتب ملاحم في الهواء بلغة أكثف من لغة الكتابة. شظية قنبلة تزرعهما في خندق وتجعلهما طعاماً للطيور... (بتألم) رمولا، أن يتحول الإنسان الى جسر من أجل أهداف حثالة من البشر، أمرٌ خطير. (يحتضن رمولا بشوق) منذ متى والعالم يكتنفه هذا الدخان الأسود؟ بمن يستطيع الإنسان أن يستنجد في مثل هذه المحن؟

رمولا: (بثقة) بالإنسان وحده.

فاسيلاف: يذبح بعضهم البعض من أجلِ أسخف القيم.

رمولا: كلا يا فاسيلاف، يذبحون ما فيهم من القيم الفاضلة.

فاسيلاف: لا شيء يساوي موت إنسان بريء.

رمولا: سيستمر مثل هذا الموت. البشرية مثل دودة القز تنسج حريرها رغم كل الصعاب.

فاسيلاف: تعرفين كيف تلجمين فمي... يا بهجتي... لم يتعذب الإنسان أكثر من كل الأشياء، بالصبر الأسطوري، بإنتظار الخلاص. (صمت) الخلاص الذي لن يفقد الإيمان به.

رمولا: الإنسان لا يمل الكفاح.

فاسيلاف: (يتألم) تصوري، رغم غربته، يكافح.

رمولا: لأن شرف وجوده في الكفاح.

فاسيلاف: (يقبل زوجته) أيتها العزيزة... (يقبلها بشوق) هل تنتهي الغربة ذات يوم؟

رمولا: تذكر؟ مرة رأينا بلشفيا يخطب في بودابست ويردد –قبل مجيء الشرطة– أعلموا، أن الغربة التي نعاني منها هي نتيجة العلاقات الأجتماعية المعقدة.

فاسيلاف: تذكرته... أخذوه مضرجاً بالدماء، لغة هؤلاء الثوار سامية، لم أستطع فهمها جيداً... يفهمون العالم بالسرعة التي يعرف الطفل فيها أمه... ربما لهذا السبب لم أعرف كيف أنتشل نفسي من غربتي. حياتي الصغيرة يا رمولا كرستها للرقص. روحي تاهت في سراديب الحيرة، وشوهني دياجليف. (يصرخ) أيها الحقير دياجليف. أيها اللوطي التافه... حتى بروست من طينة ذاك الحقير. (يضع رأسه على كتف زوجته)، أن سمو العقل عند هؤلاء وصل الى عبادة الجنس المماثل.

رمولا: انسهُ أيها العزيز... انسهُ.

فاسيلاف: لو أستطيع قتله... تصوري: أغمي عليه عندما وصله خبر زواجي منكِ قبل ثلاث سنوات...

رمولا: مريضٌ حتى العظام.

(يضيع الضوء برفق. يضاء منظر ضبابي خلف نافذة. يسمع صوت دياجليف وكأنه ينبعث من بعيد على شكل همس).

دياجليف: يالهذا النهار الضبابي... لندن والضباب توأمان أزليان... هل نمت؟ أنظر كيف يتكسر الضباب مثل الفسيفساء على زجاج النافذة. (صمت قصير) هل نمت؟ أنظر الى الأشجار كأنها تعابث خيوط الضباب... ترى أيهما يعانق الآخر.

نجنسكي: هل تقرأ شعراً، أم تحدق فعلاً في الضباب.

دياجليف: أحدق من خلال النافذة. الأشياء تتحرك مثل الأشباح... الضباب يترنح، ويصعد على شكل موجات.

نجنسكي: تكلم حتى أغرق في النوم... للصوت أحياناً سحر الموسيقى الخافتة... لندن تشعرني بالوسن.

دياجليف: تعال هنا.

نجنسكي: أتركني أتخدر... أمامي ليل طويل من العمل المرهق.

دياجليف: تعال لأقبل عنقك...

نجنسكي: لماذا عنقي؟

دياجليف: إنني كمن أصيبت قزحيته بالشلل، ثم عادت الى الصفاء بعد عملية جراحية. فاسيلاف، أرى كل يوم فيك أشياء رائعة. عنقك مثلاً عشقته ليلة أمس وأنت تحركه بتلك السرعة.

نجنسكي: (بصوت وسنان) كل يوم تعشق فيّ شيئاً... ماذا تجد فيَّ؟

دياجليف: رغباتي، بؤسي، ضياعي، ربما فشلي.

نجنسكي: أفكر أحياناً أن كل واحد منا يدبر لأخيه في الخفاء أكواماً من البؤس.

دياجليف: كيف؟

نجنسكي: عندما أفكر فيك وأنت تجتاز لحظات من السعادة المشوهة القصيرة العمر، ينتابني ألمٌ حقيقي.

دياجليف: هكذا هي السعادة. (يترك النافذة، ويقترب من نجنسكي وهو مستلق فوق السرير). السعادة يا فاسيلاف تحبل في لحظات ثم تضع جنيناً على شكل الهواء.

نجنسكي: تعصر عنقي بقوة.

دياجليف: أريد أن أعتصر كل عصير السعادة فيك.

نجنسكي: تعصرنني كأنني برتقالة.

دياجليف: ريان أنت مثل ألف برتقالة. (يطلق دياجليف ضحكة مضطربة) أواه... تشل حتى وعيي عندما تحدق فيّ.

نجنسكي: ما بك. أتركني أرجوك... أريد أن أنام.

دياجليف: في هذه الغرفة الشبه مظلمة. وعلى ضوء الضباب الرمادي، ومع أنفاسك، أحس كأن العالم لن ينتهي. (بهمس) تعال وألقِ نظرةً على الأشجار وهي تتعانق. لو كان بيكاسو هنا، لصور الأشجار تخلع ملابسها للضباب. أتوسم فيه الكثير يا فاسيلاف... تعال عندي... أنظر كيف تحرك أجسادها كأنها تقلدك... كل ذلك يحدث بصمت... (يقترب نجنسكي من النافذة).

نجنسكي: ياللضباب تحت الأضواء... (يتثاءب) أشعر بنعاس قوي.

دياجليف: إنتظر... لنتأمل قليلاً.

نجنسكي: لا تؤذني.

دياجليف: لن ينتهي تعبك.

(يعاد الضوء كما في المنظر السابق)

فاسيلاف: (يهلوس...) آه، يا رمولا، كان يقبل جسدي، يلحسه مثل الكلب مدعياً أنه يعبده، لأنه يتكلم بألف لغة غير موجودة في العالم. وحتى هناك كان يقبله... ذات مـرّة في إحدى نوباته المجنونة صلى على جسدي بخشوع. كنت بدافع من الإعجاب الشديد بمواهبه وفكره أمنحه جسدي بحرية.

رمولا: (بخجل) كما قلت مريض حتى العظام. إنسه.

فاسيلاف: كان يملك أكثر من مئة صورة للأجساد الرجالية العارية من رسم أنجيلو، ودافنشي، وبعض المصورين... كنت أؤمن به. وإقتنعت أن أجمل جسد هو جسد الرجل. كثيراً ما كنت أقارن نفسي بأجساد رسوم دافنشي، وأنجيلو... (يتوقف).

رمولا: (متداخلة) هل ينقص جسدك شيء... إنه في منتهى الجمال والتناسق.

فاسيلاف: (بحيرة) دياجليف كان يريدني مُلكاً صرفاً لنفسه. كنت أراه أحياناً يأخذ قمصاني ويحتفظ بها.

رمولا: إنه يجسد معاناة الصبي في الباليه الذي وضعته في (روح الحيوان) مثلما كان الصبي يعصر ويشم الوشاح ليشبع رغباته، هكذا كان دياجليف يفعل بقمصانك.

فاسيلاف: (يطلق ضحكة عالية) بالضبط.

رمولا: بالمناسبة، سأل عنك الدكتور فرويد.

فاسيلاف: يقولون تطوع لعلاجي... ما شكله يا رمولا؟

رمولا: نحيل، متوسط القامة، عيناه ذكيتان جداً... كان مرهقاً على ما أظن...

فاسيلاف: هو الآخر يسوط دماغه ليل نهار... إننا نخبة تبحث عن العذاب مثلما تبحث الطيور عن الديدان...

رمولا: تعرف كيف حلل سلوك الصبي في باليه (روح الحيوان)؟

فاسيلاف: كلا.

رمولا: قال أنه يعاني من التوله الجنسي.

فاسيلاف: (ضاحكاً) التوله الجنسي؟ هذا الفرويد الطيب هو الآخر أصبح مودة العصر.

(صمت طويل. تسمع موسيقى من باليه(روح الحيوان)... في هذه الرقصة أتحرر من قيود دياجليف. عندما أرقص هذا الباليه أتحرر أحس أنني أعانق المرأة عناقاً لا تستطيع قوة أن تفصلني عنها. تصوري عندما أشم الوشاح وأنا مندمج في الرقص، أحس أنني أشم عطر الف إمرأة. (بعصبية) دياجليف أراد أن يصلبني في مفاهيمه... (يصرخ) أيها الحقير دياجليف يا من قصصت أجنحتي).

رمولا: (تُقبله) لنخرج الي القرية... المنظر غاية في الجمال. (صمت) هل أحضر العربة.

فاسيلاف: (يهز رأسه بالإيجاب) لا تستعجلي... (تخرج وبعد قليل يدخل دياجليف، ويسير بثقة الى حيث نجنسكي. يتعجب نجنسكي ويقوم بحركات كمن يحاول أن يتأكد أنه ليس في حلم. يتبادل و دياجليف نظرات في منتهى الغرابة)

دياجليف: هكذا يرتاح راقصنا العظيم؟ (موسيقى خفيفة وحزينة).

فاسيلاف: ماذا تعمل هنا؟... حتى في المناطق النائية... ألم تكف السهام التي وجهتها لي من دولة الى دولة... سخّرت كل مواهبك لقتلي، ولقتل مواهبي.

دياجليف: (ببرود) تبدو مرهقاً يا فاسيلاف.

فاسيلاف: مرهق حتى الموت. ألا يرهق من يكون هدفاً لغضبك. مرهق في كل نقطة من جسدي وعقلي... لست أدري الى أين أتجه. (بألم) أشبه ملاحاً تاه في البحر الى الأبد يا دياجليف.

دياجليف: وهل يفقد الملاح الواثق من نفسه وإرادته الأمل، في التيه.

فاسيلاف: وهل يختلف الأمل كذباً. لقد صلبت فيّ الأمل. أين هو الأمل؟ أنني مثل سمك القرش المحاصر، أفكر كل يوم أن أضرب رأسي بذيلي لأموت.

دياجليف: (يقترب من نجنسكي، ويمرر بلطف يده على وجهه. تتوقف الموسيقى الخفيفة، وتعزف قطعة من باليه بتروشكا كأنها تأتي من بعيد. يشمئز نجنسكي من حركات دياجليف، ويشيح بوجهه).الفنان الأصيل يا عزيزي فاسيلاف حتى أمام الأحداث التي تمزق القلب، يبقى يقظاً.

فاسيلاف: (يطلق ضحكة هي مزيج من العذاب والسخرية) ليتك كنت تراني في اتون أحداث كلها دم. إذ ذاك كنت سترى مبلغ يقظتي. لكنني في طريقي الى فقدان هذه اليقظة الى الأبد. (صمت) دياجليف إنني أتلاشى، أذوب مثل الشمع، وعبثاً أبحث هنا وهناك عن قوة، لأهدىء صراعاتي الداخلية. (صمت) عما قريب سأرى الأشياء مجرد مكعبات.

دياجليف: (بغروره المعروف) لاتستطيع إلا أن تحلم... من غير الفنان يستطيع أن يحلم بوضوح عن العذاب، والتلاشي، والذوبان.

فاسيلاف: كل واحد يحلم. أما أنا فسأفقد حتى الحلم. (بصوت راعش) سأكون مجرد إنتظار طويل يا دياجليف.

دياجليف: وهل الحياة أكثر من إنتظار؟

فاسيلاف: الإنتظار وأنت في قلب الحياة شيءٌ رائع، أما الإنتظار في أقصى الهامش...

دياجليف: (مبتسماً) من أقصى التفاؤل الى أقصى التشاؤم... أنت، كبقية العمالقة تحس بأروع أشكال المأساة. أنتم مأساويون تبحثون عن الجمال بإستمرار، والجمال مرتبط بمأساوية الحياة.

فاسيلاف: بدأت تتفلسف من جديد.

دياجليف: لم أقل غير أن الجمال مأساة لأنه مرتبط بالحياة.

(يطلق ضحكة طويلة) لو قيل مثلاً تحت المناجم جمال رائع لأسرع اليه الفنان، ما زلت يا فاسيلاف مقتنعاً أن فان كوخ ذهب الى المنجم لمجرد رؤية الوجوه في أعماق الأرض... (يضحك من جديد)

فاسيلاف: منذ أن هجرتني والدتي بدأت أتفتح في حوض المأساة، تربيت على خبز المأساة... لكنني كوعي، سأغيب الى الأبد. سأكون مجرد حضور، ولا ينطبق عليّ

بعد الان كلام ذلك الفرنسي... (صمت قصير) بعد أن خنقتني بمؤامراتك، بقذاراتك الكثيرة، وبوشاياتك، جئت الآن دونما حياء لتضع تحت قدمي المشلولتين أحجاراً من الكلمات المورفينية... دياجليف (بغضب) أن الجمال الذي عشقته بقوة ألف عاشق، يتحول الى عظام عتيقة، كنت أعيش بالخلق، وللخَلق، أين الخلق الذي يسترجع عذرية العالم؟ بالنسبة إليّ إنتهى الخلق.

دياجليف: (ينفخ مثل ثور هائج) أسمع. ربما كره الفنان ما خلقه، لكنه يستمر في الخلق.

فاسيلاف: (بحيرة) مرة أخرى تسحرني بلغتك. أسمع هل يتم الخلق بدون رغبة حقيقية، دون شوق... كيف تفسر إذن ذوباني في رقصاتي؟

دياجليف:(يطلق ضحكة قوية) رائع. تناقشني بلغة أسمعها منك للمرة الأولى. لكن، كثيراً ما تولد المحبة من التحدي، من التفاهة، من العناد، وتتحول الى خلق...

فاسيلاف: (بذهول) من كل شيء... ربما مجرد يتمي دفعني الى أن أكون شيئاً... ربما كنت أتحدى سقطتي، قدري، مصيري.

دياجليف: (بسخرية) ربما كافحت من أجل البهجة.

فاسيلاف: (ينهض ويقفز عالياً مرات عديدة كأنه يتحدى حتى جاذبية الأرض. بصوت مخنوق) البهجة... وهل عرفت البهجة؟ لقد علمتني أتعس أنواع البهجة وأنا أتفتح مثل برعم نظيف. بهجتي أم بهجتك. بهجة اللعب بجسدي. بهجة تمسيدي وتقبيلي مثل أنثى. بهجة المحاضرات الكثيرة عن لواطية إسكندر المقدوني، وبروست، وأندريه. جيد، (بغضب أكبر) لقد ملأت جمجمتي بكل تلك القذارات التي تعلمتها من اولئك المفكرين المرضى.

دياجليف: (يقطب) تتحدى مشاعري يا فاسيلاف؟ (بغضب)تطعن مشاعري.

فاسيلاف: تعلمت من خلال العذاب الذي سببته لي، وذاك الذي سببته أنا لنفسي، أن أنفي، تعلمت النفي. أنفيك يا دياجليف مثلما سينفيني وعيي. (بلهاث) رفعتني عالياً. (ينهض ويقفز عالياً، ويسقط على الأرض بقوة. ممداً على الأرض) قطعت الخيط بي لأنني رفضت أن أكون عبداً لنظامك. (صارخاً) أتركني. لم يبق أمامي نورٌ أبني عليه نظامي الخاص.

دياجليف: (بغضب) كنت حثالة فبنيتك مثلما بنيت غيرك من العظماء. إن بروست،

وكوكتو وبيكاسو من صنعي أنا... أهكذا ترد لي الجميل؟

فاسيلاف: (ينهض، ويقف. بعصبية) أنا بنيت نفسي بنفسي. (بتعجب) هل بنيت جسدي المشوق هذا، أم دنسته؟ هل بنيت عضلاتي، قفزاتي، معاناتي، آلامي، أم بناها التمرين لسنين؟ أجل كنت سلماً أرتقيته غير أنك سحبته من تحتي في بداية الطريق. حسدتني. حسدت مواهبي، ورحت تدفن فشلك، وضياعك في العمل اللواطي، (صمت. طرقٌ على الباب. يدخل النحات رودان ويندفع بشوق، ويعانق فاسيلاف).

فاسيلاف: (بفرح) رودان... رودان... إشتقت لك بكل جوارحي. يشير الى مقعد قربه، إجلس.

رودان: (لدياجليف) أراك مضطرباً يا دياجليف . إجلس.

دياجليف: شكراً تعبت من الجلوس.

رودان: (الى نجنسكي)آسف لا أستطيع البقاء طويلاً.

يرتديه نجنسكي دونما إحتجاج، ويجلس. عرفت صدفة أنك تصطاف في سير ماريا. ذاهب الى دعوة لكن جئت لأراك وأعرف إن كنت ستحضر الى مرسمي لأنجز تمثالك الذي لم يكتمل.

فاسيلاف: (ضاحكاً) بالطبع سأحضر. عندما أترك جبال الألب. سأرجع الى لندن. أنا مرهق يا رودان العزيز.

رودان: أعرف... هذا مكان جميل للأستجمام.

دياجليف: (بغيرة ساخرة) هل من الضروري أن تكمل التمثال يا سيد رودان؟

رودان: (بإستغراب)لو تعرف كم تعبت في صياغة الجزء الأعلى. سيكون أرقى وأدق أعمالي قاطبة. (يهز رأسه) عندما أحدق في جسد السيد نجنسكي وهو عار، أكاد أصاب بذهول. جريمة ألا يؤبد هذا الجسد قبل أن يفقد كل عظمته. فكر أن جسد نجنسكي لن يبقى كما هو.

دياجليف: (بإمتعاض) لا أجد سبباً في تجسيده عارياً.

رودان: (ضاحكاً) ها نحن حتى في أجمل بقاع العالم، وفي أحضان جبال الألب ندخل في مناقشات بيزنطينية، ونتخاصم على مفاهيم بديهية. ثرثارون بالسليقة... يا سيد دياجليف، آسف، إذا قلت أنك، ربما عن حسن نية، تتآمر ضد تخليد هذا

الجسد الرائع. أفكر فيه كل ليلة. أحس بعظمته أكثر مما يحس به نجنسكي نفسه. أفكر في ذراعه، في صدره الغريب التكوين، في بطنه المتناسق... إنه جسد كامل.

دياجليف: (بالغيرة نفسها) عزيزي رودان، هل حقاً يحتاج نجنسكي أن يخلد في قطعة مرمر، هو الذي حفر أسمه بعمق في كل زوايا تاريخ فنه. حتى الأطفال يرددون أسمه.

رودان: (بتألم) بهذا الضيق تنظر الى نجنسكي؟ أنا كنحات، أرى من حق الأخرين أن يملأوا عيونهم بهذا الجسد الذي سيتلف (بعصبية) جسد نجنسكي ليس مُلكاً لهُ، بل هو للآخرين أيضاً... (صمت طويل . ينهض نجنسكي ويقترب من رودان).

فاسيلاف: لماذا تهتم لهذا البوم؟ يحب أن ينعق بإستمرار.

دياجليف: (بغضب) أنا بوم! لم يسبق أن ضمنت الموت الحقيقي مثلما ضمنته الآن... تريث... سترى يا فاسيلاف.

فاسيلاف: تهددني؟ ألم تكُف تهديداتك؟ رجالك يبحثون عني لقتلي... منذ متى وأنت تطاردني مثل ظلي من بلد الى آخر.

رودان: (متدخلاً) أرجوكما... ما الذي حدث... ما هذه اللهجة المثيرة؟ يا سيد دياجليف، أنا كنحات أفهم ، جسد نجنسكي كأسطورة، ليس من حق أحد، حتى صاحبه، أن يمنع ترجمته على المرمر، أو البرونز كنموذج فريد...دياجليف، إنك شخصياً تحتفظ بمئات الصور لرجال عراة من صنع دافنشي، وأنجلو، ورفائيل. لا أعرف كيف أفسر رفضك فكرة تجسيد هذا الجسد الذي يفوق في روعته معظم تلك الرسوم التي تملكها. (ينهض رودان، ويربت على كتف نجنسكي) أنظر الى هذا الخصر. أشك أن تستطيع يد نحات صياغة مثله. إنني مع إعجابي الشديد أقول، سأحاول. (يتأفف) أن العري تاريخ أيها السيد دياجليف. (يريد دياجليف مقاطعته غير أن رودان يستمر) يؤلمني أن أقول أنك بدافع الغيرة تحاول منع راقصنا أن يكمل تمثاله. جسد نجنسكي يجب أن يمس بمنتهى الأمانة، والبتولية.

دياجليف:: يا سيد رودان أنت تحاضر في الأخلاق، وفي العري، والنحت، وتعاملني ككولاك.

رودان: عفواً. لم أقصد الإساءة مطلقاً. رفضك، ومن ثم لهجة الغيرة التي تتكلم بها هي التي دفعتني أن أخوض في هذه التفاصيل. (صمت) أترك الموضوع لنجنسكي، هو صاحب الرأي الحقيقي.

فاسيلاف: «سأزورك بالتأكيد لتستمر في العمل... (يتبادل رودان ودياجليف نظرات غريبة. يترك رودان الغرفة) آه، يا رودان... أحبه. إنه أصيل كفنان.

دياجليف: إذا تعريت أمام الإنسان قتلته وقتلتك.

فاسيلاف: (بغضب) لحم وجهك مثل جلد الضفدع. الف بصقة لا تظهر عليه. من أنت؟ ثم الى متى سأبقى تحت رحمة توجيهاتك؟ لماذا تحرم رودان من تخليدي؟

دياجليف: (يبتسم) وهل تبحث عن الخلود. الخلود قد يكون ذبابة.

فاسيلاف: عفواً أسأت التعبير، لماذا لا تفسح المجال لرودان أن يخلد نفسه. إنه يراني بألف عين، وأنت تراني بعين واحدة. أنت لا ترى سوى أماكن معينة في جسدي، وهو يراني في صورة آلة .(بعصبية) دياجليف أتركني، ودعني أقطع بقية المسافة في صحرائي بسلام، تخاف أن يرى رودان ردفي لأنك وحدك عبثت بها. تخاف أن يرى قضيبي لأنه كان سبحتك الليلية. (يصرخ) رودان إنسان شريف لأنه فنان. أما أنت فمجرد دجال، سمسار موهوب، لواطي عفن، أخرج من بيتي أخرج. (يترك ياجليف البيت بصمت. يبقى نجنسكي وحده تنتابه حالات نفسية متوترة. يرقص بألم مشهداً من باليه روح الحيوان. يتوقف. يقوم بحركات مجنونة... تسمع موسيقى حادة خلال هذه الفترة) رودان يريدني أن أقف أمامه عارياً. (ينزع ملابسه...، ويقوم بحركات راقصة) هكذا سأقف أمامه.(يقف على رؤوس أصابعه، ويمد يده اليمنى أمامه في حركة راقصة) ربما هكذا أحسن. (يقوم بحركات كثيرة) من يدري كيف سيراني هو؟ حركاتي التي أعجب بها قد تبدو تافهة بالنسبة إليه. (يتعرى نهائياً) لكن ماذا لو فرضت عليه أن يؤبدني في المرمر بهذا الشكل. أوه... أن رودان سيراني لا متناهياً مثل البحر، والسماء(تدخل زوجته).

رمولا: (تطلق صرخة قوية، وتبكي) فاسيلاف... خلتك تستعد للخروج. ما هذا. إرتد ملابسك، أرجوك أن تكف عن هذا... يا إلهي.

فاسيلاف: (مثل الطفل) رودان زارني الآن... (صمت قصير) أين كنت.

رمولا: (تلطم فخذها بذعر) ضع شيئاً عليك. أي شيء... (موسيقى حزينة) قد تدخل الخادمة، أو زائر على حين غفلة.

فاسيلاف: سيستمرىء منظر جسدي، لكنه دجلاً يدعي الأدب، وعدم الحشمة... الأخلاق يا رمولا. (ضاحكاً) أليس كذلك.

رمولا: (بحيرة) إنك عار... (بجرس حزين) عار في غرفة قد تدخلها إبنتك، أو الخادمة، أو زائر.

فاسيلاف:(يقفز فوق الأريكة) أنت الأخرى تخافين من العري. ألم يصلبوه وهو شبه عاري. رمولا، يا ملكتي، يا فراشتي الملونة، يا بهجتي، لقد بدأت أرثي لجسدي هذا. (بصوت راعش) قال لي رودان بأنني عما قريب سأفقد صلادته... ماذا أساوي لو تهدل هذا الجسد. (يشير الى صدره) إن صدري سيوجد مرة واحدة بهذا الشكل والى الأبد. اردافي. (يحدق في أطرافه) قال رودان أصابع الفنان تعجز أن تصوغها بأمانة. (يمرر أصابعه على أردافه)دياجليف رفض أن ينحت رودان جسدي. (يسمع طرق خفيف على الباب. تحتضن رمولا زوجها، وترد بصوت عال).

رمولا: من؟

الخادمة: أنا سيدتي... السائق يسأل فيما إذا كنتما مستعدين للخروج.

رمولا: (حاضنةً زوجها) ليس بعد... (بحيرة) إسمعي أسأليه أن ينصرف.

نجنسكي: (كأنه لم يسمع الحوار الذي دار بين زوجته والخادمة). دخلا في نقاش طويل.

رمولا: (وهي تبتعد عنه) ملابسك أيها العزيز.

فاسيلاف: أتركيني. ربما هذه هي ساعة زواجي بالرب، لعله يرفعني إليه على هذه الشاكلة وتتم أمنيتي الأخيرة.

رمولا: (تجلس على أقرب مقعد وتبكي) لماذا تعذبني وتعذب نفسك؟ ماذا لو دخلت إبنتك؟

فاسيلاف: (بلطف) رمولا، تبكين في أروع لحظاتي... لقد أحببتكِ قدر ما أحببت رقصي... لا أريد حتى الرب بدونكِ، سآخذكِ معي الى حيث غيوم الرب. سفري لا يكون بدونك. هناك سأقدم رقصاتي عن الحرية، والحرب، وسأظل أقفز على

ذلك البحر اللازوردي، وأجري بقوة ألف حصان متوحش على رمال الغيوم. هناك نستحم بعيداً عن كل شيء. (تنتاب رمولا حالة توتر شديدة. تخرج. وبعد قليل تأتي بِرداء وتلقيه عليه. بصمت)

رمولا: أجلس. (موسيقى خفيفة من كمان، يأتي من بعيد. تجلس لصقه، تأخذ يده بين يديها وتشمه بحنان) أيها الإله فاسيلاف، لقد مزقت شرايينك بصرخاتك المدوية. (تتكلم كأنها وحدها، فاسيلاف صامت) لمن أوجه لعنتي؟ للإله الذي تعرفت عليه ووعدك بسمائه، الإله الذي أعلن نيشتة موته من هذه الجبال حيث جاء يستجم مثلك(بإنفعال)أي إله الذي أسدل ستارة سوداء على روحك التي بدأت تضيء مثل الفجر. (ينهض فاسيلاف، ويسير في الغرفة جيئةً وذهابا. تبقى رمولا في مكانها).

فاسيلاف: (بتعجب) هل مات الإله؟ رمولا... إذا سمعك لن يقبلني في ملكوته.

رمولا: فاسيلاف. وماذا عن ملكوتك... فكر كم إلهاً مات حتى الآن. فكر بروح هذا العصر الذي أوقدتَ تحتها ناراً ملتهبة برقصك. فكر بالحرب التي عجز الإله عن إيقافها. (تصرخ) أنت نفسك الإله دون أن تعرف ذلك . بهذه السهولة القيت سلاح الكفاح من أجل الغربة.

فاسيلاف: (يبكي بصوت حزين)رمولا... أيتها الدنيا. إنني أجهل أسباب غربتي. لذا لا أستطيع التغلب عليها.

رمولا: (موبخة، لكن بلطف) وهل تجد أسبابها هناك في الازورد، ألم تعلمك الحرب دروساً كثيرة.ألم تعلم الكثير من أنانية دياجليف، ومؤامرات أصحاب المسارح الجشعين، من أعتقالك في النمسا، من المساومات الدنسة على فنك، ماذا إذاً تعلمت في خضم تلك الأحداث، ألم تقل لي أن الحياة صراع؟

فاسيلاف: صارعت يا مولاتي... صارعت مثل خلد في معركتي. لكن ضد شيءٍ مجهول.

رمولا: (باللهجة نفسها) مجهول. العالم الذي صفق لك، الشخصيات إبتداءاً من البابا الى الملك الفونس. الى الموسيقار شتراوس. ورودان العظيم كلهم يلهجون بأسمك... ماذا يريد شاب وهو بعد في أول الطريق.

فاسيلاف: هؤلاء كانوا الشيء المجهول.

رمولا: والجماهير التي عشقتك.

فاسيلاف: عشقتهم أنا الآخر حتى النزيف.

رمولا: لكنك ألقيت أسلحتك كان يجب أن تسير بهم قدماً الى أعلى فأعلى.

فاسيلاف: (يبكي) لكنني سقطت دون أن أدري كيف. سقطت (بصوت حزين) هل من الإنصاف يا رمولتي أن تستنجدي بأقسى و أمرّ ذكرياتي لمجرد إقناعي.

رمولا: (تقترب منه. بحنان) عفواً أيها العزيز، لا أريد أن أعذبك أبداً لكن الى م سيقودك هذا الإندفاع الوحشي؟ أقول في نفسي: ربما تصير عذاباتك كلها جسراً لعبور هذا الوادي الملغوم الذي برز أمامك فجأة... عندما كنت معتقلاً في النمسا...

فاسيلاف: (يقاطعها ويصرخ) لا تفتحي صنبور ذكرياتي المرعبة. (يضطرب نجنسكي، وتظهر على وجهه تشنجات كثيرة. يضع باطن يديه على صدغيه بتألم، ويرتعش كمن يعاني من حمى حادة. تخاف رمولا، وتترك الغرفة في وضع يائس. وقبل أن تخرج، تردد بصوت مخنوق. فاسيلاف. ماذا حدث؟ تخرج... يتقلص الضوء برفق، وعلى نحو متشنج، معبراً عن تشنج الوعي لدى نجنسكي. ظلام شفاف. من بعيد يظهر شبح عسكري نازي يتقدم بخطوات ثابتة وقاسية).

العسكري: لا بد من رؤية هذا الوجه هذا الجسد الأسطوري من يكون هذا الذي توسط لأجله جميع رجالات الدولة. (يخاطب نفسه) لقد سقط الآلاف مثل الذباب دونما إحتجاج، والملوك في هرج نيروني إكراماً لهذا النجنسكي. (بصوت آخر) تقدم أيها السيد نجنسكي لنرى وجهك. يبدو أن العالم رغم النيران سيبقى تحت سحر بضعة فالنتينات الى الأبد. (بصوت غاضب) تقدم. (تسمع أصوات مجنزرات، وهدير سيارات، ووقع أحذية عسكرية كثيرة. تنقطع هذه الأصوات. مثل الهمس المخنوق).

الصوت الأول: يا سيد نجنسكي لا تذهب إليه. احتقره.

صوتٌ ثانٍ: أرجوك أن تبصق في وجهه. بحق الإله الذي نهج به لسانك منذ إنغلاقك هنا، أبصق في وجهه، ودعني بعد ذلك أموت بسلام. (يتقدم العسكري).

العسكري: أنهض.

نجنسكي: (دون أن يظهر في نطاق الضوء) لكنني لا أستطيع أن أرفع صوتي. (يعود هدير السيارات) أوقف هذه السيارات.

العسكري: (بضحكة ساخرة) تريدني أن أوقف الحركة في الشوارع. رائع...(مستمراً في الضحك) رائع. (بسخرية) الى آمر قطعات فينا – أمر فوري من الراقص الروسي الى جميع القطاعات العسكرية في النمسا. أوقفوا حالاً جميع العمليات الحربية حتى يستطيع بهلوان السيرك أن يتكلم (يتقدم أكثر). إنهض.

نجنسكي: (بصوت عال) قد تبيح الحرب لنفسها كل شيء. ولكن لن تستطيع مس الألهة بسوء.

العسكري: (مازحاً) لكننا الآن سادة الأرض التي أنجبت جميع الآلهة.

نجنسكي: أشك أن تكونوا سادة حتى لأنفسكم.

العسكري: وهذه الإنتصارات الكثيرة والسريعة.

نجنسكي: تثير الرثاء.

العسكري: ألأننا هزرنا العالم؟

نجنسكي: بالعكس هززتم أنفسكم، الأنسان الذي لا يعرف أن يميز إنسان ميت. (بصوت عال) محكوم عليكم أن تعيشوا سلسلة لا متناهية من الضلالات.

العسكري: (بصوت جاف) تكلمني وكأنك تخاطب كولاكا.

نجنسكي: الكولاك على تأخر وعيهم يقدرون مواهبي. أما أنتم فمنذ أعتقلتموني عاملتموني كحشرة.

العسكري: ومن تكون أنت!

نجنسكي: (بثقة) وجه من وجوه حضارتكم التي تغرقونها في البالوعة.

العسكري: (بسخرية) أنت!؟ أنت وجه من وجوه حضارتنا؟

نجنسكي: أكثر من وجه. (يتقدم العسكري. تسمع موسيقى عسكرية، يسلط ضوء أصفر على وجه نجنسكي، ويبدو من خلاله نظراته، وتشنجات وجهه في ذروة ألمه وغضبه. يمسكه العسكري من ذقنه، ويطلق ضحكة ساخرة).

العسكري: إذا كان هذا الوجه العظمي، وهاتان العينان المنغوليتان المنحرفتان وجهاً من وجوه حضارتنا، فلتسقط هذه الحضارة.

نجنسكي: (يبعد وجهه) أيها العسكري، أرجو أن تلزم حدودك وتعاملني كإنسان.

العسكري: (بسخرية) يبدو أن البعض قد همس في أذنك عن برقيات الملوك التي وصلت الى القيادة هنا من أجل إطلاق سراحك. ألهذا تخاطبني بصلافة؟

نجنسكي: (بجفاف) لا تهمني البرقيات، ولا من أرسلها. حاول أن تعاملني كإنسان.

العسكري: (بغضب) ماذا لو قتلتك الآن؟

نجنسكي: لا تجرؤ.

العسكري: لماذا؟

نجنسكي: لأنك ستلطخ البقية الباقية من شرف أمتك في الوحل.

العسكري: (بحقد) لمجرد أنني أقتلك. (بصوت زاعق) من أنت؟

نجنسكي: أنا فاسيلاف نجنسكي.

العسكري: (بعصبية) صرعت المئات مثل الحشرات، وهذا الصعلوك يصرخ في وجهي. (لنفسه بحيرة) ولا أستطيع قتله.

نجنسكي: تأبى أن تكشف عن تربيتك الدموية.

العسكري: (بهلوسة) آه، أي عار... أي عار، أن يتكلم معي، روسي بهذه اللهجة ونحن نحصدهم الآن على سهول ستالينغراد بالمئات. (لنفسه) سأنسف أوامر القيادة العليا... من هذا حتى ترسل القيادة العليا البرقيات لأطلاق سراحه. (يخرج مسدسه) سأقتله. (بعصبية أكثر) من أنت؟

نجنسكي: فاسيلاف نجنسكي. (بثقة) أنت أجبن من أن تنسف أوامر قيادتك... (يتقدم من العسكري) أطلق إذا أستطعت. ولطخ بقية شرف المانيا بالوحل. هيا، أضفني الى قائمة لوركا، وفابنتساروف، وأفتح أكثر من مليون فم ليبصق على تاريخك كل يوم.

العسكري: (يضطرب، ومن فرط إضطرابه يدور حول نفسه) لكن من أنت؟ ما فنك. (بجنون) من يكون هذا الجسد الشبيه بشجرة حور. من يكون هذا المنغولي الوجه حتى يضطرب الملوك من أجله؟ (بذهول وبلادة) هل أنت بتهوفن؟

نجنسكي: هل حقاً يستطيع من ينشغل بالفتك والبهيمية أن يفكر بالفن والفنان. (بسخرية) بتهوفن... أتركوا الآلهة التي تبرأت منكم بسلام. ما شأنكم، مع من أعطاكم كل الشرف وكل الكرامة.

العسكري: ألم يعد لنا كرامة أو شرف؟

نجنسكي: هل يحق لأحد أن يدعي الكرامة وهو يضع مشاريع تقوم على الدم؟ الكرامة والبهيمية ضدان (تسمع ضحكة ساخرة في الظلام).

العسكري: (بجنون) من الذي ضحك؟ (لا يتلقى جواباً. يكرر الجملة نفسها) أنهضوا جميعاً. (تسمع حركة نهوض. يسلط ضوء أصفر على وجوه وأجساد ذابلة خلف جدار عليه شعارات مكتوبة بحروف معوجة – تسقط النازية... النصر للشعوب. سننتصر رغم كل الدماء... يقترب العسكري من الرجل. يزيح نجنسكي بعيداً). حتى أنتم. سأقتلكم جميعاً إذا لم يعترف الصعلوك الذي أطلق الضحكة. (موسيقى خفيفة وحزينة جداً. يتقدم رجل نحيل طويل بخطوات قصيرة ويقف قبالة العسكري).

الرجل النحيل: أنا الذي ضحك.

العسكري: لماذا ضحكت؟

الرجل النحيل: (بصوت خافت، لكن بحقد) على الوحل الذي سقطتم فيه.

العسكري: (وهو غير مصدق نفسه) وأخيراً حشرة مثلك...

الرجل النحيل: علمتمونا الضحك.

العسكري: كيف تجرؤ على الضحك... بل هل تستطيع أن تضحك؟

الرجل الطويل: مرضت من الضحك.

العسكري: أنت آخر من يعرف الضحك.

الرجل النحيل: أقسم أعرف كيف، ولماذا أضحك أكثر منك.

العسكري: (بلهجة آمرة) أضحك.

الرجل النحيل: وهل يتم الضحك بمجرد بروز الأسنان، وإنفراج الشفتين.

العسكري: (بتعجب) كيف يتكلم هؤلاء؟ (لنفسه) كيف يكون الضحك إذن؟

الرجل النحيل: (يحدق في وجه العسكري) الضحك هو أن تهتز من الداخل.

العسكري: (لنفسه) شعراء حتى في الموت... شعراء في المأساة... شعراء تحت القنابل.

الرجل النحيل: الإنسان لا يحتاج الى ثقافة كي يعرف الضحك. أنا فلاح عادي.

العسكري: (بهستيرية) فلاح. مت إذن. (يطلق عليه ثلاث رصاصات. يسقط الرجل النحيل. صمت كثيف. يطلق رجل آخر ضحكة مدوية).

الرجل الثاني: (يشير الى جثة الرجل النحيل. كمن يفقد أعصابه) إنه يضحك، ميت ولكنه يضحك.

العسكري: (يتأمل وجه الرجل النحيل على الأرض) حقاً يضحك. (الى الرجل الثاني) وأنت! لماذا ضحكت؟

الرجل الثاني: (ما زال تحت تأثير الخوف) لأنه يضحك.

العسكري: هل تستطيع أن تموت أنت الآخر ضاحكاً؟

الرجل الثاني: (بخوف) كلا أرجوك.

العسكري: (بجنون) أضحك.

الرجل الثاني: ضحكت الآن.

العسكري: (يهم بإطلاق النار) إضحك. (يقترب نجنسكي بعصبية).

نجنسكي: كفى... أليس لديك تسلية غيرها. (تنتاب الرجل الثاني حالة رعب حقيقية، ويطلق لا شعورياً ضحكة قوية. يطلق العسكري عليه ثلاث رصاصات. يطلق نجنسكي زعيقاً، ويردد) لا...... لا...

(يتقلص الضوء الأصفر برفق، وتسمع أصوات ضحكات عالية وحزينة، وإطلاقات متتالية وسريعة. ظلام. نجنسكي في الغرفة على الأريكة يطلق ضحكات هيستيرية. تدخل رمولا، وهي تحمل قدحاً فيه ماء).

رمولا: (بخوف) لماذا تضحك؟ ما هذا الضحك؟

نجنسكي: (مستمراً في الضحك) رمولا... رمولا. (يقوم بحركات مجنونة) تصوريني ميتاً وفمي منفرج عن ضحكة رائعة.

رمولا: (بحيرة. تضع قدح الماء على المنضدة) فاسيلاف، وهل يضحك الميت؟

نجنسكي: أقسم بحبي الأبدي لكِ رأيت أشخاصاً ماتوا وأفواههم منفرجة عن أجمل الضحكات. أسمعي، سأحاول أن أقلد أحد أولئك الذين ماتوا بضحكة جميلة. (يعطي ظهره الى الجدار. وبحركات راقصة يجسد حالة الرمي، ويلقي بنفسه على الأرض ويضحك).

رمولا: (تصاب بخوف شديد) إنهض أيها العزيز إنهض.

نجنسكي: (مستمراً بالضحك وهو على الأرض) كان يضحك...

رمولا: ما هذا الضحك!

نجنسكي: (ينهض مستمراً في الضحك) قتلهم جميعاً... ماتوا وهم يضحكون. أتعرفين ماذا فعل العسكري عندما رآهم يضحكون؟ أطلق على نفسه رصاصة وسقط

الى جانبهم، لكن وجهه كان مقطباً.

رمولا: (بذهول) من!؟

نجنسكي: العسكري في فيّنا... (مستمراً في الضحك) واثق أنه كان يعاني من إنهيار حقيقي.

رمولا: تلك هي الغربة الحقيقية. (تنتاب نجنسكي حالة تشنج وهستيرية).

نجنسكي: أمسكيني يا رمولا... أحس كأن أيدي كثيرة تدحرجني. أحس كأنني أسقط في ظلام.

رمولا: آه، يا فاسيلاف خارت قواي أنا الأخرى.

فاسيلاف: لغتي تتدحرج. يداي تطيران مثل الأيدي التي بترتها شظايا القنابل. (يدور في الغرفة. يركض... يقفز... يترك الغرفة).

رمولا: أيها الصبر أين أجدك؟ يالسعادتي التي لم تدم أكثر من ساعات معه. فقد عقله. لكن سأبقى لصقه كمربية حتى ينتهي، أو أنتهي أنا قبله.(يدخل نجنسكي عارياً، ويقدم بخشوع مشهداً من رقصة بتروشكا، ثم يخرج. موسيقى حزينة من كمان). إذن فقد عقله. (تبكي) شاركوني في قتل ما كان السبب . هل رأيتم شمساً تموت في كبد السماء؟

ستِار

مجموعة قصص

سمكة جيلي

آه يا نفائسي التي عثرت عليها في غير أوانها

قبل أن أنهي محاضرتي عن رائعة الروائي الأنكليزي الشهير ديفيد هربت لورنس (المرأة التي تمردت)، رفعت رأسي وألقيت نظرة طويلة ودقيقة بإمتداد القاعة وجدتها لدهشتي الشديدة تضج بالنساء من مختلف الأعمار وهن يستمعن إليّ بخشوع وكأنهن يتدثرن بكلماتي، أن الأعمال الرائعة في كل الفنون لا تكشف عن نفسها بسهولة، لذا أن الأغريق كانوا يصلون للإله قائلين (ليُعَد كل ما هو جميل مرتين أو ثلاثا). وأنا ربما كنت موفقاً في الكشف عن دهاليز، وتعقيدات رائعة لورنس، سيما عن بطلتها وهي تعيش في أنبيق كراهيتها لحياتها الميتة في وئامٍ متنافر، كاذب، وكانت تعرف أنها كانت تحيا خارج نفسها... أسترسلت قائلاً:

أن الرمادي هو عدو كل الألوان، والحياة الرتيبة، هي حياة رمادية، والوعي المتنور لا يستطيع أن يتمرد على الحياة، ولا يمكن القبول بها على طريقة الصمت الفيثاغوري، أي القبول من غير جدل، وبطواعية عبودية بالأمر الواقع... فبطلة لورنس عبر وعيها أدركت أن كنز مشاعرها يضيع بل ينضب كل يوم، بل كل ساعة في ميكانيكية رتيبة، باردة، ميتة تلفها بإستمرار، مع كآبَة حارة، وحزن ناري لزج. ولكي تعيش حياتها الواحدة والثمينة حتى الثمالات الباقية تمردت... يقول الفيلسوف الألماني شوبنهاور(إمضِ وأطرق أبواب القبور وأطلب من الموتى أن يعودوا للحياة، إنهم سيهزون رؤوسهم رافضين) لم إذا، لا تحاول بطلة لورنس وهي بعد في الحياة وليست وراء أبواب القبر أن لا تكون في شمس وعرس الحياة وتعيش BRILLIANT SUBLINITY أي حياة التسامي المشرق... إذا كانت الأخلاق كما يقول أحد الشعراء الهم الأول لدى القديس، فبطلة لورنس لم تكن قديسة، إنما إنسانة جردتها الحياة الميكانيكية الميتة مع زوجٍ بليد، والثراء الأحمق، من أنسانيتها... عليه قررت أن تهرب الى حياة أخرى، الى حيث يعيش الهنود الحمر، الى الحرية، الى الحياة البدائية، الى الطقوس الوثنية، الى الطبيعة بتوناتها اللونية النقية، الى الهنود بفطرتهم، وتلقائيتهم، بألوانهم الأسود والأبيض، والأحمر والأصفر... هربت من بيتها الى هارموني من الألوان والبراءة... لقد

تعبت من الكذب على نفسها بعزاءات أفيونية... هربت... هربت... فلنصفق لهذه المسافرة الوجدانية، والثائرة على سراديب هواجسها، الباحثة عن الرياح المرحة، وعن بريق روحها... ولنصفق مرة أخرى لكل مسافرة متمردة ترغب بوعي عميق، وإرادة حرة أن تعيش حياتها بسعتها لكي لا تفقد ملكوتها الإنساني في هذه الحياة... والحرية، هي ألا تخجل من نفسك أبداً... أبداً... وشكراً.

***

ذات مساء وبعد حوالي شهر على إلقاء محاضرتي، كنت كعادتي في أماسي الصيف أجلس على واحدة من المصاطب الأسمنتية على كتف (خاصة صوي) وقفت إمرأة جميلة في حوالي الرابعة والأربعين من عمرها، لها شعر قصير ناعس، ترتدي تنورة سوداء، وقميصاً بلون الشذر... تقدمت مني بخطوات قصيرة. فغمت أنفي عندما أقتربت أكثر، رائحة عطر ناعسة ومثيرة... ألقت نظرة طويلة بإتجاهي من عينيها اللوزيتين الواسعتين. كانت رغم ظهور تجاعيد صغيرة تحت عينيها، جميلة مثل كأس خمر معتقه، وكل شيء فيها يوحي أنها من صفوة المجتمع. قالت بصوت ناعم رقيق: مساء الخير أستاذ أحمد العطار.

– مساء النور.

– لقد كانوا على صواب.

– صواب!! من هم؟

– أولئك الذين أكدوا لي أنك تجلس فوق هذه المصطبة بالذات ثلاث مرات في الأسبوع، وتروح في تأملاتك... هل أستطيع أن آخذ دقائق من وقتك؟

– طبعاً... تفضلي (جلَست). هنا يا سيدتي أما أكون لوحدي، أو أبحث عن رفقة جيدة، آملُ أن تكون رفقتكِ جيدة.

– هل لديك شروط للرفقة مثلاً؟

– أقلها أن تعرف، أو يعرف كيف يشاركني جوانب الحياة...

– أوه، أعتقد أن هذا الطلب سهل.

– جميل... أنا يا سيدتي أنفر نفوراً شديداً أن يضع الرجل أو تضع المرأة نفسها معي في شبكة من الألغاز ، والأسرار... أنا في الستين من عمري، وشعاري، هو، عليّ أن أحصل على كفاية من الفرح...

– آه... الفرح... الفرح... إنه إذاً ضروري بالنسبةِ لك؟

– جداً... جداً... دعيني يا سيدتي أذكركِ بصراخ ذلك الأغريقي العظيم سقراط (يا كريون الحياة مرض... إذاً الفرح ضروري).

– أستاذ أحمد بصراحة لقد تأثرت في محاضرتك كثيراً، بل زلزلت حياتي... لذا قررت أن ألتقي بك.

– وها أنتِ الآن معي...

– أنا الأخرى إريد أن أغير حياتي، مصيري...

– وتتركين زوجكِ، وأطفالكِ مثل بطلة لورنس؟؟

– لا زوج لي ولا أطفال.

– أأنتِ عذراء؟

– لا... مات زوجي منذ سنوات وترك لي ثروة كبيرة... لكنني أعيش كما قلت في محاضرتك حياة رمادية... منذ شهر وكلماتك النارية ترن في أذني، وفي ذهني... أنا الأخرى أعيش حياةً ميتة، أكره نفسي، وإرادتي المتلعثمة حيال مسائل كبيرة. آه، أما بعد المحاضرة أشعر أنني إنسانة الحب... أجل لقد قلت أشياء رائعة، وحقيقية جداً.

– حسناً، ما المطلوب مني يا سيدتي؟

أجابتني بجرأة غريبة ولا متوقعة البتة، إذا كانت بطلة لورنس هربت الى الهنود الحمر لتعيش كما قلت تونات لونية من الحب، والبراءة مع بشر أنقياء رغم مصيرها الدرامي والحزين جداً في النهاية، أما أنا فأريد أن أكون صديقة لك وأعيش في تسامٍ مشرق، وهذه الكلمة لفظتها باللغة الأنكليزية أثناء محاضرتك... أستاذ أحمد لقد وصلت عبر منولوغ حار وطويل بل مع نفسي خلال الأسبوع المنصرم الى قناعة أنني لن أسمو كما أشاء فكرياً، نفسياً، روحياً، وعلى نحوٍ طبيعي وجيد في سنوات عمري الباقية إلا معك... أجل إلا معك... معك سأنمو مثل نبات الأس البري الشائك الدائم الخضرة... وأعرف أيضاً أنك وحيد كما أنا...

– كم عمرك؟

– في منتصف أربعينياتي...

– هل تقرأين الكتب؟

– بهوس.

– رائع.

– هل توافق أن أكون صديقة؟

– هاهاهاها... ألا تعتقدين أنكِ ما زلتِ شابة الى حدٍ ما، وبحاجة الى رجل من نفس عمركِ؟

– رجل من نفس عمري ومثل زوج بطلة لورنس، غبي وبليد.

– هل جربتِ الحب بعد وفاة زوجك؟

– حاولت... بصراحة لم أجد واحداً يعرف ما هو الحب.

– آه، لا يعرفون الحب، كيف كانوا ينظرون للحب؟

– كانوا يرون في الحب عبودية.

– عبودية؟ وأنتِ كيف ترين الحب؟

– حسناً... بالنسبة لي الحب صحراء... كل الأشياء الصغيرة بدءاً من الغيرة التافهة، وشهوة الحب، والتملك الأخرق لا تحتل في هذه الصحراء سوى مواقع صغيرة...

– لا غرابة أن محاضرتي أثرت فيكِ...

– بل هزتني سيما بعد قرأتي لها في المجلة... صدقني معك وحدك سأتعلم الكثير... إن الحب حقول شاسعة كما كتبت ذات مرة...

نظرتُ الى عينيها طويلاً... ران وميض الحب والإعجاب، والإندهاش فيها... الحب فعلاً له لون خاص، لون تعرفه الروح وتجسد له... قلت لها: بيننا يا سيدتي خمس عشرة سنة فارقٌ في العمر.

– كانت سنوات الفرق بين جوته وعشيقته الأخيرة أكثر من أربعين سنة. السنوات لا تعني أي شيء إطلاقاً بالنسبة لي، وحتماً بالنسبة لك أيضاً... أنا واثقة أنك ستعيد صياغتي من جديد، وستغرس في وعيي الكثير من الذكريات، من الصدق، من الشجاعة، من يدري ربما من الرياء أيضاً. هاهاهاها... أستاذ أحمد، أما أن أكون صديقة حقيقية لك، أو أنت لست حقيقياً بكلماتك البركانية، وأفكارك وتحليلك الناري لبطلة لورنس...

– سيدتي... سيدتي المحترمة، أنتِ تعرفين أنني منصرف الى عالمي الأدبي، وهو، عالمٌ متعب جداً... ونحن الكتاب نقول: على عاتق الفنان يقع إستكمال عمل الخالق... أنا دائم الهروب من نفسي...

– أما أنا فلن آخذ إلا الفائض من وقتك. الوقت الذي تتنازل عنه فقط...

ألقيت نظرة أخرى الى وجهها الجميل، والى شعرها الناعم القصير، وعينيها اللوزيتين... الآن أقتنعت أن الأدب أشبه بالبطلة الراسينية (نسبة للكتاب المسرحي راسين) التي تموت حين تعرف نفسها، وتحيا حين تبحث عن نفسها.. هذه الانسانة الآن بالضبط مثل البطلة الراسينية تريد ان تحيا بالبحث عن نفسها. فهي، تستلم منذ أن إستمعت الى محاضرتي، نداءات حارة من جميع أقطاب جسدها، فكرها، روحها، مشاعرها، بحثاً عن نفسها مروراً بي أنا... قلت:

– سيدتي، هل تعلمين أن الكاتب أحياناً مزور؟؟

– ربما مزور ذكي... وعاقل جداً...

– وهو كذاب أحياناً؟

– نعم لكنه كذاب صادق جداً.

– إنه يهذي، ويتلاعب بالكلمات.

– أجل... أجل، يفعل ذلك بسبب روعة خياله.

– أنتِ إمرأة جد صادقة وطيبة.

– لا تثق كثيراً بالمرأة... لا توجد إمرأة طيبة جداً جداً.

– هاها... أعرف... أعرف... مع ذلك ننخدع نحن الرجال بمظاهرهن من الخارج... هاها.

– هذا صحيح... آه، يا أستاذ أحمد، نحن النساء أحياناً عدم، حمقاوات... حسناً فعلت ولم تتزوج...

– أجل هربت منه بطريقة شيطانية...

– كنتَ ذكياً... ولكن كيف عشت من غير إمرأة...؟

– العواطف المكبوتة على ضوء علم النفس لا تتلاشى أبداً... إنها تخزن في القلب وتبقى تحترق دون لهب، وبالتالي تؤدي الى خطيئة...

– لا أفهمك جيداً.

– تزورني عندما يبدأ اللهب إما صديقة، أو عاهرة، أو معجبة...

– وفي الستين من عمرك ألا تشعر بالكآبة؟

– إن التقدم في العمر يا عزيزتي لا يجلب أمراض الشيخوخة وحسب، بل حالة من

الإكتئاب، والهلوسة، والوجوم، الشيخوخة عالمٌ موجع...

– لكنك ما زلت قوياً، ووسيماً، وحيوياً... في هذا العمر كيف ترى المرأة؟

– أوه... أراها كخيال، كحلم.

– ألم تحب إمرأة واحدة أبداً؟

– بل أنصافاً، كنت من أجل الكتابة مصاباً بمرض الإنشغال في البحث عنهن... كنت منهمكاً بالإغواء، والإغراء معهن.

– يا إلهي، إذاً عرفت الكثيرات منهن.

– لالالا... على الورق يا عزيزتي، وفي الخيال، وفي الكتب.

أطلقت ضحكة حلوة، وهي تربت على كتفي بحنان. إن جمال هذه المرأة الأربعينية يصدع شيئاً رفيعاً في المشاعر... إن كل شيء حالياً، وقد أكون على خطأ، يوحي لي أنها تمتلك مشاعر رقيقة، وصادقة، وأحاسيس بلورية، ثمة نساء بسبب صفات معينة فيهن يمكن للإنسان الحساس أن يرى شعاعاً في داخلهن.

قالت: كم ساعة تجلس هنا؟

– ساعتان أو أكثر... أخذنا الحديث... حان وقت العودة...

– هل تسمح لي أن أدعوك بعد أسبوع في مثل هذا اليوم مساءاً للعشاء؟

– لِمَ لا... لكن لي شرط واحد فقط.

– طلباتك أمر.

– أحتاج لأكثر من كأس من الويسكي، أو العرق.

– طلب بسيط... الآن أعطني يدك.

أعطيتها يدي، نهضنا معاً، سرنا بإمتداد الكورنيش، تأملنا النوارس وهي تتموج في المساء الشفيف تطلق زغاريدها في إحتفالية تفهمها هي وحدها. قالت: ركنت سيارتي في تلك الفسحة، سآخذك أنا الى بيتك... متى تريدني أن أجيء لأخذك؟

في الثامنة... وعدتني بحرارة. قلت مع نفسي وأنا أفتح الباب وأدخل البيت، يقول كونفوشيوس: الشيخوخة تعني التحرر من الحيرة، وهذه الإنسانة الرائعة جاءَت من حيث لا أدري لتخلق لي الحيرة... ثم ماذا! مرحباً بالحيرة...

***

ففي الليل أصبحت معتقلاً رغماً عني لشعور حار ولزج، وجو عميق، وأحاسيس

غامضة مستبطنة، وأحلام إنسيابية لا يمكن الإمساك بها... أحلام، أحلام راحت تتالي بطريقة إحتدامية. إمرأة بمنتصف الأربعينيات هزتها محاضرتي، وزرعت شجاعة حادة فيها... إلهي، إنها تمتلك نفس النضارة الناعمة التي تتمتع بها العذراوات اليانعات، وتصر بحرارة على صداقة رجل ستيني... إنها تريد أن تحيا حياة مشحونة بالحياة معي أنا... تذكرت كلمات الروائي الياباني شاسيكو آندو (في شبابنا نحيا بأجسادنا، وفي مرحلة النضج بأفكارنا، وفي الشيخوخة بعقولنا التي تنهمك في الإعداد الى الحياة القادمة)... مرحباً بالأحاسيس المشعة.

***

بعد أسبوع وفي اليوم والوقت جاءت، كانت مليئة بالبهجة، وعيناها تشتعلان ككرتين... عينان واسعتان بياضهما بلون الثلج الجبلي... جلست الى جانبها... قبل أن تشغل المحرك طبعت قُبّلة صغيرة، على خدي، ثم أردفتها بثانية أكثر حرارة، وما أن حركت السيارة طبعت قُبلة ثالثة على عنقي... قلت مداعباً: هل تؤمنين أن هناك أنواع من القُبل؟ أجابت: لا لا... القُبلة هي القُبلة. أطلقت ضحكة حلوة وهي تقول: أنت الأعزب، البعيد عن عالم النساء مثل الألماني نيتشة تفهم في أنواع القُبل، ها ها... لا أصدق، قلت: يقول شاعر إسباني لا يحضرني إسمه، القُبّل أنواع... هناك القُبّل الأوفيدية، والقُبل السافوية، والقُبّل السماوية الأغريقية اللاتينية العذبة، وهناك قُبل حرمتها محاكم التفتيش، والقُبّل المصطلية بلظى جهنم، والقُبّل التي تنهض في روح الراهب. آه يا عزيزتي هناك قُبل وقُبل...

– حسناً وقُبلاتي الثلاث كانت من أي نوع؟

– أوه، كانت مزيجاً من الأوفيدية، والسافوية، والسماوية.

تجولنا لنصف ساعة في عدد من شوارع المدينة... وصلنا البيت، جاءت خادمة سمراء جميلة تهرول على صوت بوق السيارة. بيتٌ فخم، كل شيء ينم عن ثراء عريض، وذوق رفيع... أخذتني الى صالون واسع تموج فيه رائحة عطر تريح الأعصاب. أثاث فخم، لوحات مطبوعة لفان كوخ، وأخرى حقيقية لعطا صبري، وضياء العزاوي. ثمة مكتبة مليئة بكتب مجلدة... جلست قبالتي على مبعدة عدة أمتار. لا أعرف لماذا كنت مرتبكاً قليلاً ربما بسبب نظرات هذه المرأة الحالمة التي راحت تحدث حالة من الأغماء اللذيذ في داخلي. لقد أصبحت جريئة، حارة. قالت: لماذا أنت ساهم، سارح؟ منظرك يوحي

كما لو أنك تستمع الى أصوات بعيدة جداً...

– لالا... يا عزيزتي... كنت لا إرادياً أفكر في الفرق بين الثراء والفقر...

– حقاً! هاها... وما الفرق بينهما في نظرك؟

– الثراء يوحي بثقة غريبة، أما الفقر، يا إلهي، بالتخاذل.

– حقاً؟ لماذا؟

– لا أعرف بالضبط... هكذا أشعر الآن...

– بل يجب أن تشعر العكس تماماً... أنت الذي زلزلت أفكاري، لست ثرياً لكنك أكثر ثقة بالنفس مني، المتخاذلة الحقيقية هي أنا... أنا الذي أيقظت عقلها محاضرتك الرائعة. ثق أنت أثرى مني بكثير... أوه، الآن دعني أحضر لك طلباتك... أعرف أنك تحب الخمر، وأنك لا تنطلق، وهذه للمناسبة معلومة همسها في أذني صديق يعرف جوانب من أسرارك البريئة، لو لم تشرب ثلاث كؤوس وتستمع الى مقطوعات موسيقية دافئة... قلت مع نفسي: حتماً سأحتاج الى زمن لأعرف هذه المرأة، وأن هي بسبب إعجابها الشديد بي تكشف نفسها لي ببراءة وحب شديدين...

غادرت غرفة الجلوس، وعادت بعد ربع ساعة تدفع عربة بلون الفضة عليها مواعين مليئة بصنوف الأكلات، والمازات، والمقبلات. قالت وهي تسلمني ويسكي: تصرف كما تشاء... صببت لنفسي كأساً. أخذت حسوة. قالت بعد أن صبت لنفسها كأساً من شراب الفيرموث الحلو والمحلى بقليل من السكر: ألا تعتقد أنك مخيف بعض الشيء...

– نعن، نعم.

– لماذا؟

– صدقيني من الإفراط في الحياة، الحياة التي أحسها وأعيشها... آه... حياة أوسع من طاقاتي... VITA FEMINAهاهاهاها... هذه الكلمات للألماني نيتشة، تعني (الحياة إمرأة).

– ألا تعتقد أنك بحاجة الى هدنة مع نفسك؟ وتعيش معي هنا؟

– لا ات... أتعرفين ماذا يفعل الثراء؟

– ماذا؟

– حسناً، أنه يخلق حالة من الأبيقورية حتى عند الساذج فيجعله يعيش مثل الآلهة... هاهاهاها. آه لكم أبدو متناقضاً أحياناً.

– لكن الثري لا يعير أي إهتمام للقيم العظيمة! هكذا كان زوجي... لم أره يوماً يؤمن بقيمة إنسانية عظيمة.

– أي وحق السماء أنتِ على صواب...

– والثري العديم الثقافة يعيش كأحمق، كاد يأخذني في دوامات حماقته...

أخذت عدة حسوات من الفير موت وأطلقت آهة حارة وهي تقول: كان زوجي يريدني أن أعيش بعقلية القطيع. لالا... حياتي الوحيدة سأعيشها بتمرد... بهووس عاشقة مجنونة، وستكون أنت، نعم أنت رباني. لقد سرق زوجي خمس عشرة سنة من شبابي في جو قطيعي... لكن ما زال ثمة متسع... الحياة الحقيقية ليست بعدد السنوات! لالا. بل بالعمق، بالحب... نهضت وجلست لصقي... قبلتني وهي تردد بحرارة: هذه أوفيدية، وهذه سماوية، وهذه أغريقية...

إن قوة كثيفة لذيذة، حيوية تنبعث من المرأة الجميلة المتحررة، يستسلم الإنسان لها مثل وهج مهيمن ويندفع إليها بتلهف شديد كما لو قوة مغناطيسية تجذبه... أسترسلت: أسمعني يا عزيزي أحمد لقد بدأت أميل لك بقوة. صدقني إذا أمرتني ذات يوم أن أفرض على نفسي التقشف القاسي، أن أتناول حبة رز واحدة في اليوم على طريقة بوذا، سأفعل...

– لماذا؟

– لأنني بحاجة الى حبك... بحاجة أن أكون معك... لأنني معك أكون في الآن... الآن... بلا ماضٍ رمادي، ولا ذكريات أسيدية حارقة، تماماً مثل حيوان سعيد. علمني تعذيب الجسد قهره، توتيره، تهيجه... علمني أن أنتصر... أريد أن أكون متفوقة... أريد أن أقول لا في أصعب المواقف، وكذلك نعم في أخطر المواقف.

– حسناً... حسناً... الآن أسمعيني المزيد من الموسيقى الدافئة. تدفقت قطعة موسيقية مثيرة.

– قبل وفاة زوجك ماذا كنت تعلمين في هذا البيت الكبير!

– أعيش مثل سمكة الجيلي.

– سمكة الجيلي؟ لا أعرف أي شيء من هذه السمكة!

– سمكة جيلي البطيئة تعيش في أعماق البحار، وتتعلق ببعض الأعشاب البحرية في القاع وتظل هناك ملتصقة بها طيلة حياتها لا تتحرك بوصة واحدة... هكذا كنت أنا في

هذا البيت... أقرأ كل يوم لساعات، أرسم بين الحين والآخر، ويسخر مني زوجي ومن لوحاتي، أو أستمع الى الموسيقى، وأنا للمناسبة شديدة الحب لكانتات الموسيقار باخ، وأكتب رسائل الى شقيقتي التي تعيش مع زوجها السفير في أوغندا في أفريقيا، أو أتجول مع خادمتي الطيبة التي ستتزوج قريباً...

صببت كأساً ثانية. نهضت، أطلقت آهة حارة وراحت تذرع الصالون بخطوات قصيرة، وتأخذ بين الحين والآخر رشفة من سائل الفيرموث... تأملتها بعمق وهي تمشي... ثمة وجوه، وأجساد لا يمكن أن تكشف عن داخل أصحابها وهي في حالة سكون، بل في الحركة... محاضرتي التي قرأتها وبعد الإستماع إليها خلقت عندها أحلام، ومشاريع كثيرة راحت تميس في رأسها كما تميس سنابل القمح في الحقل الساكن وهي تعرض لي جوانب من مشاريعها، وحبها، وقلبها بطواعية... إنها تريد أن تبدأ معي غرام ربيعٍ جديد، تذكرني بغراميات مبدعين عظام بدأوا الحب العنيف بعد الستينات من أعمارهم جوته، غويا، هوغو... ياإلهي، ترى كيف ستخب بنا الأيام معاً؟ بماذا سأشعر معها؟ عشاق الحياة يقولون: أعطوا لنا مزيداً من الحياة الحقيقية، والبهجة على السنين... لا... لن أدعها بعد اليوم أن تكون سمكة جيلي... وأحاول أن أخفف ما أستطيع من تهجدات قلب رائع يعتصره الحزن، وتأكله التعاسة، قلت لها أسميكِ بعد الآن –جيلي– أجابت من خلال إبتسامة عذبة:

– جيلي... جيلي... كنت فعلاً سمكة جيلي، وأنت جئت لتحررني من الأعشاب التي طوتني... قالت هذه الكلمات برقة شديدة، وترف في عينيها اللوزيتين نغمة رقيقة من النداءات الحارة... صببت لنفسي كأساً ثالثة وصبت هي الأخرى كأساً من الفيرموث ذات الرائحة الطيبة الشبيهة وبرائحة الخوخ الناضج. أشرت لها أن تجلس بجانبي. لبت طلبي فوراً... إستعذبت كثيراً المقطوعة الموسيقية الجديدة، والصمت الذي راح يلف البيت وهذا الجانب من المدينة، والصمت الذي راح يلف البيت وهذا الجانب من المدينة، ورائحة العطر الذي لا أعرف له إسماً ظلّت تفوح من قميص جيلي... جلست لصقي تماماً. كانت أضواء مصابيح الثريا التي تتدلى من السقف ترسم على وجهها الجميل إمارات حانية... مشطت بأصابعي شعرها القصير الناعم مرات عديدة... إلتفتت إليّ وإبتسمت في هيام وذهول... كانت النشوة تفيض في كل بوصة من جسدها... رفعت يدها، وأرادت أن تتكلم غير أن أصابعها إرتفعت ونامت على شفتيها. قلت: هل كنتِ

تريدين أن تقولي شيئاً؟

– لالا... إنني سعيدة وأنا أرنو إليك بتلهف تماماً كما كنت أرنو إليك بحرارة وأنت تلقي محاضرتك الرائعة عن بطلة لورنس...

ركزت بصري على عينيها، يا إلهي، أهما نجمان... هما كذلك. إنهما جوهرتان تلمعان، وتضيئان سماء روحي...

– أحمد أنني غير مصدقة نفسي وأنا متكئة عليك... فجأة أطلقت ضحكة غريبة متهورة بل هستيرية سرعان ما أنقلبت الى بكاء حار وعانقتني بحرارة وراحت تختض وهي تشهق... تركتها تبكي بحرية، وأكتفيت بتمشيط شعرها بأصابعي... قالت من خلال شهقات سريعة: كم أنت تسمو بي. كلمني... أسمعني كلماتك الشعرية القوية... لقد هربت إليك. لا تدع عواطفي أن تخونني... لالا... أن حدسي الأنثوي لن يخونني، أبداً... أبداً... أنت إنسان رائع... وراحت تمطر وجهي، وشفتي بقبلات نارية وهي تردد: إن سعادتنا نحن النساء يا أحمد تأتي من الرجال الحقيقين. ترى من أين تأتي سعادة الرجال؟؟ قلت ملاطفاً : تأتي من أنفسهم.

تناولت وجبة عشاء جيدة أثقلت سوية مع كؤوس الويسكي جفوني. قلت: جيلي أنا الآن بحاجة لأكثر من ساعتين نوم عميق... قالت: أعرف... أعطني يدك... ثمة غرفة صغيرة وجميلة فيها سرير مريح تستطيع أن تنام والغرفة من الآن لك تستطيع أن تستخدمها متى تشاء... كانت فعلاً غرفة نوم صغيرة أرضيتها مفروشة بسجاد نقش عليه صورة فتاة نصف عارية تعزف على العود وثمة زنجي يحمل بيديه صينية مليئة بأنواع الفواكه ويحدق بتلهف الى الفتاة، أشارت الى سرير واسع زينته وسادتان بلون الحليب... وثمة مرآة بأطار مذهب رأيت فيها وجهي محمراً من فرط الشرب. رتبت لي الوسادة وغطتني ببطانية ناعمة وإنسحبت على رؤوس أصابعها، وأستسلمت لنوم هانيء وعميق...

بعد ثلاث ساعات من النوم العميق أفقت ووجدتها عارية لصقي تحت البطانية. عانقتني وقبلتني بحرارة وهي تقول أثر كل قبلة: هذه أوفيدية، وهذه سافوية... قبلتها أنا الآخر بحرارة... وبعد أن مارسنا الحب بحرارة قالت بصوت دافيء: أحبك... أحبك الى درجة غير مستعدة أن أتنازل عن هم واحد مهما يكن موجعاً، حاداً، حارقاً... أتقبل كل أنواع العذاب شرط أن تكون أنت مصدره.

قلت وأنا أمرر يدي فوق جلد بطنها الذي بنعومة المخمل، وفوق نهديها السائبين: أوليس كل هذا يشبه الحلم... كيف تلاحقت هذه الأحداث السينمائية... وتدفقت قصيدة الأسباني رفائيك البرتي في ذهني ورحت أرددها وأنا أعصر برفق نهدها:

أيها الحب الغامض، الصامت، المتكتم.

أيها الواضح في العتمة... أيها الحب.

يا حباً لا يعرف السكينة...

نهضت جيلي برشاقة ضبية وفتحت مصباحاً كامد الضوء، إرتدت بيجامة من الحرير الأزرق، ثم أشعلت مصابيح الغرفة كلها. نظرت الى شعرها الكحلي القصير الناعم. الى كتفيها العاريتين المستديرتين، وأنا أردد مع نفسي: تعلمت في علم النفس أن ما من فعل يكون لا إرادياً... هل حقاً هذا الإندفاع من إمرأة ناضجة عاطفياً، ومثقفة وثرية، إرادية؟...

قلت: جيلي. أجابتني بهمس مثل المخمور: نعم... نعم.

– أتعرفين إنك لم تنمي في الرحم.

– هاهاهاها... وأين عسانا نموت يا حبيبي!

– يا إلهي، كل شيء فيكِ يدّل على أنكِ مثل أفروديت ولدتِ في محارة كبيرة. كما يولد اللؤلؤ... ولهذا أنك لؤلؤة... حقيقية...

– لكم تجيد من أستعمال الكلمات بروعة يا عزيزي. أنت فعلاً فنان تنميق الكلمات...

– لأجلكِ وفي هذا العمر أعمل المستحيل.

– لكن المستحيل صعب.

– بل لن أتأخر عن إطفاء الشمس من أجلكِ.

– لماذا الشمس بالذات؟

– المستحيل يا عزيزتي.

– معك تبدأ مغامرتي، قناعتي، إرادتي. كل شيء معك حالياً، وغداً. شيءٌ أخير، عليك أن تحترم إرادتي كما أحترم إرادتك.

– إرادتكِ مقدسة يا جيلي.

– سأبقى عاشقة كل شيء فيك.

– لكن حذارِ...

– حذارِ من ماذا؟

– من أن تكوني عبدة...

– لن تعرف لا قوة إرادتي، ولا صلابتي عند الضرورة.

***

رحنا معظم الليالي نخرج في نزهة بسيارتها.

إنقطعت عن زيارتي قرابة أسبوع. حضرت فجأة الى البيت كما تفعل عادة لأنها تعرف أنني أحب أن أباغت. كانت متعبة وثمة إنتفاخ تحت عينيها، ونظراتها الذابلة وبشرتها اللاهثة البياض بلون العاج... قلت: ماذا حدث يا عزيزتي. أجابتني بصوت هادىء: قبل أيام هاجت عليّ كليتي ورأيت الموت الحقيقي، وكنت لا إرادياً أصرخ بأسمك... كان ألماً خرافياً ذاك الذي هاجمني... قلت: إذهبي الى البيت وإرتاحي... أجابتني بصوت دامع: لالالا... معك أرتاح أكثر وأنسى نفسي. لا عليك... كان الإنفعال يمزق صوتها ، وثمة ألم أبكم في عينيها... قبلتها فوق خدها عدة مرات... إبتسمت وعانقتني وهي تقول: لاحظ قُبّلة وعناق، وعدة كلمات. يا إلهي لم هذه الأشياء الصغيرة تصعد عندنا هذا القدر من الراحة النفسية والحب...

– طبعاً يا عزيزتي... أنا الآخر بعد قلقٍ شديد عليكِ راحت الآن تجتاحني ومضات من الفرح تشيع حالة من الطمأنينة اللذيذة في أعماقي... بعد أيام إسترجعت كامل صحتها. خرجنا كالعادة للنزهة، لاحظت أنها بدأت تسوق بتهور.

قلت: هل ثمة ضرورة لهذه السرعة الجنونية.

– هذه الأيام عندما أشعر بفرح أتهور. لقد أشعت قبل قليل ونحن في البيت عاصفة من العواطف الحارة، والنزق الجنسي فيّ... صدقني الآن، الآن لو مُتُّ لما ندمت لحُيظة... ثمة ساعات يا عزيزي تشعر كما لو تتجمع فيها أفراح سنوات عديدة... هل تفهمني؟ ما رأيك أن نموت معاً هذه الليلة؟ والآن؟

أوقفت السيارة. كنا خارج المدينة. أضاءت المصباح في سقف السيارة لترى وقع كلماتها في عيني ووجهي. كان وجهها يضج بفرح جنوني بل كل شيء فيها كإنسانة متأججة يلتمع برجاءٍ بهيج للقيام بمغامرة جنونية وإنتحارية... قالت بصوت فيه رنّة من السخرية اللذيذة: أراك خائفاً!

قلت بصوت بارد: أتعرفين ما الفرق بيني وبينك في هكذا مواقف؟

– ماذا؟

– في هكذا مواقف تتصرفين أنتِ بقوة أقوى أنوا ع المشاعر مثل بطلة لورنس عندما أحرقها الهنود الحمر، ولم تطلق آهة واحدة... أما أنا فأكثر حقائقي إلتهاباً تبقى ساكنة... أجل يا جيلي، إن الفرح شيءٌ قاسي ووحشي أحياناً.

– ربما... ربما... لكن ما رأيك أن نموت معاً؟ أريد أن أصدم السيارة بعمود كهرباء، أو بجدار.

– إفعلي ما يحلو لكِ.

وأمطرت وجهي بقبلات مؤكدة قُبلة أثره قُبلة، أن هذه القُبل سماوية. شعرت بملوحة دموعها على أشلة لساني، لا أعرف لماذا كانت تبكي بصمت...

***

بعد مضي أكثر من سنة على صداقتنا، وحبنا، ومشاعرنا راحت تتمتن كل يوم على نحو درامي، ذات مساء كنا في السرير، قالت بعد أن تهيجت:

– أعترف... أجل أعترف أنك فعلاً تجيد قراءة الجسد.

– من خلال إنفعال جمالي. أليس كذلك؟

– هنا تكمن روعتك كرجل، ولا بد أن أعترف أنك شهوي غير مبتذل.

– كيف؟

– يدك... يدك، يا إلهي، خبيرة على نحوٍ غريب.

– خبيرة بماذا؟

– إنها تعرف بذكاء جغرافية إيروسيتي...

أضاءت كعادتها عندما نتغازل ضوءاً خافتاً بلون الكرز. تأملت وجهها المشرق الملتهب بالحب والشهوة والفرح، منذ سنة وأن ألمس في هذه المرأة الجرأة، والإقدام، والصدق الشديد مع النفس ومعي، والتماسك المتين في الأعصاب، هذه الإنسانة التي عاشت ثلاثة عقود من حياتها مثل سمكة جيلي في كنف زوج ثري وفاشل، وتغيرت عبر واحدة من محاضراتي وأفكاري تذكرني بالمتصوف الألماني (يعقوب بوخمه) الذي قال (رأيت في دقائق منظراً غير كل حياتي الى الأبد). وهذه الإنسانة أصبحت عالماً غريباً، لقد أصبحت صلبة مثل ماسة معقولة، وحرة في قراراتها على نحوٍ مُذهل... ثمة نساء قليلات يمكن أن يقتنع بها العقل المتنور كشيء مطلق... هذه المرأة فعلاً لا تصلح

للزواج، لأنها تذهب من أجل حب حقيقي، أو مغامرة فكرية، أو روحية، أو من أجل البحث عن مجهول مثير تذهب كل مذهب... والغريب جداً، إنها تبدو للوهلة الأولى هادئة، باردة، متحفظة، لكنها في الحقيقة مثل نساء دستويفسكي تنفجر تأججاً، حماسة، عنفاً، نزقاً، بل وعدماً... لم أعرف في حياتي إمرأة إلا وتحب الإستحواذ على الرجل، والحب لنفسها وبطريقة من الإنانية المقيتة، وتحاول أن تمتلكه الى درجة تفقده. حريته، ولا تريده أن يعرف أية إمرأة في الدنيا سواها، وتريد أن تتصرف مثل ملكة النحل التي يعتمد عليها الجميع... آه، جيلي وحدها بعيدة جداً عن هذه الصفات بل وتحتقرها. سنة كاملة وأنا أعيش مع حواس مرحة... ولأول مرة عرفت السعادة مع المرأة.

***

غابت جيلي أكثر من شهر، وعبثاً حاولت أن أعرف أين هيّ، سيما وأن خادمتها السمراء قد تزوجت ورحلت الى مدينة في الجنوب... ولأنني أدمنت عليها بقوة أصبت لا إرادياً بكآبة وحزن لزجين... فجأة ظهرت مثل شبح... كان وهج جمالها يرعش القلب ويضبب البصر... تجولنا في المدينة. أعطتني رسالة ورجتني بحرارة أن أقرأها في البيت. وضعت الرسالة في جيبي. قالت:

– أحمد، ترى متى تعتقد تكون حرية الروح ممكنة تماماً؟

– لم هذا السؤال الصعب يا جيلي! بصراحة لا أعرف لكن أتصور عند التخلي جذرياً عن كل سلطان زمني.

– أحسنت... أحسنت... إذاً أنت تؤمن أن الحب النقي جداً يتوافق مع الحرية.

– أجل... سيما الحب الحر... بين البشر...

قبلتني بهستيرية مرات عديدة وهي تطلق بين قبلة وأخرى: هذه أوفيدية، سافوية، سماوية، أغريقية، وأخيراً لنخترع قبلة كركوكية، وذاق لساني وللمرة الثانية منذ أن عرفتها قبل سنة ملوحة دموعها، أعطتني يدها التي لدهشتي كانت ترتعش... نزلت من السيارة، وإنطلقت هي بسرعة مجنونة.

***

فتحت الرسالة. وجدت في المظروف صكاً بمبلغ كبير، والرسالة تقول:

«حبيبي أحمد العطار. ذات مرة سألتك ككاتب ماذا تريد وتتمنى للإنسان في المطاف

الأخير، أجبتني: الإنتصار... الإنتصار المطلق على القوة المطلقة. وأنا كإنسانة مطلقة ومنتصرة راحلة الى مكان مجهول في أفريقيا. بعد أن أبقى مع أختي في أوغندا عدة أيام من المحتمل جداً أن أذهب بعيداً مثل بطلة لورنس، بعيداً الى سراديب غابات أفريقيا لأعيش مع واحدة من القبائل، مع القرود والأفاعي، أو مع زنجي جميل... راحلة أنا مثل الأوز الرمادي قبل أن يتعاظم سيطرتك عليّ، أو تتعاظم سيطرتي عليك... لقد كان الشاعر الإنكليزي الجميل شيللي على صواب عندما قال (أن السيطرة مثل الوباء الجارف تلوث كل ما يلمسه) يا حبيبي أحمد وداعاً».

تنهدت بعمق، وبكيت بحرارة. نهضت مثل السكران. أزحت ستارة النافذة، رأيت غيوماً قطنية تتحرك بإيقاع إحتفالي بطيء في السماء اللازوردية، وهي، تتجول تحت شمس عسلية لصباح خريفي... مرّ سرب من الأوز الرمادي في تشكيلة هندسية... ترى الى أين يذهب هذا السرب... الى أفريقيا...

بعد ذهاب جيلي الأبدي بعدة أشهر، ورغم برودة الجو، ذهبت لأقضي نصف ساعة على كتف (خاصة صوي) عبثاً أحلم مثل رومانسي أن أرى جيلي مرة أخرى... من يدري قد تأتي كشبح، كحلم، كطيف يرتفع من النهر، أو تطل من القلعة مثل بجعة أسطورية وتطير بإتجاهي. من فرط تفكيري بها رأيتها كما نرى اللامعقول في الأحلام... آه... الأحلام مملكة اللامنطق... فجأة وقفت أمامي. كانت داكنة السمرة، بل أميل للسواد. قالت: جئت لأقدم لك رقصة وأغنية أفريقية جميلة، يغنيها الرجال في الحفلات على إيقاع الراقصات. وراحت تغني(*):

هي ممتلئة مثل القمح
هي عطرة مثل العشب الجديد
هي ترقص مثل الشجرة
هي تهتز مثل الأوراك الجديدة

فجأة إختفت. يا إلهي، بصدفة لا منطقية عرفتها، وبصدفة لا منطقية هجرتني كما هجرت بطلة لورنس... لكنني خلال أكثر من ستين سنة من عمري لأول مرّة سنة واحدة

(*) مقطع من قصيدة الشاعر الكوبي (گار ثيلاسودي بيگا) توفي في زهرة شبابه أثر وقوع حجر على رأسه أثناء الحرب.

عشت كسرة من الحياة الحافلة، الضاجة المليئة بالفرح بعد أن سورني هذا الزمن الخؤون بعسر غريب

أجل

رحلت...

وأخذت...

معها أزاهير روحي.

ذهبت الى خارطة العالم المعلقة على جدار غرفتي ورحت بنظرات مضببة أبحث عن أوغندا.

شباط ١٩٩٩

العراف آنتي

الى صديقي الدكتور كامل أمين...

على الرغم من أنه كان مخموراً غير أنه إستقبلني بإحترام كبير مشوب بشيء من الوجل والذعر، كما لو إنني زائر لا يمكن تقدير رفعة شأنه... إنحنى مرات عديدة على طريقة البوذيين المتواضعة تارة، وتارة على طريقة إنحناءة الخدم، وهو يفترس في وجهي بإمعان شديد، ويقدم لي طقوساً من مراسيم التبجيل، والتوقير، ويطلق سيلاً من عبارات المحبة والإحترام... إن هذا الإستقبال الإحتفالي غير المتوقع، والمفرط في الإحترام من رجّل ثري، لي، كمدرس للغة الإنكليزية، شككني بنفسي وبه، وتصورت أنني فعلاً جئت الى هذا القصر سهواً... إشارةً الى صوفا الجميلة قائلاً: تفضل إجلس... جلست، وجلس هو الآخر، وبحركة رشيقة رفع صندوقاً خشبياً صغيراً جميلاً فتحه برفق... كان الصندوق مليئاً بالسيكار. قال: سيكار جيد جداً... كوبي الصنع ترتاح له كثيراً... قلت: شكراً لا أدخن... رفع حاجب عينه اليمنى على طريقة الممثلين وقال: رائع... التدخين عادة سيئة... بحركة سريعة أخرج مقدحة صفراء من نوع -ديبونت- وأشعل سيكارة بسرعة وأطلق سحابة من الدخان الأزرق الكثيف وقال بتعجب شديد وهو يعيد المقدحة الى جانب الصندوق، ويشير الى رواية «الغجري» للروائي د. هـ لورنس... آه، أنت شاب وتقرأ لورنس... ما كنت أتصورك في هذا العمر... هزَّ رأسه عدّة مرات، وبنفس التعجب ردد بصوت خافت: غريب... قلت مع نفسي: لم أعرف ما الغريب في قراءتي للورنس، أو كوني شاباً! ما دخل هذا الثري بلورنس؟ قال بوجهه الباسم: ما رأيك بكأس ويسكي؟

كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة والنصف صباحاً، قلت مع نفسي: وقت لا بأس به لكأس واحدة أو أثنتين... بدأنا نشرب. كان يأخذ نشرب رشفات سريعة من كأسه. شعرت براحة، وبثقة أكبر في النفس عندما راح مفعول الشراب يدب ذلك الدبيب الرفيق الى رأسي... قلت مع نفسي وأنا أرنو الى قسمات وجه مضيفي: إن الصديق الذي أرسلني إليه قال: إن من عادة هذا الإنسان عندما يذهب شخص ما إليه للعمل، أو طلب مساعدة يستفزه بطريقة غاية في القسوة، وبكلمات جافة... عليه من اللازم ألاّ

أُعير أي إهتمام لإستفزازاته. ولكن أين هذه النصيحة من كل هذا الترحيب الإحتفالي والإحترام البوذي؟ قال بعد أن أنهى كأسه، وأطلق موجة من الدخان: أتعرف، يا عزيزي، أن الإنسان لا يعرف السعادة في هذه الدنيا! وبعد توقف قصير قال: أسألني لماذا؟ لماذا لا تسألني؟ حسن... لأنه لا يعرف الرضا أبداً... حتماً أكثر من مرة دهشت وأنت تدخل بيتي، وترى هذا الترف الباذخ، هل تعرف أنني لست سعيداً؟... أولاً لأنني لم أتعب البتة في بناء هذا المال، وهذا البذخ. إنني مثل جنرال نال أوسمة ولم يشارك في معركة عظيمة. هذا البذخ صنعه أبي الذي رحل بطريقة مضحكة جداً بعد شقاء طويل. كان جلاد المال... أجل، جلاد حقيقي للمال. وها أنذا أجلد ماله بسادية. أعيش حياة مترفة، ولكن ميتة... ميتة جداً... كان عندما يتكلم يتحرك جبينه بطريقة غريبة، وهذا الجبين الغريب ذكرني لا إرادياً بمقطع شعري للشاعر دانيال وبستر (الجبين الأعتم الذي حلَّ به العار)...

قلت مع نفسي: ترى لم بهذه السرعة راح هذا الإنسان يكشف نفسه لي... أعرف أن حس، ومشاعر البعض تحلق أحياناً فجأة بطريقة عفوية، لا إرادية غريبة لدى رؤية بعض الأشخاص... إلتفت الى الجهة اليمنى وأشارَّ بيده التي تمسك بالسيكار. رأيت من خلال زجاج نافذة كبيرة إمرأة في حوالي الأربعين جالسة بصمت ترنو الى البعيد... قال مضيفي بعد أن صبَّ لنفسه كأساً أخرى: إنها أختي... أحبها الى درجة العبادة... كانت جميلة جداً... إنها الآن ناعس، وتعاني من مشكلة نفسية، وجسدية، آلام في الركبة... قبل سنوات طلبها الكثيرون، لكنها من غير أي سبب منطقي رفضت الجميع وكأنها تقلد بينوليبي اليونانية... أنظر... ها هي تجلس مثل تمثال حقيقي تنظر الى البعيد... أتعرف الآن ماذا كنت أقصد –بعدم الرضا–؟ آه... أنظر... تجلس بتلك الطريقة الحزينة. وتضع تلك الشملة الحمراء على كتفها وتبدو مثل إمرأة عجوز... أجل تجلس بصمت وتحلم... تحلم... الله وحده يعلم بماذا تحلم... ثم من يستطيع أن يحصي أحلام الإنسان. خاصةً العانسات، أليس كذلك؟

– فعلاً... فعلاً... وماذا بعد؟

– تنظر الى الشارع البعيد، تراقب المارّة، أو تراقب الفخاتي وهي تتغازل، أو تضع نظارتها وتدرز بإبرتها درزاً ماهراً على قطعة قماش. إنها تضع نقشات ساحرة،

وأحياناً تنقش أبياتاً من قصائدي القديمة.

– صحت بتعجب شديد: ماذا!... أأنت شاعر؟...

– كنت يا عزيزي... كنت حتى السنة الأخيرة في الجامعة... آه يا صديقي بالصدفة المحضة، أنظر الى أختي وهي منحنية وشملتها فوق كتفها، ألا تشبه واحدة من لوحات رامبرانت... تأملت هذا الرجل بدقة وأنا أقول مع نفسي: ترى الى أين سيؤدي هذا الحديث الإعترافي الملتهب ومن الدقائق الأولى مع هذا الإنسان؟... سألته: ألا تملُّ أختك جلستها تلك؟ أجابني وهو يطلق آهة حارة، لقد أدمنت عليها منذ سنوات... الإنسان كائن عظيم، سريع التأقلم... تقبلت واقعها بعقل مستسلم... غير أنها وفي حالات نادرة تتمرد، وتثور... تصرخ، وتلعن سوء حظها، عنادها، رفضها لخُطّابها من غير سبب، وتدخل معي في خصام هستيري الى منتصف الليل، وتصر في غير وجه حق أنني سبب بؤسها الحقيقي، وتتهمني بتدمير حياتي في الكحول، وأحياناً بعد منتصف الليل تكلم نفسها بصوت عال، أو تخاطب إنساناً في خيالها... ولكنها في معظم الأوقات فتاة واقعية. آه... تبقى المرأة يا ضيفي العزيز لغزاً معقداً، ومهما ملك الإنسان من قوة الفراسة فهو لن يفهمها جيداً... لالا... قلت: وهل وحدك تعيش في هذا البيت الكبير؟... أقصد مع أختك فقط؟

– نعم... نعم... لم أتزوج أنا الآخر... ولن أتزوج... لي صديقة جميلة أحبها... ولكنها فجأة إختفت... نعم من حوالي شهر. إنسانة غريبة، عصية على الفهم، تبحث عن سعادة هاربة... تماماً عكسي أنا... أنا مثل أي برجوازي تافه في الأزمات أصاب بأنهيار حقيقي. أما هي فروحها تزدهر في الأزمات الصعبة... إنسانة جريئة، لا مبالية، عنيفة، نيتشوية...بعد صمت طويل، وتأمل دقيق لملامح وجهي قال بصوت دامع: لذا أرسلت إليك لأعرف مصيرها... أردت أن أقول: لماذا أنا؟ وما دخلي بإختفائها؟ فجأةً رنَّ جرس الهاتف، رفع السماعة، بعد لحظات تدفق سيل من الكلمات البذيئة، والنارية من فيه: أيها القواد الدنيء. أيها الديوث... أيها الكلب الذليل أسابيع طويلة وأنت تعدني وتسمعني مجرد كلمات أين هي أيها المبتز. لا تتصل بي أبداً إلا وهي معك... أعاد السماعة، وأشعل مقدحته بعصبية وراح مرة أخرى مثل الطفل الرضيع يمص سيكارة، ركزتُ بصري عليهِ، وهو يدخن بشراهة، ويأخذ رشفات من السائل الذهبي... ترى ماذا وراء محيا هذا الإنسان؟ إنه تناقض غريب مليء بحماسة، ومرارة، وخيبة، وندم، ربما

سأعرف المزيد عنه بعد الكأس الثالثة التي حتماً تعمل برفق على إزاحة ذلك الغسق من رأس هذا الذي يسمي نفسه بالبرجوازي التافه، وسيكون بوسعي أن أصل الى جوانب من أغوار قلبه... إرتخت ملامح وجهه قليلاً وأصبح مثل وجه إنسان بليد... هذا الإنسان الذي تكلم بلهجة آمرة، وبذيئة في الهاتف، وبحنان غريب عن أخته، وبقسوة عن والده، وبإحترام فيه حماسة طاغية لدى إستقباله لي، وما زال يكلمني بودٍ متزايد عن نفسه، وعن صديقته التي هربت منه، مثل هكذا إنسان لا شك هناك عمق خفي في أعماقه... قال وقد إحمر وجهه مثل غبب الديك الرومي: هذا الدنيء الذي كلمته قبل قليل في الهاتف يبتزني... يعدني كل يوم أن يعثر على صديقتي، وأنا أرش عليه النقود، وهو يعطيني مجرد وعود... وأنت... آه... نعم... أنت لديك الجواب الحقيقي يا عزيزي... أخبرني... ماذا ترى أنت! هل هجرتني بسبب ضعفي؟ تخاذلي؟ نفوري من حياة المغامر؟ أم جرت وراء سعادتها الهاربة؟

أو إحتقرت طريقة حياتي؟... أجبته ببرود: أعتقد للأسباب التي ذكرتها جميعاً... هتف: نعم... أنت على صواب... آه يا عزيزي لو فقط تعرف كم سعيد أنا، لأنني بعد جهود مضنية وجدتك أخيراً... من أسابيع، أنا وأختي نرسل هذا وذاك ليبحثوا عنها... وأخيراً... أخيراً... أردت أن أقول: لماذا أنا بالذات؟... وهل حقاً لا يوجد مدرس آخر للغة الإنكليزية في المدينة؟ صاحب صوت حار: إشرب، إشرب، يا عزيزي يجب علينا، كما يقول بودلير، أن نكون دائماً سكارى...، بدأنا نشرب، ونتبادل النظرات... قلت إنني جئت... لكنه بمجرد لفظي كلمة –جئت– قاطعني قائلاً: طبعاً جئت مثل ملاك الرحمة، مثل أي نبيل، وفارس حقيقي وفي الوقت المناسب... أنت إنسان رائع. للمناسبة يا ضيفي المحترم، هل تؤمن بمذهب الغائية الفرويدي؟؟ هنا في الحقيقة صعقت من لغة هذا الرجل ورحت أتلمظ جوعاً لمعرفة المزيد عن هذا الثري الغريب، وهو، يتكلم في عدة مواضيع بحرارة متشنجة. قلت ملاطفاً إياه: تقصد، توليوجي؟ هتف قائلاً: بالضبط... رائع، إذن أنت تؤمن أن كل شيء في الطبيعة موجه نحوّ غاية... لذا كنت أبحث عنك لغاية... فأنت الآن غايتي... وكذلك غاية أختي آه... الغاية... الغاية... أنت وحدك بعقلك الرائع وبصيرتك الماسية تستطيع أن تأخذ بيدنا الى غايتنا... توقف عن الكلام... قلت له، إنني جئت كمدد... قاطعني بحركة شيطانية قائلاً: حتماً... حتماً جئت كمدد... كمدد... يا إلهي... أجل كمدد... أيُّ كرمٍ عظيم منك أن تجيء كمدد... لأنك لديك العلاج... أن

معلوماتي عنك تقول أنك مثل ذاك العملاق اليوناني الخرافي –آنتي– ما أن تمس قدماه الأرض حتى تعود إليه كل طاقاته الخلاقة، ولا يفيد معه أيُّ شيء ويظلُّ يبدع... أنت هنا لتبدع... لتبدع... آه ياعزيزي آنتي... صبَّ لنفسه كأساً رابعة... لاشك أن هناك أشياء كثيرة في العالم السفلي للشعور عند هذا الإنسان غير طبيعية البتة. ترى هل توهجت لديه الحواس بهذه الطريقة الدرامية بسبب الكحول؟ أم لأسباب غريبة معقدة لا يعرفها هو نفسه؟ ألا يخلق مثل هذا الإنسان المضطرب ، والمتنور، وغير الطبيعي، والثري، والبرجوازي التافه بإعترافه فضولاً بكراً في كل دقيقة عند الإنسان لمتابعته بدقة؟ إن لغة، وإنفعال هذا الرجل مثلما جعلتني أسوح في إرتعاشات المتعة، والفضول، وحتى الألم، جعلتني أيضاً أعتقد أن دفة عقله فيها شيء من العطب ولكي أعطي نفسي فسحة من التفكير، إلتفتُ الى النافذة حيث تجلس الأخت. كانت ما تزال جالسة بطريقتها الحزينة تدرز هذه المرّة بإبرتها على قطعة قماش... قال بنفس حماسه المسرحي: أنظر كم هي حزينة تلك الأخت الرائعة...لماذا يجب أن تعاني ألاماً في ركبتيها، ويعجز الطب عن شفائها؟... أو تبقى عانساً... ترى هل تنتظر أحداً؟ أشك أنها أحبت أحداً ذات يوم... حتى في الجامعة كانت تتصرف مع الشباب ببرود صقيعي... لماذا تهذي في الليالي! لِمَ وهي أقصى عذابها تريد الآن أن تتزوج؟؟ لِم كل هذا العذاب؟ آه العذاب يلاحق الإنسان كالكلب... تصور وسط هذا الثراء الباذخ نعاني معاً كالكلب... سألته بعد صمت طويل وكلي دهشة: أتعجب لماذا تريد أن تتعلم اللغة الإنكليزية في هذا العمر، وفي هذه الحالة.! قطّب وجهه وأرسلَّ إليّ نظرات إستفسارية حادة، وغمغم مردداً: الإنكليزية... الإنكليزية... هل تمزح؟... في هذه الأثناء إلتفتت الأخت بإتجاهنا وقامت بعدة حركات بيدها وكأنها رأتنا لتوها. بعد قليل وبمساعدة أثنين من خدمها دخلت علينا الغرفة وهي تجلس في عربة مريحة من تلك التي تستعمل في المستشفيات. أطلقت تنهيدة حارة، وتراخت أهدابها الطويلة من عينيها المطبقتين وقالت بلهجة حزينة: يستحيل أن تكف عن الشرب... أنظر... أن الإدمان أدى الى إرتعاش يديه، ورجليه وتضبب في رؤيته، وهو، بعد في الثالثة والأربعين يبدو كما لو أنه في الستين، ويتصرف معي عندما يسكر بمزاج جامح، ويسمعني كلمة قاسية، صرخ بقوة: يا عزيزتي هذا ليس أوان مثل هذا الكلام... كفى كفى... تبادلتُ والأخت نظرات طويلة كما لو تعرفني منذ مدة طويلة... عضت شفتها السفلى بقوة وأستتلت تقول: بل أكثر بل أكثر من هذا يا ضيفنا المحترم

لقد أصبحت له حالة تيبس في لسانه... صدقني أنه إذا لم يشرب لا يستطيع أن يتكلم... إنني أحبه كثيراً لأنه أخي الوحيد... صرخ الأخ:

– يا عزيزتي، يا حبيبتي، ها أنتِ تفتحين نفس الموضوع مع كل ضيف جديد... ألا تكفيك همومك الشخصية... أنا لا أريدكِ أن تتألمي من أجلي ليتحمل كل واحد منا الامه... هذا الإنسان الرائع جاء الى بيتنا من أجلنا أنه العراف العظيم الذي كنا نبحث عنه... أطرحي مواضيع جميلة للحديث، قلت لنفسي بتعجب شديد: ماذا يقصد بكلمة – عراف– ؟؟

قالت الأخت بصوت حزين: تصور يا عزيزي العراف لدينا الكثير من كل شيء لكننا مع ذلك تعيسان... وحيدان، حزينان، محطمان... أتعرف أنه كان شاعراً موهوباً لكنه فجأة أصيب بلوثة الإدمان... إنه يشرب ليل نهار... صرخ الأخ بقوة: كفى... كفى... ما دخل العراف العظيم بهذا الكلام. ألا ترين هو الآخر يشرب. السيد آنتي جاء من أجل سعادتك... إن هذا المحبوب الذي بحثنا عنه طويلاً جاء ليستمع الى مشاكلك ليحلها... اللعنة على الشعر.

أنا هجرت نفسي وأنتِ تتكلمين عن الشعر. إنكِ تغفين كل يوم لساعات في عربتك هذه مثل حمامة، أو تدرزين لساعات بالأبرة، أو تراقبين الفخاتي في السماء، والمارّة في الشارع، هل أتدخل في أمرك؟ العراف العظيم هنا من أجل قضية مهمة... مهمة جداً... حنت الأخت رأسها. خيّم صمتٌ أخرس طويل.. فجأة نهض مضيفي مثل الملسوع، وبطريقة هيستيرية كمن يعاني من إنهيار حاد ومفاجيء في الضمير. هب الى أخته وبطريقة مسرحية أمطر رأسها بقبلات حارة مُردداً: آنتي عرّاف عظيم ومتنور. أنظري أنه يقرأ رواية الغجري للورنس... بصعوبة بالغة سيطرت على ضحكة قوية كادت أن تفلت مني أمام هذا التمثيل التلقائي والبريء جداً... كان هذا الإنسان السكير، المضطرب، والحائر جداً وهو يسمني بالعراف العظيم آنتي يوزع نظراته وولاءاته بيني وبين أخته بطريقة إستجدائية. رفعت الأخت رأسها وأرسلت نظرة ساهمة، وإعتذرت إليّ بواحدة من تلك النظرات التي تجيدها النساء على نحو غريزي في المواقف الحرجة، بينما راح الأخ يذرع الغرفة، ويكلم نفسه بإنفعال، وتوتر شديدين كما يفعل العصابي في حالات الهزّات الروحية القوية، ويردد بخشوع: عرّاف عظيم، يعرف ماذا يجري من الأسرار، والغوامض على بعد آلاف الأمتار... يعرف الآن ماذا يعمل الخدم الآن في

الغرف البعيدة... إنه أعظم بكثير من نوستروداموز... إستمر يغمغم، يهذي بكلمات لا معنى لها... قلت في نفسي وأنا أراقبه: كم أنا بحاجة الى طاقة حدس قوية، ورؤية عميقة، نافذة لمعرفة ذاك الفزع الذي يغوص عميقاً في دهاليز هذين الكائنين... توقف الأخ عن الغمغمة وراح يوزع نظراته بيني وبين أخته بوجه تائه... عندما لاحظ أن أخته تخندقت في صمت ونكست رأسها، أخذ يكلمني بعينيه، ويديه، وعضلات وجهه التي دهشت عندما لاحظت أنه يحركها مثل ممثل كوميدي موهوب عندما يقدم مشهداً صامتاً. قال لي وهو يطلق أهات حارة: أنظر يا عزيزي، عندما أقول أن حياتنا فيها فوضى فهي لا تصدقني. بعد قليل خاطب أخته: نعم هناك إضطراب في علاقتنا... وخيبة في أحلامنا... أنا نفذت لك طلبك وأرسلت عدة أشخاص يبحثون عن هذا العراف العظيم... ها هو هنا! أمامك... أشرحي له مشكلتك، أمنياتك، آمالك، أحلامك... أخبريه مما تعانين... إلهي، إنكِ دائماً تأخذين الأمور مأخذاً مأساوياً... لقد تعبت معكِ... من عشر سنوات وأنا أتصرف معكِ بطريقة أبيقورية. لا ألم، سكون، لا شكوى، سكينة، معاناة بصمت، صبر... هيا يا عزيزتي، تكلمي الى العراف، فجأة صرخت الأخت: كذاب... كذاب... بل أنا التي تصرفت وما زلت أتصرف بطريقة أبيقورية وليس أت... أنا، نعم أنا الصابرة الكبيرة وليس أنت... أنت مجرد ثرثار... سكير ثرثار...

– أنتِ أكثر ثرثرة مني.

– أنا أعاني من الإحباط، والفشل، من الظلم الذي صنعته بيدي.

– أنا كذلك.

توقفا عن الكلام... لم أرَّ إنساناً يستطيع التلاعب بتقاطيع وجهه مثل هذا الكائن... في لحظات يحول وجهه الإعتيادي جداً الى وجه قاتم... مظلم، كالح، جهم يسطع بنار رهيبة، ثم فجأةً يرخي تلك العضلات ليعطي إنطباع إنسان بليد مسالم... أشعل سيكارة من جديد. ولست أدري لماذا، ورغماً عني، وبسادية بريئة، وبرغم إحساسي بألمٍ حار لكليهما، رحت أستمتع بهذه المسرحية التراجيدية التي أقحمت فيها سهواً... قال لي مضيفي بذاك الإحترام البوذي: أنت تعرف يا عزيزي العرّاف آنتي أن النساء دائماً حساسات... ثم خاطب أخته: هيا أخبري ضيفنا المحترم جداً بأمنياتك... هيا يا

عزيزتي... رفعت الأخت رأسها وأرسلت إليّ نظرة باردة وقد أضفى الحزن منظراً طفولياً آسراً على وجهها، وأشتملها فجأةً حنان مؤثر، وقالت بصوت رخيم، حزين، دامع:

– ماذا ترى فيّ يا ضيفنا العزيز...؟ قل لي بصراحة...كيف تراني؟

قلت: أراكِ حزينة جداً... صاح الأخ وقد أصبح بعد كأسه الرابعة مجهداً بالغم، والألم: كيف يستطيع أن يرى أي شيء إذا لم تقولي له مما تعانين... أو ماذا تريدين، أو تتمنين؟!

قالت بصوت ناعس: يا ضيفنا العزيز آنتي، إنني بصراحة لا أمتلك أية رغبة في الحياة...

– لماذا؟

– لأنني أعاني من مللٍ شديد... شديد جداً من كل شيء .

– وماذا بعد؟

– أعاني من اليأس.

– ومن ماذا أيضاً؟

– من الإنقباض...

– حسناً... ماذا تريدين أن أعمل لك؟

ترى هل سأشفى؟ هل سأتزوج ذات يوم؟ هل سأسير على قدمي بثقة؟ هل سأسافر وأرى مدناً بعيدة؟

لست أدري لماذا شعرت بعطف شديد لهذه الإنسانة الوديعة التي كانت فعلاً بحاجة شديدة الى الحنان، وإلى كذب أبيض...قال الأخ:

– أنظر يا عزيزي آنتي إنها بحاجة الى معجزاتك، وأضاف بصوت متملق: يقال أنك بطريقة ساحرة جداً، وعميقة جداً، أما عن طريق قراءة الكف، أو إستخيار الورق، أو بنظرة تأملية في المرآة، تستطيع في دقائق أن تقول الحقيقة... كل الحقيقة... قلت بصوت هادئ وقد بدأت فعلاً أشعر بالسكر جراء هذه اللعبة –اليوكرية– الغريبة التي أقحمت فيها: إذاً أنتما تعتقدان أنني عرّاف؟؟...

أجابني الأخ بنفس ذلك الصوت المتملق: طبعاً، وبنفس عظمة العرّاف آنتي... بل أنت آنتي العظيم... وعما قليل ستتكلم أختي، ولي أيضاً بلغة النور، وبلغة الشهب... أنظر يا

عزيزي العرّاف الى عيني أختي، وإلى عيني أنا... آه، لقد بدأت عيوننا تتوهج بنيران تكهناتك الباطنية، ستتوهج بالآمال... آآآآ من الأمل الطيب... الأمل الرائع... إنه أحسن ألف مرة من اللاأمل... أو من الأمل الشيء. أن العرّافين، وهنا عظمتهم يجيدون دائماً فن تحبيب الأمل للآخرين، المجد للأمل... هيا، حبب إلينا الأمل...

لاحظت مرة أخرى وأنا أدقق بصري بشيء من التركيز، رغم ذاك الدواخ اللذيذ الذي صنعه المشروب، لاحظت أن هذين الكائنين يعيشان حياة مليئة موتاً حقيقياً. ومتعلقان مع ذلك بالأوهام، والأحلام، وجديران بشفقة حارة، ولكي لا أفكك مشاعرهما، وأجعل أفكارهما تتطاير، ولكي أخفف ولو لساعات حالات العذاب، والفصام، والكآبة، وذاك الخلط الذهني، والحزن العميق، أن أدخل معهما اللعبة ببراءة، وعبر كذبات بيضاء... طلبتُ مرآة. بعد أقل من دقيقة قلت للأخت بصوت هادئ:

– أتعرفين ما العيب فيكِ؟

– ماذا أيها المحترم؟

– هو بصراحة أن لا عيب فيكِ البتة... بعد أيام ستنهضين على قدميكِ وتمشين بخيلاء... سألتني بصوت مزغرد وبحركات طفولية:

– وهل سأحب الحياة؟

– جداً... جداً... وبعمق.

– وأتزوج؟

– قريباً جداً.

– وأسافر؟

– بل سترين نصف العالم...

قلت مع نفسي وأنا أرنو إليها: المرأة إذا بلغت الخمسين وكانت عانساً تتوق الى اللف والدوران حول الآخرين و وتتجسس، وتتشفى، وتردد الأقاويل، وتغمغم في سعادة الآخرين، أو تتكلم في الحب السامي بطريقة خيالية... أما هذه البائسة فتجلس بصمت حمامة قرب النافذة وكأنها لوحة لرامبرانت... إنها فعلاً ولو بطريقة كاذبة تستحق أن أُحبب إليها الأمل. كانت عيناها عندما توجه لي أسئلتها مثل عيني كلب مهزوم، غير أنها بعد أن زرعت فيها الأمل، راحتا تومضان برفق... يالسحر الكلمات، ووقعها اغريب على القلوب... أما الآخ الذي فقد آخر بسالة في الحياة، أعترف بنفسه

أنه يعاني من الإحباط، والفشل، نهض فجأة مثل الملسوع، تائه الهيئة، متبلد الوجه، وراح يصيح بصوت عال: لك المجد أيها العرّاف آنتي... لك المجد... ثم راح مثل إنسان بدائي يرش فوق رأسي كميات كبيرة من الأوراق النقدية، وهو يردد، لك المجد... صرخت عليه بقوة: أيها الغجري... ما هذا التصرف البدائي... كف عن هذا العمل... إن هذا تصرفُ خسيس... توقف بسرعة، وقد إعتلت وجهه الشبيه بغبب الديك الرومي إبتسامة مهزوزة، وقال من خلال دموع حارة: أسف أيها العظيم آنتي... آسف، إنه فائض فرح... فائض فرح... شيء خارج إرادتي... أسف... جداً أسف... أنا كما أخبرتك برجوازي تافه... نهضت لأغادر البيت، فجأة أدخل الخادم رجلاً طاعناً في السن، توارت صلعته تحت خصلات من الشعر القطني تنوس فوق جبينه الواسع المخدد بالخطوط العميقة. تأملت في وجهه المليء بالتجاعيد، ورأيت تجويفاً عميقاً في خده يضيف الى وجهه العابس منظر إنسان ماكر، مراوغ،... ألقى نظرة شهوية على أكوام الأوراق النقدية، ماذا يريد... كيف ولماذا أدخلته من غير أذن.

أجابه الخادم: إنه العرّاف يا سيدي...

طيور السنونو عادت ثانيةً

لألأت شمس الصباح الخريفي فوق جدران السجن، وتنفس الصباح برفق، كذلك محمد العزاوي هو الآخر تنفس بعمق، وأرسل نظرة طويلة الى وجه الشرطي فوق سطح بناية السجن، والذي كان بدوره يرسل نظرات باردة الى أسطح المنازل البعيدة والى العمال وهم كعادتهم في مثل هذه الساعة من الصباح يتموجون في شوارع المدينة في طريقهم الى أعمالهم... بإستثناء مزق من الغيوم اللؤلؤية ، كانت السماء الصافية، مشرقة بزرقتها اللازوردية... شمَّ محمد رائحة ذكرته برائحة أوراق الشجر اليوكالبتوز الهرمة في بيته. هذه الشجرة التي زرعت وسط باحة البيت وهو في الخامسة من عمره. وعلى ساقها الضخمة حفر قبل إعتقاله بعدة أيام تاريخ بلوغه الثلاثين... الرائحة ألتي إستافها أنفه، وبرودة الصباح جسدت حضور الشجرة في لا وعيه، وتذكر كيف كان يراقب سقوط أوراقها الذابلة من خلال نافذة غرفته الصغيرة في الصباحات الخريفية وتتناثر برفق في الهواء وتهبط كأنها فراشات خضراء وصفراء... وتذكر كيف كانت صديقات والدته يقطعن أغصاناً صغيرة ويشمنّها بعمق لتخفيف ألم الزكام، ويتكلمن بحرارة عن العلاج الشعبي، وفساد الأدوية. وذكرته الشجرة بوالدته التي خُلقت لتعاني، وتصبر، وتنتظر فقط... تذكرها وهي منهمكة في كنس ومطاردة الأوراق الذابلة، وهي تطلق آهات حارة عندما تذروها الهواء، أو فجأةً تغني بصوتها الخافت الحزين واحدة من تلك الأغاني الشعبية المليئة بآلام فراق الأحبة، أو عن الإنتظار الطويل اللامجدي في مجيء الغائب العزيز... تنهد محمد، وبفرح عميق صفع فخذه، وإستمع الى زقزقة أول موجة من عصافير الدوري التي حطت على جدار السجن ، وإستمع الى هدير سيارات الشحن في الشوارع، وقال مع نفسه: آه، يا إلهي، شكراً لقد بدأت أتذكر... أتذكر، تجول قليلاً في ساحة السجن ثم جلس فوق مكان مرتفع. مسَّ عضلات فخذه، وقرص لحمه بقوة، مدَّ باطن يده وتحسس أسفل عنقه مكان ذاك الجرح العميق فوق منبت عموده الفقري الذي بسببه دخل دنيا اللاوعي... عندما مس الجرح، عوت الأوجاع في جسده كله، لكنه رغم الألم إبتسم، ومط عنقه بهدوء وراقب سرباً من الطيور المهاجرة وهي تطلق أصواتاً مثل ثغاء الأغنام العائدة. تتبع الطيور وهي تتلاشى في السماء

الخريفية، وقال بفرحٍ طفولي: أية نعمة هي الحرية... وأية حرية أزلية تلك التي تتمتع بها الطيور...؟ وهتف بفرحٍ شديد: لقد بدأت أتذكر... أين كانت ذاكرتي؟! مرَّ رتلٌ آخر من الطيور وهي تتموج، وتتأفعى في السماء اللامتناهية، وصاح بنشوة: كم جميلة، رائعة السماء... أسند رأسه الى الجدار، أخذه نومٌ خفيف سرعان ما تعمق. منذ أسابيع جافاه النوم... حلم وهو يسير بخطوات واسعة، وثقة عالية بالنفس بين مئات من الناس المبتهجين بعودته من منفاه، وتمتد الأيادي إليه في محاولة مجنونة كأنها تطلب بركته وكأنه وليٌ مقدس، والشفاه ترسل إليه القبلات... كان الجميع مصاباً بثمالة غامضة ويرددون بصوت حار يجرح النهار: نحس خطواتك في قلوبنا... أيُّ حزنٍ مبجل يطفو على وجهك. تأمل محمد غابة من الأيدي، والشفاه، ومن العيون، وغابة من الأطفال يلوحون له ويتهافتون ليقذفوا أنفسهم بين ذراعيه، ورأى فتيات جميلات يحملن يافطات عليها عبارات: مرحباً بك يا من تحكمت بروحك... إشتد البرد في ساحة السجن، ووسط هجمات ذباب الخريف اللجوجة أفاق محمد وقال بفرح: بدأت أحلم أيضاً!... آه، كم جميلة ومؤلمة أيضاً الأحلام أحياناً...! هبت موجات صغيرة من الهواء ، إبتسم وقال مع نفسه: تذكرني هذه الموجات اللذيذة بكلمات رامبو (زفرات الخريف الطويلة)... نهض وذهب الى الغرفة وتمدد فوق فراشه... اختلط ألم جسده، وذاك الجرح في منبت عموده الفقري بآلام أخرى غريبة، وبذاك الفرح اللاهب للحلم، وشعر كأن جسده يومض وتنطلق منه شظايا ملونة من الفرح اللزج والألم... قال في نفسه:" يا إلهي، ليس العقل وحده يخدع، فالقلب أيضاً يخدع النفس، مرة أخرى أخذه نوم عميق، وجرّه الحلم ثانيةً الى عالمه الملغز، ووجد نفسه هذه المرة في زقاق طويل شبه مظلم، وأصوات نساء ورجال تردد: يجب أن نلتقي بمحمد... يجب أن نلمسه... جرى بإمتداد الزقاق بسرعة، إنتهى الزقاق في ساحة مربعة الشكل تغمرها أضواء ملونة والمكان أشبه بمسرح، رأى حشداً من الناس تحت ضوء بلون الحليب يحدقون بإعجاب بمحامٍ يرفل في روبه الأسود الفضفاض، وضوء بلون وردة القرنفل مسلط عليه، وهو يتكلم بغضب هستيري ويوجه بين حين والآخر سبابته الى رجل متجهم، متغطرس، متعجرف تحت دائرة ضوء أحمر قاني بجانبه منضدة عليها بومة كبيرة يمسد ظهرها بباطن يده... أراد محمد أن يدخل الساحة ليقف مع الجماهير، منعه شرطي غاضب منفعل... دقق بصره في وجه المحامي وراَهُ يشير الى قفص خشبي. إلتفتَ الى القفص، ولدهشته الشديدة رأى نفسه

داخل القفص، والمحامي يردد بصوت جمهوري ارتاح كثيراً لقوته وجرسه، وكلماته (ختاماً أيها السادة أقول، أن ألذي يهمني، هو إنقاذ ما يمكن إنقاذه، سيما وأن محمد العزاوي قد أُذي، وأُهين، وعُذِّب بأسلوب وحشي جسدياً، وروحياً، وهو لم يفعل أكثر من أن نادى بعبادة الإنسان الخالد فوق كوكبنا).

إمتلأ محمد فرحاً، وإقتنع بما لا يقبل الجدل أنه رغم سنوات سجنه لم يُنس، أو يُهمل، وثمة من يدافع عنه بجرأة، ويُعرف الآخرين بعذاباته... آه، أيُّ شيء رائع أن يكون الإنسان محبوباً. ملأت جماهير الفضاء الساكن بثورة من الحب والإشفاق، بينما راح الرجل المتهجم يربت على ظهر ألبومه بحقارة واعية، ثم بحركة مسرحية، وبضمير مخدّر أعطى إشارة على طريقة أباطرة الرومان للقتل، وغادر المكان... عندما أفاق كان الوقت ليلاً، وكان بحكم العادة، والرتابة إقتنع أن الليل صامت مثل لونه الحبري، لكن له تغريد جميل... أصغى سمعه لليل في عزلته الرهبانية. أجل قال مع نفسه: أنا أفهم الليل، والليل أيضاً يفهمني... في الليل تنتاب روحي يقظة لذيذة، ويدغدغ ضربٌ نادر من الاغواء قلبي... في الليل يأتي الألم أيضاً، لكن ألمُ مبارك يُعطي ضرباً غريباً من الهزة، ويخفف تأجج اليأس، وتشعل مباهج متمردة... سمع الباب الحديدي الخارجي يُفتح. دخل شرطيٌ مخمور الوجه بالنعاس... طلب الشرطي من محمد العزاوي أن يهيء حاجياته لأنه سيُطلق سراحه.

– قال محمد: بوسعي أن أنتظر، ثم أن الصباح رباح.

– زأر الشرطي: أستعجل... الأوراق جاهزة...

– أفي منتصف الليل؟

– ثم ماذا؟... إستعجل.

تذكر محمد أنه قبل سنوات أعتقل في منتصف الليل تماماً، قال مع نفسه: مستحيل... لالا... لا أصدق.

لم يأخذ معه شيئاً. إجتاز الباب الحديدي بخطوات سريعة في الطريق تلمس مكان الجرح لاإرادياً وقال مع نفسه: يا إلهي،. بدأ القيح يتدفق... أشكُّ أن الجرح سيندمل ذات يوم. بعد مسيرة أمتار طلب من الشرطي أن ينتظره ريثما يُنهي عملاً. جلس على الأرض... وأراد أن يختبر ذاكرته، وفعلاً راح يبحث في حنايا ذاكرته عن رواية جميلة قرأها، أو قصائد حفظها... سنوات طويلة في هذه البناية كان يعيش على ذكرياته، ثم

فجأةً وفي جو درامي عنيف في إحدى غرف التعذيب فقدها... أي شيء في روعة، وعذوبة، وجمال الذكريات في الوحدة القاسية مع النفس؟... لقد علمته سنوات السجن الطويلة تذويب رتابة السجن وتحمل كل آلامه، ومشاكله من غير أي إستفزاز للنفس... ولأنه يؤمن، لذا أكتسب مناعة قوية ضد الألم... هل حقاً سيرجع الى البيت؟ الى الوالدة؟ الى كتبه؟ أهي في مكانها...؟ أيُّ كتابٍ كان يقرأ ليلة إعتقاله؟ وبينما هو يناغي نفسه أخذته غفوة، ورأى نفس المحامي يردد بصوته القوي: أن محمد يمتلك التركيز الروحي لإستعادة ذكريات حزينة، نكبات روحية، لا يمكن حقنه إطلاقاً بأفكار نهلستية، يشعر بنبض العالم، لديه حب قدسي، لديه قوة روحية لترميم السقوط الأخلاقي، بوصلته الروحية من الدقة بمكان لن يتيه إطلاقاً، أنتم روح مثخنة بالعتمة.

أفاق محمد على وقع أحذية فوق المرر الأسمنتي جاء الشرطي وطلب منه أن يتبعه، سار خلفه بخطوات وئيدة. في ممر ضيق وأمام غرفة المطبخ زجر الشرطي بصوت زئيري عدداً من السجناء كانوا يقشرون تلالاً من البطاطا بميكانيكية غريبة. وقف الشرطي أمام نافذة واسعة، ورأى رجلاً ممتلئاً، أنه الطباخ... أشار الى الشرطي بالدخول... أمر الشرطي محمد بالإنتظار. إستقبله الطباخ بحركات متملقة. طباخ إنتهازي، غريب الشكل، له رأسٌ ضخم، وجبين عريض يضفي قساوة وشراسة على وجهه المنتفخ المخيف... كان محمد يراه كل يوم، دائماً منقبض الوجه، يلعن ويسب ويملأ القدور... قال في نفسه: لم المر مختلف؟ هل جلبني الشرطي عن طريق غير الذي أسلكه كل يوم، أم أنني لم أرَّ هذا المكان ليلاً؟ أجل، ثمة ممرات ودهاليز كثيرة وملولبة في هذا السجن المخيف... رأى محمد الشرطي والطباخ يتكلمان، ويضحكان، ويربتان بحرارة على كتف البعض، ثم فجأةً يقطبان، ويقسمان إيمان سكيرين... كان وجه الشرطي ينكمش في تعبيسة، ويتحول وجه الطباخ الى كتلة قساوة... يرسم الشرطي حركات مضحكة بيده في الهواء كما لو يشرح للطباخ حدثاً مهماً...فجأةً تضيع القساوة من وجه الطباخ ليعود ضرب نادر ومخيف من المكر بدلاً عنها، يربت الشرطي بحركة بهلوانية على كتف الطباخ هازاً رأسه بحركة تملقية مردداً: حسناً فعلت... آه، حسناً فعلت... إنهم ملاعين... نعم ملاعين... يستحقون الضرب والركل... يضحكان بقوة، يتعاتبان من غير سبب ويبدأ من جديد قسم السكيرين، يقدم الطباخ قطعة كبيرة من اللحم للشرطي مع عدة أرغفة خبز يضحكان من جديد... الشرطي يلتقط مدية يقطع

اللحم ويؤشر بالمدية بإتجاه محمد... يأكل بشراهة ويبلع اللقمات مثل المرعوص. قال محمد: ألهذا السبب تركني في هذا البرد؟ أفي منتصف الليل يأكل قطعة كبيرة من اللحم ويثرثر... فجأة غمر ضوء أصفر كامد المكان وصبغ وجوه العديد من مقشري البطاطا بلون الزعفران، تبادل محمد نظرات معهم، كانوا جميعاً مثل قطط المطابخ يتمتعون بصحة جيدة. إمتلأ المكان بلغط هامس. راقب محمد أصابع الرجال وهي تقشر البطاطة بسرعة وميكانيكية غريبة... السكاكين تتحرك وكأنهم يقدمون مشهداً مسرحياً بطريقة إيمائية عن جريمة قتل... نظر أحدهم الى محمد بطريقة فيها الكثير من الشفقة. إلتقط بطاطة كبيرة وبحركة سريعة صنع منها رأساً بشرياً. قرب الرأس من محمد وهو يبتسم بطريقة بليدة ثم بحركة باردة قطع الرأس بضربة واحدة... تهامسوا فيما بينهم بأصوات مثل الوصوصة وكأنهم صمٌ بكم... جاء رجلان يحملان نقالة وأفرغا أكواماً من البطاطة... منظر السكاكين، وتقشير البطاطة هيجت الجرح لاإرادياً في منبت عموده الفقري، وتذكر أنه تمدد فوق مثل هذه النقالة مرات عديدة يزفر من شدة الألم بعد كل إستجواب... كان الشرطي ما زال يضحك، ويأكل بشراهة، ويده التي تمسك بالسكين ترسم حركات مسرحية في الهواء، والطباخ يوافق، ويؤيده بحرارة... مقشرو البطاطة عادوا الى همساتهم، ولغطهم، وحركاتهم المسرحية... لم تركن هنا؟... ما هذا الهمس؟... الى متى يبقى الشرطي يثرثر مع الطباخ؟ الرجلان طويا النقالة وهما يرسلان نظرات ضاربة الى محمد، وبخطوات وئيدة غابا في المرر مثل شبحين... ذكرته النقالة من جديد بغرف شبه مظلمة، بالتعذيب، بروائح الأدوية والمعقمات، ووجه طبيب رقيق سمح كان كلما وجد فرصة يكلمه بحنان. وسمعه ذات مرة يرفض أن يوقع على أوراق مزورة، ويردد: أن محمد العزاوي يا سيدي مصاب بفقدان مروع للذاكرة، نعم، بسبب الضرب المبرح في نخاعه الشوكي...

من بعيد تعالت قهقهات السجناء وتطايرت شظايا من تأوهات. وسمع أحدهم يغني بصوت رخيم (والله أنت مثل المهرة كلما طال الدهر تتسابق مع ترابها). نام محمد وهو يستمع الى ذاك الصوت الناعم الحزين... حلم وهو خارج السجن. كانت الشوارع مهجورة، وأضواء الدكاكين الخافتة تضفي حزناً على بإمتداد الشوارع، والصمت من الكثافة بمكان بحيث كان يعكس حتى النأمة، وصفارات الخفراء مثل صهيل جياد بعيدة. سار بخطوات قصيرة، وتألم كثيراً لعدم وجود من يستقبله بعد سنوات طويلة

من الإعتقال. قبل أيام حلم وهو يستقبل كوليّ. كقديس. ماذا حدث؟ رأى من بعيد شبحاً يهرول بإتجاهه. توقف وقال مع نفسه: هل تنام هذه المدينة الجميلة بهذا الشكل الأخرس؟ كم الساعة الآن؟ لقد نسي الزمن رغم تزمنه كإنسان. قال: إلهي، كنت أنظر الى الليل، ليل مدينتي وأنا أمور بالرغبة، والشهوة تترجج في داخلي، وأرهف السمع علني أسمع خطواته. كانت أصغر نأمة في ليل مدينتي تملؤني بنشوة مرتعشة، جامحة، وأحياناً بهستيرية... آه يا مدينة كل أحلامي وأحبابي من كل الأطياف. أعرفك شبراً شبراً... أعرف قلعتك العتيدة، وحاراتها، وكل أزقتها...

إقترب الشبح... إنها فتاة. اختض من الفرح، وقف شعر جسده. بحركة رزينة، تلقائية، هادئة رسمت بيدها حركة ثم إقتربت منه وعانقته بحرارة. كان وجهها الجميل من فرط سعادة اللقاء يلمع بالحب، والهناءة... كانت ترتدي فستاناً بلون البللور وكأنها تزف إليه، وتسير بصعوبة كما لو أنها تمشي فوق أرض ممغنطة... ظلت تتفحصه بعينيها الوامضتين غير مصدقة نفسها بهذا اللقاء اللامتوقع قال في نفسه وهو يتأملها: يالهذا الوجه الملائكي... ترى كيف عرفت بخروجي من بين تلك الجدران؟

ظلت بين ذراعيه مثل حمامة مستغلة الليل، والصمت، والشوارع المهجورة. إحتضنته بقوة وطوقت عنقه بلهفة عاشقة متهيجة. أفاق محمد صارخاً فوجد الشرطي يمسكه من رقبته وفي مكان الجرح بالذات قائلاً: هيا... أنهض... أستاف أنفه رائحة اللحم والزناخة، ورأى نظرات الشرطي الضارية على ضوء المصابيح ولسانه يدور داخل فمه وفوق أسنانه، وهو يردد: أنهض... أنهض... نهض محمد وتبعه... سارا بإتجاه ممر آخر أكثر عتمة ووصلا ساحة صغيرة. سلمه الشرطي الى عدد من الرجال لم يستطع أن يميز بينهم لفرط تشابههم في الشكل. قال في نفسه: أعتقد هنا سيطلقون سراحي مع الفجر... فجأةً وبحركة إستفزازية جردوه من ملابسه. عندما إستفسر لماذا؟ أجابوه: أخرس... لن تحتاجها بعد الآن... أخذوه الى مكان مضاء بمصباح أحمر نظر محمد الى وجوه الرجال المتوفزة، والشرسة، وجوه حولتها التعود لسنوات على الصراخ، والعياط، والغضب، وإصدار الأوامر، الى وجوه قاسية، وشرسة، وعدائية جداً... قال في نفسه: صحيح أن الحلم أحياناً يولد الكائنات المشوهة، لكنني الآن لا أحلم... ولكن لماذا أرى وجوهاً كأنها كرات من الدم؟ أستفسر من الرجال المتشابهين على نحو غريب وكأنهم كائنات مستنسخة: ماذا حدث؟ ماذا تريدون؟ دفعوه بقوة الى الممر الضيق. تلقى ضربة

قوية على قفاه. إحتج، ومدّ يده ليتفادى ضربات أخرى، لكن الضربات راحت تنهال على قفاه تباعاً. ترنح. إستنجد ببقايا شجاعته، وتمالك نفسه، غير أن الضرب أستمر وسقط مغشياً عليه... سحلوه، وهو لم يفقد بعد كامل وعيه الى ممر آخر. تركوه... ثم أستعاد وعيه... رأى نوافذ مسيجة بقضبان حديدية... رأى من خلال القضبان أعناق هزيلة، ووجوه ذابلة ممصوصة، مقهورة، وعيون مطفأة حزينة أذابت بريقها الظلمة الطويلة، ظلامُ مثل ذاك الذي عاش هو الآخر فيه ردحاً من الزمن... على ضوء الفجر الذي راح يتنفس راح ينظر الى تلك العيون التي أيقظت حواسه المخدرة، وقال من خلال آهات حارة: هذه الغرف أشبه بمنملة بشرية... ورغم دواخه، لوح لهم بيده، ورددوا هم بدورهم مثل كورس في مسرحية: وداعاً... وداعاً... وداعاً... بالعمل والموت نولد أيها العزيز... وردد أحدهم بصوت حزين:

ما دام الألم الكبير لا يقتل الإنسان،
فلتعدّوا السكاكين(*)

أرتعش محمد، وأنتابه حنينٌ فوّار، وشوق لرؤية تلك الوجوه مرةً أخرى... سحلوه الى بناية قديمة ذات طابقين. في الطابق الأول رأى عدداً من الغرف الفارغة والرطبة، تذكر أنه قضى عدة أشهر وحيداً في واحدة من هذه الغرف... وتذكر كم بلذة عاش مع طيور السنونو ذات ربيع وكيف بنت بذاك الدأب النملي عشها في إحدى زوايا الغرفة بتلك الطريقة الهندسية الرائعة... حتى عند هذه الطيور الصغيرة المهاجرة، العمل هو أساس حياتها... ورأى بكرّ الأيام صغار السنونو تطل بأعناقها الوردية كاسرةً قشرة البيض لتستقبل الحياة، وهي تزقزق طالبة الأكل، والحياة، والطيران، تذكرّ كيف بدأ الصغار بالتمرين على الطيران، وكم شعر بحزن عندما هاجرت تاركةً أياه وحيداً مع الصمت... قال في نفسه: إذا كانوا يريدون إطلاق سراحي، لماذا ضربوني؟ لماذا اتوا بيّ الى هنا؟ دخل نفس أؤلئك الرجال الغرفة. قال محمد لنفسه: كم يتشابهون... من هم؟ أرسلوا نظرات حادة طويلة الى وجه محمد الهاديء الوسيم، وقاموا بحركات مسرحية. سأل أحدهم قائلاً: هل نقشره سيدي؟

– نعم لقد صدرَ الأمر بتقشيره...

(*) البيتان الشعريان للشاعر الفرنسي «آراغون»

قال أحدهم بصوت هادئ: إنني أحترم صلابته، وبسالته...

أجاب آخر بصوت بارد: لقد كان فعلاً شجاعاً...

أخرج أحد الرجال مدية طويلة، وعمل الآخرين الشيء نفسه. وضع الأول المدية فوق عنق محمد العزاوي، وقبل أن تنغرس حافة المدية بعيداً في لحم رقبته، عصف به روح التحدي التي لم تفارقه في أصعب الظروف، وإحتدم في قلبه شعور غاضب لهذه المعاملة الوحشية، وأرسل إليهم نظرة غضب من قاع عينيه، وصرخ: لالا... وإندفع مهاجماً بغضب أخرس على الرجل الذي يحمل المدية وصفعه بكل ما لديه من قوة، وإحتج بصلابة بعد أن أنتابته رعشة قوية للمعاملة اللاإنسانية... وشعر بقلبه يصهل صهيل الجواد وهو يرى حركاتهم الباردة لقتله... وبعد معركة غير متكافئة فصلت المدية رأس محمد العزاوي عن جسده... وضعوا جثته فوق نقالة ووضعوا الرأس المقطوع فوق بطنه بطريقة سريالية حزينة. كانت بسمة عذبة تشع ببراءة تبهر البصر من وجه العزاوي الوسيم.

الهروب الأخير

الى المبدع محمد موكري الذي يحمل صخرته السيزيفية بصبر أيوبي.

حرتُ في ترويض ذاكرتي المتمردة، والمتشظية منذ تلك الصدمة المروعة في واحدة من المعتقلات الكثيرة... ذاكرتي تزوغ فجأةً مثل لمح البصر وتتلاشى، بل تذوب مثل رقائق الثلج في دهاليز اللاوعي، وأُصبحُ إنساناً بلا ماضٍ ولا حاضر، ولا أعرف كيف أفكر، أو أخطط، أو أعمل... وتأتيني حالة التشظي هذه مثلما يأتي الصرع، وأبقى مثل المأخوذ لفترة طويلة من الزمن أحياناً، وأحياناً أُفيق لكن مع عدم القدرة على تمييز الأشياء... مارست مع ذاكرتي طقوساً عديدة، وثنية، وحضارية، وعلمية برفق وتروٍ، واناة، وأحياناً بالعنف، وعاملتها أحياناً بسادو- مازوكية، وأجبرتها على الإستسلام والطاعة في تمشية أموري الحياتية. وراحت مثل بندول الساعة تتمرد تارةً وتستسلم أخرى... ما أكثر ما أجبرتها على حل أصعب المسائل الرياضية، وأنا للمناسبة عاشق كبير للرياضيات ولي مؤلف في الفلسفة الرياضية لفيثاغورس... أجلدها كل يوم لأسترجاع مسائل معقدة، ذكريات بعيدة من طفولتي، وأيام الدراسة، وتفوقي المثير في دنيا الأرقام، وطموحاتي لأصبح عالماً رياضياً... بعد تلك الحادثة المزلزلة التي أصابت مكاناً رقيقاً في مخي، بدأت أصاب بلوثة الضعف في الذاكرة. وفي حالات الصحة أنا إنسان كل شيء فيّ منظم تنظيماً رائعاً، وكل أجهزتي الفكرية، والنفسية، والجسدية جيدة، بل رائعة، وأتكيف مع الآخرين بتلقائية، وحيوية، وأن قشرتي المخية كما أخبرني إختصاصي شهير في المخ، كأداة فسلجية مسؤولة عن التفكير عندي جيدة وفي طريقها الى تحسين أكبر. وأنا رغم إختصاصي في الرياضيات، مثل معظم الفنانين الموهوبين أمتلك الطلاقة التعبيرية، والمرونة التكيفية، وطلاقة الكلمات، وسعة الخيال، وأحياناً، يا إلهي، أجدني صنفاً من البشر ذي تركيبة بايلوجية معينة ومتميزة. غير أنني عندما أفقد ذاكرتي، أصاب بعدم تحكم غريب في توازني العصبي، وينتابني ما يشبه الشلل، والإنكماش وأصاب بأوهام غريبة، وعواطف هائجة، ويبدأ ذهني بالتحاور معي بلغة طلسمية، جداً مُلغِزة، وأصابُ لاإرادياً بالبلاء الكلامي والهذروفي... آه، لو

فقط إستطعتم أن تتأملوا وضعي وعذاباتي. أزور أحياناً بيوتاً لا علاقة لي بأصحابها إطلاقاً، وأحاور بعض المارة في السوق بحميمية حارة جداً، كلي ثقة أنني أعرفهم معرفة جيدة، وأعاتبهم، وأغضب عليهم وأدخل في معارك دونكي شوتية مضحكة، وأراجع مستشفيات أسأل بسبب إنثيال الأوهام عن صديق أصيب بنزف شديد، وأعطي عناوين موهومة لآخرين دخلوا للعلاج عن أمراض مضحكة، وأجادل، وأقسم أغلظ الإيمان بأنني على صواب وبعد مشادة حادة، مضجرة، وعراك بالأيدي أجدني ممدداً فوق السرير أُعالج، وأبقى هناك لأيام... عندما أسترجع ذاكرتي، وأتوازن، تغمرني فرحة شديدة، وتنمو موجات متدفقة من الحبور اللذيذ في أعماقي، وتتدافع لتغمرني بنشوة، وتسقط تلك الأوهام، والأفكار المضطربة عن ذهني مثلما تسقط القشور عن السمك العفن.

هذا المساء زرت إختصاصياً في المخ أسهبوا في الحديث عن براعته ومواهبه... ما أكثر الإختصاصين الذين راجعتهم، الجميع أكدوا لي أنني أتحسن بمرور الوقت لكن عبثاً... كانت غرفة العيادة واسعة وخالية بإستثناء شاب وسيم في زهاء الثلاثين، جسده ضامر نحيل، ووجهه حزين قاتم، نظراته شاردة وتبدو أكثر إرهاقاً وألماً من نظراتي. كان متعكر المزاج متجهم النفس... كان يتصفح مجلة بصمت دؤوب كمن يقرأ موضوعاً معقداً وكان بين الحين والآخر يضحك مع نفسه، أجل، ليس بعيداً أن يوجد مثله في عيادة إختصاصين في المخ. كل الأطباء الذين راجعتهم أكدوا على ضرورة قيامي بإستمرار بتمارين ذهنية مع التركيز الشديد لترويض ذاكرتي، مثلا: مراقبة الأشياء بدقة مثلما يفعل الروائي الموهوب، وحل الألغاز المعقدة بسرعة، وجمع أرقام كبيرة، وحفظ أبيات شعر صعبة وترديدها... علمت نفسي فعلاً على دقة الملاحظة، ومراقبة أصغر الأسياد مثل دبيب النملة، وقبلاتها مع بعض، وأعد عدد النوافذ في بيوت القلعة، وأعد أكبر عدد من الطيور المهاجرة وهي تقطع السماء بسرعة، وأتفرس في عيون المارّة لمعرفة لون عيونهم، ومن له شامة وفي أي مكان في وجهه، وأين يقع الثؤول البني في وجه البقال الذي يخاصمني دائماً... وكلما نجحت في تذكر الأشياء بوضوح تصبح لحظاتي سعيدة فيها دنيا من اللحظات، وأقتنع أنني فعلاً في طريقي الى الشفاء.

أطلق الشاب ضحكة صغيرة، شمرَّ شفته مثل كلب أستفز وببطء رفع إليّ وجهاً مسفوع اللون، مصفراً وقاتماً في نفس الوقت. إستمر يكرر الضحكة، والتكشيرة

الكلبية مرات عديدة وهو يشير الى مجلة... وبدافع من الفضول المحض، وكذلك التدريب على قوة الملاحظة وجدت أن الضحكة والتكشيرة فيها الكثير من الآلية الميكانيكية وكأن وجه الشاب دمية منصوبة. قلت مع نفسي : ميكانيكية عجيبة. عاد وتصفح المجلة لأكثر من عشرين مرة وكل مرة بتلهف أشد.

إنطلقت سعلات متتالية من غرفة الطبيب. إنه مشغول مع مريض، ولمجرد قتل الوقت ريثما يحين دوري حاولت أن أستغل صفاء ذهني، وأتذكر عدداً من الأحداث التي إنهالت في الليلة الماضية على ذهني كما لو قوة سحرية تفبركها، ما أن حاولت تلاشت بإستثناء واحدة. كنت متجهم النفس، ومعكر المزاج كعادتي. فجأة رأيت فتاة ساحرة الجمال تسير بخيلاً. إقتربت مني وغمزت لي، من حيث لا أدري كيف ومتى، ربما كان مع غمزتها ضوء ساطع أثار نفسي التي كانت مليئة بالغم، والقلق... وقفَتْ أمامي وأرسلت إليّ نظرة حانية ورسمت إبتسامة حلوة على وجهها، ثم بحركة سريعة أوقفت سيارة أجرة وغابت... وفي لحظات إضطرب ذهني، وإنتابني الهم والحزن.

رددت مع نفسي: لماذا هزني ذاك الجمال؟ لماذا زلزل أعصابي وحواسي ، هل أنا لكي أشفى بحاجة الى الجمال.. ربما دستويفسكي كان على صواب عندما قال(إن الجمال يمكن أن ينقذ العالم)...

أطلق الشاب بإتجاهي صوتاً مثل ذاك الذي نستعمله لطرد القطط، بستْ... بستْ... إلتفتُ إليه، إبتسم لي بحنان وأرسل إليّ نظرة تنمُ عن الطيبة، والرحمة، والشفقة، كانت إبتسامته رغم وجهه الحزين المصفر جميلة ذكرتني بإبتسامة إنسان كان يرفع من معنوياتي في المعتقل قبل أن أفقد الذاكرة. كرر إبتسامته. إبتسمت له بدوري. حرك عضلات وجهه الذابلة بطريقة فهمت منها أنه يود أن أشاركه في تصفح المجلة. يا إلهي ثمة وجوه طيبة جداً، من غير أسلحة، بوسعها وبسبب حساسيتها العالية، وعبر تحريك عضلة، أو رفة عين أن تقول الكثير جداً... ذكرتني حركاته الخرساء بتلك الطريقة السريعة والإشارات الملغزة التي كنا نتفاهم بها في تلك الغرف المعتمة في ذاك المنفى البعيد...

نهض. جاء، وبهدوء جلس لصقي وفتح المجلة وأطلق واحدة من ضحكاته الغريبة الخافتة، وأردفها بعد لأي بأصوات غريبة... وضع الصورة أمامي. إرتحت لمجاملته اللطيفة، وحركات يديه، وأصابعه الجافة الطويلة، ونظراته الشاردة، كانت الصورة التي

أشار إليها لجرارات، وحفارات وشفلات... غير رأيه وقلب صفحة وأشار الى صورة لفتاة يابانية جميلة في ملابس السباحة مستلقية بإرتخاء رشيق وبجنبها جهاز تسجيل.. هززت رأسي قائلاً: أنها جميلة... رسم تكشيرته الكلبية وأشار الى سرة الفتاة في الصورة فوجدتها مبللة وطلب مني أن أدقق بصري على السرة بالذات. ركزت نظري على وجهه الحزين الغائم ينطبع بقوة في ذاكرتي الصاحية الآن، فرأيته يرسل قبلات حارة الى الصورة ويؤشر بأصبعه على السرة. ولكي أجامله كورت أصابعي وقدمتها من شفتي وأطلقت أنا الآخر قبلات بإتجاه الصورة مؤكداً له بحركات سريعة أتقنها من الماضي البعيد هناك، وقلت بهمس: إنها جميلة... نعم جميلة... وافقني بحرارة. قلت مع نفسي: ربما أنه أخرس! أو مثلي يعاني من ذاكرته... منذ أن أصبت بفقدان دوري لذاكرتي أعاني لا إرادياً من البلاء الكلامي بتلك الطريقة الطلسمية الملغزة، ويغفر لي الجميع هذياني الذي يشبه تصرف إنسان مهزوم ظلماً في الحياة هزيمة أبدية... تأمل الصورة مرةً أخرى وأشار الى نهدي الفتاة. هززت له رأسي ووافقته قائلاً: أنت فعلاً تمتلك ذوقاً رفيعاً، أطلق ضحكة حلوة، دافئة، وهزَّ يده بحركة إنفعالية وأفهمني أنه أنا الآخر ذوقي رفيع. أردت أن أنهض، مسكني من كتفي بقوة وطلب إليّ أن أجلس، وشمر شفته بطريقة منفرة وقال بحركات سريعة من يديه: إجلس... إجلس... لا تتحرك... فتح المجلة وقال بتلك الإشارات السريعة: دعنا نتكلم عن الصورة، ربت وعلى كتفيه برفق وهززت رأسي قائلاً: حسناً... حسناً. كان بإمكان أي إنسان مهما كان ساذجاً تقدير مبلغ حزنه وجواه. عيناه خرساوتان بالألم، والعذاب... قلت له بالإشارات ما رأيك بعد الإنتهاء من الفحص أن نقوم بجولة في المدينة؟؟ وافق... يا إلهي، الأطباء بعد كل مراجعة يسألونني: هل بدأت تتكيف مع الأخرين؟؟ أجيبهم، آه، أنا لاشيء من غيرهم أعتقد سأقضي مساءاً جميلاً مع هذا الشاب... إلتفتَ إليّ وأخرج لسانه، وكان لدهشتي مقطوعاً، قدم الصورة من فيه وراح بصعوبة يلحس به مكان السرة في الصورة ويتلمظ ويطلق آهات... أستمر يلحس الصورة، وقد تحلب فمه وسال لعابه غبطة، تألمت من منظر لسانه. قدم لي الصورة وطلب مني أن ألحس الصورة بنفس طريقته والمكان. رفضت... أشار الى غرفة الطبيب، وأطلق صوتاً حيوانياً غريباً، ورأيت في عينيه شرارة الغضب، ورجاني بكل ما لدي من طاقة تعبيرية صامتة أن يجب ... يجب... إنطلقت سعلات من حنجرة جافة في غرفة الطبيب قدم الشاب عرضاً بانتومايمي من

التوسلات. رفضت. هزني من كتفي وهززته أنا الآخر رافضاً، فجأةً صفعني على قفاي وأمرني بعينيه اللتين تطايرت منهما شرارة غريبة أن يجب... يجب... ولست أعرف لماذا كان بين حين والآخر يشير الى غرفة الطبيب. إبتسمت له، وعاملته بلطف وتودد. عادت نظرات الشفقة الى عينيه، وقبل رأسي، وقرب الصورة من فمي، وعندما لحست الصورة المبللة بلعابه تمزقت بسبب اللعاب، وأصبح ثمة ثقب في السرة وإلتصقت قطعة صغيرة من الورقة على أثلة لساني. تألم كثيراً، وطلب مني والدموع تسح من عينيه أن أعيد السرة الى مكانها. نهض ووقف أمامي وهو يعض على شفته السفلى بقوة، وإشتعل في عينيه وميض في كراهية رهيبة، وأعترته نوبة حنق هستيري شوهت قسمات وجهه وصرخ قائلاً ورشاشُ من اللعاب يندفع من فمه. بصقت قطعة الورق ومسكت من كتفيه بقوة هازاً أياه... في هذه اللحظة خرج عسكريٌ برتبة جنرال من غرفة الطبيب أرسل إلينا نظرات إستعلاء وأزدراء مثل جميع أؤلئك الذين تكون ضمائرهم عادة مليئة بقيم تافهة، وسار وهو يضحك ويلتف يميناً ويساراً... أسرعت ودخلت غرفة الطبيب.

إبتسم لي الطبيب بطريقة دبلوماسية خاصة بأطباء إختصاصيين بالطب النفسي. أرسل إليّ نظرات دافئة، و لاحظت فيها لحظات إنخطاف روحي. من خلال خمائل وجهه إقتنعت أنه يمتلك نبل قلب. سألني بهدوء: حسناً مما تشكو؟؟

– أعاني أحياناً من فقدان، شديد للذاكرة.

أجابني بلطف ودماثة الأطباء الذين يجيدون تحجيم أصعب القضايا: شيءُ إعتيادي... وأضاف مازحاً: الإنسان بحاجة الى أن يفقد ذاكرته بين الحين والآخر. هل توافقني.

– أجل أحياناً مثل هروب الصوفي عندما يريد أن ينسى نفسه، أثارني وقاره الكهنوتي... قال: كلامُ جميل... إسمع، هل لديك إيمان بأنك ستشفى؟

– نعم... لكن لحد هذا اليوم حاولت مع العديد من الأطباء لكن عبثاً. الإنسان يا عزيزي الدكتور في كل مكان في العالم هو مزيج من الأمل والخوف...

– وهذا أيضاً كلام رائع... سنحاول أن نبعد الخوف أولاً. حسن... أرجو أن تكلمني عن نفسك قليلاً، وعن حالات الذاكرة وتشظيها...

– أعطيك مثلاً... أمثلة صغيرة وسريعة. أبحث عن مقدمتي لدقائق وهي في يدي،

تختلط على الأحداث بطريقة دراماتيكية. عبثاً أحاول أن أتذكر حلماً رأيته. قبل أسبوع ذهبت لزيارة أختي، تكلمت معها بحب، ولأنني لم أرها منذ مدة طويلة ثرثرت معها، ومع صديقاتها. كانت أختي حزينة، وخائفة من غير سبب وترسل إليَّ نظرات شاردة وأقول لها: أنا آسف لعدم تمكني من مساعدتك مادياً... كيف بحق السماء أساعدك وأنا أفقر من النبي أيوب أيام نكبته وصبره... كان ذاك الخوف البريء في عينيها يحز قلبي مثل سكين، وهي تردد: ألف مسافة على شبابك والأخريات من صديقاتها اللواتي إبتعدن عنها وعني كنَّ يضحكن تارةً ويندهشن تارةً أخرى. تحلق حولي عدد من الأطفال وراحوا يضحكون مني. قالت واحدة من صديقات أختي: هذا المشعوذ... الأطفال راحوا يصفقون وأختي الطيبة تزجرهم. أعطيتها كمية قليلة من النقود، رفضت... كانت خائفة، حزينة... أشارت إليَّ بيدها أن أغادر البيت. غادرت. تجولت في المدينة. تذكرت عندما عاد إليّ صحوي أنني فقدت أختي الوحيدة من سنوات وقد دخلت ذلك البيت سهواً... عبث الطبيب بشعره الفضي الجميل، وردد مع نفسه بالأنكليزية: حتماً لديه ظواهر هلوسات متحركة... أجبته بالأنكليزية: دكتور لقد تعبت من هذه التسميات ورددت بالأنكليزية أسماء أمراض نفسية مثل تعدد طبقات الشعور، الهذيان الذهني، الأجهزة النفسية المضطربة... دكتور أنني مرهق... مرهق جداً... أطلق ضحكة جميلة وربت على كتفي قائلاً:

– آه... تتكلم الأنكليزية... بطلاقة... أرسل من عينيه الواحدة نظرة قصيرة، وأغمض الأخرى وسجل في دفتر أمامهُ ملاحظات سريعة، وقال: ماذا بعد...

– إذن عندي فقدان... وعدم تمييز.

–آه... قرأت ملاحظتي، رائع، أنت إنسان ذكي... إسمع هل تحب!

– أحب؟... أية فتاة تحب مريضاً مثلي.

– أنت جميل الشكل ومثقف...

– ذات مرة، وبعد جهود من فتاة، خرجنا وذهبنا الى المطعم. بعد أن جلسنا، رنَّ شيدٌ غريب في ذهني، ورحت ألتفت يميناً ويساراً إلتفات اللبوة التي فقدت أشبالها، وشعرت أن ثمة نداءاً مُلحاً يغريني أن أذهب الى البيت. وعندما رأتني في وضع غير طبيعي، شفتاها صارتا بلون اليود. قلت لها بمنتهى الرقة أنني مضطر أن أذهب الى خارج المطعم لدقائق، غادرت المطعم فعلاً وذهبت مباشرة الى البيت، وشعرت ثمة

بنعاس شديد... أسدلت الستائر. تمددت فوق السرير، الظلمة ضيائي... حتى أخذني نوم عميق، وحلمت أنني أكمل المشوار مع صديقتي في نفس المطعم...

– ماذا عن صديقتك؟

– طبعاً هجرتني الى الأبد.

تأملني الطبيب طويلاً، وبأناة أجرى عليّ سلسلة من الفحوصات الدقيقة مستعملاً أجهزة دقيقة، وأخيراً أغمض عينه الواحدة بقوة وفتح الأخرى على سعتها، وكان لدهشتي الشديدة يكثر من هذه الحركة، وخاطب نفسه بالأنكليزية قائلاً: واضح أن هذا الشاب قد عاش ساعات قدسية من الآلام، وضع يده فوق كتفي وأخذني برفق الى غرفة ملحقة بالعيادة. أضاء مصباحاً أحمر. رأيت جمجمة ترابية اللون فوق المنضدة. قلت مع نفسي: ترى أين جزءت الضربة القوية من جمجمتي في تلك الغرفة الرطبة البعيدة؟ صاحب هذه الجمجمة كم من المرات شعر بأناة لزجة جنسية وثمالة ديونيزوسية... وكم من المرات حلم بحرارة بالبعيد والغريب، والمعقول واللامعقول... أجلسني الطبيب فوق كرسي مريح وربط أسلاكاً برؤوس مطاطية على طرفي صدغي، وأضاء جهازاً مثل شاشة تلفاز ، وغادر الغرفة قائلاً: تصرف بهدوء. سأرجع بعد أقل من دقيقة. بعد دقائق جفلت على رنين قوي، وسمعت لغباً غريباً في غرفة الطبيب وإهتزازاً للجدار الخشبي الذي يفصل الغرفة الملحقة عن غرفة الطبيب. أكدت على نفسي ببرود أعصاب أنني في أمان. فجأة أنطفأ الضوء الأحمر وكذلك الضوء البرتقالي في الجهاز الشبيه بالساعة... ربما أنها لعبة من لعب الطب النفسي... إشتد اللغب في غرفة الطبيب... سمعت تأوهات متتالية وصراخاً، وزعيقاً مخنوقاً، وإستنجادات ذكرتني بقوة بتلك الغرفة المخيفة في المعتقل. ناديت على الطبيب: لم هذا الظلام... أين أنت... إنتابني ألم وغم محضان... صرخت: لم هذه الظلمة؟ سمعت صوتاً مخنوقاً يردد بضراعة، أنقذني... أنقذني أرجوك... أنه يقتلني... صرخت: زين أنت... أفتح الضوء... أبعدت الأسلاك من طرفي صدغي، وعلى ضوء مقدحتي أهتديت الى غرفة الطبيب وتوصلت الى مفتاح الضوء وفتحتها بسرعة. رأيت الطبيب ساقطاً على الأرض ووجهه مدمي، وكذلك شعره القطني الطويل، وثمة بقع من الدم فوق الدفتر وبالضبط فوق الملاحظات التي كتبها عن مرضي، قلت: ما هذا؟ ماذا جرى؟ من ضرب الطبيب بهذه السرعة والقوة؟ لماذا... وبينما أتساءل مع نفسي، فإذا بالشاب الذي كان يجلس معي في غرفة الإنتظار بيده

آلة جارحة، يبدو في ذروة إضطرابه مثل ممثل شكسبيري في واحدة من تراجيدياته... كان يلهث لهاثاً سريعاً مثل كلب مطارد، وقف قبالتي وراح يوسع عينيه السوداوين اللتين كانتا تتفجران بالبروق، والشرارات، وهو كتلة من الغضب، والشرور، وهيجان ذهني محموم، وربما في غياب مطلق للوعي... ويتفرس فيّ بنظرات ملاكم يحاول العثور على أسهل ثغرة للضرب والبطش. تذكرت صفعته القوية ويده الثقيلة على رأسي. كان كله إصراراً لأرتكاب جريمة... إقتربت من الطبيب وأردت أن أرفع رأسه. منعني الشاب، وبتلك الإشارات السريعة أفهمني أن أتركه لينام... تريثت لكي يجزع لهيف إنفعاله، وغضبه الهستيري... قبل توسلاتي وتوددي، وحتى دعوتي له بمغادرة الغرفة. فهم حركات يدي، تنهد بعمق، وأرسل إليّ نفس تلك النظرة ألتي تنم عن الرحمة، والشفقة، وشمر شفته وأعطاني ظهره وغادر الغرفة... غسلت وجه الطبيب الذي كان بسبب كبر سنه يتنفس بصعوبة. أفاق برفق. عندما رآني قال بصوت مخنوق كمن يفيق من غيبوبة... هل ذهب... حسن. إنه مجنون... عندما قطعوا لسانه أصيب... آه... رأسي يؤلمني. منذ مدة أعالجه... يتصور أنني أغتصبت أخته وطعنتها في سرتها...

فجأةً دوى صهيل فرامل سيارة. تطايرت صرخات. ساعدت الطبيب على الجلوس. رجاني أن أتركه لوحده، غادرت غرفة العيادة. رأيت الشاب الأخرس ممدداً تحت عجلات سيارة حمل، ونظرته تنم عن الشفقة.

سرت بخطوات مهزوزة مردداً هذين البيتين للشاعر البرتغالي أنطونيو ثيسوا:

نحن لم نعش الحياة. الحياة هي التي عاشتنا
بنفس الطريقة التي يرشف فيها النحل الرحيق

من جديد صفعت ذاكرتي موجة جديدة من الإضطراب عبثاً بحثت عن بيتي...

الطيران شاقولياً

كانت السماء صافية الأديم، وثمة خيط من البرودة اللذيذة في الجو على غير عادة أواخر أيام آيار. كانت الحقول البعيدة قحلاء، والسحالي تجري هنا وهناك مثل سهام طائشة مطاردة بعضها البعض وسط العشب المحترق. منذ ساعة ونصف وهما يسيران بصمت، ويطلقا بين الحين والآخر آهات حارة... وهو ينتظر أن تتكلم هيّ، وهي بصبر نافذ تنتظر أن يقول هو ولو كلمة صغيرة... إلتفتت هي الى الخلف وأرسلت نظرة طويلة الى المدينة فرأتها هاجعة تحت الشمس مثل مجموعة من ديكورات لمسرحية تراجيدية... قالت بصوت خافت وحزين:

آه المدينة... من بعيد ترسل عبقاً أصماً... لمدينتنا رائحة عنيدة، مثيرة. صوت المدينة يتنامى بنقاء عجيب... في مدينتنا ثمة اغواء الذوبان في رحم الصمت... فيها عرفت اللحظة النابضة للحب، وإنفجارات الأحلام... تبقى كركوك مدينة ناعمة، وناعمة الى ردح طويل من الزمن... إلتفت هو الآخر الى الوراء، وبحركة مسرحية تأمل المدينة وقال:

يا إلهي، لقد إبتعدنا كثيراً... أنظري الى البيوت كأنها لوحة تكعيبية لبيكاسو، أو براك...

تنهدت وقالت بصوت خفيض وتير النبرات:

– ما أدق وأصوب تشبيهاتك...! وأضافت: أسمع يا (صادق) وعدت أن تكلمني في موضوع مهم... وكذلك عن تصرفك القاسي الأخير معي قبل أسبوع... تكلم! لماذا طلبتني أن ألتقي بك؟

قال: بصراحة يا (هبه) أنا أحياناً أكون قاسي جداً...

– بل قل وحشاً...

– ربما... لكن رغماً عني...

– صادق... أعترفُ بأنني أحبك كثيراً... وأعتراف أيضاً أنني أتحمل بسبب حبي الكبير لك الكثير من نزفك، ونزواتك ككاتب... تتهور أحياناً الى درجة تصلب بفيض غريب من الغضب، وتكون، يا إلهي، جارح الوضوح... بل وتصاب بذعر على طريقة شخصيات دستويفسكي... نعم ذعر يعتصر الصدر، وفورات من الهلع تغمر جسدك...

ومؤخراً، ربطتني مثل المهرة في الأسطبل ورحت تسوطني، وتسلط سوط لسانك عليّ بطريقة غير مؤدبة في إطلاق السباب بلغة الصعاليك والمشردين، وأنت الكاتب المبدع... لالالا... لن أقبل بعد الآن حتى إذا قبلت بهجري الى الأبد...

سار بخطوات وئيدة... قال صادق بصوت خجول: أنا جداً آسف... هبة... هبة... أنا عندما يلعق اللهب فمي، أخرج لا إرادياً من ملاجيء العقل والعادات... ياالقلبي النزوي، ياالأحلامي الخانعة أحياناً... أندم... وأشن الغارات على نفسي... أغفري يا عزيزتي لأنسان حياته فيها الكثير من الأضواء، والخسوفات وهو يريد الوصول الى الكمال... أنا يا هبة صحراء نفسي...سارا بخطوات قصيرة، أستعذبا وقت ما بعد الظهيرة، والشمس الملساء، والرائحة العنيدة خدرت هبة... أرادت تغيير الحديث، قالت: أن السماء تلمع بقوة في ظاهر المدينة... وسط بهجات من البهجة الفجائية.

ضحكا ضحكاً لاإرادياً، ومتهوراً... أستغرب صادق لتلك الضحكة الهستيرية التي لأول مرة تفلت من هبة، وكذلك لضحكته... أحتواهما صمت أخرس... شعرت بلحظات من الهدوء الوجيعة، رغبة حارة في الكلام. وصلا الى مشارف المدينة. قال: هل تأتين معي الى البيت؟

– لماذا؟

– لأنني كما وعدتكِ أريد أن أكلمكِ في موضوع مهم...

– حقاً لنذهب إذاً.

كان بيت صادق مبنيّاً فوق تل مرتفع ... وصلا يلهثان. دفع الباب برفق، وأخذها الى الغرفة التي كان والده يسميها –غرفة الحب– وهي غرفة صغيرة مؤثثة بطريقة رومانسية جميلة، فيها نافذة تطل على وادٍ عميق، يكون بلون الزمرد الحقيقي أيام الربيع، وقاحلاً، موحشاً في الصيف... جلب لها كأساً من العصير، ولنفسه قنينة جعة. قالت: أكيد أن والدك كان مذواقاً جداً...

– كان شاعراً موهوباً، وثرياً جداً. تناقض غريب، أليس كذلك؟

–جداً.

– كان همه الأكبر رغم أمواله الطائلة، هو، كشف الجمال في القبح.

– ما هذا التناقض؟

– الإنسان يا هبة مجموعة متناقضات معقدة مثل نسيج العنكبوت... في هذه الغرفة

الصغيرة فقط كان يرتاح لمغازلة والدتي، وكتابة قصائده، وقراءة مجلدات في علم الجمال... كنت أراه هنا مثقلاً بضرب من النورانية الأرجوانية، رهيف النظر مثل الصقر ينظر الى صور الزمان المعطلة، يحاول الوصول الى عالم الصفر، والغريب يا هبة في هذه الغرفة أيضاً كان يغازل النساء القبيحات، والإنغماس في ضروب الفسق، وتخاليف المجون.

– شيءُ غريب...

وكان يصاب مرة في السنة بأوهام غريبة، ومخاوف لا أساس لها، وأساجيع لحوحة، ممضة، ويبقى لوحده كما لو سعقه مس غريب... كان بأختصار يتصرف مثل البوذي الذي يبحث في الخلاص عن الخلاص... عندما يغادر الغرف تعرف والدتي وكذلك أنا طبعاً، أن حيرته قد إنتهت.

– هل كان يعاني من مرض نفسي؟

– طبعاً... لا يوجد إنسان سوي تماماً... كان عندما يضحك تشعرين وكأنه في ذروة السعادة، والنشوة، والفرح، لكن ما أن تنطفيء الضحكة من على وجهه يتحول ذاك الوجه الى كتلة من الكآبة والحزن، ثم يرجع الى هدوئه... لكنه يا إلهي، كان يمتلك قلباً متموجاً...

– تقصد كان دائماً في حب.

– بالضبط... وكان رغم ثرائه الكبير يأكل وجبات بائسة، أو يأكل أي شيء، ويقول لي: صادق، البدائيون في غابات البرازيل عندما تحجزهم السيول يأكلون يرقات الزنابير والنمل... أقول له: لكن بابا، أنت لست بدائياً، ولم تحاصرك السيول؟... كان يرد عليّ:آه... لقد تعلمت من المفكر الفرنسي تاليران:(كل شيء يحدث... نعم كل شيء يحدث) شربت هبة بقايا العصير في القدح بإستمراء، وأرسلت نظرة طويلة من خلال النافذة التي تطل على الوادي، وبدت شفتاها الممتلئتان أكثر إمتلاءاً وبلون الكرز، أما عيناها فكانتا ساحرتين وهما تراقبان الوادي العميق. قالت:

– كم يعجبني أن نسير معاً في هذا الوادي...

– لكن لا طريق للوصول الى أسفل الوادي...

قالت، وهي، تفتح مجرى جديد لروح التحدي: يجب أن يكون... يجب... تأكد في الربيع المقبل سأنزل الى أرض الوادي وستراني ثمة... أن قلبي كما لا يخفى عليك في

التحديات برونزي خالص...

– هراء... هراء... من يستطيع أن ينزل الى هذا المنحدر الشاقولي؟؟؟

– سترى... هذا المنحدر الشاقولي وحده سيمنحني القوة وسترى كم أنا صادقة يا صادق... أنت تعرف عندما تستيقظ طباعي التمردية...

– حسناً... جربي الآن...

– لالا... ليس الآن... لأنني في الربيع وأثناء نزولي لو تزحلقت وسقطت ومُت يحضنني ويغطيني العشب الزمردي وأزهار النرجس وأنت لن تراني حتى يأتي الصيف.

– عندئذ لا أرى سوى هيكلكِ العظمي.

– نعم... وأكون إذ ذاك في قلب الطمأنينة، لن تلمسني، وبعيداً عن كلماتك الجارحة...

– سأنزل الوادي لألمس عظامك.

– مستحيل... لن تستطيع... وتردد كلماتي كلما تنظر الى عظامي.

كانت هبة ذاتاً رائعة، أما الآن فهي مجرد عظام.

أوهام ... شبح... هاهاهاها... لكن روحي يا صادق تبقى مثل طيف والد هاملت تحوم حول غرفة الحب هذه وتدخل من النافذة ترتل ترانيم حزينة، وتؤكد لك كيف تحدت عمق المستحيل ونزلت الى رحم الصمت الأبدي...عندئذ يا صادق ستبحث بسبب عمق ندمك عن كلمات فوق بشرية في صيدلية ثروتك اللغوية في محاولة عابثة لترطيب ولو جزء من ندمك...

– ياإلهي. ما هذه الرومانسية يا هبة؟

– وأقول لك من خلال عظامي على الطريقة الريطالية: صادق هل تتذكرني أنا – بيا– بيا(*)

للمناسبة يا صادق، أيُّ شيء تتذكر عني أكثر إذا مت؟

– آه... دعيني أنا الآخر أكون رومانسياً معكِ... أسمعي، في غراميات كارمن، عندما هربت كارمن الجميلة من دون خوزه لم يتذكر م جمالها الفتان أي شيء ، بل تذكر جوربها المليء بالثقوب...

(*) بيا: تعبير يتردد على الألسنة الإيطالية عند الفراق بين العشاق. وكلمة بيا معناه: الصالحة، الرحيمة، الطيبة جداً.

– آه... أيها اللئيم... جوربي المثقوب... هاهاها.

– أيتها الحالمة.

– أيها الضليع في خلق اللذات اللفظية.

– أيتها المتوحشة القديسة.

– أيها القلب البرونزي...

بعد صمت طويل رددت بصوت هامس: أجل ... أنا حالمة... صدقني بمناسبة أحلامي الكثيرة، حلمت وقد منحت جائزة نوبل في الأدب... وكنت أسير بخيلاء وأنا أرفل في فستان حريري بلون المحار ماسكاً يدك، وكاميرات الحفيين ترشك بأضوائها، وأنت ياإلهي، تسير بوقار أمير وسط حشد من الناس، ويرمح أمامك وخلفك رجال يدارون عنك زحمة الجماهير وهجومها...

– هاهاها... هذه ليست رومانسية... إنما... أضغاث أحلام... كوابيس... هاها... جائزة نوبل... هاها... نكتة.

– وهل هذه الجائزة لعبة لكي تمنح لي؟... نكتة...هاهاهاها.

رفعت يدها وكأنها توقف رداً عاجلاً: طبعاً... طبعا... لم لا؟... تماماً على طريقة والدك وهو يردد كلمات الفرنسي تاليران (كل شيء يحدث... نعم كل شيء يحدث)... فاض وجهها حنواً، وألماً، وإبتسمت في هيام، وذهول، وحنان تشطح حد الوجد معبرة عما بها من فرح دابق ممزوج بألم جميل، وعيناها تقولان: أجل، الأحلام الجميلة لأن فيها الإنتصارات . الصعبة تكون سهلة.

– ساد صمت طويل. قالت بصوت خافت

: ما بك؟

– لا شيء.

– أنتِ شاردة...

–شاردة؟؟ لا... أنا أنظر إليك... أتعرف كيف أراك الآن؟

– كيف؟

– كما رأيتك أول يوم قبل ثلاث سنوات وتعرفت عليك وبيدك رواية تولستوي الصغيرة (موت إسفا ايلج).

– كيف وجدتني، ورأيتني بالضبط؟؟

– مرحاً… أنيقاً… جذاباً… وبوسعك أن تستحوذ على قلب أي إنسانة مزهوة بجمالها، أو متعالية ومتطاووسة.

– ماذا بعد؟

– بعد أشهر وعبر لقاءات متتالية أصبحت رغماً عني متيمة بك… هاهاهاهاها… بعد سنة، أصبحت عنيفاً قاسياً سليط اللسان، وتصاب بنفس نوبات والدك… صادق منذ أن أفتقدت عواطفك التي كنت تبثها إياي، تلك العواطف الدافئة التي كنت تقطرها في أذني برقة بالغة البهاء، وتهوّر عبرها مشاعري كلها، وأعيش عبرها وهجات من البهجة….

توقفت عن الكلام. أخذ يدها وقبّل أصابعها أصابعها وقال: هبة… أنا رجل مريض… مضطرب الأعصاب… متوتر… مخمور بمشاكلي، مزحوم بأفكار ملتهبة. قاطعته قائلة، وهي تبتسم إبتسامة هي مزيج من الحنان، والعذوبة، والقلق: إن حدسي الأنثوي لن يخونني أبداً.

– بخصوص ماذا؟

– رغم كل شيء أنت إنسان طيب في أعماقك…

أطلقت آهة حائرة وأضافت في ود حزين مكتئب: لكنك أحياناً عنيف… جداً…

– أعرف… وأعترف… لكن رغماً عني… إسمعي يا هبة، وأنتِ حتماً لديكِ قابلية الإستماع. أرجوك، من غير غضب، وتوتر، وإنفعال…

تأملتني للحظات، دهشت من جمالها الصارم الأجرد كما لو أنني أراها لأول مرة، كانت تنظر إليّ من خلال رعدة ذهنية. قالت:

– تكلم… لدي قدرة الإستماع…

فجأة نهضت وأقتربت من النافذة وراقبت مجموعة من الغربان تتموج فوق الوادي.

قالت: إلهي… الطيران شيء جميل… الوادي عميق… عميق جداً. صادق… كيف، لماذا إهتدى والدك الى هذا المكان المرتفع وبنى هذا البيت الرائع؟؟ أعتقد أن في دم والدك قليلاً من الدم الغجري.

– كيف؟

– الغجر فنانون في إيجاد الملاجيء الآمنة حتى في الصحراء، حسناً… تكلم… تكلم… ماذا تريد أن تقول… ماذا؟

– هبة… بصراحة… أنا وأنتِ لن ننسجم مع بعض إطلاقاً.

– لماذا؟؟؟

– أنا بطبعي المتهور، العنيف أحياناً، وأنت بطبعك الرقيق العذب، والعنيد مثل عناد اليكترا، والمتمرد جداً، لن ننسجم… من الظلم أن أجعلكِ تعانين من نزواتي… عبثي… وأنتِ بصراحة ملاك… أما أنا متشظي الذهن، مزاجي، بوهيمي، أجري أحياناً مثل أي متشرد الى سواحل تفاهاتي، متقلب مثل النهر… صدقيني أنني لا أصلح لك… أبداً… أبداً… فتاة رائعة مثلك تستحق حياة حقيقية.

ظهرت في الغرفة بقع لمعان سني. قالت: آه، الشمس ترسل تحياتها لنا… نحن إذاً نقترب من المساء … ثم ماذا؟ أستمر… تكلم…

– أن شابة مثلك يا هبة يسير معكِ حظكِ الجميل في ركابك… ربما حظكِ معي كان سيئاً… سيئاً جداً صدقيني معي ستتنفذين حظكِ الجميل شذرةً شذرة… أن حظكِ الرائع هو الذي يدفعني الى هذا الإعتراف…

توقف صادق عن الكلام، من خلال نظراتها عرف وقَدرَ مبلغ الذي أستقر في جوانحها. وكيف راح يصطخب في عقلها. الآن أراد أن يستمر، غير أنها أرتجفت في ألم، وراح يتكاثف ويتحول الى عجز، ويأس، وحب فياض أيضاً… إستطرد صادق قائلاً: أنا يا هبة أحد أتعس مخلوقات الرب. أنا عواطف متقلبة، متلونة… أنا أكثر من إنسان واحد… أنا عدة شخصيات.

إستمعت إليه بهدوء، وألم، قالت: هل أفهم منك ومن كلامك أنك تريد أن تطفيء وهج تلك الأيام التي عشناها؟؟؟ أيام أشتعلنا فيها حباً للحب؟ للكتابة؟ للكتب؟ للقراءة؟ للمعاناة؟؟

– ليس أنا الذي يطفيء وهجها، إنما قدري، جبلتي، مرضي. أنا مثل والدي مليء بالكآبة، والحزن، وأحياناً بالشراسة. أنا برجوازي تافه…

أخذ حسوة ناعمة من الجعة، وتلمظ قائلاً: أنت فتاة ساحرة… أنا نهر يجري بسرعة…

توقف عن الكلام. ساد صمت أخرس. فجأة أنخرطت في بكاء حار، وراحت مثل سمكة كبيرة منتزعة من الماء تختلج متشنجة تطلق آهات مخنوقة. نظر الى خديها المخمليين والى عينيها الغائمتين بالدموع، وردد مع نفسه: أن المرأة تكره الحقيقة… قالت عبر شهقات حارة، دامعة: لماذا تركتني أحبك… لماذا؟

–حماقاتك... وكذلك حماقاتي.

– حماقاتي أنا؟

– وعقلك الرصين أيضاً.

– صدقيني ليس عقلي هو الذي يهيء للعبة... أن عقلي مثل عقلك المتنور يكره الشر، والإيذاء... أقول حماقاتي. الكثير من الشرور تأتي عن طريق الحماقات... إنني لا أصلح لك.

– إذاً أنت تصر أن ترميني في يأسٍ قاتم.

– هذا إذا أصررت أن تستمعي الى حماقاتك!

– هل يعقل أن يحدث هذا؟

– تذكري تاليران: كل شيء يحدث.

– هل كنت تعبث معي؟

– حاشاك... حاشاك... كنا في الحقيقة نعبث معاً بطريقة بريئة. أنا لم أعدك بشيء إطلاقاً... كنا نضيع معاً فائض وقتنا... قلت وكأنها تفيق من حالة خدر رفيق هانىء: ماذا؟ أين أنا... أقصد يجب أن أذهب... ما كل هذا العبث...؟

كانت صراحة صادق الحادة قد خلخلت ذهنها وباعدت بين إدراكها للزمن. وتزاحمت الأفكار المشوشة تصفع رأسها... تأمل صادق شعرها الذهبي الضارب الى الإحمرار. قالت بصوت خافت من خلال شفتين راحتا ترفرفان بطريقة حزينة وعيناها تومضان شراً: أتعرف ماذا سافعل؟

– ماذا؟

– صدقني، أكرر صدقني سأطير ذات يوم الى أسفل هذا الوادي العميق... أو أذهب لأعيش مع ذاك الرسام الطائش الوقح المتهور...

أرسلت إليه نظرة عبث وقالت بحرارة: لقد عودتني أنت على إستمراء تعذيب الذات... أي ضير أن أكمل مشواري مع فنان أكثر تهوراً منك...

نهضت وسارت في الغرفة الصغيرة. إنحنت لتلتقط حقيبتها... راى ذاك المنحدر الجاري بين نهديها. وحمرة وجنتيها، ظلت واقفة بهيئة جامدة، بليدة وكأنها تمثال.

قالت: ثق سأنفذ واحد من القرارين... إذا ذهبت الى الرسام سأجعله بإرادتي أكثر تهوراً وجنوناً... تأوهت وهي نهب لشعور العراك: معه... معه سأرتكب حماقات أكثر...

سأحرق بقية حياتي هذه المرة في عبث حقيقي... سأكون مثل آلهة الأغريق –ايرين– ربة الإنتقام... لا لأنتقم من الأخرين بل من نفسي فقط... لقد علمتني يا صادق أروع وأبشع طريقة للسقوط من عربة الحياة.

غادرت الغرفة مثل العاصفة. راقبها من خلال النافذة المطلة على الشارع تسير بخفة وكأنها ظل. بعد أسبوع واحد وجدوا جثة هبة أسفل الوادي، وأقسم رجل عجوز أنه شاهدها بعينيه تطير مثل صقر وهي ترفل في ثوب بلون الحشيش الى أسفل الوادي... ظل صادق لسنوات طويلة كلما دخل غرفة الحب الصغيرة يسمع صوت هبة وهي تردد بإلقاء مسرحي: (حقيقتي الصحيحة لا أخافها... صادق انا بيا... بيـــا) ويصاب صادق بواحدة من النوبات الهستيرية كوالده ويغمى عليه مثل المصاب بالصرع.

أنجيلكو(*)

في نوبة حماسة إبداعية، صرخ الروائي بغضب هستيري على طريقة دستويفسكي الذي كثيراً ما كان يتخاصم بغضب بركاني مع أبطال رواياته، صرخ قائلاً لبطل روايته: منذ أيبوع وأنت لا تريد أن تنهي هذا الحوار المحموم معي... أقول لك توقف عن هذه الترهات... أغلق فمك... أخرس. أرجع الى مكانك، ولا تقترب مني. هيا حد عن طريقي وأرجع الى مكانك... ألا تراني أعمل؟ ألا ترى هذه الكومة من الأوراق؟ ألا تعرف وتقدرصعوبة عملي!! بل من غيرك يعرف صعوبة عملي لأنك تعرف كم بصعوبة خلقتك؟... حقاً ماذا تريد مني؟ منذ أكثر من سنتين وأنا معك صباحاً، ومساءاً، وليلاً، بل حتى في أحلامي معك. خلقت منك فناناً تشكيلياً متميزاً، بل فناناً حتى رؤوس أصابعك... حسن... الآن أبق حيث أنت بسلام مع بقية الشخصيات الوديعة التي تحيط بك... أنظر كم بوداعة أستسلمت لقدرها... أما أنت! يا إلهي، منذ مدة تهذي، تصرخ، تتمرد، ترفض، تجادل، تعاند، تتزلف، تهمس تارة، وتفح... إبق حيث أنت، وقدم نفسك كما خلقتك الى كل من يريد أن يتعرف عليك... أجابه بطل الرواية بصوت خافت حزين: آه لو تعرف أن هجرك لي سيجعلني أشد إيحاشاً، وألماً، وغماً من فقد حبيبتي... إلهي، أن تتركني وأنا في ذروة إنتصاري كفنان، وفي نضارة شبابي، وإزدهائي... تهجرني بعد أن بعت لوحة لناقد أوربي مرموق... سنتان وأنا أنمو بين أصابعك... سنتان وأنا آنس لك أكثر بكثير من أنسي حتى لحبيبتي، وبقية المجموعة في الرواية.

أرجوك... أرجوك... لا تهجرني... ردد هذه الكلمات بحنان حار...

راح الكاتب في تأملات مستعذبة كما لو أخترقته هذه الكلمات بموجه من الحنان، وقال مع نفسه: حقاً أنا الآخر قضيت أشهراً جميلة، وممتعة، وصعبة أيضاً معك، ويصعب عليّ كثيراً فراقك... وتخيل وجه بطله الراشح بأعذب الملامح، والضحك الصافي البريء، والنظرات الآسرة، والأصابع الأنثوية الطويلة المبدعة وهي تمزج الألوان بحركات رائعة، وذاك الحماس –الفانكوخي– للعمل، وتجسيد أكثر الأخيلة تعقيداً،

(*) أنجيلكو: راهب ورسام مشهور من رسامي عهد النهضة.

وهلوسة، ولا معقولية في لوحات رائعة... أجابه الروائي بحنان: لكن الى متى يا عزيزي تريدني أن أبقى معك؟؟ الى متى؟ لقد إنتهى دورك هنا، وأنتهت الرواية الى الأبد...، وإنتهت بالتالي مهمتي، لكل شيء نهاية... لقد جسدتك كفنان، وكحكيم، والحكيم يا عزيزي من عرف حكمته... سأله البطل بقلب واجف: تتركني وأنا في حمأة هوسي الروحي والإبداعي؟؟ وفي أوج حبي للعمل، للحياة... لا أعرف لماذا أشعر كأنني من غيرك لا حكمة لي...

– هراء... هراء... لك حكمتك... ثلاث مئة صفحة وأنا معك خطوةً خطوة، أحلم معك، أفكر معك، أتعذب معك، أقلق معك، وأضطرب معك، وأكتشف معك... ياإلهي لقد إستنزفتني...

– ربما... ربما... لكنني بدوري تركت لك الأدب... أرجوك أستمر معي لردحٍ آخر من الزمن...

– أجل تركت لي الأدب، لكن من غير أن تعرف البتة كم أستنزفت مني شحنات من قواي الأصيلة... لالا... مستحيل... لقد إنتهى كل شيء بيننا...

صرخ بطل الرواية بصوت موجع! الى أين تذهب بعد أن تتركني؟ ماذا ستعمل؟؟ يا رب. لكم أدمنت عليك... أدمنت بجنون... أنت الآن في كل بوصة في جسدي...

– ياعزيزي، أنا الآخر أدمنت عليك، لكن يجب أن أهجرك... يجب أن أبحث عن شخصيات أخرى. وحيوات أخرى، وعوالم أخرى... وهلوسات أخرى... أخرى...

– وهل تجد من هو أعذب، وأطيب، وأنبل، وأكثر موهبة مني، يعمل بنكران ذات لخلق فردوس حقيقي من اللوحات للآخرين...؟؟ إنك بهجرك إياي تقتلني... كنت في الرواية أردد أحياناً كلمات يانوس بيلينسكي بحرارة (آه، أحياناً يا عزيزتي أخاف ألا أستطيع أن أموت) وها أنتذا الآن تغلق في وجهي الكتاب، وتميتني برفق.

– لكنك لا تموت بسهولة... أنت ثمة في الصفحات تجول وتصول... أنت حي...

– لكنك بمجرد أن تهجرني أموت.

– ياإلهي، لا بد أن تموت ذات يوم... أنت لست مثل آلهة أجدادنا البابلين لتعيش الى الأبد ... هناك شخصيات لكتاب عظام ماتوا، ويموتون برفق، حدق بطل الرواية بإندهاش مشدوه الى الروائي غير مصدقٍ نفسه البت، وظل يتأمله تأمل المتحري الشديد بإنتباه، وقال بصوت أقرب الى الهمس: إذاً ستبحث لا محال عن شخصيات

أخرى، وتعيش أياماً، وأشهراً جميلة معها وتجعلني أشيخ...

– طبعاً... طبعاً... أن الدخول في جنة تولستوي، سرفانتس، فلوبير، بلزاك، دستويفسكي يحتاج الى عمل شاق جداً، ومتواصل... طبعاً يجب أن أبحث .

– وهل شخصيتك الجديدة أحب إليك مني؟

– رباه... ما هذه الغيرة النسائية... من يدري!! ربما تكون شخصية شريرة، أو شجاعة الى درجة متهورة، أو أروع بكثير جداً منك...

– وأنا... وأنا أموت هنا كفنان...! متى سأموت؟

–يالجنون الإرتياب... حسن لا أعرف متى، لكن بعد عشرات السنين.

– ماذا يحدث لي بالضبط؟؟

– تشيخ مثل بطل كل رواية...

– لكنك قلت لي أنني سأبقى أعيش طويلاً مثل ذاك الفنان الإيطالي الراهب –أنجيلكو– أتعبدُ مثله بالفن... أنت تعرف أنني مثله حالياً عندما كان يغتسل، ويقرأ الأوراد، وتنهمر الدموع من عينيه أثناء الرسم.

– أجل... أجل... هكذا سيعترف عليك القارىء تماماً... يراك مثل –أنجيلكو– لكن هذا لا يعني أنك لا تموت وتُنسى. إنها لعبة جميلة يجب أن تنتهي ذات يوم... أن تكون شخصية ديناميكية يجب بالحتم أن تنتهي ذات يوم...

– كانت حبيبتي التي ماتت تردد كلمات ريلكه (أيه، يا قطب اللعبة التي يخسر بها اللاعب كلما ربح) إذاً سأخسر أخيراً كل ما ربحته؟

– طبعاً يا عزيزي لقد كانت هي أكثر واقعية منك وتقبلت مصيرها...

– لكن لماذا –أنجيلكو– لم ينس؟ أنه من مئات السنين يذكر...

صرخ الروائي بصوت مثل الصفير: لكنك لست –أنجيلكو–؟ أنت نفسك و –أنجيلكو– أعظم منك... أنت هو أنت... وحتى أنجيلكو العظيم بطريقه الى النسيان... هاهاهاها... ها أنذا مرة أخرى أرى دموعك الحمقاء... السريعة التدفق من عينيك... نظر الروائي بذهول الى بطله الذي راح يجفف عينيه برفق... عينان مذهولتان لهما من شدة الخوف، والإضطراب الداخلي لون الطيف... غمم مع نفسه: حتى –أنجيلكو– راح يُنسى! كيف!؟ حتى أنجيلكو صاح الروائي: نعم يا حبيبي حتى أنجيلكو... هكذا هي الحياة دائماً تحب الجديد... أن هوسك بالحياة ليس عقلانياً، بل حسياً أكثر مما يجب... أفهم أن كل شيء

الى الذهاب... الذهاب... أجابه بطل الرواية بصوت مثل المواء:

– لكنك تناقض نفسك...؟

– أنا؟ كيف؟

– قلت على لسان أحد أصدقائي الذي عاش معي، وكان معجباً بي، وبلوحاتي (أنك أيها المبدع خلقت وتنطبق عليك كلمات الشاعر لأمارتين التي تقول «أعلم أن سلطان الزمن لا يكون إلا على ساعتك، وأيامك لا على نفسك وأحلامك» أطلق الروائي ضحكة هستيرية، وهو، يقول، ويردد: حالم... حالم... مهووس. أنك تريد أن تغتصب حتى الزمن... هاهاهاها... مهووس... الى درجة اللعنة... مهووس بالحياة... بالخلود...)

– ومن لا يعشق جنته الوحيدة... أنت تعرف أنا روحاني عميق لهذه الحياة. أنا أنجيلكو لكن عراقي، مهووس بالكمال، بالخلود، وأكثر عناداً من جلجامش.

– هاهاهاها... أنت خيالي... خيالي يا عزيزي. أنت لست أكثر من كائن متخيل... مُ... تَ... خَ... يّ... ل.

– ربما لكن الحياة والأحلام هي مستودعي الروحي... أنني مثل تموز أكرر حضوري دائماً... سترى... سترى.

– مستحيل... أنت مجرد بطل رواية... كائن متخيل... تعيش ثم تموت برفق.

–ربما... لكن فيّ الكثير من الأشياء المغلقة في أفكاري، مواضيعي، مشاعري، لا يستطيع كل واحد، وحتى أنت صانعي الوصول إليها بسهولة، لذا سأستمر... سأستمر.

– هذا هذيان حالم... أنت نرجسي، تفكر بنفسك أكثر مما يجب...

– ثم ماذا؟

– دعني أعترف أنني فعلاً لم أكن أعرف هذه الجوانب في شخصيتك... يبدو ثمة أشياء خارج حدود معرفتي... أفكار لم أنتبه لها ضخمت عندك أفكاراً غريبة.

– إذاً تعال وأبدأ من جديد... هذه المرة لا مانع لدي أن تدفعني الى الجنون. ضعني من جديد ومن غير رحمة في تنور أفكارك... أخلقتني مرة أخرى.

– لالا... مستحيل... هاها.

– أنا أحبك... حب فان كوخ لغوغان، حب بول فرلين لرامبو، حب أنجيلكو للأوراد، والصلاة والرسم... أحبك.

– لالالا... أعرف أنك هذه المرة ستتمرد عليّ، ولن يكون بوسعي لجم حصان

حماقاتك... من المستحسن أن تبقى مغلقاً حتى عليّ في نواحي كثيرة... نعم لا أريد أن أفهمك أكثر مما فهمتك. أعتقد من الأحسن أن تكتف بالقدر الذي أعطيتك... أنك لن تعرف الإعتدال...

– ماذا تريدني أن أكون معتدلاً...؟

– بالضبط...

– لكن الأعتدال ينفي بهجة الحياة... يا عزيزي أنا وأن كنت أشبه الراهب الفنان أنجيلكو في نواحٍ معينة، لكنني أيضاً أحب التطرف... التطرف وحده يجعل ألياف جسدي تشعر بلذة مجنونة...

– أتعرف أنك رغم ثقافتك، ومواهبك تريد أن تخرج من جنتك!؟

– كيف؟

– بسبب حماقاتك، وطلباتك الكثيرة وإلحاحك...

– لقد علمتني بأن الحماقات لا يرتكبها الحمقى فقط... قلت لي أن المَآسي التي أصابت البشرية أرتكبها العقلاء وتحت ذرائع شتى...

وأنت أيها الثرثار تريدني أن أبقى معك الى أن أموت تحت ذرائعك الغريبة والمتطرفة... ماذا؟ أنك لا تريد أن تموت أبداً: أأنت عبد حتى تخاف الموت! إذهب وأنسجم مع نفسك، وعالمك، والشخصيات الأخرى داخل الكتاب، ولا تجبرني أن أستعمل معك كلمات قاسية... ماذا تعتبر نفسك؟ طائر الجنة المطلق الكمال؟؟

– أنا فنان حتى رؤوس أصابعي كما صورتني...

– أجل... بالنسبة لي أنتهيت.

– أنت كذاب.

– أنت كلب.

– كلب! نعم، بالضبط مثل الكلب المتفلسف –يكيه– الذي قال عنه السيد –برچيه (أن كل ما ينبعث به صوتي له معنى، أما سيدي فيجري من فمه هراء... هراء).

– إذاً أن كل ما جرى، ويجري من فمي هراء... هراء؟؟؟

– بالضبط...

صرخ الروائي بقوة... إذهب إليها أيها الكلب المتفلسف... ما كان يجب أن أعطيك كل هذه القيمة...

– الموهبة يا خالقي الحبيب هي تعاون الكل مع الجزء... من غيري ما كان بوسعك أن تخلق شخصية شبيهة بأنجيلكو...

– يالك من جزء متعب... متعب...

نهض الروائي وبعصبية، ركل تلاً من الأوراق بقدمه... تبعثرت الأوراق في الهواء مثل فراشات بيضاء كبيرة...رفرف صوت بطل الرواية بجرس فيه أسف بالغ. سيدي... سيدي... عفوك... عليّ أن أردد كلمات صديقي الفنان الفاشل (سأطلب الغفران لأنني عذبت نفسي بالأكاذيب)(*) ألقى الروائي نظرة على الأوراق المبعثرة، وقال بصوت خافت وحزين (لكنك يا عزيزي لست مجرد أكاذيب، بل مزيج من الحقيقة والأكاذيب. والأحلام، والرؤى) وأنت أخيراص كائنٌ متعب...

(*) الكلمات للشاعر رامبو

العودة الى مدينة آرنجا

(لقد ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين الشيطان
يجرنا هنا وهناك ويديرنا الى كل الجهات)
بوشكين

هل كان الوقت صباحاً؟ ظهراً؟ مساءاً؟ لا أعرف لأننا داخل تلك السيارة الشبيهة بالتابوت كنا نعيش ضرباً من الزمن الكاريكاتوري المضحك. زمناً غريباً، غامضاً، سريالياً، زمناً من صنع الآخرين.. ولما كان الإنسان بالضرورة متزمناً، فنحن كبشر بالحتم كنا نعيش في الزمن، لكن يا إلهي أيُّ زمن؟ عبثاً حاولنا أن نتعرف عليه.. هذا النهار كان نهاراً غائماً ومضبباً كمعظم. النهارات، وممطراً، وكل شيء بلون الرماد... كنت جالساً مع عدد ممن أجبروا على السفر داخل هذه السيارة التابوت. وهي تهتز، وتتمايل مثل سفينة تعبث بها الأمواج وكانت السيارة تخرج ضروب الأصوات المزعجة. لم يكن أيُّ واحد منا يعرف الى أين كانت تلك السيارة المخيفة الشكل تأخذنا، كنا نجلس طوال ساعات بصمت، وإذا تكلمنا حتى بصوت خافت، أو بهمس، كانت أصواتنا تدويّ داخل السيارة كما لو أنها تنبعث من مكبرات للصوت. كان رجلان مسنّان ظلا ملازمين لبعضهما منذ أن حُشرنا داخل هذا التابوت، سويةً مع شابين رقيقين جداً وحدهم كانوا يتكلمون طوال السفرة المجهولة المصير، أو أثناء توقفنا في محطات مجهولة غريبة مضببة. وكانت معنا أيضاً إمرأة شابة تكلمت مرتين فقط عدة كلمات. وثمة شاب آخر وسيم خجول، رقيق صامت لم ينطق بحرفٍ واحد، ظلَّ منذ أن أنطلقنا منهمكاً يرسم صوراً جميلة من مختلف الإتجاهات لطائر القبج الجبلي. قال العجوز الأول بصوت منطفىء لزميله:آه.. يا زميلي.. يا صديقي أعرف أن سمعك ثقيل. أنا لا أتكلم عن الشيخوخة فقط.. أنا أتكلم عن الشيخوخة الحقيقية.. أجابه الثاني بإندهاش شديد: وهل هناك شيخوخة غير حقيقية؟

– طبعاً.. طبعاً.. أنا مثلاً كومة عظام الآن.. أعاني من شيخوخة المفاصل. هناك عطب في إسطوانة عمودي الفقري. بإختصار تدهور كامل في حالتي الجسدية هل بحق السماء أستحق أن أقحم في هذا التابوت، وأعاني تجربة مخيفة مثل هذه؟ أطلق

الثاني تنهيدة حارة وقال: طبعاً لا يا عزيزي.. صدقني أن جهود الإنسان لا تكفي إذا دخلت معه الحياة في مسألة ظالمة...

– طبعاً.. طبعاً هذه الدنيا يا عزيزي مثل هذه السيارة لغز، أحجية.. أحجية غريبة...

– ترى ماذا يعني الإنسان بالنسبة للكون؟

– هاهاهاها.. لا شيء إطلاقاً.. ظاهرة كيمياوية.. شيء عادي مثل ملايين الأشياء.

– أوه متى سنخرج من هذا النسيج العنكبوتي؟

– لاأعرف.. أعتقد يجب ألا نفكر بأنفسنا.

كان منظرهما وهماً يتكلمان بصون يتجسد داخل التابوت بشكل قوي.. كل شيء فيهما كان يثير منتهى الشفقة. كانا عندما يتكلمان يئنان بحزن. قال الأول: في مصير مثل هذا يا عزيزي يجب أن نقوم بواحد من الأثنين أما القبول والإذعان لمصيرنا، أو الغضب والتمرد، أو الهروب...

أجابه الثاني: هاها.. الهروب؟ أنت تطلب المستحيل من كومة عظام. لالا.. لن أغضب ولن أتمرد ولن أهرب.. سأبقى وأعيش على ذكرياتي داخل هذا التابوت.. هاها.. الهروب.. بالمناسبة كم يوم مضى ونحن داخل هذه السيارة؟

– لا أعرف.. ربما من ثلاثة عشر يوماً، شهراً، سنة. لا أعرف.

– آه.. أتعرف لماذا يتشاءَم الناس من هذا الرقم؟

– لا لا...

– لأنه يأبى الإنقسام لذا أصبح بغيظاً هاهاهاها...

– هل لديك ذكريات.

– من منا ليس لديه ذكريات؟

– كلمني عن بعضها.

– لا لا.. ذاكرتي شاخت.. أعتقد أنني سأموت في المحطة القادمة.

كان قائد سيارتنا التابوت شاباً في حوالي الثلاثين، مقطب الوجه عدائي النظرات، ولم يحدث قط أن فتح فمه أو نطق بكلمة واحدة منذ أن بدأت رحلتنا.. عيناه هما لسانه.. لغته.. كان يوزع علينا أوامر بعينيه فقط. وتعلمنا بدورنا لغة عينيه.. ثمة وميض حاد، ومخيف يشرق في سماء عينيه يبعث الرعب في الأعماق. وكان عندما يغضب لعصيان أحدنا ولو بحسن نيّة، يتحول الوميض في عينيه الحادتين الماكرتين الى شحنة

كهربائية تخلق خضة لاإرادية في الجسم... قبالتي كانت تجلس المرأة الصامتة صمت التمثال. مظهرها يوحي بالتهيب، تأكل بصمت، تتلو لا أحد يدري شعراً أم صلاةً بصمت. تتجول في المحطات لوحدها بصمت، ومثل أية إمرأة تصاب بمحنة قاسية تستمتع بعذابها بصمت أخرس غريب... أعرف من تجاربي أن المرأة التي في عينيها تواطؤ يمكن الوصول إليها مهما تحصنت، أما هذه الصامتة الصابرة فهي أشبه براهبة حقيقية. فجأة توقف التابوت، محطة جديدة حتماً... فتحت النوافذ الصغيرة على طرفي التابوت بميكانيكية غريبة. أنقشعت الغيوم، ومطرت شمس دافئة على شكل شلالات، وأنفجر في الأفق قوس قزح. رأيت شبحاً بلورياً يتموج في السماء مثل نسر خرافي. أثارني المنظر للحظات، ولدهشتي بعد دقائق عاد نفس ذاك اللون الرمادي، ربما بالنسبة لنظري أنا فقط... الشابان الرقيقان لم يفقدا مرحهما منذ بداية الرحلة. كانا كلما وصلنا محطة يبدءان حواراً جميلاً. قال الأول وهو يشير الى مكان بعيد بأصبعه: أنظر... يا له من حصان جميل... تابعت حركة يده ولم أر سوى منظر رمادي. أجابه صديقه بصوت طفولي رقيق يالمنظره الساحر... يالرشاقته... تصور حتى أسمه ساحر ح... ص... ا... ن.

– أتعرف أن تاريخ هذا الحيوان يرجع الى خمسين مليون سنة؟

– نعم نعم... الى العصر الأسيوني...

– لكن الذي أعرفه أن تاريخه يرجع الى أربعة آلاف سنة.

– صحيح... أربعة آلاف سنة بعد أن أتخذ شكله الحالي... لقد مرّ عبر أشكال ومراحل...

– رغم رشاقته أعتقد أنه مريض...

– أنه فعلاً مريض. أنه يسير مثل السرطان... إبتعد الشابان عن التابوت عشرات الأمتار. صوّب القائد نظراته عليهما... توقفا وراحا يتجولان حول التابوت ويتكلمان بحرارة وحنان... نزلت المرأة وكعادتها كلما غادرت السيارة نظراتها تقول: آه لو أعرف الى أين تسير بنا هذه السيارة، الى أية أدغال شائكة، الى أية غابات؟الى أية محطات ومدن... الشابان عادا يتابعان الحصان... نزل العجوزان وسط أنات وآهات... بعدهما نزل الشاب الوسيم وطيّر الهواء المخطوطات التي رسمها لطائر القبج وراقبها وهي مثل فراشات بيضاء تتموج في الهواء...

قال الشاب الأول لصديقه: أنظر... الى ذاك الأعرابي كيف يضرب الحصان...

– ياإلهي... لماذا بهذه القسوة... أنه بدلاً من أن يرضيه... لالالا...

ما هكذا يروض الذي جاء من العصر الأيوسيني... آه... أنه يصهل من ألمه... حتى صهيله جميل... توقفنا في مدينة صغيرة مهجورة يغلفها صمت قبري. عبثاً حاولت أن أعرف أسم المدينة... رأيت قرب الشجرة عدداً من الرجال والنساء يؤدون حركات جسدية معقدة. بالرغم من صعوبة مخاطبة الآخرين ساءلت أحدهم عن تلك الحركات الجسدية، أجابني أنها طقوس الشفاء بالزمن... رجوته أن يشرح لي ما هية تلك الطقوس، قال: أخشى أنك لن تفهم كلامي... المهم، الشفاء بالزمن، هو، هو الإنطلاق من لحظة لا على التعيين من الديمومة الزمانية، يمكن الوصول الى إستنفاذ هذه الديمومة بالطواف بها بالمقلوب والولوج نهائياً في اللازمان في الأزلية... تأملت هذا الرجل الذي بدا كلامه لي مثل هذيان.أردت أن أفهم منه المزيد عن الشفاء بالزمن شعرت بومضات نظرات قائد التابوت تمطر على وجهي ولذت بالصمت. أستمر الرجال والنساء بحماس في أداء طقوسهم. غادرت المكان. من بعيد رأيت المرأة الصامتة جالسة مثل التمثال كأنها مخطوفة الذهن ترسل نظراتها الى الأفق البعيد... قلت مع نفسي وأنا أتأملها أو ليس القدر يصنع أحياناً مصائر الناس بطريقة كوميدية تارةً، وتراجيدية تارةً أخرى؟ لماذا وكيف جاءَت الى هذا التابوت؟ ترى هل خلفت وراءها زوجاً؟ طفلا؟... أيٌّ مصير ينتظرها في هذه الرحلة الغامضة؟ هل هي الآن في هذه السفرة المجهولة تسير عكس أحلامها؟ ترى أية أسرار سرية لديها لن يعرفها سواها ريثما تنتهي حياتها؟ هل كانت تعرف أن أحلامها ومشاريعها ستواجه ذات يوم مثل هذه العقبات أم أنها كانت وما زالت مؤمنة أن النجاح على مبعدة أمتار منها؟ هل حذرها إنسان ما أن ثمن الفشل سيكون باهظاً؟ من يدري؟ هناك أناس عندما يؤمنون يرتاحون حتى عندما يفقدون كل شيء هكذا في الأقل، كانت ملامحها تتكلم... قال أحد الشباب وقد جاء فجأةً مثل شبح وهو يطلق ضحكات طفولية سعيدة: السماء... السماء مثل ماسة حقيقية بعد شروق الشمس... أنظر الى قوس قزح... أجابه الثاني: نهارٌ رائع لقد جعل المطر كل شيء يضحك بعدة ألوان...

– فعلاً. أنت الآخر قلبك دافيء مثلي.

– يا إلهي كيف لا ينفعل الإنسان بعد ذاك الظلام داخل السيارة...

كنت أستمع الى الشابين، لكنني عبثاً كنت أبحث عن القوس والقزح، لكنني رأيت طقوس تلك الطائفة التي تبحث عن الشفاء بالزمن... كيف! قال الشاب الأول: ألا تفكر في الهرب؟

– أوه... لا لا... مستحيل.

– العينان المخيفتان تراقباننا من جميع الجهات... ثم، هذا مهم جداً، تهرب الى أين؟

– حقاً الى أين... ونحن لا نعرف الآن أين نحن.

مشيت عدة مئات من الأمتار بالإتجاه الشرقي للمدينة. العينان الكبريتيتان أرسلتا إليّ إشارات ضوئية على شكل ذبذبات منذرة إياي بالعودة فوراً... توقفت، ورجعت بخطوات وئيدة، مضطربة، مهزوزة، فوجدت نفسي داخل زقاق واسع على طرفيه عشرات الدور مغلقة الأبواب... من سيئات تلك الأضواء التي ترسلها نظرات قائد التابوت أنها ما أن تصيب جسداً ما تخلق حالة من الإضطراب، والخوف، والتضبب في البصر، وفقدان الإدراك بالإتجاهات... أوشكت الشمس على المغيب، أو هكذا شعرت، ربما، بسبب الومضات التي أصابتني من عيني قائد التابوت. ألتقيت بالصدفة المحضة بعدد من شباب المدينة يرتدون ملابس ملونة مثل ملابس مهرجي السيرك، ويؤدون بإتقان جيد، بل رائع حركات مسرحية صعبة على طريقة –البانتومايم– قدم أحدهم عرضاً مثيراً لإنسان يعاني من أفكار هستيرية تتموج في رأسه وتصيبه بآلام حادة وبدوار، ويطلب بطريقة موجعة النجدة لإنقاذه، لكنه لا يرى سوى ستارة مضببة أمام عينيه، يتشبث بالستارة، ويطلق آهات مخنوقة مثل الأغريق. أن حالته المؤلمة تؤكد أنه نهب لموجات من التيارات الداخلية المتشابكة أمام شلال من الصور المعقدة... هناك كلمات عندما نقرأها، أو نسمعها نشعر كما لو أنها كائنات غاية في الجمال. لها أجساد رائعة، أما حركات هذا الشاب، ياإلهي، فلها جمال أقوى وجسد أروع، وإيقاعات أبدع وأوجع من الكلمات... جاءت المرأة الصامتة المرأة التمثال ووقفت لصقي، ثم جاء الشاب الوسيم الذي يرسم طائر القبج، وهتف قائلاً: ياإلهي، أن ذاك الرجل بملابسه الملونة يشبه طائر القبج، وظل مثل طفلٍ سعيد يصفق، ويتأوه، ويقسم أن المهرج بكل ألوانه يشبه طائر القبج. غابت الشمس... سُلط ضوءٌ أرجواني على المهرجين... إنعكس لسان ضوء على وجه المرأة وأصبحت لدهشتي أكثر جمالاً وجاذبية... ياإلهي، للأضواء سحرها ولغتها. تقدم أحد المهرجين من المرأة، وإنحنى أمامها بأدب جم، وقدم مجموعة إيماءات، وحركات مسرحية رائعة، ثم قال بإلقاء

جميل: سيدتي أنتِ ما زلتِ جميلة... كنت قبل سفرتك الدرامية هذه رقيقة، مرحة، مليئة بالحرارة، والحب، والأحلام الجميلة، وكنت كذلك رواية رائعة للنكات المثيرة، ثم فجأةً وتحت ظروف صعبة أصبحت كئيبة وحزينة وعاشقة للصمت... لا عليك سيدتي، واجهي قدركِ مهما كان مخيفاً، لقد رفضت بإباء جميع أصحابك داخل ذاك التابوت، كما هربت من الشهرة الرخيصة. سيدتي، أن حالة وعي الإنسان لذاته تتحد بمدى إدراكه لذاته. فكلما تدنى إدراكه لذاته، تدنى مستوى الوعي عنده وضاقت مساحته. وما إرتفاع الوعي عندك صعدا سوى إدراكك لذاتك. هنيئاً لك، وكذلك لرفاقك داخل تلك السيارة التابوت، ثقي أنكم جميعاً لن تذهبوا الى مملكة الخطيئة. تراجع، وبإتقان يصل حد اللامعقول قلّد عدة حركات للخالد الذكر ملك الكوميديا شارلي شابلن أطلقنا جميعاً على أثرها ضحكات من الأعماق لأول مرة منذ مسيرتنا الخرافية... إنحنت المرأة ثم وقعت على ركبتيها ووضعت جبينها على الأرض ونطقت لأول مرة شكراً جزيلاً أيها الإنسان الرائع. كل كلمة قلتها عني كانت حقيقة لا تقبل الجدل... شكراً... جاء العجوزان بخطوات مشلولة. قال الأول لصديقه. أشرح لي ماذا يقولون على هذا المسرح. المهرجون الشباب غادروا المكان. خيم صمت أخرس طويل. أصبحت وجوهنا غائمة، ونظراتنا زجاجية. أجاب العجوز الثاني صديقه قائلاً بصوت حزين.

– كانوا يتكلمون عن مملكة الخطيئة.

– أين تقع هذه المملكة يا عزيزي؟؟

– قالوا أننا لن ندخلها... لأننا كفّرنا عن أنفسنا في رحلتنا هذه.

– هذا غير مهم... أين تقع هذه المملكة؟؟ أين هي؟

– لا أعرف... ربما في الأحلام... في مكان ما! في الخيال...

– أذكر أن أحدهم قال لي وكان من عشاق مصارعة الديكة، أن الديّكة لا تكسب معاركها بضربات مناقيرها ولكن بمخالبها...

– ربما... ماذا تقصد بكلامك هذا؟

– نحن بالأحلام نكسب... ماذا قلت؟ مملكة ماذا؟

– لا أعرف... نسيت... ألم أقل لك أن ذاكرتي مثقوبة؟ أين ذهب أولئك... آه... مهرجون... هل كانوا مهرجين أو ممثلين؟

– لا أعرف... فجأة أنقلبوا الى الظلال... هل مثلوا... لماذا؟

– أوه يا عزيزي، أن التاريخ البشري كله تمثيل.. لقد بدأ الجو يبرد... لنتحرك بإتجاه التابوت قبل أن تصعقنا ومضات الرجل. في الطريق الى التابوت تكلم الشابان بنفس مرحهما، قال الأول وهو يشير الى السماء: هل تستطيع أن تتصور الملائكة وهي تمشي في الكون بجلال؟

– لا لا... أخشى أنك تُشبِه النجوم بالملائكة...

– أنا أرى ملائكة حقيقية... أما النجوم فكائنات من نوع آخر، أنها زبرجدات، ماسات، تتوامض.

– من يدري، ربما أنك ترى جنيات أيضاً.

– ثق أن الكون ليس خالياً منها أبداً... لا أحد يفهم هذا الكون.

–حسن... تلك الجنيات، هل تستطيع أن تنقذك من هذا التابوت؟

– ربما...

– أين نحن؟

– لا أعرف... أنا فقدت الإحساس بالمكان وبالزمان.

دخلنا التابوت مرةً أخرى، حلَّ ظلامُ دامس، وأضيئت المصابيح الصغيرة الكامدة الأضواء. كنا بمجرد أن تتحرك السيارة نُصاب لاإرادياً بضربٍ غريب من التنمل، والصمت، والخدر... بإستثناء الشاب الوسيم الذي ينهمك بحرارة في الرسم... بعد سفرة طويلة توقفت السيارة... هذه المرة نزلنا في أرض واسعة ممراعة يرين عليها، صمتُ أخرس. فجأةً حوّم نفس ذاك الشبح البلوري الذي رأسته في محطتنا ما قبل الأخيرة، إقترب منا ثم برفق حط على مبعدة أمتار من حيث نقف، تحول الشبح برفق وبحركة سينمائية الى إنسانٍ جميل، ووديع له ملامح القديسيين. تقدم من العجوزين وسألهما بصوت رقيق حنون فيما إذا كانت سفرتهما قاسية. أجاباه بصوت واحد:

– لقد بدأنا نستمتع بعذابنا... تعودنا... مثل أي حيوان...

– كيف تشعر الآن؟

– ياإلهي... كيف تريدني أن أشعر... أنا مجرد أوهام... ربت الشبح على كتفي العجوز بحنان وهو يقول: بعد الآن ستكون، بل كلكم ستكونون أرواحاً حافلة بالحب والحنو... أشار إلينا أن نتبعه. سار بخطوات قصيرة وواثقة... تبعناه لاإرادياً بسرعة كما لو أن خلاصنا من سفرتنا الخرافية الموجعة سيكون في هذه الأرض الممراعة على يديه. بعد مسيرة عدة مئات من الأمتار وصلنا بحيرة فيها سائل بلون السيان. أشعل الشبح

بطريقة غريبة وسريعة بأصابعه الشفافة ناراً وألقاها في البحيرة التي إلتهبت في دقائق وتحولت الى اتون حقيقي. تراجعنا وقد أصبنا جميعاً بذعر شديد. إضطرب قائد السيارة التابوت وأراد أن يهرب، غير أنه وبنفس طريقة أحداث قصص ألف ليلة وليلة جذبته قوة غريبة وألقته في الاتون وذاب هناك الى الأبد. أعطاني الرجل الشبح خارطة كبيرة مصنوعة من جلد الغزال، وقال: تصرف بهدوء... ركز معي... أنظر هنا... أنت على مشارف مدينة آرنجا... أشرح لكل واحد من أصدقائك كيف يذهبون الى مدنهم... كانت الخارطة واضحة ودقيقة، زلزلنا الفرح... فرحُ داخلي هيجنا... لا أحد مثل الإنسان مسكون بالأحلام... بعد أن عرف كل واحدٍ منا كيف يتجه الى مدينته، أختفى الرجل الشبح بعد أن تحول الى شعاع من البلور بنفس طريقة أحداث قصص ألف ليلة وليلة... أختفى وسط هتاف الشابين، وتأوهات العجوزين، وزقزقة. أوراق الشاب التي طيّرها مثل فراشات بيضاء... راح كل واحد منا يحلم بمدينته... صرخت بكل ما لديّ من قوة... سأعود الى آرنجا(*)

... الحياةبالنسبة لي كلها داخل آرنجا... أنها مثل الحياة لا غاية البتة خارجها... أيتها الذكريات... وللمرة الثانية نطقت المرأة بصوت حاد مثل الصفير... سأعود الى مدينة كالح(**)

... كالح الحبيبة... وردد العجوزان... الى بابل... الى بابل. وردد رسام القبج... أيه، وافرحتاه الى شاشروم(***)

... ولدهشتنا الشديدة رأينا وبطريقة سحرية، خرافية سبعة أحصن بيضاء مسرجة تنتظرنا يا إلهي ما هذه الأحصن... كيف جاءت؟ متى؟ ترى أهو العقل الباطن الذي يساعدنا التماس وعلى نحو واضح مع القدسية الكونية، ونستطيع عبر هذا التماس تفجير الأحلام، الخيالات، وأشياء جميلة أخرى؟؟؟

ما أن أمتطينا الجياد، حتى أرتفعت بنا عالياً، وأتجه كل حصان بإتجاه مدينة ممتطيه.

(*) آرنجا: الأسم البابلي القديم لمدينة كركوك.

(**) كالح: الأسم القديم لمدينة نمرود عاصمة الأشوريين.

(***) شاشروم: تقع قرب رانية في كوردستان العراق.

نجمة ميديا المتوحشة

الى إسماعيل برزنجي الذي عشق هذه القصة...

ذات مساء زارتني فتاة رائعة الجمال في عيادتي، فتاة كماسةٍ مصقولة، لها سمة الملكات... كانت تضع حول رقبتها التلعاء حجر التوز عسلي اللون، ومن شحمتي أذنيها يتدلى قرطان طويلان من اللالىء الطويلة، وعلى كتفها تضع وشاحاً هفهافاً بلون اللازورد موشى بالجواهر... قالت وهي تدفع بترفع وبلهجة فيها أمرُ جميل: دكتور، عندما ترى إمرأة مثلي يجب أن تكون في حالة تعبئة روحية وفكرية... صعقت بهذه اللهجة، وأيبستني كل حركة من حركاتها ألتي كانت تعطي إنطباع إنسانة فعلاً رفيعة القدر والشأن ولأنني إختصاصي أمراض نفسية، وبارد الطبع بالسليقة، وأتعامل يومياً مع مختلف أشكال الجنون، والشيزوفرونيا والفصام، والإنشطارات الذهنية، لكن جمالها الأخاذ، وكلماتها الغريبة ظلت ترن في ذهني: (عندما ترى إمرأة مثلي يجب أن تكون في حالة تعبئة روحية وفكرية)... سارت بكبرياء وعطر مثير وزكي جداً يفوح منها، ومن شالها الهفاف، وهي تدقق بصرها بكل صغيرة وكبيرة في العيادة... لاحظت أنني أراقبها وأدرسها بدقة، وثمة تقطيبة على وجهي... كانت حركاتها المترفعة تليق بها على نحو مثير، إلتفتت إليّ طيرت على شفتيها شبح إبتسامة، وهي تروزني بعينيها اللوزيتين... أن هذه الإنسانة المشوقة القوام، والواثقة جداً من نفسها، بحركاتها المترفعة الشبيهة بفينوس الرسام الإيطالي تيتيان ليست إمرأة عادية أبداً، وغير طبيعية، وكل شيء فيها يؤكد بما لا يقبل الجدل أنها من النساء اللواتي يملكن الكثير من الشجاعة، والثقافة والإرادة التي يمتلكها من لا يبالون بالحياة أبداً... قالت بصوت خافت وبنبرة جميلة... حتماً أنت الطبيب النفسي المشهور صادق الطائي!

– تحت أمرك... ما الأمر آنستي؟

– جئتك من عالم بعيد... يقال أنك أضافةً الى كونك طبيباً نفسياً ماهراً، فأنت عرّاف أيضاً...

إبتسمت لها، وهززتُ رأسي ملاطفاً، وقلت: ماذا أستطيع أن أقدم لكِ؟

– أريدك أن تعيد صياغتي كإنسانة من جديد... أريد أن أكون إنسانة أخرى...

– لكنكِ يا آنستي ماسة حقيقية... لا يمكن لأي جواهري مهما كان ماهراً أن يعطيكِ شكلاً أروع مما أنتِ عليه.

– هذا من الخارج فقط... أعرف جيداً أنني رائعة الجمال... آه... أما من الداخل فأنا خراب... قالت هذه الكلمات وهي ترنو إليّ هضيم الوجه وكأنها تقول لي من خلال نظراتها: هل يا ترى دكتور على يديك أن سماء حياتي ستودع أخر عهدها بالغيوم والأنواء؟ هل حقاً تستطيع أنت الطبيب والعراف أن تنظر الى ذاك الخبيء الذي لا يدركه إلا أمثالك... أنني دائماً أقرأ هكذا رجاء في عيون أكثر من تسعين بالمئة من مرضاي... قلت: سيدتي، إستلقي فوق هذا المقعد بكامل قامتكِ، وأرخي عضلات جسدكِ، وأطلقي العنان لخيالكِ وتكلمي كما ترغبين... إستجابت لكلماتي بطريقة سريعة، ولينة، قلت: الآن مما تعانين؟؟

– أعاني... حسناً، أعاني من مشاعر لا شريعة لها...

قلت مع نفسي: هذه الفتاة مخيفة... نعم مخيفة... ما هذه الكلمات المعقدة... وهل للمشاعر شريعة حقاً؟ قلت: جميل، ما مصدر تلك المشاعر؟

– لا أعرف... أحاول أن أصل الى منبعها ولا أستطيع.

– طيب... ماذا بعد؟

– تنطلق فجأةً نداءات مستبدة في كياني... نداءات نارية. نداءات تقول... توقفتْ...

– نداءات مثل ماذا؟ ماذا تقول؟

– تقول: رائع... أن تمردكِ كان على صواب، حسناً فعلتِ، طالما أنه أغلق مدينة قلبه عليكِ، حسناً فعلتِ ضربتِ بيدٍ من حديد... نهضت من فوق السرير، وبحركات غاضبة راحت تردد: ورحت أضرب... أضرب... بقسوة...

– تضربين من بقسوة؟

– أضربُ عندما لا تتآلف الأشياء التي أحبها مع بعض. نعم أضرب من غير شفقة...

– من...؟ من هو؟

– ذاك الذي راح يقص جناح روح عظيمة مثلي.

– هذا جوابٌ معقد بعض الشيء.

– ماذا؟ معقد! أنت طبيب وعراف... ما المعقد في هذه الكلمات البسيطة؟؟

– بسيطة؟

– طبعاً... كانت عيناها تومضان ومضات جميلة وهي تشرب كلماتي شرب الهيم... كانت هذه المخلوقة الفاتنة تسمع بعينيها بنفس القوة التي تسمع بها أذنيها.

قالت: تقول هذا الجواب غريب!!

– آنستي، لنستمر من أي شيء آخر تعنين وأنتِ تضربين بقسوة؟ لماذا بقسوة؟

– أنا لا أعرف الرحمة؟ ولا أعرف أبداً كيف أجدد مارث من حبال المودة...

– لماذا؟

– هذه جبلتي... أسمع أنت عالم نفس، وتعرف جيداً كيف يؤثر الملموس والمحسوس في المرأة... أحببت زوجي ... قاطعتها للحظات قائلاً: آه... إذاً أنتِ متزوجة؟ وبحركة مسرحية مؤثرة قالت:

– أجل... أحببته الى درجة أنغرس بقوة كوجود رائع ومحسوس حتى، وجميل في أعماقي، وأصبحت متيمة به... هل تعرف ماذا يفعل العشق بالمرأة؟! يجعل الدم الطائر يجري في عروقها، ويحول عصبها الى جحيم متوهج... أليس كذلك؟

– نعم... بالضبط... أرسلت إليّ نظرة مستقيمة وقالت:

– دكتور تأملني جيداً...

– أنا أتأملك منذ أن دخلت الغرفة... أجل أنا أتأملكِ بكل حواسي.

– لا كطبيب رجاءاً.

– كيف!

– كفنان... كرسام...

– لكنني طبيب.

– قل لي كيف تنظر الى المرأة الجميلة؟

– بإعجاب... بإعجاب شديد.

– هراء... هراء... قلت لك أنظر إليّ كفنان... كلمة إعجاب عادية جداً.

– حسناً كيف تريدينني أن أنظر الى الجمال... أريد مساعدتكِ.

– يا دكتور، المرأة الجميلة مقدسة... مقدسة؛

ورددت كلمة مقدسة عدة مرات، وبحركة مسرحية ساحرة، وهي للمناسبة تُكثر

وبعفوية مذهلة من الحركات المسرحية، غيرت موقع شالها كاشفة عن عنقها الأتلع... قلت مع نفسي: أن هذه الإنسانة كائنة صعبة جداً، وعميقة جداً وغريبة الأطوار جداً...

تساءلت بغضب: هل يهجر الإنسان الشيء المقدس، من غير سبب؟؟

– طبعاً لا...

– ماذا أعمل للذي هجرني ظلماً؟

– أزدريه... أهجريه أنتِ الأخرى.

صرخت: هراء... هراء... جلست فوق الكرسي... نكست رأسها، وراحت في صمتٍ عميق، ثم فجأةً بواحدة من حركاتها المسرحية المحببة أطلقت ضحكة رغم رنة السخرية فيها كانت مثيرة، وقالت:

– ماذا تعمل الملكة عندما يهجرها حبيبها؟

– أأنتِ ملكة؟

– طبعاً ملكة... بحكم إختصاصي ولسنوات طويلة رأيت مريضات من هذا الطراز، غير أن هذه المرأة الغوزة، بلغتها الغريبة والغنية، ومشاعرها الجياشة، ومنطقها العالي، وهذه الأناقة الملكية... قلت: كيف ولماذا هجرك؟؟

– هجرني بعد أن أهديت له طفلين، وجعلته ملكاً... لماذا هجرني! أما كنت أملك مملكة؟ الكثير من الخدم؟ من القلائد... من المرجان... أساور من المرجان... أقراط من اللؤلؤ! أحجار كريمة، دبابيس للشعر من الياقوت...

– حقاً لماذا هجركِ؟

– هنا الحيرة يا دكتور... هل لست جميلة؟ كيسه؟ خصبة كأنثى؟ صرخت بصوت مثل الصفير: لماذا؟ هجرني، يقتل رغباتي، شبابي، ليجعل إمرأة صعبة وعنيدة، وجريئة جرأة لبوة حقيقية مثلي ذليلة فقط... ولأن الحب يقبل بالذل أحياناً أراد أن يجعل مني أنا الطاووس دجاجة مُبللة... بعد صمت قصير هتفت: قلبي هو الذي خدع روحي. لم أستطع أن أبعد بصري عن شفتيها وهي تتكلم بغضب هيستيري... يالجماح هواها... يالتلك النيران السريعة الإشتعال والمخيفة اللهب في أعماقها... قلت: كيف خدعك قِلبكِ وأنت في هذا المستوى من الذكاء والوعي...

صَرَخت: أأنت أطرش يا دكتور... ألا تسمع كلماتي؟ أقول أن قلبي خدع روحي... دكتور، البشر وحدهم ملتقى الأضداد، ومجمع التناقض... مظهرنا شيء وحقيقتنا شيءٌ

آخر... أفهم هذه الكلمات أيها العراف. نحن إزدواج دائم، بين الحياة والإدراك... من الصعب التكهن بعالم الإنسان... بعمقه، وضحالته... أقول لك خُدِعتُ وإنتهى... هل أنا واضحة الآ.

قلت: سيدتي... فجأةً صرخَت بصوتٍ عال: ما هذه الكلمة السخيفة –سيدتي– أنا صاحبة الجلالة...

– عفواً... عفواً... صاحبة الجلالة... واضح أنكِ أرفعُ ثقافةً مني... بصراحة أرى أنني لا أستطيع أن أقدم لكِ العون المطلوب... من يدري ربما أن زوجكِ سيعود لكِ.

– مستحيل.

– لماذا؟

– أنا يونانية.

– ماذا؟ أنتِ يونانية وتتكلمين العربية بطلاقة.

– نعم نعم نعم... والروح اليونانية كلها روح متشائمة لأنهم شديدو الحساسية وهم في صرا ع دائم مع القوة الطبيعية... أن زوجي لن يرجع... ثم أنا أنتقمت... أجل أنتقمت.

– ممن؟

– من ذاك الفدم الجنميدي شرَّ إنتقام.

– الفدم الجنميدي... ما معنى هذه الكلمة؟

– معناها غلام مخنث... وأضافت بصوت هادىء كما لو تتخيل شيئاً بعيداً: دكتور، جنميدي هو الشاب الوسيم الذي كان ساقي الإله زيوس وقد حمله نسر زيوس اولمبيس وأصبح الأسم يطلق على كل غلام مخنث مثل زوجي.

– الى أين ذهب هذا الجنميدي؟؟

– الى أبنة ملك أخرى... أطلقت اهه حارة، ثم أعقبتها بعد قليل بضحكة هيستيرية، وهي تقول بإلقاء مسرحي، أتعرف أمرَ الأمبراطور كلوديوس صديقه كاسينا بيننس بأن يقتل نفسه لأنه أتهم بالتآمر عليه، أولاً طعنت زوجته اريا پيتا نفسها في صدرها ثم سلمت الخنجر الى زوجها وهي تحتضر وتؤكد له (ثق أنه لا يؤلم).

– صاحبة الجلالة... ماذا تقصدين بهذا الحديث؟

– آه، حسناً... أولاً قدمت هدية سامة عن طريق رجالي لزوجته الجديدة، سقطت ميتة مع أبيها...

– ياإلهي...

– لماذا تتعجب؟ تصور نفسك وأنت في غمرات يأس مضيض! ماذا تفعل؟

– لا أعرف... ولم أجرب هكذا يأس...

– يا دكتور أن القطة تجهز على صغارها الذين لا يمكنها الإحتفاظ بها، ولأن زوجي يعشق طفلينا كثيراً ذبحتهما ذبح الشاة، ورحلت بعيداً بعربتي...

صرختُ بصوت مخنوق: أنتِ مجنونة مخيفة... أنتِ قاتلة.

– أجل يا دكتور، قاتلة، لكن قاتلة باسلة.

– بل خسيسة.

– لالالا... هذه الكلمة لا تقال للملكة يا دكتور...

– أرجوكِ يا صاحبة الجلالة كفى... كفى... أنا لا أعرف أي علاج لكِ.

ظهر وميض فسفوري في عينيها وهي تردد: ماذا تفعل بحلم مخذول؟؟ أخبرني؟

تأملت بكثير من الخوف هذا الجمال الغامض الذي يجلد الحس، والمشاعر، هذا الجمال المهدىء لهذه اللبوة، ولهذا العقل المختل... أن هذه الأنثى تشعر بإنعدام وزن وجودي، عاطفي... قالت بعد صمت قصير بتلك الحركة المسرحية الساحرة: الملوك يا دكتور لا يقبلون بشعرة أهانة واحدة... أنهم أحياناً يُقتلون لمجرد العبث... حكم الأمبراطور نيرون على ثراسپايتس وهو زعيم الداعين الى الفلسفة الرواقية في مجلس الشيوخ بالموت لعدم إستمتاعه بغنائه... وزوج لم يجرحني وحسب، بل أهانني وهجرني ثم تزوج... راحت تذرع الغرفة بخطوات وئيدة... هذه المرأة أكدت لي بما لا يقبل الجدل أن أطروحة علم النفس القائلة، أن المليئين بالغضب يحملون طاقات عاطفية رهيبة، وأن تأجيج هذه الطاقات العاطفية تؤدي الى مآسي حقيقية... قلت: صاحبة الجلالة الآن، ماذا أستطيع أن أقدم لك!

– أريد أن أهرب من شقائي... لا أعرف كيف أقصي آلامي. وحوصلتي يا دكتور تصغر يوماً بعد الآخر، وآلامي تزداد...

– وهل لا تكثر آلامك وعدد قتلاكِ أربعة؟

– القتلى لا أعير لهم أي إهتمام... ليصدروا بحقي حكماً مثل ذاك الذي أصدروه بحق بروميثيوس، أو على سيزيف...

– تتكلمين وكأنكِ راضية عن نفسكِ؟

– لا يرضى عن نفسه سوى البليد، الساذج، المتخلف، أنا ملكة لا أجيد سوى قول كلمة نعم أو لا في المواقف الصعبة... قلت نعم لموت زوجته الثانية وأبيها، ولأنه كان يعشق طفلينا ذبحتهما قائلاً لا للتصرف الخسيس لذلك الجمنيدي، هذا بإختصار أنا...

– ألستِ حزينة ونادمة ولو قليلاً؟؟

– حتى لو حزنت، فالحزن يجعل ملكة مثلي عظيمة...

– عظيمة؟

– نعم عظيمة في داخلي... إنني يا دكتور ملكة ملتوية الحظ... آه، هكذا الحظ ذا طبيعة ملتوية، ولا أحد يستطيع أن يسيطر على إرادته. يذهب هذا الأبله، الى التافه، والجاهل، ويصنع أحياناً من الحقراء أباطرة... بعد صمت قصير صرخت بقوة: ياسون... ياسون... قلت: من هو ياسون؟

– إنه زوجي الذي صنعت منه ملكاً... هجرني ليتزوج من جيلاكي. قلت مع نفسي وأنا أرنو إليها: ياإلهي، أية أوهام مريعة تصفع رأس هذه المسكينة... قلت... صاحبة الجلالة، ألا تعتقدين أن هذه الكراهية المريعة ألتي نتجت عنها هذه المأساة لم تكن نتيجة قوة بل ضعف؟

– ربما... قد أكون يا دكتور في الفهم الفلسفي مثل اپولو...

– لماذا مثل اپولو؟

– يبدو يا دكتور أنك لا تفهم أي شيء في الحضارة اليونانية... لماذا اپولو؟ لأن اپولو كان يبشر بالصلابة والقسوة نظرياً، لكنه كان أضعف الناس علمياً...

– لكنكِ مزيج من الصلابة والقسوة.

– لا... هناك أيضاً الضعف... لا أعرف... الحقد الروحي عندي في المواقف الصعبة يتحول الى فعل... أيه، لقد خبط القدر معي خبط عشواء... راحت في تأمل حالم، وبإلقاء مسرحي رددت: ذاك هو ياسون، أراه بوضوح، فوق أزراره اليوناني طيلسان من أرجوان، وفي قدميه نعلان.

– هل بعد كل هذا التحدي ما زلت...

قاطعتني قائلة: نعم... لأطيل نسيج مأساتي مثلما تطيل العنكبوت نسيجها الذي تتبرزه من بطنها... أرسلت إليّ نظرة مستقيمة، وأطلقت آهة حارة، وذهبت الى الجدار وأتكأت عليه في وضع درامي... لم يحدث قط خلال ربع قرن من ممارستي لأختصاصي

أن رأيت مرسضاً غريباً مثل هذا الطراز... رفعت يدها ومررتها خلال شعرها، وغطت بشالها رأسها، وبأصابعها الفاتنة البيضاء عبثت بحبات الجواهر التي توشي الشال. ياإلهي، أهذه اليد المرمرية ذبحت طفلها؟ أهذه اليد سممت رجلاً وإمرأة؟ كيف بحق السماء بإمكان علم النفس فك طلاسم هذا الوجه المخيف الجمال، وهذه السايكولوجية الملولبة، وهذه النظرات، وتلك الومضات من الغموض!! كيف؟... كيف؟ هل بالإمكان الثقة بمجرد الإستدلال حتى لو قامت على إستقراء جيد... لالا... المعرفة النسبية، وهذه الملكة المجنونة والعاقلة من الصعب فهم روحها، قسوتها، إنتقامها، قالت: أخيراً يا دكتور، هل لديك علاجٌ لي...؟

– مع الأسف لا... سلمي عزيمتكِ المتهورة للحقائق، وأزيحي عن عينيكِ الغشاوة، وعن عقلكِ الأوهام لكي تري جميع الجهات... أطلقت ضحكة ساخرة، وقالت: إن أباطرة بلادي والأشراف كانوا يستدعون الأطباء والفلاسفة ليمهدوا لهم طريقة للموت، وأنت تكلمني عن الغشاوة. هاهاها. أنت أبعد من أن تفهمني... أنا نفذت قرارات عقلي، وروحي، وإرتكبت جرائمي... وأنت بدلاً من أن تدلني على طريقة فروسية للموت تكلمني بلغة رواقي مائع... هاهاهاها... لا غرابة يقال أن الفضيلة تختلف من عهد لعهد... التقطت حقيبتها ووضعت كمية من النقود فوق مكتبي قائلة بإستعلاء: أتعابك يا دكتور. أتجهت الى الباب وهي تقول: سأطير الى السماء وأتحول الى نجمة... وإذا حدث أن ألقيت نظرة ذات ليلة الى السماء اللازوردية ورأيت مجموعة الجوزاء، ستجدني بجانب نجم الدبران سوية مع نجوم بنات أطلس... للمناسبة دكتور أن أسمي –ميديا– إذاً بالصدفة المحضة رأيت تلك النجمة أطلق عليها أسم (نجمة ميديا المتوحشة).

وغادرت الغرفة بسرعة...

بعد أسبوع وفي العاشرة صباحاً زارتني فتاة ترتدي قميصاً من الحرير، وبنطالاً بلون الحليب، وتضع نظارة سوداء. شعرها قصير ناعم... حيتني بحرارة وهي تقول بصوت رقيق: دكتور لن أخذ الكثير من وقتك... أسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً واحداً... هززت رأسي وأنا أدقق بصري بوجهها طبعاً... طبعاً... تفضلي... قالت بشيء من الخجل: أرجو مشكوراً أن تكون صريحاً معي.

– حتماً... حتماً.

– أنني مقبلة على واحدة من فرص عمري... سأقدم بعد أيام دور ميديا في رائعة يور

بيدس، وهو دور مركب وصعب جداً... كنت أنا الملكة التي زارتك قبل أسبوع. وبصفتك طبيباً مشهوراً، ومثقفاً، أردت أن ألعب دور الملكة معك، ترى هل وفِقتُ من الإقتراب الى هوس وجنون ميديا... أطلقت لاإرادياً ضحكةً قوية وأنا أخذ يدها والتمها بحرارة مردداً: بل أنتِ ألعن موهبة رائعة عرفتها في حياتي كلها... لقد أضعتِ عليّ كطبيب جميع معادلاتي العلمية. شكرتني وغادرت.

صدقوني، صدقوني، مرة أخرى صدقوني أن العمل الجريء غالباً ما يكون غير معقول...

بعد إنتهاء عرض مسرحية ميديا بأسابيع، أدخلت تلك الموهبة الذهبية مستشفى المجانين. في الليالي أتأمل مجموعة الجوزاء، ونجوم بنات أطلس في محاولة عابثة لرؤية نجمة ميديا الجليلة.

صباحٌ مشرق مع الأميرة مي ـ سي

ساءَلني أحد الحراس المتجهمين وأنا أجر خطواتي برفق حاملا صرة مليئة بالخبز على ظهري ويتبعني جدي الصغير، وهو، ينط بطريقة رشيقة: أسمع... أنت يا رجل. لمن تأخذ قرابينك؟ ولم تسير بهذا الإتجاه؟؟ إلتفتُ إليه وأرسلت له نظرة باردة ولا أباليه، وناديت على الجدّي أن يتبعني، وسرتُ بهدوء بإتجاه القصر... نادى عليّ مرة أخرى، هذه المرة بصوت عال: من أنت؟ لماذا لا تشبه الأخرين؟ أجبته ببرود أكثر: أنا السومري، وحرُ أن أقدم قرابيني لمن أشاء، وأدعى جليل القيسي من مدينة اَرنجا وذاهبُ بإتجاه قصر الأميرة مي. سي.... أما لماذا لا أشبه الآخرين، لأن الرب يخلق عبيده كما يشاء وبأشكال مختلفة... مثلما أنت لا تشبهني فأنا لا أشبهك... هل أنا واضح أيها الحارس؟؟ أرسل عليّ نظرة تعجب شديدة، وأخرى الى الجدّي الصغير السعيد في عالمه الحيواني، ونظرة أخرى الى صرة الخبز، ونظرة أنشداه الى بنطالي. الجينز. وحذائي، وهز رأسه وقال: لكنه من حقي كحارس لهذا المكان، وفي هذا العيد المقدس أن أعرف لمن تقدم قرابينك؟ هل هي لـ(اي. كال. لا E - GAL - LA) أو الى مكان آخر؟؟ قلت بلا مبالاة: لو كانت قرابيني لـ(اي. كال. لا...) كان يجب أن تكون من الخبز والجعة فقط، أما وأنا أحمل خبزاً وأحمل خبزاً وأسحب كما ترى خلفي جدياً، فمعنى هذا أن قرابيني ليست ل (اي. كال. لا) تأملني ملياً ومن خلال نظراته عرفت أنه يقول مع نفسه: نعم، أن هذا الرجل يعرف طريقه جيداً... وأضفتُ: يبدو يا عزيزي الحارس إنك كسومري لا تفهم جيداً طقوس تقديم قرابين العيد (كي. سوك) أجابني بعصبية وهو يغرس رمحه بقوة في الأرض: ماذا؟ هل تفهمني بطقوس مدينتي؟ وبالأصول الدينية لها؟؟ طبعاً أعرف جيداً أن عيد (كي. سوك) هو اليوم ولهذا أنا هنا أحرس المكان...

قلت حسناً أخبرني إذاً ما هو هذا العيد؟؟ أجابني بنفاذ صبر ونرفزة: أرجوك... أرجوك الآن أخبرني عن وجهتك! قلت مستفزاً إياه أكثر: لكنني أتحداك أن تعرف ما هو عيد (كي. سوك) حتماً لا تعرف... أنت مجرد حارس... صنم... قال صارخاً بأهتياج: ماذا؟... مجرد صنم... مدّ يده الى الرمح المغروس في الأرض. صرخت أنا الآخر: هل

حقاً يوجد سومري مخلص يمنع سومرياً مخلصاً من تقديم قرابينه في عيد (كي. سوك) أجب؟ هذا كفر... أن قلب السومري في هذا اليوم مليء بالمحبة، واللهفة بالدعاء للآلهة لأحياء أراضي البور... لانت قسمات وجه الحارس، وقال بصوت أقرب الى الهمس: يا سومري يا أبن وطني معذرةً... أنا في الحقيقة لا أمنعك أبداً... المهم أن أحترم مشاعرك الحارة...لكن الذهاب بإتجاه قصر الأميرة مي. سي ممنوع... قلت: لكنني مع ذلك مصر أن أذهب الى قصر الأميرة مي. سي... تعال معي... قطب وجهه وقال بإرتباك: ماذا؟ حارس عادي مثلي يأخذك الى الأميرة مي. سي المقدسة؟؟ هل أنت عاقل؟؟ مواطن عادي، وغريب الشكل والملابس يذهب لزيارة الأميرة مي. سي؟؟؟ قلت: يا عزيزي، أعرف أن هذا ليس أمراً سهلاً، وفي هذا اليوم المبارك... عليك أن تصطحبني فقط، وأنا أتكفل ببقية الأمر... أقترب مني وقال بهمس: ماذا تريد من الأميرة مي. سي؟ وهل حقاً لديك الشجاعة أن تتكلم معها؟؟ قلت: لا عليك... هيا تحرك... هيا يا صديقي... الصباح جميل كالزجاج... أريد أن أراها في هذا النور المشرق... سار معي بخطوات مهزوزة موزعاً نظراته الوجلة بين حيوان الجدّي الذي كان ينط حولي... من بعيد كان حشدٌ من الزوار يتوجهون الى مسكن. البانتنسي الحاكم الزمني المفوض من إله المدينة في إدارة الدولة لتقديم قرابينهم لنذر أخرى لا علاقة لها بطقوس (كي. سوك) وأرتال من الزوار يحملون جراراً كبيرة مليئة بالجعة. وتلالاً من الخبز وهم يسيرون بإتجاه القصر الملكي (E - GAL- LA)(*) وكان الكهنة والمحاسبون يرددون بصوت آمر (KI - SUG- GA) وآخرون يرددون (KI - SUGU) بعد ربع ساعة من المشي السريع وقفت أمام قصر منيف قال الحارس: هذا هو قصر الأمير مي. سي... كان الحشد الذي الذي قدم قرابينه للمحاسبين والكهنة قد تراجع بخطوات وئيدة وحركات رفيقة تدل على ذروة الخشوع، وراحوا يرتلون بصوت كورالي حزين.

الخوف من الآلهة مدعاة للعطف

والقرابين تطيل العمر...

بقيت لوحدي مع صرة الخبز والجدّي ، والحارس الذي لا أعرف لماذا رفض تركي

(*) اي كال. لا القصر الملكي

لوحدي... إقترب أحد المحاسبين وصرخ في وجهي قائلاً: لماذا واقف هنا؟؟ تحرك وأجلب الجدّي وصرة الخبز... لم أعره إهتماماً... تقدم مني ومدَّ يده ليأخذ صرة الخبز. رفضت بعناد قال: من أنت؟ لماذا واقفُ مكانك؟ تحرك... ألا تعرف ممارسة طقوس العبادة...؟ صرخ في وجهي. ماذا تريد؟ لم لا تسلم قربانك وتنصرف مع الحشد؟ قلت ببرود: الخبز والجدّي للأميرة المقدسة مي.سي شخصياً... قال وهو غير مصدق ما سمع، ولكن بذهول: ماذا؟؟ للأميرة ميسي.؟؟ شخصياً؟

– نعم... شخصياً... أنا أسلم لها الجدّي والخبز.

أأنت عاقل...؟ تقول شخصياً للأميرة؟؟ ماذا؟ هل لا تثق أن خبزك سيصلها...؟

– لم أقل هذا... لالالا.

دقق بصره في بحيرة بدءاً من حذائي الى بنطالي، صعوداً الى قميصي ووجهي، وشعري القصير، وقال بتعجب شديد: أنت إذاً تريد... أن... تقابل... الأميرة مي سي. شخصياً...؟ حقاً! من أنت؟

بل دعني أسألك أنا ، من أنت؟ صحيح أنت (DUMU BANDA-NA)(*) لكن من حقك أن تحاسبني، أو تعاملني مثل هذا الجدي... وصرخت في وجهه: أريد رؤية الأميرة... آه... إذاً أنت تعرف من أنا وتصرخ في وجهي؟

– طبعاً أعرفك، وأعرف طبيعة وظيفتك، كما وأعرف أنك مولع في مراقبة القرابين لا حسب شروط القصر الأميري، بل حسب شروطك أنت... أيها المحاسب، أنا كمواطن سومري، وحسب اللوائح أجدني حراً في أن أقدم قرباني شخصياً الى الأميرة مي.سي...

– أنت؟

– نعم... يحق للمواطن السومري أن يتبادل الهدايا وحتى البسيطة منها مع الأمراء والأميرات...

– ماذا تقصد بالهدايا البسيطة؟؟

– أنت كمحاسب تعودت على الهدايا الكبيرة... هل حقا لا تعرف معنى (DA-RIA-MA) الجدّي للأميرة... الجدّي الصغير للأميرة. هنا تدخل محاسب

(*) مسؤول حسابات بيت الأمير

آخر محتداً: ماذا؟ بجدّي صغير أسود بلون الفحم تريد أن تقابل الأميرة مي.سي؟؟ ونحن نحشر آلاف الهدايا في الحظائر ولا نستطيع رؤيتها من بعيد...

– لأ أي واحد منكم لا يفكر في الأميرة كتحفة، كسحر، كجمال أسطوري... ثم لماذا تسخر من هديتي المتواضعة في هذا اليوم المقدس... أنك أيها المحاسب غبي لأنك لا تعرف بقوانين سومر في تقديم الهدايا... أسمع عندما وضعت أبنة برنمتار. طفلاً قدم أحدهم لها جملاً، وقدمت زوجة أحد ربانية السفن وزوجه خروفاً واحداً... وأنت تمنعني من أن أخذ جدياً وكومة خبز للأميرة... أنت يا سيدي لا ولن تعرف تلك التحفة العظيمة الأميرة مي.سي إذا منعتني من مقابلتها تضع نفسك تحت طائلة عقاب إهانة مواطن سومري يريد أن يقدم قرباناً الى أميرته في عيد مقدس مثل عيد (كي. سوك) لقد رأيت تاجراً كبيراً بعيني يقدم مزهرية الى (E - GA- L) بل أن البعض حمل قليلاً من الزيت، ولا تتعجب إذا قلت لك أن أحدهم قدم حماراً، وآخر قليلاً من الحليب المقدس وسلة سمك... نعم... نعم SILA - SAB - LA صاح المحاسب... قلت : طبعاً... سلة سمك... يبدو أن الفهم أنساكم التواضع. أتعرف أن الكاهن (ننمار) قبِلَ عشر بيضات هدية لأحد أمراء سومر...؟ هيا هيا أفسح الطريق و أعلن بأعلى صوتك إن سومرياً طيباً يدعى جليل القيسي يريد مقابلة الأميرة مي.سي... إنسحب المحاسب بخوف شديد، وإنحنى فاسحاً الطريق لي وللجدّي الذي راح يقفز كما لو فهم إنتصاري.

قطعت مسافة طويلة أمشي برفق في رواقٍ طويل وجميل مضاء بشموع كبيرة. إستقبلني رجل ، وقال ما هذا العياط والنقاش... ماذا حدث؟ من أنت؟ ماذا ترسد؟ ولدهشتي سمعت صوت المحاسب يقول: هذا الرجل غريب الشكل والملبس يجر معه هذا الجدّي ويحمل صرة خبز ويصر بعناد على مقابلة الأميرة مي. سي... سألني الرجل:

– ماذا تريد من الأميرة مي.سي؟

– لقد نذرت أن أراها.

– أأنت مجنون!

– بأي حق تتهمني بالجنون؟ أهذه لهجة رجل يعمل في قصر أميرة رائعة؟؟ بل عظيمة... مثل مي.سي... أتعرف عما تعبر التقدمات في الأعياد؟؟

– عن ممارسة دينية... لكن.

– لالا... أنت إذاً تجهل الطقوس السومرية... صحيح الدين جزء، إنها أيضاً تعبر عن الفرح الشديد، والصداقة، والمحبة، ورغبة في تقديم وتكريم الأمراء والأميرات لأنهم يمثلون الآلهة...

– وأنت تريد مقابلة ممثل الآلهة؟

– من غير سخرية رجاءاً... من حقي طبعاً... ثم أن الأميرة بشرٌ مثلي...

– ماذا تريد منها؟

– إنني أحبها... أحبها كثيراً...

– هل سبق أن ألتقيت بها؟

– في الحلم فقط... أحلم بها كثيراً.

– من بعيد جاء صوت نسوي ناعم ورقيق يلامس القلب.

– دع هذا السومري الأصيل أن يدخل... جمد الشاب في مكانه، وتمتم قائلاً: أيتها الآلهة... الأميرة بلسانها تطلبه وضع باطن يده فوق كتفي بتملق وقال بأدب جم: أتبعني يا سيدي... حملت صرة الخبز وتبعني الجدّي والشاب والحارس... دخلت غرفة بلون الذهب، ووجدتني وجهاً لوجه أمام أروع وأبدع جمال خلقه الرب... تبعني الجدّي بقفزات رشيقة كما لو سُحِر هو الآخر بجمال الأميرة... قلت مع نفسي وأنا أرنو إليها إن خخيالي الحار لم يخني أبداً... يا إلهي، أيُّ ثراءٍ مدهش في هذا الجمال المخيف... إن الإنسان بحاجة الى أعصاب متينة ليتحمل لهيب نظراتها الساحرة... آه أميرة روحي أنك بحق أميرة... كل شيء فيكِ منقع بالنغم العذب. حركاتك، لفتاتك... الى حضور مقدس لك وأنتِ جالسة بإسترخاء الأميرات العظيمات... أية سعادة هائجة تمنحين القلب! لماذا تقتحمين أكثر أماكني حصانةً بهذه السهولة. يا مي.سي... قالت بصوت رخيم: حسن... ها أنتذا وصلت إليّ، ونحن الآن وجهاً لوجه... ماذا تريد أيها السومري؟؟

– لقد أنتصرتُ يا مولاتي...

– أنتصرت! أنتصرت على ماذا؟

– على نفسي.

– أفصحِ... ماذا تقصد؟

– أيتها الأميرة المبجلة مي.سي... كنت قبل أن أراكِ أقول مع نفسي أن الإله عندما

خلقكِ قد أودع فيكِ غوامض الكون المقدسة... لانت قسمات وجهها الساحر وهي تستمع الى كلماتي، وقالت: هذه الكلمات الجميلة قبل أن تراني، والآن وأنت وجهاً لوجه معي، هل ما زلت مصراً إن غوامض الكون المقدسة؟

– آه... أيتها المرصعة بالنجوم، والزمرد، أجل ستبقين كذلك الى يوم الدين...

– أخبرني... كيف تفهمني؟

– يا أميرتي، هل حقاً يوجد منطق مهما كان قوياً يستطيع أن يفسر جمالك الغامض هذا؟

– وهل أبقى هكذا لغزاً؟

– صدقيني، إنها خطيئة إن قلت لا... أن أي إنسان إذا أراد أن يعطي تفسيراً لجمالك إنما يخون الخالق الكبير أنليل العظيم.(*)

– كيف؟

– لأنه وحده يعرف ماذا خلق ولماذا؟

– وأنت كيف أستطعت وأنت لم تراني أن تتخيلني... تخيلتك كما أراك الآن بالضبط.

– حسناً بماذا تشعر وأنت تراني الآن؟

– أميرتي المقدسة، بصراحة أشعر أن يداً وهمية تجلدني وأنا عارِ الأعصاب... أشعرُ بضربٍ نادر من السعادة الموجعة. أشعر أنني أركض بكل ما لدي من قوة نحو الأبدية.

– ما أسمك.

– جليل القيسي.

– يبدو يا جليل لو أطلت الحديث معك أنك لن ترتوي من التلطف إليّ.

– لأنني يا أميرتي أعرف بأنني ضعيف جداً أمامكِ.

– ملعون كل مواطن في هذه المدينة يراك ولا يشعر بالضعف أمام جمالكِ.

– يا جليل أخبرني أين ومتى وكيف تخيلتني؟

– في الحلم يا أميرة. في ليلة صيفية مرصعة بالنجوم، رأيتك وأنت مثل شبح أبيض تقتربين مني... كنتِ تقتربين مثل خفقات، مثل القلق، مثل الأمل، مثل بشير يدعوني الى إحتفالات أبدية...

(*) أنليل هو كبير الآلهة عند السومريين.

– حقاً؟ ماذا؟

– أقسم... أولَستِ أيتها الأميرة وسيطة بين الآلهة والمدينة؟كنت أحلم بكِ كسمو، كتحفة، كجمال أسطوري... آه... أنتِ... أنتِ...

– أنا ماذا؟

– منذ أن حلمت بك ، وحتى هذه اللحظة وأنا بين يديك كنت مثل نار متقدة في رأسي.

– هل جئت يا جليل الى مدينتي لتغازلني؟

– أرجوك يا أميرتي، لا تعكري عليّ وجودي أمامكِ هذا الصباح المشرق، وفي هذا الصيف الطفولي الساحر، ويوم تقديم النذور... يقال أن قسوة القلب إحدى مزايا الأمراء والأميرات...

– لكن أرى أنك تغازلني.

– أميرتي، الحب لا يعترف بأية قوة، لكن أنى لي أن أحبك وأنا زبد الجفاء، مجرد سومري بسيط.

– حسن... ماذا لو أحببتك أنا يا جليل؟

– نظرت الى لمعان عينيها، كان مثل سكينة تحز القلب. عندما تأخرت في الرد عليها قالت بصوت فيه جرسُ آمر: ماذا تقول... ماذا لو أحببتك أنا؟

– كنت يا أميرتي أصدق نفسي لو كنت أنا وأنتِ كالفحم والماس.

– كيف وهما مادتان متنافرتان.

– لا يا أميرتي أنهما من عنصر واحد... أنا بحكم أرومتي الفقيرة وأنتِ كأميرة أنساب من بين أصابعكِ.

– حسن... ماذا لو أردت أن أتنازل عن أرومتي ومن حق تمثيلي للآلهة!

– وهل أستحق أنا جليل القيسي أن تتنازل أميرتي العظيمة والمجد يضيء نارياً جبينها عن أرومتها من أجلي؟

– قلت قبل قليل أن الحب لا يعترف بزية قوة... أتعرف يا جليل إنني وفي هذا البذخ الخرافي دائمة الشكاة؟

– السأم... السأم... ذكرتني كلمات الأميرة بحكمة تقول (وما عرف بعظمته يمتلك الضعف)... قلت: هكذا الإنسان يا أميرتي مهما كانت مرتبته يولد وهو يبكي، يكبر وهو يشكو.

– عالمٌ سخيف هذا يا جليل. أليس كذلك؟

– لا تعليق لي وأميرتي تقول الحقيقة...

أمرت بتقديم الخمر لي... شربت بلذة.

قالت بعد أن أخذت رشفة خمر من كأسها: جليل ، أية قوة مقدسة جلبتك الى هنا؟

حلمي... حبي لك... هذا العيد المقدس... وعنادي... ربما قدري... أو إلتهابي بنيران تخيلاتي. أخيراً الطقوس الجميلة لعيد (KI - SUG)

– أنا يا جليل الأميرة مي.سي... ممثلة الآلهة ألتي تمنح الخصب للذين لهم أراضي بور... لا أعتقد أن إنساناً شاعراً رقيقاً، حالماً مثلك لديه أراضي بور...

– أميرتي أنا إنسانٌ فقير، لا أمتلك أرضاً... صدقيني أنا أفقر من فأر المعبد.

– لماذا؟

– لأنني لا أؤمن بإمتلاك الأراضي...

– ماذا تريد إذاً.

– لا شيء.

– لا شيء؟ لماذا جئت إذاً من مدينة أرنجا البعيدة الى هنا؟

– لرؤيتكِ أولاً... ولدي حب روحي للعديد من طقوس وأعياد أجدادي... أزور هذه المدينة وتلك، وأشعر بحرقة في قلبي، وروحي، وبكبرياء يصل حد الوجد، لحضارتي.

– أصيلٌ أنت... ما هذا الجدّي .

– جلبته لكِ. الطقوس هي الطقوس... ثم يجب أن يُعطى كل ذي حقٍ حقه...

– أيُّ حقٍ لنا عليك؟

– حق التاريخ ألذي أحترمه... ولأنكِ أميرة، ومُصطفاة، وساحرة الجمال.

– قاطعتني فجأةً وهي تقول... مهلاً، أيٌ من هذه الصفات أقرب الى قلبك؟

الثلاث معاً.

– كذاب.

– كذب أبيض أشرف بكثير من صدقٍ بلا معنى.

– أطلقت ضحكة ناعمة وقالت: إقترب مني يا جليل، أشعر برغبة صادقة أن أقبلك .

– أميرتي! أرجوكِ.

– يا جليل، أنا ألتي تسيء الأدب وليس أنت... هيا أقترب. ذهبت بخطوات قصيرة

وإقتربت منها، بحركة جداً ناعمة، وعفوية، وعذبة، قبلتني بحرارة فوق شفتي مرات عديدة وقالت: إجلس جنبي... هنا لصقي. أشرب مزيداً من الخمر المعتق... هاهاها... لماذا تغلق عينيك هكذا.

– بصراحة يا أميرتي أشعر رغماً عني أن أسلاك أعصابي قد أشتعلت... إنني الآن مليء بخيال مهلوس...

– حقاً... وماذا أيضاً؟

– آه... أشعر إنني مترع بلهيب غريب... إني أعيش في الحلم والروح... أن صوتك الذي يهب كالنسيم يجعلني أن أحلق في جو أثيري... يا كل الآلهة إنني الآن لهيب وجليد... إن السعادة تغمز لي بطريقة شيطانية.

أن جمالكِ يا أميرتي، وقبلاتكِ يرعش قلبي، ويضبب بصري، لهذا أغلق عيني... أطلقتْ ضحكة صدّاحة رنّت في أذني وقلبي، وقالت بصوت بلوري نقي من خلال ضحكتها:

– جليل أريد أن أحبك.

– ما هذه الكلمات السحابية؟ ما هذا الإنقلاب الغريب... ما هذا العنصر الفياض في مشاعرك؟ أنكِ تملئين روحي بخوف حلزوني... يا إلهي، أميرة عظيمة تحب سومري بسيط؟ هل حقاً تريدين أن تجري عليّ لعنة الآلهة... لا لا... أرجوكِ قبل مغادرتي لقصركِ، دعيني أقدم لكِ هذه الكمية من الخبز اللذيذ المصنوع بالزيت (NINDA - BAN- DA) هذا الخبز مصنوع بيد نساء أرنجا(*) الرائعات... أعطيتها رغيفاً، أخذت قظمة من الخبز وقالت: مبارك خبزكم يا أهالي مدينة ارنجا... مبارك. حتماً سوف أرجو من الآلهة أن لا تكون أراضيكم بلوراً بعد الآن أبداً، وأن يكثر فيها الى الأبد الخبز والزيتون والصفاء . إسمع يا جليل، في زيارتك القادمة تعال وحدك من غير قرابين.

– لماذا يا أميرتي؟

– في زيارتك القادمة لن أدعك ترجع.

– لماذا يا أميرتي؟

(*) أرنجا: الإسم القديم لمدينة كركوك.

– لأنك ستكون من نصيبي... أما الآن فأذهب على بركة الآلهة... لا أريد أن أشلّ جسدك وجسدي... تعال السنة القادمة... مبارك أهالي أرنجا... إن الإله أنليل لن يخيب رجائي، أذهب... أنتظرك في السنة القادمة.

كركوك ١٩٩٥

الهيتروتوبيا(*)

(من عتبة حلم ما نادوني)

رفائيل البرتي

أدخلني الى مكان شبه مظلم، مخيف، تتموج فيه بين الحين والآخر أصوات مثل نواح خافت لنساء يندبن عزيزاً فارق الحياة، ثم بعد صمت طويل تتطاير ضحكات هستيرية وشهوية تختلط بنشيد الجنادب الرتيب المحطم الأعصاب... مطر ضوء خفيف. رأيت فجأةً جثثاً ممددة بطريقة مسرحية... قال مرافقي، وهو، يربت على ظهري بصوته الهادىء الرقيق: أنظر... هذه الجثث دخلت الآن الى الأبدية... إنها الآن في اللازمن... صحيح أنها في طريقها الى التفسخ، أنها لن تقترف الخطيئة بعد الآن... آه، أعرف أنك شديد الخوف من أقتراف الخطيئة... حسناً... هل تعرف أن لاوعيك هو مستودع للخطيئة؟ من هزة رأسك أفهم أنك تقول، لا أفهمك... الخطيئة لا بد منها يا عزيزي لابد منها، لأنك عبر الخطيئة تبحث عن دنيا جديدة... أنقطع الضوء، وسلط ضوءاً آخر بلون الدم المتخثر على نساء مسنات رحن يؤدين طقوساً غريبة لكنها حزينة رغم بدائيتها مع ترديد ترنيمة مثيرة للشجن. قال مرافقي: أنها طقوس خاصة لتوديع الجثث التي دخلت عالم اللازمن، عالم العدم... كانت حركات وأشكال بعض النسوة عند توقفهن للحظات عن أداء الطقوس صورة طبق الأصل لرائعة بيكاسو –نساء أفينيون– كنَّ يرقصن أحياناً على نغمات أغنية –هجع– ، وأحياناً على أنغام موسيقى أفريقية، وبحركات أكثر سرعة على أنغام السامبا، ويطلقن نواحاً، وكلمات لا مفهومة، غريبة تنتهي أخيراً الى ضحكات هستيرية... كانت حركات أجسادهن لغة غريبة، لغة سريالية، سنسكريتية، هيروغليفية، فيها تعابير قوية فهمها. كان فوق قدراتي قال مرافقتي، الآن أنظر إليهن، أنهن يغصن الى أعماقهن... كان رقصهن، وحركاتهن من العمق، كنَّ وكأنهن يحاولن

(*) الهيتروتوبيا: يقول ميشيل فوكو: الهيتروتوبيا مثل المرآة تجعل هذا المكان ألذي أشغله في اللحظة ألتي أنظر بها الى نفسي في الزجاج حقيقياً تماماً على الفور ومتصلاً بكل المكان الذي يحيط به وغير حقيقي إطلاقاً في الوقت نفسه طالما توجب عليه من أجل أن يدرك أنه يجتاز تلك النقطة الفعلية التي هناك.

الوصول الى مستويات عالية ورفيعة من الوعي، والتفرد من خلال التأمل في الذات والعالم... إلهي، أي توحش عاقل في هذه الطقوس. ربتَّ مرة أخرى على كتفي وقال بطريقته الرقيقة! أن الجثث الآن ضد الزمن... لن تتبرعم بعد الآن على ألسنتهم الكلمات، ولن تكون هناك فوضى نفسية في مشاعرهم، ولن يصابوا بعد الآن بمباءة حب المال، والشهوة، والفسق، وحب المديح، والإنتماءات... أردت أن أسأله عن باقات الزهور الصغيرة الصغيرة الملقاة على صدور الجثث لأنني لم أر مثلها من قبل، أجابني وكأنه قرأ ذهني: آه. الزهور... قلت لا إرادياً تساؤلي، أجابني من الرقي السحرية، وأمتلك نبوءات على طريقة العرافين... نعم... وتوقعاتي تأتي صحيحة على نحو مدهش... وهل تساعد الأخرين؟... أجابني فوراً، طبعاً، طبعاً، سيما أولئك الذين فقدوا ملكوتهم الإنساني... سألته، مما يعاني أؤلئك الذين فقدوا ملكوتهم الإنساني؟

– يعانون!... من أوجاع خرافية... أوجاع نزلت الى قعر نفوسهم...

– حسناً... هذه الزهور!؟

– الزهور... هذه الباقات هي زهور –الأسفوديل– رنت كلمة الأسفوديل في ذهني رنيناً معدنياً... ربما لأنني لأول مرة أيضاً أسمع هذه الكلمة... وأضاف: هذه الزهور أقترنت عند الأغريق القدامى بفكرة الموت، لذا كانت دائماً توضع على القبور والجثث... هبت موجة أخرى من النواح الحزين. قال: إنهن ينادين الجثث ألتي غاصت بعيداً جداً في اللازمن... كان النواح هذه المرة غاية في الوجع، نواح يطلقه قلب احتشى بلزوجة حزن دبق... أردت أن أسأله، هل يستمر نواحهن، أجابني بسرعة وكأنه بقدرة باراسايكولوجية حادة حدس الكلمات التي دارت في ذهني: آه... نعم... نعم... لمدة أخرى... لأنهن كلهن ثقة وهن وسط هياجهن العاطفي، ومشاعرهن المضطربة، وبسبب غياب نقاهة ما دون الوعي، يتصورون أن الجثث ستنهض مثل الجثة –اليعازر– لكن اليعازر يحتاج الى المسيح... صمت... جائني صوته مرة أخرى: أنظر... النساء بداءن طقس التطهر ... رددت مع نفسي: طقس التطهر؟ التطهر من أي شيء؟ قرأ ذهني بسرعة، وقال: التطهر من الألم... من جروح الغربة... قلت مع نفسي: الغربة... الغربة... أي غربة؟ أن لغة هذا الإنسان صعبة أحياناً... سألته: لماذا وكيف جاء بي الى هنا؟ وهل بوسع أي واحد أن يجيء الى هنا؟ أجابني لا... قبل كل شيء يجب أن يعرف معنى الألم... الألم الموجع...

– لماذا الألم.

– لأن الألم معرفة. ألذي يجيء الى هنا يجب أن يعرف معنى الوهم أيضاً... قلت: وهل يدرك الوهم؟ أو يفهم؟

أجابني: آه... طبعاً... طبعاً... لكن ليس عن طريق الكلمات، أو الأفكار... الوهم هنا يفهم مثلما تفهم الموسيقى... بالإختصار، هنا كل شيء مثل –الهيتروتوبيا– هل سمعت بهذه الكلمة؟ تقول لا... حسناً... أنت الآن مثلاً لست هنا، ولكنك هنا أيضاً... تصور نفسك في المسرح... حتماً رأيت أنواع البشر في المسرح... نساء، رجال، أشباح، جثث... أسمع، هذه مقبرة، وتلك إمرأة، أشارَ الى إمرأة ظهرت فجأةً تحت ضوء بنفسجي، شبه عارية تجري في صحاري من الياقوت... ولدهشتي الشديدة لاحظت أن طريقة توزيع وتسليط الأضواء على المناظر تتم بطريقة المخرج الألماني جولدن كريك، ويحث الخيال للقيام بتلفيقاته المخيفة، شعرت وأنا أرى المرأة الباذخة الجسد، وصحاري من الياقوت، وحركات المرأة وهي تؤدي برفق حركات بانتومايمية بإنفعال جمالي، وشهوي، شعرت بندى منعش، وأقتحمني فرحُ دبق، وصرت نهباً لأحاسيس بركانية. وبالرغم من أنني لا أرى وجهي لكنني واثق أنه أحمر مثل قرنفلة. قال مرافقي الذي رحت أستمع إليه بخشوع: لا تضطرب... المرأة ستتقدم منك. أقتربت المرأة مني بخطوات وئيدة. نكست رأسي لا إرادياً، قال بسخرية ناعمة وحلوة: ما بك؟... الذي أعرفه عنك، هو أنك ممتلىء بالروح الأقليدية ضد الكثير من المفاهيم البالية. أجل... لديك روح تمردية. أن الله خلق المرأة بهذا الشكل الرائع، والمثير لنمتع نظرنا، وحواسنا بها حتى ولو بطريقة بريئة جداً أحياناً... أرفع رأسك... لماذا ترفض؟ حسناً... أنت حر... هاهاهاها... هل حقاً تريد أن تفعل ما كان يفعله ملة الخصيان؟ قلت بصوت مخنوق: ماذا؟ هل أُخصي نفسي مثلهم؟ قال: لالالا... لن يطلب منك أحد أن تخصي نفسك كما كانوا يفعلون نشداناً للكمال الأخلاقي... أنت أذكى بكثير من أولئك... جلست المرأة العارية بطريقة مثيرة على مقعد من الخيزران، وسلط عليها ضوء بلون العنبر. كانت كما لو أنها تنتظر مصوراً. جاء مصور شاب وبدأ يصورها... قالت وقد أنغرست أعواد الخيزران في طيات لحمها، قالت وبإلقاء مسرحي رائعَ ياإلهي، هذه الطبيعة الذكية أحياناً تصبح جداً غبية في عملها... أجابها صوت مثير: أنظر الى هذه الغيمة من الحشرات... حقا!،

ما فائدتها؟ ماذا تعمل وهي تهوم في هذا المكان! أتراها تقوم بواجبات خاصة بها...؟ قال وقد تغير جرس صوته؟ الآن يا ضيفي العزيز جداً، حاول أن تفكر بكل ما لديك من قوة بالزمن الغريب... رددت مع نفسي، يا إلهي ماذا يقصد بالزمن الغريب!؟ مرة أخرى قرأ فكري، وقال: الزمن الغريب يا عزيزي، هو، الزمن الذي يتراكم بلا نهاية. أنظر وفكر في المرأة الجالسة فوق كرسي الخيزران... بماذا تشعر؟... قلت مع نفسي: بصراحة أشعر بنشوة ديونيزسية. لقد جعلتني أحتفظ بصفاء ذهني رغم تماسكي أصبحت لوهلة مخموراً بأجمل الأفكار... قلت: في الحقيقة لا أعرف... أنت بصراحة رجل عميق التفكير... أجابني ضاحكاً: وأنت كذلك... لا يجيد الى هذا المكان إلا المتنورون... حسناً... المرأة العارية وهي تمثل، أنها لوحة فيها أزمنة... قبل قليل رأيت عدة لوحات حية... جثث... نساء عاريات. نساء يندبن، يرقصن، طقوس تطهيرية، وسترى بعد قليل مناظر أخرى... تعال وأنظر الى هؤلاء البؤساء وه يأكلون. لاحظ أنهم بسبب الجوع الوحشي يأكلون بحب. للمناسبة ما رأيك بالأكل؟؟ أن مضيفي هذا إنسان غريب، متقد، متأجج، تحرقه حماسة داخلية عنيفة... عندما تأخرت في الجواب عليه قال:

– آه... أنت على ما أظن من الزهاد... هل أنا على صواب؟ هززت له رأسي أي نعم... أضاف: معظم الزهاد في العالم بدءاً من سقراط ووصولاص الى بوذا وغاندي تكلموا بلغة باردة ولا أبالية عن الطعام، وكأن الإنسان لم يخلق ليأكل... أما أنا يا ضيفي فمع كونفشيوس الذي يقول: ليس في إعداد الرجل الحكيم طعامه ما يسيء الى مكانته. وأنت رجل حكيم. مدَّ يده الى ماعون كبير رأيته لأول مرة، أو ربما سلط عليه الضوء فجأةً، وألتقط فخذ دجاج محمص، وأكل بلذة وردد من جديد مقولة كونفو شيوس... لا... الأكل لايسيء الى مكانة الإنسان... هاها... أراك تضحك... أنت إنسان متحضر، لكنك بقدر من أنت سهل جداً أحياناً فأنت صعب أحياناً أخرى... تعال لنشرب قليلاً ونستمع الى غناء جميل... بدأنا نشرب ونأكل... عما قليل ستتقدم لك مجموعة نساء يحترمنك ويعززنك كثيراً طقساً مسرحياً جميلاً من الإحترام والتبجيل. أي رجل ساحر مضيفي هذا؟ ترى هل أستطيع ذات يوم أن أدرس معماره الروحي والفكري؟ زرت مع نفسي: طقساً مسرحياً جميلاً!؟ لي أنا!... من هنَّ! لماذا؟ ما سبب حبهن ومعزتهن لي؟... وكعادته قرأ فكري بسرعة وقال: لأنهن يردن أن يدخلن مزيداً من النور الروحي الى قلبك... أن كل شيء مثير، وساحر في عالم الهيتروتوبيا... هنا يا ضيفي الحبيب تكون

حرية الروح ممكنة، لذلك خلال مكوثك في دنيا هيتروتوبيا تتخلى جذرياً عن كل سلطان زمني. هنا يوجد حب حر... الآن، أعرف أنك تحب الغناء... الغناء وحده يعمل المستحيل... أليس كذلك؟ حتماً سمعت بالقائد سيمون بوليفار... جيد. كان بوليفار عندما يستمع الى صوت صديقه الساحر الكابتن ايتور بيدي أثناء إستراحتهم، يقول بحب حار: شكراً يا كابتن... صدقني بعشرة رجال يغنون مثل غنائك يمكننا إنقاذ العالم... ولدهشتي راح مضيفي فجأةً بأعذب وأجمل صوت سمعته في حياتي يغني. بصوت مخملي وبحنان طافح، وجرني معه رغم بؤس صوتي الى الغناء بحرارة مرددين ولمرات عديدة هذا المقطع من أغنية أم كلثوم.

طوت يد الفجر
ستار الظلام
فأنهض وبادل
حديث الغرام.

صرخ من شدة فرحه: رائع... رائع... صوتك ليس رخيماً لكن أداءك رائع... لقد كان الموسيقار الإيطالي الساحر جيانتينو روسني على صواب عندما قال: أن الشخص الذي لا يغني هو إنسان غضوب، متكبر، متآمر...... مرة أخرى بصوت رخيم يضرب القلب. تنهد، وقال: أنظر جاءت النساء اللواتي يحببنك بجنون... لم أر النساء لكنني سمعت أصواتهن الجميلة... هناك أصوات عندما تلامس طبلة الأذن يتنهد الواحد لاإرادياً، أو يشعر كما لو أنه في حلم، أو في مكان بعيد... صوت يأتي برفق عذب من كواكب بعيدة، ويشعر له بضرب من الرعدة، والسعادة... ظهرت النساء بطريقة مسرحية لكن جد تلقائية... تقدمن مني بخشوع.

قال: هؤلاء النساء يجدن فيك ولياً... لا ترتبك أمامهن، تقدمت النساء مني، وقد لاحظت أنهن فعلاً كن سعيدات برؤيتي وكأنني فعلاً إنسان مقدس، تقدمن مني وتبركن بي بطريقة غريبة وكأنني زعيمُ ديني، أو روحي. ترى أهن واثقات مني؟ يعرفنني؟ أوَلَسن واهمات! ما أكثر ما يُغذي الوهم أفكار الإنسان، يغذيها بالأحلام، بالمخاوف، بالصور، بالتوقعات، بالأفراح، وحتى بالجنس... أحرقت أحداهن بطريقة شعائرية عشباً فاحت منه رائحة زكية، مثيرة ومهيجة وهي تردد بحب: تقبل وافر محبتي يا زائرنا الحبيب، وتراجعت بطريقة راقصة، مفسحةً الطريق لأخرى جميلة على نحو خرافي،

وأشعلت هذه شيئاً أزكى رائحة من رائحة ذاك العشب، وقالت وهي تقبل خدي بحرارة: أحرق هذا الراتنج أيها الإنسان النبيل يا من جئت لتطهر قلوبنا، وجاءت شابة لها نهدان جاسئان، ووجه نمري، عانقتني بحرارة وقبلتني في عنقي مرات عديدة، ثم تراجعت بحركة مسرحية وأشعلت نباتاً هي الأخرى وقال: أحرق نبات المر هذا ليُذهب عنك أخر قطرة من الرائحة الإنسانية الزنخة، وجاءت أخرى وعلى طريقة ممثلات الدراما الشكيسبيرية بركت أمامي وأراحت خدها الملتهب على ركبتي، ومسدت ردفي، ثم برفق فخذي، وأمسكت يدي اليمنى بطريقة حزينة ممطرةً إياها بقبلات شهوية، وأشعلت نباتاً، وقالت كما لو أنها تردد صلاة: أشعل نبات العرعر هذا ليتأجج جسدك حباً وألقاً، وشهوة، وليمتلىء رأسك النبيل بالأخيلة الجميلة أيها العزيز الذي جئت لترانا في عالمنا الصعب هذا... فجأة ظهرت مع ضربات موسيقية من خلال زاوية مظلمة فتاة لاهثة البياض، رائعة الجمال، قدمت لي كأساً فضية فيها سائل بلون الزبرجد الأحمر، وبعد أن طبعت عدة قبلات على شفتي قالت: أشرب هذا المزيج من عصير العسل والزبيب المزوجين بالخمر لتتحول الى كتلة من الخيال والشهوة... عندما أنتهيت من شرب محتوى الكأس، وبعد أن إمتلأ صدري بروائح الأعشاب، والنباتات بطريقة رائعة، وساحرة إنقلب الواقع المتشابك في خيالي الى لا واقع، وتشظى خيالي مثل قطعة بلور سقطت من مرتفع عال على أرضٍ صلبة. راحت النساء بتهور وقح يقدمن عروضاً مسرحية معقدة...! ظلام، صمت. سلط ضوء شذري على وجوه النساء. رأيت حرائق الحرب في عيونهن. أطلقن أصواتاً مثل فحيح أفعى الكوبرا. أدّينَ حركات جسد مثيرة ومعقدة. كنَّ حبالى بحب حقيقي. تلاعبت الأضواء على أجسادهن. ولست أدري لماذا رغم إنتشائي شعرت بقلق، وعدم ثقة بالنفس، بينما رحن هنَّ يدرن حولي ويتزلفن إليّ بحركات راقصة ليكسبن عطفي وحناني. جاء صوت مرافقي الهاديء الرقيق: ماذا؟ أراك مرتبكاً... أفي هذه الهيتروتوبيا ترتبك! قلت وقد ثقل لساني! أرتبك! كنت مرتبكاً فعلاً، وكنت أيضاً في الوقت نفسه وبطريقة دراماتيكية في أسمي سموي. سألته من أنا؟ قال أنت كل شيء أسمه أنت. أنت الآن خيال عطرته أولئك النساء بالعشب، والزبيب، والخمر، أنت الآن كتلة إنتشاء، خدرٌ لذيذ... خيالك الآن له أجنحة. أتعرف أنك بعد قليل مثل ايتنانا ملك مدينة كيش الذي عرج الى السماء ودار حول كل البلدان، ستدور أنت الآخر في عوالم كثيرة... الهيتروتوبيا... يا ضيفي الحبيب أن المغامرة أمرٌ

عظيم بالنسبة لنا نحن البشر الفانين. دع طيفاً من المسرة تجتاح نفسك... أطلقت رغم إنتشائي ضحكة طويلة، ورددت كمن يهذي، مثل الملك أيتنانا ملك مدينة كيش... هاهاهاها. أنا الآخر أدور حول البلدان... جلست فوق كرسي شبيه بذاك الذي جلست عليه المرأة العارية... حطت حشرة فرس النبي فوق يدي، كان منظرها الطحلبي وهي تنحني فوق يدي جميلاً... قال مضيفي: سرعوفة جميلة... قلت فرس النبي. أجابني لا... أنها سرعوفة... قلت: هل تستطيع الحشرات أن تتذكر؟ قال: طبعاً لا... طارت السرعوفة وأضاءت في الظلام دائرة صغيرة من الفسفور. جاءت النساء. سلطت أضواء أكثر أثره عليهن. سألتني أحداهن إذا كنت أرغب أن أكون سيداً عليهن. أجبتها وهل أستطيع أن أكون سيداً على نفسي لأكون سيداً عليكن، قالت إحداهن بنبرة خشنة: واضح أن روحك ضعيفة.

– ربما...

– لماذا لم تتعلم جلدها بقسوة... وبعد حوار مضطرب أقرب الى الهذيان أنهلن عليّ ضرباً... أُغمي علي. عندما أفقت وجدت نفسي في فراش وثير، محطماً، متورماً: أية قوة عجيبة أنقذتني. فجأة رأيت نفس مجموعة النساء، لم أعر لهن أي أهتمام، ربما لأن جسدي كان مفرغاً من أي إحساس، وحتى من الروح، قبلنني ودهنَّ جسدي، وأنهلنَّ عليّ تقبيلاً، وبكين، وبنفس تلك الطريقة الطقوسية أعدن التبخير، ورحن يطلبن مني المغفرة، والعفو، ويطلبن أن أمنحهن السعادة، والبركة... همس مضيفي بصوت رقيق: أنظر، لقد أنتصر ضعفك... أنت إنسان جلد، صلب. لا...

لن تفشل وأنت تملك هذا العقل، وهذا الجسد... نهضت، وجاهدت رغم آلام جسدي ألا أطلق آهة واحدة. سمعت مضيفي يقول وثمة رنة سخرية محببة في صوته: هل تؤمن أن كل شيء حدث من قبل يحدث ثانيةً؟ أجبته بصوت خافت: ماذا؟ يعقل! أجابني، طبعاً يعقل... هل سمعت براستانياك... بطل الروائي الفرنسي بلزاك؟ حتماً سمعت به، أعرف أنك قاريُ جيد... حسناً، بطل بلزاك هذا وقف على قمة مونتمانتر، وقال وهو ينظر الى باريس: سأغزوها وأقهرها... وها أنتذا بيدك الصولجان، والجميع في هذه الهيتروتوبيا يتبركون بك... قلت لمضيفي: يا صديقي، قد تكون أذكى مني، وأعمق ثقافة، لكن، ألا تعتقد أن ثمة إضطراباً في ذهنك... أجابني ببرود: ماذا يدفعك لمثل هذا التساؤل!... قلت: حسناً، أن الأدفعة المضطربة تبحث عن الأوهام بدلاً من

الحقيقة... أطلق كعادته ضحكة جميلة وقال: ماذا؟ أتريد أن تغمد سيفك؟... صرخت: أنا حر أغمد سيفي... كفى... ماذا تريد مني. أخرجني من هذا الجو نهضت، ورغم الآلام ألتي كانت تزداد في كل بوصة من جسدي وأطلقت ساقي للريح... ركض الجميع خلفي... رأيت المرأة وهي ما زالت عارية فوق الكرسي المصنوع من الخيزران والشاب ما زال يصورها، وهي تردد بإلقاء مسرحي. يا إلهي، كيف أستطيع قراءة هذا الشاب الذي أحبه بجنون، وهو يعطيني بإستمرار نفسه من خلال موشور يعجز العقل عن فهمه... لكنني أحبه، وأعرف أنني حتماً سأفقد جزءاً من حريتي... صرخ صوت من بعيد: ستوب... رائع... طاردني صوت مضيفي بقوة: يا صديقي، يا عزيزي، يا راستانياك، أنني إحتراماً لنبالة روحك، لخيالك الرائع، لثقافتك أدخلتك في الهيتروتوبيا لتتعلم التمييز... أجل التمميز... رحتُ أجري بقوة. قال: أنت الآن تطير مثل سرعوفة، وبعد قليل ستتحول الى ضوء... بدأت أجري بقوة أكثر في طريق أزرق جميل راح يصعد الى الأعلى... يا إلهي، لقد بدأت أرى عوالم رهيبة وجميلة، وعظيمة. آه، اللحظات العظيمة، والرهيبة دائماً خارجة عن الزمن، جاء صوت من مكبر للصوت. ألم أقل لك مثل ملك مدينة كيش أيتنانا ستعرج الى السماء وتزور كل البلدان؟هاهاهاها... أنها الهيتروتوبيا

... وداعاً يا صديقي... أبدأ رحلتك السعيدة من مدينة أرنجا

. وسط الصمت الأخرس، وأنا أطير مثل السرعوفة(*)

سمعت النساء يرددن بصوت كورالي: طار حبيبنا الى الأبد... تأتي سعادتنا نحن النساء من الرجال، أما سعادة الرجال فتأتي من ذاتهم... وداعاً يا من تبحث عن ذاتك.

(*) سرعوفة: حشرة فرس النبي.

اللازمني

سأراه... سأراه... أجل سأراه... هكذا قررت... سأراه في عيد ديونيزيوس المقدس، هناك في اليونان وفي عاصمة أثينا... وصلتُ والعيد يتفجر ألقاً، وبهاءاً، وكل شيء في هذا الأكربوليس يشع مثل ماسة حقيقية... وسط حشد من الراقصات شبه العاريات، والراقصين الشباب، والشيوخ ألذين أسكرهم ذكر الإله المخيف ديونيزيوس، وأفقدهم السيطرة على أنفسهم، مررت محدقاً بلهفة هنا وهناك، منتشياً، سعيداً كما لو أنني يوناني حقيقي مثلهم. آه، أيها الإله المخيف ديونيزيوس يا من تؤجج عواطف، ومشاعر اليوناني الى حدود المجون اللامعقول في عيدك الخمري هذا، يا من تجعلهم يتوهجون في أسيد المشاعر الحارقة، ويخرسون في الدنيا اللسان والعقل، هؤلاء الذين هم أساساً عشاق العقل... في هذا العيد الربيعي يحول الإله ديونيزيوس هذه المنطقة المقدسة الى حرائق من الألوان... ألوان وزِعت بصراحة حارة كما لو أن المنطقة كلها لوحة بهيجة للأسباني –ميرو– في هذا العيد من يستطيع لا سقراط العبقري الرصين، ولا سوفوكليس الجاد الصارم، وحتى أرسطو صاحب العقل الكوني أن يوقفهم عن المجون... أن حبهم الممزوج برفيف مشاعرهم، وخوفهم الشفاف لن يُعطيهم هُدنات صغيرة للراحة، بل يدفعهم جميعاً الى الرقص، والشرب، والعبث، والعويل، بمجون شهوي بربري... ياإلهي، الجميع الآن في حالة من الشعور المتطرف... الجميع بسبب تخدير الحواس، والعقل مؤقتاً لا إستقرار ولا حياء البته في سلوكهم... قُبلات، هصر أثداء (حركات داعرة لأجساد تتلوى مثل أفاعٍ مهسترة... الأفواه كلها مثل اليائس الملهوف تنادي، يا حبيبنا ديونيزيوس أجج من غير شفقة صراعنا الداخلي، وأغمرنا في فيضٍ من العواطف المجنونة...).

الكل يتنافس بحماسة هستيرية ليُعبر بطريقته الخاصة عن شعائرية الطقس المقدس لنيل بركة الإله... يالهذا التعبير عن تيارات الموجات العاطفية، والدينية، وعن مشاعر غامضة، متشابكة تتفجر في الهواء مثل فرقعات حقيقية... هذا العيد يعزّي اليوناني بدءاً من سقراط وصولاً الى أسذج فلاح وعبد... في هذا العيد يكشف كل واحد أن فعلاً في أعماقه مسٌ من الجنون الحقيقي إذا كانت –موموكشتوا– في اليوغا البوذية، هي، طيقه

لتحرير الجسم من حدوده المادية، في عيد ديونيزيوس، وعبر رقصٍ عارٍ ثمل وجنوني، شهوي تتدنى الحواس، وتتفتح الروح، ثم تبدأ ضرب من الهلوسة الغريبة... على مبعدة عدة أمتار أرى مجموعة من الفلاسفة... ذاك الكسمندر ألذي كان دائماً يقول (هذا الكون كلي بدون آلهة)... وذاك أكسينوفان ألذي رفض خلود الآلهة، وسقراط يلثغ من شدة السكر... الجميع يرقصون أنصاف عُراة، في ذكرى الإله ديونيزيوس... أجل الجميع في هذه اللحظات الهاربة، اللحظات الغيبوبية يؤكدون ما كان الفيلسوف أبيقور يردد (الجسد فان، ومملكة اللذة هي اللحظة)...

هنا في هذا المهرجان البشري الساحر سكتشف الإنسان أن ثمة قوة غامضة في الجسم الإنساني، فيه اللذة، والألم، والتحمل، والخصوبة، والعظمة، والموت أيضاً... آه، عبثاً بحثت عن عاشق ديونيزيوزي أصيل يدعى فريدريك نيتشة في هذا الحشد. نيتشه ألذي صور ديونيزيوس إله البهجة، والخوف، والقسوة، والحرية، صوره حاملاً سيفاً بيد وخوذة على جانبه دليلاً على ما سينزله إله الرعب على أوربا ألتي تسير في طريق الديماغوغية المالية...

في هذا العرس التحطيمي لكل الأشياء الأرضية التافهة، حيث جسد كل يوناني ينبض بعمق، فجأة وقف أمامي رجل متنكراً بثياب هرقيلس... أمسكني بقوة من كتفي وهزني وهو ينظر الى ملابسي ألتي لا تشبه ملابس الحشد الثمل... هزني عدة مرات، وقال:

– أحزر من أنا... وأضاف: لكن أنى لك أن تعرف، وأنت لا تشبه يونانياً...

قلت: صحيح أيها الملك الشاب... لست يونانياً... آه... أنت لم ولن تخونك نبؤتك أبداً... لقد كانت عظمتك في نبؤتك! هزّني هذه المرة برفق قائلاً: حسناً... قل من أنا؟

– سأقول لك من أنت... لقد قطعت آلاف الكيلومترات لأحضر هذا المهرجان لكي أراك أنت بالذات...

– من أنا؟

– مهلاً... مهلاً... لن أتفوه بأسمك العظيم الآن...

صرخ: قُل من أنا!!

– آه... أيها الملك الرائع، لقد كانت واحدة من عيوبك سرعة غضبك، ثم ندمك...

– لالا... أنت لا تعرفني...

– بل أعرفك جيداً... يا من أردت أن تكون أبناً للإله آمون هناك في معبده...

صرخ: جيد... لكن من أنا... أنطق أسمي...!

– أيها الملك العظيم برغم إمتلاكك قوة فوق الطبيعية وقدرة على التنبؤ، وشجاعة خرافية، وصبراً خرافياً، لكن غضبك السريع شيء لا أصدقه. في نوبة غضب قتلت كليتوس الحبيب جداً الى قلبك... إهدأ أيها الملك ولو أن الهدوء في عيد ديونيزيوس مستحيل...

– آه... ماذا... كليتوس... أنخرط في بكاءٍ حار، وهو يقول وحق زيوس أنت تعرفني...

– أهدأ...

– لكن أنطق أسمي...

– صبراً صبراً... حسناً. أنت شابٌ وسيم... لك شعرُ أشقر على شكل حلقات وخصل... إحدى عينيك سوداء كما عين التنين... عينُ جميلة لكن مخيفة... أتذكر حين هم بوسيفال بالإنقضاض عليك زجرته بعينيك الغاضبتين فخرّ حصانه على الأرض... هتف قائلاً:

– بحق الإله زيوس، والإله ديونيزيوس أنك تعرفني، بينما عجز عشرات من أبناء وطني أن يتعرفوا عليّ وأنا في ملابس هرقيلس.

حسناً ماذا بعد... كشف زاوية عباءته فرأيت سيفه... قلت:

– شيئان لا يفارقانك أبداً حتى في موتك.

– ما هما؟؟

– ألياذة هوميروس، وسيفك...

أخذني بين ذراعيه وعصرني بحرارة، ثم بحركة مسرحية جميلة لفني بعباءته وقبلني بطريقة أنثوية غريبة... قال وهو مازال يضغطني الى صدره بحرارة: أنت عراف إذاً... هل تجيد التنبؤ؟

– بل أنت تجيدها كما لم يجدِها أيُّ إنسان آخر... أتذكر كيف صرخت ذات مرة من قلب أثينا قائلاً: يا ملك بابل، سنتقابل في بابل...

– فعلاً... وقابلته فعلاً بعد سنوات.

– طبعاً منتصراً

– أنا لم أعرف الهزيمة أبداً...

– أعرف...

قلت مع نفسي: وهل مثلك يعرف الهزيمة؟ مثلما أن الثائر الحقيقي ألذي تتحول مفاهيم الثورة عنده الى ضرب من العشق النادر، يعيش أخوف وأصعب الظروف في مواجهة الموت كحرية لا مثيل لها في جماليتها وذائقتها... وهذا الإنسان كان يطير على حصانه، وجيشه من أثينا الى بابل، الى الهند، الى الأسكندرية وسط مصاعب جمه، خرافية أحياناً كما لو يبحث عن أجمل حرية عندما يبسط نفوذه على عوالم جديدة... يقول اليوناني –لكل بطل كعب أخيل– حقاً أين كعب أخيله؟ من يدري... إرتفعت هتافات حارة، المجد كل المجد لمملكة هيلين... نساء سمراوات شعورهن بسواد لون الفحم، عيونهن واسعة نظراتهن جريئة بل وقحة. أختلطن بالحشد ورحن في رقص هستيري... ياإلهي، أهؤلاء هم بناة أروع حضارة مزهرة في التاريخ البشري... أجل... بالصفائهم الفكري الرائع، والمعقد ألذي عبر عن حب عميق للجمال والعواطف الفوّارة، والتأمل الدقيق عرفوا المادية بكل عمقها، والميتافيزيق بكل عمقه، وخلقوا الأساطير الفخمة، وعرفوا قبل كل الشعوب الأخرى نظماً مختلفة على أرضهم من ديمقراطيات، وأرستقراطيات وإستبداديات... وبرغم شدة العداوة بينهم أحياناً يعلنون السلام في الشهر المقدس للألعاب الرياضية، ويدعون إليهم من كل فجٍ عميق الى أولمپيا للرياضة للتنافس النبيل... أيه لقد كانوا يؤمنون بأن الحضارة تبدأ حيث تبدأ الرياضة. جماهير تسحقها النشوة في الضوء الرائع، الناعم، الأنثوي، الحساس ألذي يغلف المكان، والأجساد بطريقة مثيرة، ضوءٌ يخلق لوثه من الحس الرفيع. ضوءٌ يجعل كل شيء بدءاً من الأرض حتى العقل أن ينضج بسحرٍ غريب. حشدٌ هائل من البشر ألذي يفوح منه رائحة الخمر، والصعتر، والندغ، والقرفة، والنعنع.جاء حشدٌ مهووس من منطقة باساي وسط بيلوبوينوس حيث يشمخ بعظمة معبد أپولو بلون الحجر الجبلي...

كنتُ متلهفاً أن يزيح ذاك القناع الهرقلي عن وجهه لأرى تقاطيع وجهه. لكنه تريث مثلما تريثت أنا في نطق أسمه... هذا العملاق ألذي صنع زمنه، وحضارته في قلب الزمن ألذي عاشه، بقيّ في الزمن، والزمن بدوره عجز عن إزاحته، ودفعه مرغماً للدخول الى العالم اللازمني، العالم ألذي لا يتغير، ذاك العالم ألذي يعيش فيه آلهته الى الأبد... أن هذا العملاق الشاب ألذي يقف أمامي لا يخضع الى ناموس الصيرورة،

والشيخوخة، والموت... إذا كان البشر مسكونين بالأحلام، فأحلام هذا الشاب كانت من القوة، والعظمة، والديناميكية بمكان، وضعته من حيث لا يدري كبير آلهته زيوس في اللازمن... هذا اللازمني قال بخيلاء إستراتيجي حانق، ولكن بتواضع يصل حد الذهول، (أجل غزونا كل شيء، نعم، ولا نملك شيئاً)... لقد سرق بعبقريته الفذة من الزمن أكبر حصة، سرقها من الواقع، ومن المجهول، والظلمات، لأن عينيه كانتا تريان بوضوحٍ شفاف وعميق. أجل يبتعد التاريخ عنا ونبتعد منه بدورنا في الفكر، لكن من الصعب أن يفقد معناه، وعقلانيته، فهو دائماً قادر على الإستبطان. لأن التاريخ ليس لذاته، بل لنا نحن البشر. هنالك شرائح من التاريخ من حق الإنسان الواعي أن يبالغ في تقييمهِ، أو تصوره بشيء من التقديس... الأنثولوجي يحترم التاريخ لكنه لا يعطيه قيمة مميزة، بل يعده مختبراً لبحثه، أما أنا مع هذا الملك أدخل مع صوره لبطل إستراتيجي تتناسب مع الحاضر، أدرك معه سيرورتي الشخصية كتغير متصل، من هنا يبدو لي، وللكثيرين أشد قرباً، وحميمية، ومن خلال ومضات صغيرة أدخل ذاتيته، ولا أدعي البتة أنني أستطيع الوصول الى كينونته المتغيرة، وتلك المتحركيات المتعددة في ماهيته ألتي تقع خارج ذاتي... إنه عقلٌ متسام جداً، وعقل تحليلي مدعم بعقل جدلي.

***

بدأت رقصات داعرة، جنسية بطريقة إستفزازية... أبتعد بخطوات قصيرة الى الوراء عندما سمع أنغام موسيقى مثيرة، وراح يرقص. ربما كان ثملاً جداً، لكن وهو المعروف بمتانة أعصابه، وإفراطه في الشرب، نادراً ما يظهر عليه الثمل... رقص بحرارة شديدة محاولاً الدخول في حومة طقوي الهلوسة الديونيسية... أقترب مني، رفع عباءته الهرقلية... رأيت سيفه... آه، هذا السيف المخيف ألذي بتر العقدة الغوردية الى الأبد... هذا السيف ذكرني بمعركة شيبا، وحصانة المقدس يدوس على أكداس من الجثث، وعواطف ثلجية تزأر، وهو، شامخ ينظر الى الأفق المضبب... معركة أربيل، وداريوس واقف بحزن قائد مستسلم كما لو أنه في غيبوبة بين ركام من التماثيل والأحجار يستمع الى غناء جنود الملك الشاب وهم يرددون:

الآن تفوح أرض أسيا كلها
بحس الخواء
كسيركسس قاد الجيوش الى الأمام، أوه، أوه

كسيركسس قضى عليه، ويله، ويله

خطط كسيركسس جميعها أجهضت

لماذا لم ينزل داريوس إذن...

وهنالك في بابل سار بخيلاء منتصراً... يا إلهي في الأسكاتولجيات التاريخية، الإنسان دائماً يترقب حدوث تجديد كوني عن طريق ظهور قائد، ملك، بطل، منقذ، وهذا الشاب الملهم برغم رفض أبناء شعبه خططه، غير أنه أصرَّ على تحقيقها، وحمل لليونان إرادة معرفة العالم... رقص مرة أخرى... لم يزح قناع هيراقليس من على وجهه الجميل. أستطيع أن أتخيل وجهه، هذا الملك الذي عاش حياةً ذات سلوكية فردية شاذة، نَمَتْ لديه أصالة عالية... ومن الأصالة تنبع دائماً الإنجازات، ومغامرات عظيمة... أجل أستطيع من وراء القناع أن أتخيل وجهه، متى ما أريد... أتخيله وهو جالس فوق سجادة على الأرض يضع اللمسات الدقيقة لهندسة مدينة الأسكندرية، أو أتخيله وهو يراقب حشداً من الناس، والكهنة يسيرون على ساحل البحر وهم يحملون القناديل في عيد قومي... شجعني على الرقص . بداءت أرقص على طريقتي الخاصة... هذا الملك ألذي كان عنده كل شيء، لكن كره أن يملك أي شيء، وعشق أن يموت في المخاطر، والسير بقوة العاصفة حيث يضل الليل طريقه، كان يتقدم، يتقدم، يتقدم، مثل مصارع الثيران الجريء محتفظاً في أخطر المواقف برباطة جأشه، وبهدوئه... وبرغم تواضعه أحياناً، كان رغماً عنه، وهو، الملك وأبن ملك يعاني من مرض الطاووس، رمز الكبرياء، والقوة، والغرور... ومرض الطاووس عند هذا العبقري كان مدعوماً بعقل متنور، وقوة تنبؤ، وحلم رائع وعظيم عن العالم... توقف عن الرقص، ورفع ذيل عباءته عالياً... ثنيةً رأيت سيفه بوضوح أكبر.

قال: أراك تتأمل سيفي بتعجب شديد؟... قلت: قليلون جداً أيها الملك أوْلئك ألذين أجادوا بفطرة عجيبة إستعمال السيف مثلك...

ربت على كتفي، وأخرج ألياذه هوميروس، وقال: الآن أخبرني من أنا؟

– أنت... حسناً، أنت أذكى من عرف كيف ينظم خلوده...

– هاهاهاها... مع أنك تطريني لكنك تقول الحق... هل تعرف كيف كنت أنظم خلودي؟

– بإخضاع العالم كله...

– أحسنت... تقدم وحضنني، ثم قبلني بحرارة، وهو يردد: عفاك.

– مع ذلك كرهت أن تملك...

– التملك صفة ذميمة...

– فعلاً...

– كنت أحب أن أغزو... أغزو... شرط أن أنتصر... ولدى عودتي كنت أزرع الجواهر في الصحراء لتلمع تحت أشعة الشمس...

– قلت ذات مرة: غزونا كل شيء ولا نملك شيئاً.

– أحسنت أيها الشاب، ولو أنني فكرت بمجرد الإمتلاك لأفسدت خلودي.

– عظيم... عظيم...

– للمناسبة ما أسمك؟

– جليل القيسي.

– تعال يا جليل، لنذهب ونرقص معاً عاريين عند قبر أخيل... أخيل... رددتُ بإلقاء مسرحي جميل المقطع التالي من الألياذة، (ولكن أخيل أنتبذ جانباً، وجلس على الشاطىء مستسلماً لبكاء عاطفي عنيف، باسطاً ذراعيه، جاهراً بدعوة أمه ثيتيس أبنة البحر إليه)... ولدهشتي أكمل هو الآخر بإلقاء مسرحي بقية البيت، (إليه حيث يجلس ينتحب، فلمسته بيدها، ونادته بأسمه وقالت له ما خطبك) تنهد بعمق وقال: قسماً بالإله زيوس أنك فعلاً تحفظ هوميروس عن ظهر قلب. ثق يا جليل لو كنت أخطر أعدائي، وأنت حمداً للآلهة صديق، لعفوت عنك فوراً لأنك تحفظ هوميروس، أخذني من يدي، وبعد مسيرة ربع ساعة خرجنا من وسط الحشد الثمل بالإله، وطقوسه، أشار الى قبر أخيل... تعرى من جميع ملابسه، رأيت وجهه الجميل؟ وحركت همسات الربيع خصلات شعره الأشقر، وبجسده الرشيق الرياضي راح يتموج بطريقة أفعوية على طريقة أسلافه. يا إلهي، هذا الإنسان فوق الطبيعي ألذي عاش أحداثاً صارخة، هذا ألذي أراد في العشرين من عمره أن يفرّ من الوضع البشري، هذا المسكون بالغزو، وبهوميروس، والفلاسفة، وبالسيف، يقف الآن مرحاً، سعيداً على قبر أخيل تماماً كما كان يقفز يوم إنتصاره في الهند... سألني فجأةً: من أي بلد أنت يا جليل؟

– من بلاد وادي الرافدين... من مدينة آرنجا ألتي مررت بها بعد معركة أربيل، وأندحار داريوس وأنت في طريقك الى بابل...

– آه... حقاً... حقاً... وأذكر صعدت قلعتها وتأملت المدينة الصغيرة الناعسة...

ياللمصادفة... ياللمصادفة... هياهيا... لنبدأ الرقص... عاد الرقص... هذا الغلام الشجاع... العاري كلياً... المندمج بلذة حارة في رقص ديونيزيوسي على قبر أخيل ألذي كان مثله شجاعاً وسهل الطبع، لن أجد الكفاية من الكلمات في أية لُغة للحديث عنه... هذا العبقري ألذي صعّد كل طاقات عقله الباطن ليكون على تماس مع القدسية الكونية، وعبر هذا التماس فجرّ شلالات من الأحلام، والخيالات، والإبداعات الإستراتيجية، والفنون اللوجستية، ودخل عالم اللازمن مثل آلهة أولمپ... ظل يرقص، ويرقص بحماس هستيري، وأنا أراقبه مردداً كلمات الشاعر –سان جون بيرس– (يا بحراً تسكنه الأحلام الحقيقية) أختفى فجأةً، وعاد بعد نصف ساعة متنكراً بملابس الآلهة أرتيميس، وقال بصوت نسوي رفيع جداً: ماذا تفعل هنا أيها السيد! هل تعرف من أنا! أطلقت ضحكة لاإرادية وأنا رفيع جداً: ماذا تفعل هنا أيها السيد؟ هل تعرف من أنا؟ أطلقت ضحكة لا إرادية وأنا أقول: أيها الملك لو تذكرت بطريقة أغمض بكثير من الألهة أرتيميس، فأنا أعرفك... أنت أبن فيليب الرائع، أنت أسكندر المقدوني العظيم.

أطلق ضحكة طفولية رائعة، وقال: تعال يا جليل لنسهر ونحيي ليلة ديونيزيوسيه حارة ونشرب حتى الغيبوبة... هززت رأسي له بالإيجاب، مردداً: طبعاً أيها اللازمني.

***

في الهزيع الأخير من الليل أفقت ووجدته منكباً على خارطة يسجل ملاحظات عليها... لا أعرف لماذا تذكرت كلمات نابليون الغامضة والمثيرة عندما كان يتجول ليلاً وهو يتأمل جنوده النائمين (أضع مخططاتي بأحلام جنودي النائمين...).

ومضات في أقاليم اللاوعي

كنت مرهقاً بعد ست ساعات من العمل المتواصل عندما أتصلت بي صديقتي بعد غياب دام عدة أشهر، وقالت بصوتها الناعس الحالم: أنتظرك في فم الزقاق الكبير ألذي يؤدي الى –جقور محلاسي–(*)

غمرتني فرحة شديدة، أعقبها فجأةً إنقباض وحيرة لأختيارها ذاك المكان البعيد، والكئيب، والمظلم بمبانيه القميئة، وأزقته الضيقة المظلمة حتى في قلب الظهيرة... كيف، ولماذا فكرت بجقور محلاسي، ولاسيما وأنها مثلي تنفر من الأماكن الموحشة، لم أرى جقور محلاسي سوى مرة واحدة، زرت فيها صديقاً شاعراً كان يستمتع بمازوكية غريبة في العيش هناك. ورفض أن يغادرها حتى إنهاء دراسته الإعدادية وسافر الى بغداد... تخيلت وجه صديقتي. ولست أدري لماذا وجدتها حزينة. فهي عندما تكون حزينة أناغيها: هميت، ماذا نفعل في جقور محلاسي؟ وضعت أصبعها الرشيق على شفتيها اللتين بلون العقيق، وكأنها تقول لي: هش... هش... لا أستطيع الكلام الآن، هناك في المنطقة سنتكلم كثيراً... أنطلقت بسيارة أجرة الى جقور محلاسي. كان السائق يجهل المنطقة... نزلت في الصوب الكبير من المدينة... سألت رجلاً عن المكان... أشار بحركة باردة الى مجموعة بيوت قائلاً: وراء تلك البيوت، وعلى مبعدة عشرات الأمتار تقع جقور محلاسي،(وقفت أمام بيوت آجرية مقببة السقوف، واسعة الطارمات، ذات غرف مستطيلة قليلة النوافذ، شبه مظلمة حتى في الظهيرة). هل أنا الآن في المكان الصحيح؟؟ سألت عدة أشخاص بعد أن يئست من العثور على الزقاق الكبير. ظللت أسأل هذا وذاك، قال لي أحدهم: ماذا؟ جقور محلاسي؟ أنت بعيد جداً عن المكان، يجب أن تذهب الى الجهة الأخرى من الصوب الكبير... وقال بصوت غريب الجرس: أن جقور محلاسي على مبعدة مئات الأمتار من تلك المباني البعيدة... هدني التعب وأنا أبحث وأبحث. هبط ظلام شفاف وناعس برفق على المدينة... من بعيد لمحت لافتة طويلة بللتها أمطار نيسان السريعة والقوية. وأذابت الصبغ عن تشكيلة الحروف...

(*) جقور محلاسي: حارة من الحارات القديمة جداً في مدينة كركوك أزقتها ضيقة ومظلمة حتى في النهار.

حدقت طويلاً في اللافتة المبللة… كانت الكلمة الأولى مذابة بالماء وتشبه كلمة إستهلال، إستهلاك، إستفتاء، إستقرار، بجانب اللافتة وأمام بناية عالية رأيت عدداً من الرجال، والنساء، والشباب، والشابات، واقفين بصبر غريب كما لو أنهم ينتظرون شيئاً مهماً، وثمة رضانة. وتلهف، وجدية تطفو على وجوههم وعادة التجمهر في –الكيو– في هكذا تجمعات أمام المحلات. والمباني. أصبحت مثل الإدمان عند الجميع… سألت عدداً من الواقفين عن سبب التجمع. أشاروا لي ببرود، ولا مبالاة، أن أدخل –الكيو– وأنتظر… دخلت… وأنتظرت طويلاً.

تعبت من الإنتظار… خرجت من –الكيو– وذهبت الى الجهة اليمنى من البناية يدفعني فضول لجوج لأعرف معنى هذا التجمع المهيب الصامت وهذا الجمهور ألذي يزداد بمرور الوقت… في الجهة اليمنى من البناية وجدت ممراً ضيقاً… دخلت الممر ألذي أزداد فيه الظلام، وفغمت أنفي رائحة هي مزيج من رائحة الرطوبة، وأخشاب مبللة، وملابس… كان معي مصباح يدوي يعمل بالبطارية أحمله معي دوماً إذا خرجت في الأماسي بسبب الإنقطاع المستمر للتيار الكهربائي، أو بسبب التعتيم الليلي…(وجدت نفسي أمام باب حديدي صدىء… ثم صوتاً مثل صوت عجلة غير مشحمة… وجدت نفسي في غرفة عارية، وثمة جو من الخوف الثقيل يئيد على المكان. بل على البناية كلها… بمرور الوقت راح صمت وظلام أخرسان يغلفان المكان)… عندما وزعت لسان الضوء في زاوية الغرفة رأيت عدداً من الوطاويط ألتي إضطربت تحت ضوء المصباح وصوت مثل فئران محاصرة داخل قفص… وأختل توازن الوطاويط تحت لسان الضوء وسقطت على الأرض تتلوى مثل دجاجات ذبيحة… قلت في نفسي: أين أنا؟ ما هذه البناية؟ أين صديقتي الآن؟ قالت لي صديقتي ذات مرة، أنها أحياناً تتردد على بناية مثل هذه… لماذا؟… لا أعرف… فكرت بها في ظلام الغرفة، وبلقاءاتنا الحارة في فترات متباعدة حيث نتبادل أحاديث لذيذة بلغة مهرولة، خائفة، وبكلمات مضطربة، تغمرنا خلالها عاطفة حادة نخلد مرغمين في دفئها من شدة إضطرابنا الى لغة الصمت تارةً، وتارةً الى لغة العيون. أو نهذي مثل العشاق بكلمات لا معنى لها، أو نضحك أحياناً مثل الأطفال على حركاتنا البريئة والمضحكة أحياناً… أنها تخاف من أبيها خوفاً هستيرياً وتطلب مني أن أراها في أماكن بعيدة في المدينة لكن الحب، هذا الساحر الأزلي، كان وسيبقى الى الأبد أقوى بكثير من الأرغام… عشر سنوات من الأخلاق الأسرية

الصارمة، والعادات المتأخرة، وحضور ذاك الأب العنيد الريفي الوعي… هذا الأب الفارع القامة، والمرفوع الهامة، ألذي يسير منتصباً في مشيته المهيبة مثل جنرال حقيقي. وكأن السنوات مرّت من جانبه مرور الكرام، وتركته رغم كبر سنه في كامل عافيته، لكن مثلما العنكبوت الصبور تروح في أصلاح خيوط شباكها المهلهلة، كذلك المرأة عندما يطرب الحب عميقاً في حناياها تعمل بصبر العنكبوت وتهرب الى الحب… آه، من يدري أين هي الآن من جقور محلاسي!!؟

زادت وصوصة الوطاويط بطريقة مقرفة ومزعجة. قطعت ضوء المصباح توقفت الوصوصة. بعد قليل أعدت الضوء ووزعته هنا وهناك، عادت الوطاويط فسقطت مرة أخرى، وراحت من جديد في وصوصة مثيرة للأعصاب… فجأةً سمعت أصواتاً غريبة من بعيد. قطعت الضوء… صمت… أستمعت ثانية الى الأصوات ألتي أصبحت الآن مثل غمغمات وكأنها تأتي من مكانٍ بعيد جداً… من صغري وكان حب البحث، وعدم الخوف من الأماكن المهجورة، والمظلمة عملاً مغرياً عندي، وما زلت أمتلك شجاعة دونكيشوتيه عند الضرورة، وأقحم نفسي في مواقف صعبة غير هياب البتة، وأعمل دائماً بشعار والدي ألذي كان يردده على مسمعي: الحظ بل يتخلى عن الرجل الشجاع أبداً… فتحت الضوء. لمحت في مكان من الغرفة وعلى جهة اليسار درجٌ أسمنتي يهرول الى الطابق الثاني… أرتقيت الدرج برفق… وصلت الى ممر واسع… رأيت على طرفي الممر أبواباً مغلقة مثل أبواب الفنادق… توقفت، ومن شدة تعبي إستندت الى الجدار… صمت… لاشيء سوى صمت متموج. سمعت بعد قليل همسات، وغمغمات الجمهور الصبور الواقف خارج البناية…

ياإلهي، ماذا يا ترى ينتظرون؟؟ ماذا يتصورون من الأشياءألتي توجد داخل البناية…؟ هل يعرفون أن هذه البناية مهجورة، ولا توجد فيها سوى وطاويط؟ وهل هي فعلاً مهجورة! صعدت الى الطابق الثالث، ثم الرابع، لاشيء سوى صمت أخرس… من خلال لسان الضوء وجدت غرفة فيها عدد من النوافذ الخالية أطرها من الزجاج، وبقايا زجاج مثقوب بأطلاقات سريعة… تكاثف الظلام خارج البناية، وأستمر همس الجمهور يتماوج في الليل الصامت، وفي السماء أزهرت النجوم تلهث بضوئها الذهبي على أديم اللازورد… دخلت مجموعة وطاويط من النافذة… إصطدم وطواط بكتفي، وآخر برأسي وسقط على الأرض… قلت في نفسي لا شك أنني جئت سهواً، وبدافع المغامرة لا أكثر…

توجهت بسرعة الى الدرج لأغادر البناية... مع وقع أقدامي على الدرج الأسمنتي، أرتفعت وصوصة الوطاويط ألتي ظلت تتلوى تحت لسان الضوء...صرخت عليها بغضب لا إرادي. سكتت، وزحفت بإتجاه حذائي وتكومت وكأنها تترجاني أن أعيد إليها الظلام... وسعت خطواتي بإتجاه الدرج، ومن حيث لا أدري صعدت الى طابق آخر بدلاً من أنزل... كان كل شيء في هذا الطابق نظيفاً، وجميلاً، ورائحة زكية تغلف المكان... فجأةً جاءني صوت غليظ وأمر: من هناك! قف! قف! أقترب... إستدرت بإتجاه الصوت، وأقتربت مسلطاً ضوء المصباح إليه، فوجدت أمامي رجلاً فارع القامة كثير الشبه بوالدي ألذي توفي منذ سنوات... إنه هو، ولا سيما شعره الرمادي الطويل المتموج ألذي يسقط فوق كتفه، ويعطيه نفس رصانته، وشجاعته، وقوة فراسته... سار بخطوات واسعة فوق سجاد جميل شاداً قامته المنتصبة في مشية مهيبة، وهو يمرر أصابعه خلال شعره. قال: كيف ومتى دخلت!

– دخلت من الباب الحديدي في الممر الجانبي من البناية.

– من أذن لك بالدخول؟

– لا أحد... بل لم يكن ثمة أحد...

– هل كان الباب مفتوحاً؟

– لا لكنني عندما دفعته إنفتح.

– حسنا... تعال.

تبعته، ووجدت نفسي في غرفة واسعة، وأستطعت من خلال ضوء كامد أن أرى شاشة كبيرة، ومقاعد، وعدة صور لشخصيات تقدُمية في العالم، ونماذج من الأسلحة القديمة، والجديدة... قال: أقترب أكثر... إقتربت، ورحت أتأمله وهو واقف تحت الضوء، ورحت أنفذ أوامره بطواعية أنا الصلب العنيد...

قال: أتعرف ماذا تفعل خيبة الأمل؟

– ماذا؟

توقف عن الكلام، وراح يرسل إليّ نظرات فاحصة. قلت مع نفسي: هل يعقل أنه يعرف بمحاولتي لقاء صديقتي هذا المساء، وفشلي في لقائها. ويسمي المحاولة خيبة أمل؟؟ قال: أن خيبة الأمل تجعل من الإنسان كائناً مضطرباً عدمياً، ويشفق على نفسه

بطريقة بكائية، إنفعالية... أليس كذلك؟؟ قلت مع نفسي وأنا أرنو إليه بدقة: أهو حقاً والدي؟؟ يستحيل أن يكون والدي! قال: إذن أخيراً جئت تبحث عن المزيد من التفاؤل... طبعاً... طبعاً بعد دراما بدائية يكون التفاؤل عظيماً... أليس كذلك؟؟

– ربما... ربما...

– لماذا ربما؟ الهزائم الروحية تزلزل الإنسان... حسناً فعلت حين جئت... نعم... جئت تبحث عن الخلاص... قلت مع نفسي: أي خلاص؟

أستمر في الكلام قائلاً: أنت تعرف أن الخلاص لا يأتي بمعجزة! لا لا لا... توقف عن الكلام، وبنفس حركات والدي أشار الى رأسه بحركة بطيئة، وقال: الحل يرتكز على قوة الذهن... لأن التضحية بالعقل وديالكتيكة يؤدي الى موت بطيء وأكيد... ألا تعتقد أنها خطيئة كبيرة أن يعيش الإنسان بأرتياب، وخوف؟

توقف عن الكلام... ياإلهي، أنه كثير الشبه بوالدي عندما كان يلقي علينا محاضرة... إذا كان هو فعلاً، فهو سيلقي عليّ محاضرة عن القيم المطلقة ، الصلبة، والمسؤولية المرتبطة بالعقلانية، وعن أسباب السأم الحضاري... قال: تعال... أتبعني... الآن هل أنت مستعد؟

– مستعد؟ مستعد لماذا؟

– لماذا جئت إذاً؟

أخبرته بصوت خافت عن سبب مجيئي لجقور محلاسي، وعن صديقتي، وعن الجمهور الواقف أمام البناية، أجابني ساخراً: يالك من رومانتيكي بائس تمزقه أحلام تافهة.

– بل برجوازي صغير وساذج... حسناً، هل تجيد إستعمال السلاح؟

– جربته أبان خدمتي العسكرية.

سلط ضوء على مسدس طويل، وجميل الشكل، وقال: إقترب... خذ هذا المسدس. فيه رصاصات... أخذت المسدس، قلت: حسنا، ماذا تريدني أن أعمل؟

بعد قليل غمر الغرفة ظلامٌ داكن، ثم بعد لحظات أضيئت الشاشة الكبيرة أمامي، وظهرت عليها صورة غريبة بطريقة واضحة تارة، وتارة على نحو سريالي شبيهة ببعض لوحات سلفادور دالي... فجأة ظهر رأس موسوليني الأصلع الضخم. عيناه الحادتان تبرقان بريقاً فسفورياً. بعد لحظات تتالت لقطات سريعة.

لقطة مقربة: وجه هتلر وهو غاضب.

لقطة مقربة: يستدير وجه هتلر برفق ، دورة كاملة، ثم فجأة يتحول وجه هتلر الى وجه الجنرال غورنغ. وبعد دورة كاملة يتحول وجه الجنرال الى غورنغ ، الى وجه الجنرال كايتل، وبنفس الحركة والعملية يتحول وجه كايتل الى وجه غوبلز

لقطة مقربة: وجه الجنرال فرانكو...

لقطة مقربة: وجه نتانياهو... فجأة تتداخل جميع الوجوه مع بعضها مثل أوراق البوكر وتصبح وجهاً واحداً، ثم تعود لتنفصل ونرى الوجوه بجانب بعضها. قال: الآن... هل أنت مستعد؟

– مستعد لماذا؟

– إستمع إليّ جيداً... عندما تسمع مني كلمة –أطلق– تطلق النار على الوجه ألذي يظهر فوق شاشة. ويجب أن تطلق وتصيب بدقة المكان ألذي أذكره...

قلت مع نفسي : ماذا؟ هل أنا في حلم؟ لا... يدي تمسك بمسدس حقيقي... هل أنا في مدينة الألعاب؟ مدينتي لا توجد فيها مدينة ألعاب... أنها مدينة صغيرة لا يزورها للترفيه عن أهاليها سوى ثلة من الغجر مرتين في السنة خاصةً في العيدين ويعزفون على الربابة ويغنون... ياإلهي. ما هذه المفاجآت.

قلت للرجل: ماذا يحدث عندما أطلق الرصاص؟

– سترى... الدقة... الدقة ضرورية جداً... وإذا أصبت جميع الأهداف تنال وساماً.

– وساماً؟

– نعم، والأهداف هي أولاً: دائرة سوداء فوق جبين موسوليني. وشارب هتلر المربع الصغير. وذقن الجنرال فرانكو. وثقب أذن غوبلر، وتفاحة آدم بنيامين نتنياهو... عاد الصمت الأخرس والظلام لحوالي دقيقة... ظهرت لقطة مقربة لرأس موسوليني. الوجه مقطب وغاضب...تحركت الدائرة السوداء فوق جبينه العريض، البغض الأصم يتكاثف فوق وجه –الدوتشي– والدائرة السوداء تتحرك مثل بندول الساعة... جاءني صوت الرجل: أطلق... أطلقتْ... راحت الرصاصة من جانب جبين الدوتشي... صرخ الرجل بقوة وصفعني قائلاً: الدقة... الدقة... ثم الدقة... أضربك إذا طاشت الرصاصة الثانية... قلت بصوت خافت: أنا لستُ رامياً جيداً... قال بغضب: أعرف أعصابك متينة... تماسك... ركز بقوة أيها الرومانتيكي. ظهرت لقطة مقربة لجبين موسوليني. أصبت

الهدف... هتف، أحسنت... لقطة مقربة أخرى... وجه هتلر وغضب هائج يطوف على قسماته وهو يخطب.

لقطة عامة: مجموعة جنرالات في جلسة خاشعة وخانعة.

لقطة مقربة: الشارب الصغير يتحرك من الأعلى الى الأسفل... قال الرجل:، إنتبه جيداً... أنه سيخطب بعد لحظات بالألمانية، وتظهر ترجمة خطابه بالعربية. أسفل الشاشة... عندما تسمع مني كلمة –أطلق– يجب أن تضرب الشارب ليتحطم الفم فوراً...

لقطة مقربة: هتلر منفعل، ويتكلم بعصبية، وضوء غريب يتموج في عينيه... تابعت الترجمة... هتلر يصرخ (حين نتكلم في الجماهير ينبغي على الدوام أن نتوجه الى أبلد ما فيها، ينبغي أن نستهدف الغدد التناسلية).

لقطة عامة: الجنرالات يسمعون بخشوع.

لقطة مقربة: هتلر يستمر في الكلام. (النجاح لن يكون مضموناً إلا بإستغلال ذلك).

لقطة بعيدة: الجنرالات يصفقون، يصفقون بحرارة شديدة.

لقطة مقربة: الشارب يتحرك... صرخ الرجل –أطلق– أطلقت وأستقرت الرصاصة وسط الشارب الصغير المضحك... هتلر يسقط.

لقطة بعيدة: الجنرالات يتوقفون، ومثل مومياءات ينظرون بذهول بعد لحظات يحركون صدورهم. الصلبان المعقوفة فوق صدورهم تتأرجح مثل بندول الساعة... صاح الرجل مهنئً إياي... أحسنت... بعد لحظات صوبت على الدائرة السوداء فوق جبين موسوليني للمرة الثانية، ونجحت في التصويب بروعة على ذقن الجنرال فرانكو ألذي سقط بطريقة هزلية... صرخ الرجل: هائل... هائل...

لقطة مقربة: وجه غوبلز المخروطي الشاحب المريض... يستدير وجهه غوبلز أذنه تملأ الشاشة... صوبت... أخترقت رصاصتي فوهة الأذن.

لقطة مقربة: وجه بنيامين نتنياهو وهو يقول: نحن نسخر من إتفاقية أوسلو. لقطة قريبة لتفاحة آدمه... –أطلق– تهشمت تفاحة آدمه... تقدم الرجل مني وعانقني بحرارة، وقال لي: أنظر الى الشاشة. رأيت على الشاشة عشرات السيارات العسكرية الناقلة للجنود فيها مئات الجنود ومارش عسكري مزلزل للأعصاب. ومئات آلاف المواطنين يلوحون بأيديهم ويلوحون بلافتات عليها كلمة سلام أزلي... الجنود يغنون: نعود الى الأوطان. لقطات سريعة وبعيدة لمئات آلاف من الأفارقة، والأسيويين، وأوربيين يهتفون

بكل لغات العالم وداعاً للحرب... فجأة، بعد دقائق أمتدت عشرات الأذرع وأحتظنتني بحرارة... عبثاً حاولت أن أرى وجوه أصحاب الأيدي... أذرع قوية رفعتني وأخذتني بأحترام كبير الى الدرج المؤدي الى خارج البناية... نزلت بثقة وسط هتافات الناس... في الطابق الأسفل حيث وقفت قليلاً عندما دخلت الى البناية رأيت تلاً من الوطاويط ألتي دارت بأخلاقية الكلاب دارت حولي توصوص، ووجدتها في أشكال غريبة تتحول الى صلبان معقوفة، وثمة إمرأة متينة البنيان في حوالي الأربعين تكنسها بتقزز وترميها في برميل القمامة... خارج البناية أستقبلتني عيون الجماهير المضيئة والمتلهفة، تلك العيون ألتي تعرف كل شيء بغريزتها الصادقة، وكانت كأنها تسألني هل وفقت في مهمتك؟؟ ومن أعلى البناية، ومن حيث أطلقت رصاصتي جاء صوت جميل الجرس: المواطن (سعد سعيد سعادة) ليتفضل... أندفع شاب متحمي داخل البناية، عبثاً بحثت عن صديقتي... تخيلتها وهي تعاتبني بعد أن أنتظرتني طويلاً بقلق وخوف شديدين، ورأيت نظراتها ضالة، وزائفة، بل كانت من شدة خوفها على غيابي مثل المختلة... داخل سيارة الأجرة حلمت بها، ورأيتها ترفل في ثوب بلون النبيذ وكأنها فراشة حقيقية تنتظرني في جقور محلاسي... إلهي، كل شيء في صديقتي الجميلة سعيد، مطمئن دافيء ها أنا ذا أسير معها ورغبة فاتنة تملأ جوانحنا كما نفعل عندما نخرج لننفث معاً ألامنا، وأحزاننا الكثيرة، ونخطط برومانسية مشاريع جميلة... أنظر إليها بلهاث، وبإمعان كما لو أراها لأول مرة... أن اللقاءات السريعة، وذلك الخوف ألذي يحيط بها حرمني من أن أعرف كم تتميز بالرقة، والرزانة، والتهويم، أنها مثل الوطن الحبيب يفرض الإحترام والحب والطاعة، كنت نائماً نوم السنجاب الصامت عندما أيقظني السائق... غادرت السيارة، وأنا أقول: ربما الآن لم أعد بورجوازياً ساذجاً، كان والدي يعنف أخي الأكبر يقول له أنت برجوازي صغير لا أكثر... وكان أخي يجيبه بصوت حزين لكن يا أبي إنني إنسان محب للخير بتطرف كما تعلم. وصديق متنور للشعب، وخصم عنيد للروح المحافظة... ماذا تريد أكثر من مواطن... ويجيب والدي: أنت بهذه الصفات تحاول أن تحمي نفسك... أنت تبقى تمتلك نزعة خيرية لكن ساذجة. أخي ينفعل من كلام والدي.

وأنا أتأمل و أفكر...

أمم من الفرح

سيدي أراك تتكلم بلغة لا أفهمها
وما حياتي إلا كأنها حلم من أحلامك

شكسبير

كانت الساعة حوالي العاشرة ليلاً، كنتُ كعادتي في مثل هذا الوقت أتمرن على واحدة من أصعب مقطوعات الموسيقار الإيطالي الساحر بغانيني، عندما رنَّ جرس الباب رنيناً طويلاً. لم يحدث أن رنَّ جرس بابي في مثل هذا الوقت أبداً.

أزحت ستارة نافذة غرفتي ألتي تطل على الشارع ودققت بصري جيداً فرأيت إمرأة شابة ترتدي فستاناً بلون الفيروز تقف مستندة الى سيارة فارهة وترسل نظرات مستقيمة بإتجاه النافذة تارةً والباب تارةً أخرى. تركت الستارة تسقط وترددت في النزول. رنَّ الجرس ثانيةً. أسرعت وفتحت الباب. كان الوقت منتصف الربيع، وثمة برودة لذيذة في الجو. أرسلت إليّ نفس تلك النظرات المستقيمة للحظات، كانت نظراتها مزيجاً من التحدي والعذوبة الغامضة. كانت جميلة، متناسقة الملامح بطريقة مثيرة، وعيناها تشعان ضوءاً ندياً هادئاً، قالت من غير تجبجب، أو خجل، بل بفخفخة: هل يسمح لي الأستاذ العازف الساحر عبد الرحمن الناصري الناصري بالدخول؟ أشرت لها بيدي قائلاً: تفضلي... تفضلي. فسارت بخطوات سريعة، إجتازت الباب ووقفت في الصالون. أخذتها الى غرفتي ألتي أعزف فيها. جلست بهدوء، لم تكن مضطربة، أو منفعلة بل على العكس كانت هادئة ورابطة الجأش، راحت تدقق بموجودات غرفتي. تأملت المعزف، وآلة الكمان، وسريري، ثم مكتبتي، وصور الموسيقيين العظام. تأملتها بدوري بهدوء وركزت بصري طويلاً في وجهها المتناسق... وجدت فيها مخايل الذكاء، والثقة المفرطة بالنفس. كانت هي الأخرى تدرس وجهي. قلت مع نفسي: ترى ماذا تريد هذه المراة وفي مثل هذا الوقت مني؟ لست مسؤولاً كبيراً، ولست ثرياً! هل تعيش في الجوار؟ ربما، لكنني لم يحدث قط أن رأيتها منذ أن أشتريت بيتي. وأنا لم ولن أتعرف على أحد، أعيش وحيداً مع نفسي. قلت لها:

– بمن أتشرف التعرف؟ قالت بصوت فيه رنين جميل: هند مصطفى. قلت مازحاً: أن

الفضول يا آنستي، أو سيدتي يغريني أن أسألكِ ماذا أستطيع أن أفعل لك!... أطلقت ضحكة صغيرة، وقالت: آه الفضول... يقال أن الفضول هو ألذي يقتل القطة... قلت مع نفسي: أية وقاحة... لكن طريقة لفظها لتلك الكلمات كانت بطريقة مثيرة، ناعمة أصابتني، رغماً عني برعدة حارة في مشاعري وعواطفي. كل شيء في هذه الأنثى يؤكد أنها رُضعت ندى الدلال، وعاشت وما زالت في رفه وبذخ وإقبال... أضافت قائلة: أولاً دعني أتأملك عن قرب بشكل جيد أيها الناصري، بعد ذلك أترك لك الحبل على الغارب كما يقول مثلنا، لتشبع فضولك كما تشاء... جلست على مبعدة أمتار قبالتها. قالت: أيها الناصري تعجبني فيك حرارة مشاعرك، وحرارة عواطفك... قلت: لكنك لم تتعرفي عليّ إلا قبل دقائق!

– لا لا... أعرفك منذ زمن طويل. إنك عندما تكون بعيداً عن الإبداع تمتلك عقلاً بارداً... مثل زوجي بالضبط... سألتها وأنا أطلق تنهيدة: كيف! كيف؟

– ما أن تنتهي من عزفك الساحر، حتى تتحول الى إنسان عادي، بارد، إنطوائي...

– وهل هناك عقلٌ بارد وعقلٌ حار؟... أجابت بسرعة: طبعاً... العقل البارد ينظر بعلمية بحتة للأشياء... هززت رأسي قائلاً: آسف لا أفهمك!

– أسمع، أنا وأنت أمام الجمال نصاب بحساسية شديدة، وننفعل بحرارة عاقلة. أما العقل البارد الرياضي جداً مثل عقل زوجي فيتأثر بنفس الجمال لكن بطريقة باردة.

– ماذا يعمل زوجكِ؟...

– عالم كيمياء... أنا عندما أستمع إليك وأنت تعزف مقطوعة لپاغانيني ويحدث هذا معي مرات يقول زوجي ببروده الأنكليزي ومن غير ذرة إنفعال:

– عزف جيد، بل رائع بالضبط كما يقول عن بضاعة أنها جيدة. بينما أنا أصاب بحالة شبيهة بالهذيان... قلت مع نفسي: هل هذه المرأة جاءت لتلقي عليّ محاضرة في العقل البارد، والحار، والإنفعال... أضافت أنني آسفة لمجيئي في هذا الوقت، ومقاطعة عزفك الرائع. منذ شهر قررت أن أزورك، أما بعد أن رأيتك آخر مرة قبل أسبوع وأنت تعزف تلك المقطوعة الساحرة لباغانيني قررت أن أزورك هذا المساء... صدقني لقد تهيجت لرؤيتك، وأنا للمناسبة أحياناً إنسانة مزاجية وعرة جداً... توقفت عن الكلام. مرة تأملتها طويلاً... كان حدسي في مكانه منذ النظرة الأولى، إنها إنسانة غير طبيعية، غريبة، وجريئة... قلت:

– يا سيدة هند، هل تعرفين أن الدخول الى عالم أرتميس من غير أذن يجلب عليكِ الكوارث؟؟... أطاقت ضحكة طفولية وقالت تصفق بغنج لكلماتي بأعجاب... رائع... رائع... تشبه نفسك بالآلهة اليونانية أرتميس... لكن أعدك أن لا أقترب من ذاك العالم من غير أن آخذ الأذن من أرتميس. ثم ما قيمة التمتع بثمار غابة من غير أذن...

– هل تعرفين يا سيدتي أنني غير مستعد لأقامة أية علاقة مع أية إنسانة أو إنسان.

– أوه... أعرف... وأعرف أيضاً أنك إنسانٌ إنطوائي، لا تجيد عقد صداقة، وتحب عزلتك، وتعبد العزف، ومع المرأة بالذات أنك بنفس تطرف ونفور ذاك الغريب الأطوار شوبنهاور... ها... الآن، أعتقد أنك أقتنعت بأنني أعرفك...

– حسن ... إية خدمة يمكنني أن أقدمها لك؟

– هل حقاً لا ترفض طلبي؟

– أحاول.

– أريد أن تعزف لي مقطوعة باغانيني ألتي كنت تعزفها قبل قليل.

قلت مع نفسي: إذن، هذه الجنية تحب الموسيقى ومهووسة بباغانيني، تتكلم في العقل البارد والحار، وتعرف الآلهة أرتميس، وشوبنهاور... حتماً أنها إمرأة غير عادية أبداً. ألتقطت الكمان بسرعة، وقررت مع نفسي أن أعزف مقطوعة لشوبان وأسألها عن رأيها لأعرف مبلغ ثقافتها الموسيقية، وقوة مخيلتها السمعية. عزفت مقطوعة شوبان بحرارة. رفعت يدها، وطلبت مني أن أتوقف عن العزف، وقالت بصوت خافت: هذا أيها الناصري ليست مقطوعة باغانيني إنما هي مقطوعة لشوبان. أصبت ببهر وأنشداه وأنا أرنو الى عينيها الجميلتين مردداً مع نفسي: أواه... هذه ليست إمرأة لعوباً... هذه إمرأة مخيفة... أطبقت شفتيها على تعبيسة دلع جميلة كأنها بتلك التعبيسة تقول لي: هل حقاً تعتقد أنني غرة في دنيا الموسيقى الى درجة يمكنك أن تتحايل علي؟؟ قالت: أرجوك، أعزف باغانيني، لكنني لكي أجربها هذه المرة أيضاً عزفت مقطعاً جميلاً وصعباً من كونشرت بروخ (رقم ١–ج منيور)، إحتارت في البدء، وبعد إستماع رهيف هتفت: لا... لا... هذا ليس بغانيني أبداً... أبداً... لا. هذا كونشرت بروخ... أيها الناصري أنك تريد أن تختبر قوة وحساسية مخيلتي وسمعي؟ هنا أسقط في يدي أستسلمت معيداً الكمان الى مكانه. قالت وثمة نبرة خفيفة من السخرية في لهجتها: أتعرف يا عزيزي أن سمك القرش يعتبر من أخطر وأشرس الحيوانات المائية، غير أن أنثى

الدلفين بضربة واحدة من خطمها على بطنه تقتله؟ حتماً قصدت بهذا المثل أنها ند حقيقي لي، وأعمق ثقافةً في دنيا الموسيقى. أن هذه اللبؤة من الدقائق الأولى على مجيئها الى غرفتي تحاول الإساءة إليّ برقة شديدة تارةً، وبخشونة لذيذة تارةً أخرى... يجب أن أعترف أن الحياة الداخلية لهذه الأنثى ثرية بالأفكار الجميلة، والخيالات، والمشاعر الرائعة. قالت من خلال تنهيدة جميلة: أيها الناصري أرجوك لا تعر كبير الإهتمام لكلماتي، أنني أحياناً أهرف في الكلام هرفاً... قلت مع نفسي: مستحيل... تهرفين في الكلام!؟ لالا... أنتِ تعرفين في أي مكانٍ قاتل تضعين السكين... سألتني بنعومة: ماذا تقول الآن عن مخيلتي السمعية؟ عن ثقافتي الموسيقية؟... قلت بنفس نعومتها من شدة إرتياحي لها وإعجابي بها، مستفزاً إياها: أنتِ يا سيدتي سليطة اللسان جداً...

– أوه. جداً... ربما نعم، أحياناً. لكن ثق أيها الناصري لست سيئة التربية أبداً... الآن، دعني أجرب قوة سمعك بدوري... هل توافق؟ قل نعم! هل تحتاج الى وقت لتجمع أفكارك؟ حسن... سأتصرف... نهضت وذهبت الى المعزف وبمنتهى البراعة عزفت مقطوعة لباخ، شعرت وأنا أستمع إليه بقشعريرة، وتضبب في الرؤيا من شدة التأثر. إلهي، هل هذه إمرأة حقيقية أم جنية؟ هل حقاً توجد إمرأة تمتلك ثقة بالنفس الى درجة تزيل الكلفة مع رجل لا تعرفه بهذه السرعة؟ تتكلم بصراحة، وقوة، وقسوة، وليونة لذيذة، وتعزف ببراعة، وتمتلك قوة مخيلة سمعية عظيمة. قلت مستسلماً: أهنئك نيابة عن ذاك الموسيقار العظيم باخ لعزفك الرفيع لمقطوعته الكنسية... أطلقت ضحكة جميلة، وهي تردد: شكراً... شكراً... لكنني مجرد تلميذة مقارنة بك، الآن أيها الناصري الرائع، هل توافق أن ألعب معك دور الجميل ألذي لعبه الأمير الألماني ليكنوفسكي في حياة الموسيقار بيتهوفن؟...

فلتت مني ضحكة لاإرادية سرعان ما تحولت الى قهقهة عبثاً حاولت السيطرة عليها من تلك الكلمات ألتي قالتها بجدية غريبة. قلت وأنا مستمر في ضحكي:

– أوه... ياإلهي... هاهاهاها... أنت تبالغين... هاها... أنتِ شديدة الإعجاب بمواهبي المتواضعة... هاها... الأمير ليكنوفسكي... هاها... بيتهوفن.

– ولكنك فعلاً عازف عظيم...

– هاها... تلعبين معي دور... هاها... الأمير ليكنوفسكي...

– ثق سأكون بارعة في لعب الدور...

– ليكنوفسكي... أحلام... هاها... فكاهة. بالمناسبة منذ متى وأنتِ تستمعين الى عزفي؟

أحضرُ جميع الحفلات ألتي تحييها... صدقني بعد أن تنتهي من العزف أصاب رغماً عني بسبب إندماجي العميق بحالة الكآبة اللزجة ليومين، إقتربت مني وأخذت أصابعي بين يديها وقبلت كل أصبع على حدة بحرارة وهي تردد: يارب، أحفظ هذه الأصابع... أحفظها... شعرت، أنا البعيد عن دنيا المرأة لأسباب نفسية متشابكة برعشة هزت جسدي، وقد هيجتني طريقة دعائها اللاهبة وكأنها تصلي، عادت وقالت بصوت مثل الهديل وهي تنحني بطريقة مسرحية وتعيد تقبيل أصابعي وتردد: أحفظها يا رب. أمين... آمين... ومن شدة الهزة النفسية ألتي أنتابتني أعطيتها ظهري لأخفي طلائع الدموع ألتي كانت تطفر من عيني وذهبت حيث توجد مرآة فرأيت القطرات البلورية أنسابت فوق خدي مع شحوب ليموني فاض على وجهي حتى أن وجهي بعد ثوانٍ صار بلون الصدف... تبعتني ووقفت خلفي. رأيت وجهها الجميل في المرآة. قالت: بقدر ما أنت عظيم أيها الناصري، فأنت ضعيفُ أيضاً. قلت مع نفسي وأنا أرنو إليها في المرآة: هذه المراءة تعرف دقائق مشاعري، فكري، عواطفي، روحي، وأضافت بصوت مؤثر: أعرف أيها الناصري أنك لا تحب المرأة... لكنك، وهنا، الروعة لا تحتقرها كما فعل الشاعر بايرن، أو نيتشه... في هذه اللحظة مادت بي أرض الغرفة، وتصورت أن ما أراه ، وأسمعه يجري في حلم، أو فلم سينمائي، توجهت الى أقرب مقعد وجلست... بقيت هي واقفة أمام المرآة تراقب نفسها، وترافقني بين لحظة وأخرى. قلت:

– أين درست الموسيقى؟

– بعد تخرجي من كلية الفنون في بغداد درستها في النمسا.

– هل زوجك هو الآخر يحب الموسيقى؟

– ليس كثيراً، وثقافته فيها قليلة.

– هل أنتما قريبان من بعض؟

– نحترم البعض كثيراً، ولا نتدخل في شؤون البعض أبداً.

– الموسيقى تحتاج الى وحدة، والإستماع لساعات لأعمال الكبار، والعزف لساعات.

– أنه لا يتدخل في عالمي أبداً.

– كيف؟

– عندما أدخل لأعزف يذهب هو الآخر لغرفته، أو مختبره في الطابق الأرضي وينشغل في عالم معقد من المعادلات، والرموز، والمواد... أنه منذ سنة منهمك في تأليف كتاب ضخم في الكيمياء العضوية.

– هل أخبرته عندما قررت المجيء لزيارتي في هذا الوقت؟

– لماذا تساءل مثل هذا السؤال الساذج؟

– ساذج.

– طبعاً... أنت فنان مبدع وترى أن كل عجز في المرأة فضيلة! ما الخطورة في الخروج لزيارة عازف عظيم في مثل هذا الوقت؟ أليس هذا سؤالاً ساذجاً؟

– أنا رجل عازب... لا أعرف بالعلاقات. أنا فنان... إنسان إنطوائي.

– هنا أنت عكسي تماماً... أنا أخلق لنفسي بإستمرار وعياً متصاعداً بالذات، وحساً قوياً ومتنامياً بالعالم... الإنسان يستطيع أن يعمل مسائل عظيمة تماماً كما لو تعزف أنت بعظمة. ياإلهي، هل هناك أعظم وأروع من الإنسان.

– لكن أنا.

– اَاَاَاَ... أعرف... أعرف... أنك تعيش على طريقة المتبتلين، وتتصرف مثل أصحاب الرسالات. هاها... لنقل أنك تبحث عن أكليل القداسة أيها القديس الموسيقي... لكن العلاقات البشرية يا عزيزي الناصري ضرورية أيضاً... ألا يحدث أن تكون على خصام مع نفسك مثلاً؟ لا ترضى عنها؟ ألا تحب أن تجادل إنساناً يقول لك مثلاً أنت رائع، أو أنت سخيف... هاها... أقتربت مني وربتت على كتفي وهي تقول برقة:

– ماذا؟ أنك تسخر مني... أرى السخرية في عينيك ... أو ليست الصراحة قاسية للجميع...

– ليتني كنت أعرف كيف أسخر... يا هند أعترف أن لدي مثل أي أنسان في العالم عيوباً عديدة سوف لن ترتاحي لها.

– أعرف... أعرف... لكنني سأشطبها كلها... من أجل مخيلتك الساحرة وأصابعك الرائعة أشطبها كلها.

– كيف.

– أنني سأحب فيك بقوة ما ينسجم مع نفسي...

– مثل ماذا؟

– مهارتك العظيمة في العزف؟

– ماذا بعد... من شدة دهشتها وفرحها أرسلت إليّ نظرة طفولية فيها أنشداه وقالت: وجهك الحزين، شفتك الحزينة. سأحاول أن أجعلك سعيداً...

– مستحيل.

– بل أستطيع.

– أسمعي يا عزيزي. أنا رجل هادىء، محافظ، إنطوائي، لا أستطيع أن أصادق الآخرين لأيباب خارج أرادتي، وبسبب مزاجي الوعر لا أستطيع أن أعيش مع المرأة، ولدي أحياناً هلوسات.

– هل أفهم من كلامك هذا أنك تقول لي وداعاً... آه... أجل أنه من الصعب التفاهم مع الإنسان الأناني...

– هل حقاً أنا أناني؟

– أنك لا تسمح أن أشاركك في حزنك، في فرحك، أو في أي شيء.

– أنا حر وسعيد في مسائلي الشخصية.

– هاهاهاها... يعجبني إنفعالك الناعم... أيها الناصري الأناني لماذا تركل النعمة... إلتفت إليها وكلي تعجب وقلت: نعمة... نعمة... أي نعمة؟

– أوليست الصديقة الجميلة نعمة؟ أوليست الإنسانة المتنورة نعمة.

وليست إمرأة عاشقة للموسيقى نعمة؟ أوليست إمرأة مثلي تكن لك حباً عظيماً نعمة؟ إمرأة تنسجم روحياً معك نعمة. إمرأة توفر لك جواً حنوناً نعمة؟ يا إلهي، كيف تكون النعمة إذاً؟

– أتعرفين ماذا أريد منك الآن يا سيدتي المحترمة.

– ماذا؟

– أن تتركني وحدي، لأنني سأقيم غداً حفلاً في السفارة الإيطالية وسيحضر الحفل عدد كبير من الأجانب.

– أعرف، أمس قراءت الخبر في الصحف... لكن هذا لا يعني أن تكون قاسياً معي.

– قاسياً؟

– حتى قسوتك جزء من طيبتك، وموهبتك، بأي حق أيها الناصري تعطي لنفسك حرية السخرية من قلبي، من ضميري النقي وأنا أعري لك جميع مشاعري وأفكاري،

وأعجابي... لماذا؟

قلت مع نفسي: الى أين تجرني هذه المرأة! أردت أن أترجاها مرةً أخرى أن تتركني لأن الوقت متأخر، غير أنني لذت بصمت طويل وأكتفيت بأن رفعت كتفي في إيماءة باردة لا أبالية... قالت: تكلم.

– سيدتي أنتِ تكلمينني وكأنكِ تطالبينني بحقوق شرعية لكِ عليّ.

هل أنتِ أختي، زوجتي؟ عشيقتي؟ حبيبتي؟ ما دخلي أنا في ضميرك النقي؟ ومتى ولماذا سخرت من قلبك؟ وهل عليّ أن ألاطف وأحابب كل معجبة لساعات بهذه الطريقة؟ أنا رجوتكِ أن تتركيني وحدي لأنني بحاجة الى العزف، ثم لأكثر من ثمانِ ساعات من النوم، أنني أريد أن أتحدى بغانيني في عقر داره، في سفارته...

– لكنني أصر أن أكون صديقتك!

– لن أستطيع أن أكون صديقاً لأي إنسان. هل أنا واضح؟ أرجوكِ إذهبي وأتركيني وحدي.

– لن أذهب الآن، وهل يجب أن تصيح مثل الديك لتقول كلمات بسيطة؟ أنا أكلمك بعواطف حارة في الموسيقى، في الصداقة، وأنت ياإلهي تصيح. قلت مع نفسي: ماذا أعمل مع هذه المراءة؟ واضح أن لها طريقة حياة طليقة، دينامية، تمردية، متحررة من التقاليد... قالت بصوت مثل الفحيح:

– لماذا تصر أن تضع حاجزاً ثلجياً بيني وبينك؟ لماذا... لماذا؟

– سيدتي، بكلمة صغيرة واحدة أفهميني ماذا تريدين مني الآن؟

أطلقت ضحكة بلورية وألقت نظرة طويلة من عينيها أللتين تصبحان أحياناً وقحتين بطريقة مثيرة للأعصاب، وقالت: أيها الناصري الطيب، هل تعتقد أن المراءة تنجذب للرجل لأنه وسيم فقط؟ الوسامة مثيرة للمرأة، لكن المرأة تعشق وتحترم الرجل عندما يشيع فيها السكينة بلغة بسيطة، ويشعرها بالطمأنينة، ويبعد عنها الأفكار ألتي تجعلها تحس بالضعف والكآبَة...

– لكن يا سيدتي المحترمة، هذه ليست مهمتي أنا، إنها مهمة عالم الكيمياء، نعم مهمة زوجك.

– لكنني عندما أستمع إليك وأنت تعزف بتلك العظمة أشعر بالسعادة، بالطمأنينة، بالحب.

– أنا أقدر وأحترم أعجابك بموهبتي، فهل، ياإلهي، يجب أن أقوم بهذه الإحتفالية مع كل معجبة، وأدخل معها في حوار فلسفي، فكري.لالالا. لفنا صمت طويل. ذهبت الى النافذة، وأزاحت الستارة برفق. قالت: تعال وأنظر الى السماء... إنها جميلة في هذا الوقت من الليل... رائعة، مهيبة، صافية، مترامية، غامضة بملايين نجومها. تعال... بقيتُ جالساً. ذهبت الى المعزف وبمهارة رائعة سوناتت بيتهوفن في –ضوء القمر– تأملتها وهي تعزف بإستغراق صميم وقد أضفى إندماجها الحار مع إيقاع النغمات مسحة ملائكية على وجهها الجميل... أن هذه المرأة ألغوزة بحق، لديها قوة غريبة، وفراسة، وثقة، وفطنة، وموهبة،... هيجني اللحن وأجبرني أن أذهب الى النافذة. كانت السماء فعلاً في تلك اللحظات مهيبة، مترامية، لا متناهية، وغامضة، والقمر بلون الشمام... لا شك أن ذاك العملاق ألف هذه المقطوعة في ليلة مثل هذه... إنتهت من العزف. إلتفتت إليّ وإبتسمت لي بحنان. أنجذبت بقوة لاإرادية لإبتسامتها ألتي كانت تتلاعب برقة على شفتيها... ياإلهي، أن تجبرني أن أتمرد على نفسي، على عاداتي، تقاليدي، أفكاري، تحفظي... أن لهذه الحورية أسراراً عميقة... هرعت إليها وقبلت أصابعها الفاتنة بنفس طريقة تقبيلها لأصابعي مردداً بصوتٍ دافيء: يا رب أحفظ هذه أحفظها... أحفظها... اَمين... اَمين... قالت بصوت حزين ورخيم:

– أعرف أنك تمتلك سماحة ملائكية... شكراً... شكراً أيها الناصري، أيها الملاك الطيب.

– بكل تواضع أنحني أحتراماً وتقديراً لموهبتك... قالت بلطف جميل.

– آه... شكراً أيها الناصري... الصبر... الصبر... الأناة. ينبغي أن تستسلم لكي تفهم عملاً ما، إنساناً ما، أتعجب كيف تعزف أشد الألحان مرحاً وأنت في حياتك لا تملك ولو ظلاً من المرح؟

– أنظر الى وجه بيتهوفن؟ مقطب، متقبض، عنيد، جاف... سيدي لكي تناغي المرح، والملذات السامية يجب أن يمتلك الإنسان وعياً مليئاً بالفرح. أنا دائماً مليء بالفرح عندما أبدع...

– لا شك أبداً أن وعيكَ مليءُ بالفرح، وبالحزن حتماً...

– وأنت لاهبة الحس... متوهجة وكأنكِ شعلة! وسليطة اللسان بطريقة لذيذة، ورشيقة التعبير كأنكِ شاعرة.

– هاهاهاها... يعجبني وضوحك المثير في سلوكك أيها الناصري. منذ أن رأيتك تعزف في المرة الأولى، وكلما حضرت حفلاتك، كنت أقول مع نفسي: هذا إنسانٌ غريب، ومعقد، لكنه مع ذلك طيب جداً... يجب أن أتعرف عليه... يجب... آه، لكم أنا سعيدة الآن وأنا صديقة لك...

– أتعرفين ماذا أخشى يا هند؟

– ماذا؟

– أن أجد نفسي ذات يوم وقد سورتني بشبكة معقدة من مشاعرك، وعواطفكِ ألتي لا أستطيع الإنفكاك منها وأصبح أسيرها. أنني لا أريد أن أصبح عبداً.

– لا عليك أيها الناصري... أعرف أنك مزاجي مثل كل فنان... وأنا بدوري أعدك إذا سئمت صداقتي ذات يوم لن أتردد عليك أبداً، صرخت مثل مبهور: رائع... رائع... هند، هل حقاً أن زوجكِ لا ينتظركِ؟

–آه... ذاك العالِم الكيميائي الطيب يعرف جيداً وعي عواطفه إتجاهي، ويفهم بعمق من أنا... للمناسبة، هل أمر عليك بسيارتي غداً مساءاً لنذهب معاً للحفلة ألتي تقيمها؟

– أوه، طبعاً، أكون سعيداً.

– حسناً... أنتظرني في السادسة مساءاً.

– حسن.

– نوماً هنيئاً أيها الناصري... شواطيء لا نهاية لها، مغطاة بأمم من الفرح...

– ما هذه الكلمات الجميلة.

– أنها لشاعر فرنسي عظيم يُدعى رامبو مات صغيراً... الى اللقاء.

– الى اللقاء.

عبثاً حاولت السيطرة على مشاعري، وعواطفي، صببت لنفسي كأساً وشربت بإستمتاع لذيذ، جلبت العود، وبكل ما لدي من مشاعر وعواطف غنيت بصوت عال رائعة خالد الذكر السيد درويش(أنا هويت وإنتهيت)... وبعد منتصف الليل ذهبت الى السرير ورحت في نوم عميق.

في المساء عبثاً ظللتُ أنتظرها... مضى أكثر من شهر على غيابها، عرفت أنها في نفس الليلة ألتي غادرت بيتي صدمت سيارتها بمركبة طويلة وماتت فوراً...

ملاحظة: كتبت هذه القصة بمناسبة مرور خمسين سنة على إنتهاء الحرب العالمية الثانية.

الصحو الحقيقي أحياناً، يكون عديم الشفقة

الى الشاعرة المبدعة كژال أحمد...

بعد عدة مقالات نقدية عميقة جداً وبنثر ثري عن العديد من أعمالي القصصية، ونداءات حارة عبر الهاتف، وحديثها المسهب والدافيء وحبها القدسي لكتاباتي، ورغم برودة لغتي معها، لكن أصرارها وتذرعها الصوفي لمقابلتي ولو لساعة واحدة، سمحت لها بالمجيء لزيارتي في مكتبي في الصحيفة ألتي كنت أرأس صفحتها الثقافية... جاءت بالضبط في الوقت ألذي حددت لها... ياإلهي، صعقت لا إرادياً أمام جمالها، كانت ترتدي فستاناً بلون العقيق على جسد ساحر التناسق. بشرتها بيضاء، ملساء تحت ضوء مكتبي مثل المرمر، ومن خلال حركاتها الواثقة ، والرصينة، كانت تعرف مبلغ روعة جمالها، وكانت حتماً سمعت إطراءات متنوعة من الأفواه، وأقلام الكثير من الكُتاب والشعراء ألذين ذكرت لي أسماءهم في رسائلها لي، وآخر قصيدة قرأتها عنها لشاعر يعرف بالصعلوك في وصف هارمونية جمالها، وفتنتها... آه، كيف، ولماذا، ومتى جاء هذا الملاك الى عالم الأدب الصعب؟؟ حتى في الأدب العالمي قليلات جداً الجميلات اللائي جئن الى هذا العالم المتعب، وكانت في قناعتي أكثرهن جمالاً وفتنة حتى الآن، هي، الروائية (أناييس نن) صديقة العبقري المتمرد هنري ميللر... كانت ذراعاها عاريتين حتى الأبطين. ومقدمة صدرها عارية، ووسط خط نهديها يتأرجح أحياناً حجرٌ كريم بلون الحشيش في سلسلة ذهبية يرسل ومضات سريعة كلما تحركت... كانت شفتاها على شكل قلب، وأنفها أشم، ونظراتها مثل نظرات ألمها...مدت يدها الناعمة، أخذتها بشيء من البرود، بينما ضغطت هي على يدي بقوة مرات عديدة وبسمة ساحرة تضيء وجهها. كانت بحق طاووساً... أشرت لها بالجلوس... شكرتني وجلست بكبرياء ملكة، ودفعت بحركة كسلى من أصبعي يديها بضفيرتين بعيداً عن عينيها السوداوين الواسعتين، وقالت:

– وأخيراً... سمحت لي بهذا اللقاء أيها المبدع ألذي مجّد شجاعة النساء، ودورهن الساحر في الحياة... هل يعقل أن إنساناً رائعاً مثلك يتهرب من لقائهن كأنك خرجت من ضلع ذاك الفيلسوف العنيف نيتشه في هروبه ونفوره من النساء؟ أي تناقض غريب بين

قصصك الساحرة عن النساء، ونأيك عنهن! كيف؟ لماذا؟

بعد أن تأملتها جيداً رددت مع نفسي: لا شك أنها مثقفة جداً، ومتابعة جيدة وعميقة للأدب العالمي، وناقدة موهوبة تكتب بطريقة محنكة، لكنني لم أتصور البتة أنها بهذا القدر من الجمال الأخاذ أبداً...

حاولت أن أسيطر على نفسي، لأنني عبر تجاربي العديدة مع الكثيرات، أعرف إذا لم أتماسك أنزلق رغماً عني في دهاليزها، وهي، حتماً عميقة، ودبلوماسية ذكية في تعاملها مع الآخرين كما وصفها أحد الكتاب، لذا راح العديد من الكتاب والشعراء يهذون بها وينهارون أمامها، ويزداد خرقهم أمام جمالها، وقوة شخصيتها وثقافتها... رنت كلماتها في ذهني (كأنك خرجت من ضلع الفيلسوف نيتشه) وتذكرت(لاسلومي) طالبة الفلسفة الماكرة ألتي عبثت بنيتشه، وربطته بشيطنة ذات يوم بدلالها الخبيث بعربة، وأطاعها الفيلسوف ومثل بتواضع دور الحصان وراح يجر العربة، وهي تصرخ وتفرقع بالسوط. أجل، أن النساء كائنات غامضة... أنتبه يا محمود... المرأة خنثت هرقل المخيف عند قدميها، وهي يا إلهي تستطيع بما في خمرها من قوة الثمل، والمكر أن تدير أقوى الرؤوس وتجعلك أن تدوخ كما قال أقليدس في مبادئه الشهيرة:(في بعض الظروف الخاصة، والغامضة جداً، بعض الأعداد الزوجية تنحو منحى الأعداد الفردية)... وحتماً ما زلت تتذكر يا محمود ما دبرته تلك الجميلة معك... كيف بشيطنة أدخلتك مثل دبور وحشي الى خلية نحلها لتسرق عسلها، ثم بطريقة الملكة داخل الخلية أوعزت لعاملاتها أن تهجمن عليك لتقميطك بشبكة من الشمع لولا معجزة غريبة أنقذتك. كانت تنظر إليّ بتركيز، وتزِنُني مثلما وزنت فعلاً وبدقة أفكاري، وحللت شخصيات قصصي بدقة وعمق عبر فهم فلسفي وسايكولوجي دقيق... لكن، مع كل هذا، أنا إنسان، وكاتب حساس جداً، وعاشق مهووس للجمال... ما العمل، وكل شيء فيّ راح يغريني ويشجعني أن أطور صداقتي معها... لكن، ذاك الصوت الغريب، الحذر، والحيسوب جداً في داخلي راح يردد بطريقة هاملتية (من يمتطي ظهر النمر لا يستطيع أن يترجل عنه)...

نعم... علمتني تجاربي أن أحبهن، بل أعشقهن عن بعد... أنا فعلاً سعيد بتوحدي، بعزوبيتي، بكتبي، وكتاباتي. أن هذه الجالسة أمامي أكثر هاتيك اللاتي عرفتهن جمالاً، وثقافةً، وعمقاً... لكن المرأة رغم روعتها هي المرأة. كانت عيناها السوداوان رائعتين،

وتفهمان أصعب حديث، وحركة وإشارة، ولفتة بسرعة غريبة... نظرت إليّ من جديد... نظراتها تقول، هل أنت حقاً جريء مثل بطلات قصصك؟ قالت: العقول الجيدة يا أستاذ محمود تتلاقى... أتعرف، كنت أحياناً أتخيلك أكثر طيبةً من الأمير مشكين...

قلت ضاحكاً من غرابة التشبيه: آه... حقاً؟ لماذا؟

– لاأعرف مجرد تخيل... آه... معذرة يا أستاذ محمود، أن مخيلتي أحياناً متهورة... جميع ألذين يعملون في الأدب لديهم مخيلات متهورة... ثم، بدهاء غيرت الموضوع فجأةً وقلت: هل تتفق معي أن الكثير من الحب يأس...؟

– هذا شعاري في الحياة...

– من كثرة حبي وإعجابي بك ككاتب رحت أسأل، وأتصيد أخبارك هنا وهناك، ياإلهي، لقد وضعوك لسبب عزلتك في شبكة من الأراء والأفكار الغريبة... كنت أحتار مع نفسي وأقول: حسناً، من أين لهذا المتوحد كل هذه المعلومات الثرية عن المرأة؟؟ كيف، ولماذا يفهمني أكثر من نفسي كأنثى؟؟ آه نساؤك رائعات، جريئات، ساحرات، عنيفات، يجدن أن الحياة خلقن لأقتحامها، غير هيابات للمخاطر، بل لأي شيء، وأحياناً مولعات بتعايش عدة شحنات من العواطف في آن واحد... وأمام عجرفة الرجل فجأةً ينتابهن شيطان العجرفة على شكل نوبات هستيرية... آه، صدقني، لقد أثرن في حياتي كثيراً، بل نورنها الى الأبد...

كان وجهها وهي تتكلم مليئاً بالضوء واللهب، ورأسها مزحوماً بالأفكار، ولأن المكان في مكتبي لا يساعد لحوار فكري، قلت:

– آنسة هنادي، إنني الآن منهمك في كتابة بحث، ما رأيك أن أدعوك إلى مطعم هادىء نتحدث بحرية في مواضيع عديدة... أنتظريني في الثانية بعد الظهر على الطرف الآخر من البناية... قالت:

– موافقة... نهضت بسرعة، وأعطتني ظهرها، وسارت بخطوات واثقة... وقع بصري على ردفيها، أعترف أنني لأول مرة رأيت أروع مؤخرة شيطانية في حياتي... ترى كم لقاءاً عفوياً مثل هذا يحدث كل يوم في العالم؟؟ الملايين حتماً... الرجل، والمرأة بلا إرادية، وإرادية أيضاً يبحثان عن بعضهما بحرارة منذ أن أنفلقا عن بعض يوم كانا على حد تعبير أفلاطون سمكة واحدة... أجل، سيبقيان يبحثان عن بعضهما ليصنعا الإنسان الخالد الى الأبد...

في الثانية وجدتها واقفة أمام البناية... أنتشر موظفو المجلة سوية مع العاملين في جريدة –ق، آه... الباحثون بلجاجة عن أخبار الإثارة، والفضائح ومفبركو الأحداث، والمواقف المحرجة، أعتدت أن أركن سيارتي في مكان بعيد... تبعتني بهدوء، وأنطلقنا. دخلنا مطعماً هادئاً... ذهبنا الى ركن هادىء... كانت في فستانها العقيقي أكثر فتنةً وجمالاً، وجاذبية تحت أضواء المطعم الملونة. تأملتها من جديد بشيء من الحرية، ورنّت كلمات السياسي الداهية تشرشل في أذني Never refuse a good offer (لا ترفض عرضاً جيداً) حقاً لماذا أرفض عرضاً مغرياً مثل هذه التحفة الفنية...؟ قالت بصوتها الدافىء المثير لتفتح حواراً: محمود، تتفرس فيّ مثل الأرغوس. قلت ضاحكاً: آه... هاها... الأرغوس في الميثولوجيا اليونانية صاحب الألف عين. هاهاهاها... ولكن كما ترين أنني لا أملك سوى عينين فقط...

– صحيح... لكنك ككاتب ترى مثل الأرغوس بالضبط... تنهدت بعمق وأضافت: أتعرف أن هناك مئات من الفتيات مهووسات بقصصك، وببطلاتك؟

–حقاً...

– صدقني... ويقلدنهن أيضاً... ويرفضن الإستعباد مقابل الجنة بأكملها... ياإلهي، بطلاتك جريئات مثل الأمزونيات اللواتي كُنَّ يستأصلن الثدي الأيمن لكي يسهل عليهن شد القوس.

قلت ملاطفاً: لا لا... بطلاتي لسن أمزونيات إطلاقاً!

– لماذا؟

– الأمزونية لا تجلس فوق ركبة رجل، بطلاتي كما لا يخفى عليك عندما يصلن الى من يحبن يجلسن بوداعة فوق ركبهم.

أغمضت عينيها للحظات وقالت من خلال تنهيدة حلوة: في هذا لك الحق... لك الحق... لكنك يا أستاذ محمود –غورو– أجل غورو حقيقي للكثيرات.

– معذرةً، لا أعرف معنى كلمة غورو...

– غورو؟ كلمة هندوسية تعني –دليل الروح–...

– آه، تقصدين –اب– كما يسميه كهنة جبل «آتوس»، أنداحت موسيقى ناعمة وأنتشرت مثل شظايا براقة، وراحت تدغدغ السمع... جاء نادل. طلبت هي أكلتها، وطلبت بدوري قنينة جعة ودجاجة مشوية... قالت:

– أتعرف منذ متى وأنا أريد زيارتك؟ طبعاً منذ مدة طويلة... أما لما تأخرت لا أعرف بالضبط... أخيراً أخترت هذا اليوم بالضبط، لأنه يوم عيد ميلادك... ثق أستاذ محمود أن موجة شبيهة بموجة البحر راحت تلطم صدري بقوة مع صوت هامس غريب يردد: أذهبي يا هنادي... أذهبي هذا اليوم... إنه حتماً سعيد، لأنه في مثل هذا اليوم جاء الى الوجود. أستاذ محمود، هل تنتابك أحياناً حالات تسمع فس داخلك أصواتاً قدسية أحياناً، ووحشية أحياناً أخرى تحثك وتؤكد عليك أن تفعل هذا الشيء، وتفعله فعلاً بطريقة لا إرادية وبعد أن تنجز ما فعلته بفترة يأتيك صوت بارد من عقلك إما ليوبخك، أو ليهنئك...

– حسن يا هنادي، نحن الآن معاً في هذا المكان الهادىء، هل ذاك الصوت يهنئك أم يوبخك...

– يوبخني، لا... لا... لا ياإلهي، إستقبالك لي كإنسان متحضر يشعرني بفخر... فتحت حقيبتها ووضعت فوق المائدة علبة أرجوانية وقالت برجاء حار: أرجو ألا تخيب ظني، وتقبل هذه الهدية مني بمناسبة عيد ميلادك...

فتحت العلبة، فوجدت فيها ساعة –أوميغا– جميلة والوقت يشير الى الثالثة بعد الظهر... أعدت غطاء العلبة و وضعتها في جيبي شاكراً إياها بحرارة. همست لي: سنة حلوة يا جميل... وضع النادل طلبنا فوق المائدة. أخذت حسوة كبيرة من الجعة وراحت هي برفق شديد تقطع اللحم. قالت:

– ما سر حبك الشديد للمرأة، وتمجيد شجاعتها، وتصويرها كأنها كتلة عزيمة، وأنت في الأربعين ولم تتزوج بعد؟

– أنا يا صديقتي هنادي لا أتحمل أن أرى المرأة مقزمة، مهشمة، تعيش بأستمرار في غشيان خوف، في حالة مسرنمة، مشوشة الذاكرة، متماهية مع ذاتها المعذبة في مجتمع شديد الذكورة وشديد الإزدراء للمرأة... تعيش المرأة في برج المصيبة والخوف، وخيانة بايلوجية، وتخترع لنفسها قصص تهتك... ثم أن الرجل ينظر للمرأة مجرد لحم... لحم محض... اللحم ضروري فهو هبة الطبيعة، لكن النظر الى اللحم خالياً من الروح مأساة... لو غصنا بعيداً عن اللحم وعاملناه برفق وحنو سنجد لهباً... هذا اللهب يحتاج الى حب حقيقي... أن جسد المرأة يتفتح مثل الزهرة في الحب فقط... في المجتمع الذكوري الرجل لا يعرف اللحم الروح، اللحم اللهب، اللحم الزهرة، أنه مثلما يأكل لحم

العجل بلذة بربرية هكذا يعامل لحم المرأة... ألقت شوكة من يدها، ومسحت شفتيها بمنديل ورقي، وقالت بعد أن أطلقت آهة حارة: ياإلهي، أنت فعلاً إنسانٌ رائع... لا غرابة منذ أن جلسنا وأنت تدقق بصرك في جسدي... إذا كنت تبحث عن الروح واللهب.

– أتعرفين أن الممثلة برجيت باردو بعد أن جربت عدداً من الرجال ومن الفنانين بالذات هجرتهم جميعاً الى الأبد، وأتهمتهم بحيوانات اللحم. كانت تقول: كانوا يعاملونني في السرير كلحم محض...

بعد صمت طويل سألتها فيما إذا نامت مع رجل في السرير!

قالت: أنني عذراء، لكنني جربت مداعبات، وأعترف أنه كان يبحث عن اللحم المحض...

– إسمعي يا هنادي، قبل أربعمائة سنة قال رجل الدين الأسپاني هورتنسيو فيلكو بعد أن تأمل لوحة فيها ملائكة رسمها الفنان ال غريكو (يا ال غريكو لقد تخطيت الطبيعة، وأن الروح تبقى متشككة في دهشتها، أي من الأثيني مخلوق الإله، أعتقد يا غريقو مخلوقك يستحق أن يحيا) يجب أن يتعلم الإنسان التخطي، النظر الى المرأة الملاك وليس المرأة اللحم فقط...

لأول مرة تحت ضوء المطعم رأيت فوق أسفل خدها غمازة خبيثة ترسل إشارات خفية كلما إبتسمت، ومن خلال منارة عينيها عرفت أن كلماتي أثرت فيها كثيراً... كانت سعيدة وهي تستمع إليّ ولاحظت أن جمالها تحت وطأة لغتي راح يصهل بقوة...

***

بعد أسبوع من لقائنا، هتفت لي، وكلمتني بحرارة، وقالت: أستاذ محمود أن لغتك وكلماتك الأسبوع المنصرم ظلت تدير طواحين روحي بقوة... هل أستطيع أن ألتقي بك، متى، وأين؟... كنا في منتصف الربيع. دعوتها لسفرة الى تازة خورماتو لقضاء عدة ساعات يوم الجمعة. وافقت من غير تردد وهي تقول: ثق معك وحدك أشعر أنني أفهم كمالي الإنساني... خرجنا... كان نهاراً كالزجاج. الجو صاف، وشديد الزرقة، والربيع الساحر يغري بعذوبته، وطراوته، وجماله بالإنطلاق... كانت هنادي جميلة وكأنها ملكة سبأ، وكانت سعيدة ومهتاجة بالحب، بالسفرة، والربيع، والشهوة لأشياء ربما لا تعرفها... ذهبنا الى مرتفع صغير تحت شجرة تجولنا قليلاً لنملأ صدرينا بالهواء. كان نهداها المنتصبان يرتجان كلما حاولت إجتياز حفرة صغيرة، أو أرتقاء مرتفع صغير،

أو عندما كانت تشير بحركة مسرحية الى سرب من الطيور المهاجرة أو الى قطيع من الحملان جاءت الى الدنيا للذبح من غير أن تعلم. الربيع وحده يمنح الإنسان إحساساً بسيمفونية من النشوة، واللذة، والشهوات، وتفجير فورات ديونيزيه في الداخل... كانت تلتفت إليّ وتتأملني وتضع باطن يدها فوق كتفي للتوازن... كانت نظراتها تقول: أنظر يا عزيزي معك أخرج من نفسي لأعانق العالم.... عدنا الى تحت الشجرة. أخرجت كرسيين من صندوق السيارة، ومائدة بلاستيكية صغيرة. جلسنا بإسترخاء لذيذ. أستسلم كل واحد منا لدقائق الى شطحات حسية لذيذة. كانت حرارة الشمس لذيذة وهي تلامس وجهينا... كانت مئات الأُسر تفترش السهول والتلال، وثمة مجموعة من النساء والرجال يرقصون على إيقاع الطبل والزرنة... لا أحد في هذا الربيع يصدق نفسه وهو في حضن الطبيعة، والربيع الجميل الرحيم وبعد أشهر من البرد والمطر والعواصف.

قالت: لا أعرف كيف أشكرك على هذه الدعوة؟... كنت هاربة من ذاتي في البيت يوم هتف لك... آه، وها أنذا أحيا... أذكر كتبت في واحدة من قصصك تقول: أن اللحظة الحية هي كثافة حيوات وأزمنة...

– بالضبط.

– كم كنت بحاجة إليك...

– بصراحة أنصحك ألا تدمني عليّ.

– أعرف... سأحاول... وأنت يا عزيزي حتماً تتخلص الآن من عزلتك الرهبانية...

– ربما نعم.

– أستاذ محمود أخبرني بصراحة ألست سعيداً الآن.

– لا أعرف، لكنني أشعر بحرير الإبتهاج.

– هل ستفكر فيّ في الليل؟

– بصراحة لا أعرف... الزمن يا هنادي مثل الدخان... نحن الكتاب نعيش حياة جهنمية من النشاز... ثمة أشياء تأتي في الليل وتفرض نفسها عليّ وتبعدني عن نفسي... أو تمطر عليّ فجأةً فكرة وسماء من الكلمات أروحُ أضعها على الورق بهوس.

– صحيح أنا الأخرى كاتبة... لكنني أحياناً لا أستطيع أن أفهمك.

– ربما... كلنا يا صديقتي لدينا عذابات غير مفهومة... كلنا مثل الصوفي نهرب لكي

ننسى أشياء كثيرة...

– للمناسبة كيف دخلتم عالم الأدب؟

– لا أعرف... عدة كتب رائعة أصابتني رغماً عني بالخيمياء الأغريقية...

– ما معنى الخيمياء الأغريقية؟

– البحث عن الذهب الفلسفي. هذا الذهب ألذي يقوم بإنقلابات في القيم الروحية، والفكرية، وبتحولات نفسية، آه الآن يا آنستي العزيزة بعيداً عن الخيمياء، دعينا نشرب، ونأكل ونسمع خالد الذكر سيد درويش.

جلبت علبة جعة باردة، وعلبة صغيرة لها، وآلة تسجيل ودجاجة مشوية مع عدة أرغفة خبز. ضغطت على زر الجهاز، أنطلق صوت الشيخ سيد درويش يغني (عشقت حسنك) ويتشظى مثل ذرات كريستالية في الفضاء...

***

واحدة من براعات الربيع، هي، خلق ضرب من سيمفونية الشهوات، كانت مجموعة من الخيول على مبعدة مئات من الأمتار تمارس الحب في الهواء الطلق بعيداً عن جو الأسطبل الخانق غير عابئة البتة بالدنيا كلها... مرّت بالقرب منا مجموعة صبايا جميلات يضحكن ويتهامسن وهن ينظرن الى الخيول المتهيجة جنسياً ثم يدرن رؤوسهن خجلات وقد أشعلت حرارة الخيول تيارات سرية من الإستثارات الحارة في عروقهن، وعرقاً بارداً في ظهورهن... كنت وهنادي نراقب الخيول ونسير بخطوات وئيدة... قالت وهي تأخذ حسوة من العصير وتشير الى الخيول: كان فرويد يقول لعالم النفس كارل يونغ عندما يصف هكذا موقف: كارل، هذا بالضبط ما أقصده بالروحانية الجنسية... حاذتنا فجأة شابة جميلة ترتدي ملابس شفافة تكشف بوضوح جغرافية جسدها الرشيق، وتتغنج في تحريك ردفيها على طريقة – المانيكانات– ذكرتني مشيتها وغنجها، وجسدها لبيتين من الشعر لشاعر زنجي نسيت أسمه، ورحت أحرك شفتي مردداً الكلمات بصمت.

إلتفتت إليّ وقالت: أراك تردد شيئاً حاراً مثل الصلاة مع نفسك.

– هل تريدين سماع ماكنت أردده مع نفسي؟

– جداً... أرجوك... بإلقاء مسرحي رددت:

أيتها المرأة العارية، المرأة السوداء

يا ثمرةً ناضجة من لحمٍ وروح

يا نشوة الخمر الأسود الداكنة

قالت وهي تتنهد: الحب، والإرادة، والجمال هي الأقوى في معظم قصصك... لكنك حسب علمي لم تحب إمرأة واحدة حباً حقيقياً... لماذا؟

– لأنني لا أستطيع أن أحب بإفراط، والمرأة تريد الإفراط.

– هل سمعت بأسم الكاتب ميلان كونديرا.

– طبعاً، وقرأت أثنتين من رواياته.

– رائع... يقول (الحب المفرط حب مذنب).

– للمناسبة ماذا تكره في المرأة؟

– غيرتها عندما تعوي... مخيفة... والغيرة مثل الأسفنج تمصها وتزلزل الرجل معها.

مشينا نتأمل الأرض المنبسطة وهي بلون العسجد يغمرها ضوء الظهيرة، والزهور البرية تتمايل، وأحدهم يغني بصوت رائع يجرح الصمت ألذي يرين على المكان ويخلق في السمع لحظات صفاء مثيرة... عدنا مرة ثانية الى مكاننا. جلست قبالتي وأرسلت إليّ نظرات مستقيمة. كانت عيناها تتقدان ببارق من لهب الحب... قلت: تنرين إليّ وكأنكِ ترينني لتوك.

– صدقني يا محمود هكذا أشعر عندما أنظر إليك.

– هنادي... ماذا تتمنين في هذه اللحظة؟

– أنت تعرف أنني جريئة، وحازمة الإرادة تماماً مثل بطلات قصصك، حسناً، أتمنى بصراحة في هذه اللحظة أن أهجم عليك مثل نمرة وأصفع صدرك بقوة هياج المجانين، ثم برفق أريح رأسي فوق كتفك وأبكي بحرارة وأنت تقرب شفتيك من أذني وتهمس كما فعل أحد أبطال قصصك في أذن صديقته وهو يردد:(أبكي يا عزيزتي، إذ بكاء النساء في هكذا مواقف يلطف من حرارة لوعتهن... أبكي هذا حزن الغرام الحارق) آه، صدقني يا محمود منذ أن نضجت جنسياً وأنا في الثالثة عشر ، وأنا الآن في الثلاثين لم أعرف هكذا حب مراهقي وبلا أمل سوى الآن ومعك أنت... يا إلهي، لا شيء يفيد مع الحب... لا ذكاء الفؤاد ولا الشجاعة. ولا حتى الإرادة القوية... صدقني من سنوات وأنا أحبك، وأتابع قصصك، وأقلد بطلاتك تقليداً حاراً... معهن كانت ترتفع عندي روحي القتالية، وتتهيج عندي كبرياء المرأة... وها أنذا أمامك، وأمام برودك الإنكليزي، وعدم

إيمانك بالحب المفرط، لا يهزك لا روعة جمالي، ولا رشاقة جسدي، ولا نهداي الثائران..آه... بعد ساعة سأعود الى بيتي عدو الظبي، وأتذكر كلمات واحدة من أبطالك تقول لصديقها (أحذر... أحذر يا عزيزي أن أي إفراط في القبلات يتحول الى خطيئة... لأن قبلاتك أشبه بطعنات سكين)

توقفت عن الكلام، ورأيت طلائع الدموع في عينيها، قلت مع نفسي أن العواطف الحقيقية في الحب أنانية جداً... كيف أستطيع أنا المحزوم ببركان من المشاعر والأفكار والكتابة مداراة هذا القدر من العواطف الأنانية؟

قالت بعد صمت طويل بصوت ذائب: من الصعب يا محمود إختراق مناعتك... وأن أستحكامتك قوية جداً... تجولنا قبل حلول المساء... تحلبت بطريقة ميكانيكية قزحات من الغيوم اللؤلؤية على اديم السماء، وراحت هبات من الهواء البارد اللذيذ تهب على شكل تنهدات. إستجمعت صلابتها، وربما ندمت على أنفعالها وبكائها... تنفست بعمق عدة مرات... وأبتسمت في دقائق قليلة عادت جميلة مثل الفجر، في المساد عدنا كل الى بيته.

في منتصف الليل هتفت لي، أجبتها بصوت مخمور النوم : نعم... هنادي... ما بك... ألم تنامي بعد؟ قالت بصوت دامع: : لا يا عزيز... منذ ساعة وأنا أردد مثل الصلاة، رفقاً بي أيه النوم الرحيم، آه ، أيُّ عذاب ألا تستطيع النوم رغم التعب الشديد...
محمود، أرجوك دعني أتكلم ربما أستطيع أن أهيء نفسي للنوم... واحدة من بطلاتك القويات جداً فولذتني وأفسدتني أيضاً... أنا الآن مجموعة حقيقية من بطلاتك... بطلتك هذه كانت تقول لصديقتها وهي تشيد بحبيبته (واحدة من أروع أعمال هذه الطبيعة،هي أنك وجدت فيّ الحياة، وهنا في مدينتي الناعسة(كركوك) أطلبني يا عزيزي... أطلبني فقط، أجيئك بعربة ابولو المجنحة... أطلبني حسب... ليلة سعيدة.

***

ظلت تهتف لي كل ليلة لأكثر من أسبوعين ثم فجأةً أنقطعت أخبارها... وصلتني بعد شهر رسالة قصيرة جداً فيها الكلمات التالية (وأخيراً تحررت منك بإلهام معجز... لكنك تبقى منارة في حياتي الى لحظاتي الأخيرة... هنادي)

***

وبعد شهر من تلك الرسالة قرأت خبراً مفجعاً في واحدة من الصحف المحلية يقول (وجدت جثة الكاتبة هنادي أحمد في ظاهر المدينة وعلى ظهرها عشر طعنات... الجاني

مجهول، والغموض يلف مصرعها)... إنفجرت في داخلي الحنانات المهيجة للمشاعر من طعنها! لماذا؟ كيف؟ في أي مكان في ظاهر المدينة، أجج الخبر النيران في روحي، ورحت لأول مرة في بكاءٍ حار وأنا أردد: لم هذه النهاية المروعة لفتاة رائعة وعميقة الفكر والمشاعر؟ لكن من يفهم النساء؟ أنهن أغرب من الغرابة؟ أنهن آلات معقدة... نظرت الى الساعة ألتي أهدتها ليو ووجدت لدهشتي أن الساعة نائمة على الثالثة مساءاً... ذات ليلة صيفية حارة رن الهاتف، وإنساب برفق صوت نسوي دافيء في أذني يردد بإلقاءٍ مسرحي رائع مصحوب بعزف ماهر على العود.

أيتها المرأة العارية، المرأة السوداء

يا ثمرة ناضجة من لحم و روح

يا نشوة الخمر الأسود الداكنة

الطبائع القوية

هتفت لي وللمرة العاشرة هذا اليوم فتاة ساحرة الصوت رجتني بحرارة أن أحضر حفلة عيد ميلادها، وأصرت بلجاجة رقيقة جداً أن أستجيب لدعوتها، سيما وأن هذه الفتاة ألتي لم ألتقِ بها وإن كان جرس صوتها الملائكي ليس غريباً على سمعي إطلاقاً، وهي كلما هتفت تؤكد بوضوح صارم هوسها بقصصي ومسرحياتي، أنها تتكلم بثقة عميقة بالنفس، أعرف بالتجربة أن بعضهم حين يكونون في قمة تصميمهم، يبدون وكأنهم في ورطة، ومستأثرون، يتكلمون بإصرار... قالت من خلال تنهيدة حارة: أن قدومك يجعلني أشعر بإحساس غريب وعميق الكمال... يا إلهي، أن هذا الصوت ليس غريباً على مخيلتي السمعية... ولأنني بطبعي نفور من أجواء الحفلات، والمجاملات، والأحاديث الدبلوماسية، والثرثرات، والإستعراضات المظهرية المضحكة، وافقت مرغماً لسببين، الأول الصوت المضيء للفتاة ألذي كلما سمعته كان يثير فيّ لاوعيي، ومخيلتي السمعية شظايا حارقة تعمل في جسدي مذبحة، وأصبح رغماً عني في حالة من الإحساس الطاغي بالنشوة، والسبب الثاني، وهو المهم لغتها العميقة، والرصينة ألتي تجبر الواحد على الإنتباه اللاهب والإستماع بإستغراق الى حديثها.

حضرت في الوقت ألذي حددته لي. كان الجوُّ جميلاً، والصالة الواسعة تفوح بضروب العطور المهيجة، والثراء الباذخ واضح حتى في الأشياء الصغيرة، وموسيقى ناعمة تتموج تؤجج المشاعر... عندما دخلت. جاءت تخب مثل مهرة... أخذت يدي ورحبت بي بحرارة، وهي تردد: أنت بالضبط كما أنت في صورك ألتي أراها في المجلات والصحف... لم تتغير البتة... كانت الأصوات ترتطم ببعضها، وتتفرقع ضحكات هنا وهمسات هناك وهسهسات، وأصوات مثل الفحيح، تأملتني ويدي في يدها وراحت تكرر: وأخيراً... وأخيراً يلتقي تموز بعشتار... تأبطت ذراعي بثقة غريبة في النفس كما لو أنني صديق قديم وعزيز أو حبيب، قالت: أنا سعيدة بمجيئك... سعيدة جداً... أتعرف أن ثمة فرقاً كبيراً بين مذاق النصر، وبين مذاق الكفاح من أجل النصر؟ أن المذاق الثاني أروع بكثير... آه... أن محاولاتي، ونداءاتي لم تذهب عبثاً... دعنا يا عزيزي نتجول ونتكلم... لديّ أشياء كثيرة أريد أن أبوح بها لك... هنا لا أحد يعرفك. أنت كاتب فقير

معدم، لكنك أعظمهم جميعاً... أتعرف عما يبحث هؤلاء البؤساء كل يوم؟ صدقني يبحثون عن سواحل تفاهاتهم... رجالاً ونساء لديهم أحلام خانعة، و أجساد متهورة لا أكثر... أتعرف لماذا أحب قصصك ومسرحياتك؟؟ لأنني بصراحة أحب الطبائع القوية لأبطالك... أطلقت ضحكة ساحرة وخافتة وأضافت: الأقوياء يبحثون عن أندادهم... ركزت بصرها فيّ وقالت: أرى نظراتك الذكية تقول لي بسخرية ناعمة: لكنك .جزءٌ من هذه الشريحة الثرية! نعم... هذا صحيح... ولدتُ وشببت رغماً عني في هذا المحيط...

لكنني فكرياً بعيدة عنهم... كان ماركس على صواب عندما قال (أن الوعي لا يصنع الحياة، بل الحياة هي ألتي تصنع الوعي)... ترجعتُ خطوة واسعة الى الخلف، دققت بدوري بصري عليها طويلاً في فستانها الحرير الجميل، ونحرها الشبيه بلون الخوخ الناضج، وبعينيها الواسعتين، وغمازتها المثيرة، وشعرها الأصهب الوهاج، ورشاقتها. قلت مع نفسي: الحب رب رحيم... قبل عشر سنوات أحببت شابة شديدة الشبه بها... عادت وتأبطت ذراعي وكأنها كتلة من الفسفور تشع بجميع الإتجاهات.

قربت رأسها من كتفي، أستاف أنفي شذاً طيب الرائحة عبهري الإثارة... كان شعرها الأصهب يتوامض مثلما تتوامض الأحجار الكريمة... يا إلهي، هذه المخلوقات الجميلة أهرب منهن لكنهن مثل الجنيات تلاحقنني في خيالي، وأحلامي، ويقظتي.

قالت: هل بعد تلك النداءات الحارة فكرت ذات يوم أن تطلبني لأجيء لزيارتك؟ كنت أجيئك حتماً ممتطية ظهر الفرس (بجاس pegaso) الأسطوري المجنح، ألذي صعد الى السماء وتحول الى مجموعة كواكب... هل يمكنك أن تتصورني وأنا كوكب في السماء اللامتناهية؟ كان الشباب وحتى الشيوخ ينظرون إليها ويطلقون آهات حارة... كانت تلهب شواظ الإعجاب في عيون وقلوب الجميع... قلت لها: تقولين أنكِ قوية جداً؟ حسناً قوية في أي شيء؟

– أوه ليس في عضلاتي طبعاً... لالا... قوية في إرادتي طبعاً. تماماً مثل أبطال قصصك.

فجأةً جاء شاب وسيم، رشيق بيده كأس، إنحنى لي ولها بأدب جم عدة مرات، لكنها لدهشتي الشديدة زجرته بطريقة ساخرة بينما ظل الشاب يرسل إليها نظرات ضارعة جداً... سحبتني من ذراعي وأعطته ظهرها بحركة مسرحية جميلة... سألتها: من هو؟... قالت: شابٌ تافه... أهمله. دعنا في عالمنا... آه، يا عزيزي أحب أن أقوم بغزوات كبرى...

هنا أخبرتها بأنني بحاجة لكأس ويسكس. قالت: حالاً... حالاً... في دقائق قليلة كانت الكأس في يدي... أخذت حسوة من السائل الذهبي، قلت حسناً... كلميني عن حبك لغزوات كبرى... أردت أن أستفزها بطريقة ناعمة، قلت: هذا الثراء، أهو ضرب من الغزوات والشعور بالقوة؟ أجابتني من خلال ضحكة حلوة: صدقني أنا أحتقر نصراً لم أشارك في معاركه... هذا الثراء، هو، من صنع والدي وحده... صحيح أن المال نوع من القوة، لكنه قوة بليدة... أي إنسان إذا أراد يستطيع أن يصنع المال، حتى المضطرب في تركيبته الروحية... اللعنة على المال، دعني أتكلم عن قصصك وأبطالك الحلوين... أن قواهم رائعة... مرهفة... متوهجة بحكمة غريبة وموجهة الى غايتها. قواهم كرة تندفع بشجاعة لتحقيق أهدافها... أجل كل شيء عندها يخضع لقوة أرادتها... آه، من هنا أنها صادقة، صريحة، واضحة... شخصيات لا تعرف المساومة، أو تقديم التنازلات... توقفت عن الكلام، وإلتفتت إليّ لترى وقع كلماتها في نفسي. ظلت ترسل إليّ نظرات مستقيمة جريئة، وأضافت: هم أقوياء جداً، ولديهم أيضاً قدرة هائلة على مقاومة الأغراء، مثلك تماماً... أطلقت لاإرادياً ضحكة خافتة وأنا أردد: مثلي تماماً...

أجابت: بالضبط... من مدة وأنا أهتف لك، وأتابعك وأنت لا تعير لي ذرة إهتمام... لو كنت مثلاً ضعيفاً لحولك جمالي الى إنسان مرتبك... أسمع أنا أعرف أنني جميلة جداً. لقد عرفت الكثير من الرجال الضعفاء كيف يصحبون صغاراً، بل أحياناً حقراء أمامي لأن حياتهم فقيرة، جوفاء مثل العديد من شخصيات دستويفسكي... أما أبطالك... ياإلهي، أن حيواتهم خصبة فلها فيض وثراء. وهم، وهذا مهم لا يريدون الهدوء والسلام، والمساواة... تماماً مثل دون كيخوته يبحثون عن المخاطر... فجأة ظهر الشاب الوسيم مرة أخرى. وقف أمامها. دفعت عيناه، وتمتم عدة كلمات غير مفهومة، وقام بحركات صامتة، ضارعة. قالت: هذا الغرنوق يحبني بجنون... سأدعه يقترب ويردد تضرعاته ألتي يتلوها كصلاة... أشارت إليه أن يتقدم. خطا بإتجاهنا برفق... قالت له: ماذا تريد... صديقي هذا يريد أن يسمعك... كان يترنح من السكر. قال بإلقاء مسرحي: يا سعد سعودي/ أيتها الراجحة الحصاة والذكية بالوراثة/ يا قبلة آمالي/ يا مستودع كل مصائبي/ دعيني ولو لمرة واحدة أهدهد نفسي لا بآمال وإنما بأمل واحد... قالت: هل أستمعت الى كلماته... ثم ألتفتت الى الشاب وطلبت منه أن يغادر المكان. نكس الشاب رأسه وغادر المكان بخطوات مهزوزة. تأبطت ذراعي وهي تقول: هذه الهزأة

يحبني... لنرجع الى عالمنا... أتعرف بأية حماسة أحببت بطلة قصتك (مسرطنة بالوهم)؟؟ وكذلك بطلة قصتك (متعة غامضة) وسحرت ببطلة (الآلهة عناة) أنهن شبيهاتي... مرة أخرى تأملتها ملياً. قالت: أرجوك لا تنظر الى فستاني الحريري، والى أساوري. أنك بدقة مفتش شرطة تدفق بصرك في تقاطيع وجهي... لن تجد شيئاً في وجهي... حياتي الحقيقية تتجه الى أعماق ذاتي، الى قواي الثرية ألتي تفيض بها... أعرف أنك تفهمني. أنني بورجوازية الإنتماء حسب، وستعرف ذات يوم أنني أنسانية ولدي غنى روحي، وأعرف كيف أمنح ذات يوم هذا الغنى للآخرين... تأملتها من جديد، ولفت نظري لأول مرة قرطان من لآليء وردية يتومضان تحت الأضواء، وشعرها الأصهب الوهاج، ووجهها الجميل، وغمازتها اللعينة ألتي تستفز حتى الراهب العنيد... لا أعرف أين ومتى رأيت هذين القرطين... فجأة أطلق أحدهم ضحكاً مخصياً شتت إنتباهي. قالت بغضب: حتى ضحكاتهم ذيلية... دهشت لقوة مخيلتها السمعية. أنا أستعملت كلمة مخصي، وأستعملت هي ذيلية... كقاص أعرف أن اللغة ليست مجرد أداة توصيلية، بل الفكر ألذي يراد إيصاله بطريقة مكثفة في رموز لتسميها الفلسفة الحديثة (أركيولوجية اللغة) منذ وصولي فهي تتكلم كما لو تكتب قصة فكرية في فلسفة القوة والإرادة والثراء الروحي.

سألتها: قلت قبل قليل أعرف كيف أمنح هذا الغنى للأخرين؟ كيف؟ عبر أي واسطة.

– عبر كتاباتي... أنا الأخرى قاصة؟

– هل نشرت قصصاً؟

– لالالا... لم أنشر أية قصة... لكنك ستكتشف ذات يوم أن شخصياتي هي الأخرى تصطدم بمحيط فيه الإنسان حياته متجهة الى الأعماق... بعد صمت قصير راحت بهوسها المقدس نفسه قائلة: أنني أمقت الإنسان المتخاذل، الخائف، المضطرب ألذي يطلب الحماية، ويهرب من ذاته... فجأةً وللمرة الثالثة ظهر الشاب الوسيم وهو يترنح من السكر ويحمل بيده المرتجفة كأساً... قام مثل ممثل ماهر بعدة حركات صامتة فهمت أنه يقول لها: أن قلاع المرأة تتهدم إذا أستطاع الرجل بكياسة أن يطري وبشيء من المبالغة جمالها، ويستعمل الملق... آه يالمتانة قلاعك... أما هي فقالت بصوت تعمدت أن يسمعه الشاب: هذا الغرنوق الثري الوسيم التافه الوعي يحبني بجنون، وأنا أحتقره بجنون... أنه مضطرب بأستمرار ويطلب الحماية مني... أنه لا يعرف ما معنى واجب

الحياة الثقيل، لا يعرف المصاعب، والآلام، لا يعرف غير التفاهات... أنه مثل والده يرى فيّ الأفكار القديمة والبالية صواباً، ويعيش في أوهام ميتافيزيقية... هذا البائس يمتلك عقلاً ذليلاً ويريد من متمردة مثلي أن تحبه وتتزوجه... ظل الشاب واقفاً يرتجف، ويؤدي حركات بنتومايمية حزينة، ضارعة.

أطلقت ضحكة ساخرة وصرخت في وجهه قائلة: أذهب من هنا. هيا تحرك... تحرك الشاب بخطوات وئيدة مشلولة... إلتفتت إليّ وقالت: أخبرني أيها المبدع ألذي يعرف كيف يجسد الشخصيات الصلبة، والمنهارة أيضاً، ماذا تفعل مع شخصية تافهة كهذه، وعقل ذليل عاشق للضعة والأستخذاء؟ ماذا تفعل لو كنت مكاني...؟

– أنا لا أجيد التعامل مع مخلوقات تعاني من الإنهيار والضمور في عضلة الروح والعقل...

أخذت يدي وبجراءة قبلتها عدة مرات... إلتفت الشاب الى الخلف ورأها تقبل يدي... إضطرب وترنح وبعد لحظات سقط على الأرض... نهض بصعوبة وسار بخطوات مشلولة وأختفى. قالت: الآن سيرتفع بارومتير مشاعره وعواطفه التافهة، يذهب ويرتكب واحدة من حماقاته الصعلوكية بعد أن يروح طويلاً في منلوجات –مارملادوفيه(*)

... وأنا هذا المساء في ذروة سعادتي بمجيئك الى هنا... أنه لا يستطيع أن يواجهني إلا وهو في حميا السكر... الآن هل جربت الحب؟؟

– آه... كلا... عفواً مرة واحدة...

–لماذا؟

– لأنني بصراحة لم أجد من يعرف كيف يوجه اللكمات الحقيقية الى قلبي.

– ما أهم صفة يجب أن تتوفر عند ألتي تعرف كيف توجه اللكمات الى قلبك.

– أن تكون جريئة، حرة، غير مستعبدة عقلياً، خصبة، تتقبل الألم عند الضرورة.

– تماماً مثل بطلات قصصك.

ساد صمت، غنى الشاب بصوت بغوم سلسال وهو بين حينٍ وآخر يطلق زفرات حارة ويردد (حرام أنا ما سويت لك شي) فجأةً دوى طلق ناري، قالت بسخرية: هكذا بسذاجة البدو يعبرون عن فرحهم... بعد قليل دوت صرخات نساء، و وقع أقدام سريعة

(*) مارملادوفيه: شبه ال مارملادوف الشخصية السكيرة في رائعة دستويفسكي (الجريمةوالعقاب).

، وفي لحظات أنتشر خبر إنتحار الشاب الغرنوق... قالت الفتاة: هذه المرة لم يذهب في منولوجاته المارملادوفيه، بل راح أبعد من ذلك وضع حداً لأنويته الذاتية كما وضع شقيقه حداً لحياتي منتقماً للغرنوق التافه... قلت

– ماذا؟حياتك؟

– أتعرف من أنا؟

– لا طبعاً!

– أنا هنادي... بطلة قصتك (الصحو الحقيقي أحياناً يكون عديم الشفقة)... شقيقه هو ألذي طعنني عشرة طعنات في ظاهر المدينة، قالت هذه الكلمات ثم مثل شبح والد ملت أختفت. ناديت بصوت عال: هنادي... هنادي... غادرت الصالة ألتي خلت بسرعة مذهلة.

نظرت الى الساعة ألتي أهدتها لي هنادي قبل سنوات فوجدتها نائمة على الثالثة تماماً. في الشارع الخالي من المارة رحت وكأنني في غيبوبة، أو حلم يقظة أردد كلمات الساحر رامبو (ثمة خراب... ضروري) مشيت بخطوات وئيدة أردد أغنية (حرام... أنا ما سويت الك شيء)،

فجأةً سمعت صوت هنادي تردد بإلقاء مسرحي كما كانت تفعل في الليل، قصيدة الشاعر الزنجي:

أيتها المرأة العارية، المرأة السوداء
يا ثمرة ناضجة من لحم وروح
يا نشوة الخمر الأسود الداكنة...

كانت المدينة مشهورة، خالية تشبه لوحة حلمية لسلفادور دالي... بل، كان كل شيء مثل حلم.

الموتى يتلون القصص أيضاً

كان نهاراً ربيعياً جميلاً عندما وصلت نمرود، وتوجهت الى ذاك الوادي العميق حيث يشمخ من مئات السنين تمثالان رائعان للثور المجنح. لكنني فجأةً صعقت عندما رأيت من إرتفاع عدة عشرات من الأمتار أن أحد التماثيل مربوطة بحبال غليظة على طريقة رعاة البقر الأمريكان، والآخر ما زال في مكانه ملتصقاً بجدار صخري متين يشبه حجر الصوان... إذن، أن حدسي كان في محله عندما شعرت أن ثمة لصوصية تجري في الوادي بصمت مريب... رأيت عدداً من الإعرابيين يسحبون الحبل بقوة، ومن الجهة الثانية عدداً اخر في ملابس مدنية يشرفون ويحركون أيديهم مثل مايسترو يقود سيمفونية صعبة. كان التمثال يتأرجح رغم ثقله من اليمين الى اليسار، والعمال يحاولون بإستماتة جرّه ووضعه فوق لوح خشبي سميك. كان وضع وشكل التمثال المتأرجح حزيناً حزناً آسراً، وبدا لي ذاك الوجه الآشوري النبيل المقطب الغاضب بلحيته الكثة، ونظراته الصقرية، وهو، مربوط بحبال غليظة مثل ملك أسير يعبث به أعداؤه وهم يجرونه كسبي في شوارع المدينة... كان العمال يطلقون أصواتاً مخنوقة وهم يجرونه، أصواتاً شبيهة بآهات، ويشجعهم فني بصوت حار ودود:

حياكم... هيا يا أبطال... هيا يا نشامة... التمثال يتأرجح يميناً ويساراً كما لو أنه يرفض بعناد ملك آشوري حقيقي أن يغادر مكانه ألذي خلق من أجله أساساً، ألله وحده يعلم كم حزنت، وكم خفت أن يسقط وتتكسر أكثر أماكنه رقةً... صرخت بقوة: توقفوا! توقفوا؟ ماذا تفعلون بالتمثال؟ لماذا تزيحونه من مكانه؟ توقف الجميع عن الحركة، وأرسلوا بإتجاهي نظرات تعجب شديدة: من هذا الرجل؟ لماذا يصرخ ويوجه لنا أمراً بالتوقف؟ تقدمت منهم، وسألت أحد الفنيين:

– بأمر من يحرك هذا التمثال النادر من هنا؟

أشار الفني بيده الى مرتفع يحيط بالوادي، والى رجل نحيف طويل يرتدي سترة سوداء، وبنطالاً رصاصياً، وعلى رأسه قبعة، واقف بشموخ مثل جنرال يشرف على معركة حاسمة وخطيرة... سألت من هو؟؟ أجابني الفني: إنه الأنكليزي السير هنري لايارد. طلبت من الجميع أن يتوقفوا ريثما أنتهي من مقابلة السير هنري، غير أن الفني

قال بصوت ذليل، أنه لن يتلقى الأوامر إلا من السير هنري. لكنني صرخت لا إرادياً في وجهه، بل مني... نعم مني أنا... تريث.

كان يجب لكي أصل حيث يقف السير هنري لايارد أن أتسلق مرتفعاً وعراً محفوفاً بالمخاطر، ثم ماذا... أنطلقت مثل وعل مطارد أشق طريقي الى المرتفع حيث يقف ذاك السير الشاب المدعو لايارد... كنت كلما أرتفع وأقترب أتضحت معالم وتقاطيع وجهه المخروطي النحيف والوسيم الى حد ما... شاب في الثلاثين له عينان متقدتان، جريئتان واسعتان مثل عيون الغجر تعكسان روح المغامرة. إلهي، عينان سوداوان، ووجه قاسٍ، بارد الملامح... قدمت له نفسي وأنا أتصرف بثقة مكينة بالنفس، صباح الخير حضرة السيد هنري لايارد... أقدم نفسي، أنا جليل القيسي... يسعدني التعرف عليك، مد يده ببرود على طريقة الأنكليز الصقيعية، والمتعالية وهو يقول بصوت خافت أقرب الى الهمس: يسعدني أنا الآخر... تفضل... ماذا تريد؟ كنت ما زلت ألهث من التعب. أضاف: لقد رأيتك تنزل بطريقة مسرحية من ذاك الممر البعيد والوعر وتكلم العمال، والفنيين بطريقة عصبية جداً.

ماذا حدث! هل حدث شيء خطير... غير طبيعي؟ قلت وأنا ما زلت ألهث، وأدقق بصري في ملامح السير هنري لايارد: نعم... نعم... يا سير هنري... هناك فعلاً شيء خطير... بل خطير جداً... جداً... ظل وجه السير هنري بارداً، قال بصوته الهامس: تقول خطير جداً؟ أين؟ كيف! قبل أن أجيب، ولكي أخفف من لهاثي ألقيت نظرة من فوق المرتفع على الثور المجنح الثاني الثابت في مكانه، وعلى الآخر المربوط بطريقة تراجيدية بالحبال. وسع السير هنري من حدقتي عينيه الواسعتين، وقال: تكلم أيها السيد القيسي: ما هو الشيء الخطير جداً؟ قلت، إسمح لي يا سيد هنري أن أسألك بأمر من قمت بتنقيبات قلعة شرقاط، وآشور، وكويسنجق؟ كما قمت حسب معلوماتي، وهي، دقيقة جداً بأرسال ثلاث شحنات من أفضل المنحوتات الى بريطانيا من نمرود عبر نهر دجلة بالطوافة... والآن يا سير لايارد تريد أن تشحن هذه التحفة النادرة –ثور نمرود– هذا ألذي يزيد وزنه على عشرة أطنان... لماذا؟ وكيف؟

ركز السير هنري بصره الحاد عليّ كما لو أنه يريد أن يخترقني في أكثر أماكني منعة وقوة، وقال: لكن قبل كل شيء من أنت؟ ومن أين جئت؟

– لقد قدمت لك نفسي. أما من أين أنا. فأنا أفتخر بأنني عراقي. ومن مدينة آرنجا.

– ما هو مركزك؟

– عراقي... من أرض الرموز...

– ماذا تقصد بأرض الرموز؟

– أنت يا سير هنري عالم آثار... تعرف جيداً أن وطني فيه آلاف الرموز. ظل السير هنري متحصناً ببروده الأنكليزي، يدقق بصره فيّ بإمعان شديد، وقال: هل أفهم أنك تمانع أخذي ثور نمرود...

– يا سير هنرس، أن العبث بهذه السهولة بهذا الرمز الخالد بالذات، أو ذاك من رموز وطني لن يفيدك، ونهبك لثلاث شحنات ثمينة جداً من منحوتات نمرود تفقد وطني هارمونية رموزها...

رسم ظل إبتسامة على وجهه، وهزّ رأسه وهو يردد: هارمونية رموزها... هارمونية رموزها... كلمات غريبة وجميلة. لكن يا حضرة السيد القيسي، أن المنحوتات عندما تكون في أمان، وتحافظ عليها بحرص كبير. قاطعته قائلاً: معذرةً... معذرةً يا عزيزي السير هنري، إن هذه الكلمات تجعلني لا أقتنع بميكيافيلية خططك. لا لا لا لا... هذه الكلمات الميكيافيلية لا تقنعني... أرجوك فكر بكلماتي أنا، هارمونية رموزها... ما إن تغادر هذه التحف وطني، وأماكنها بالذات، تفقد رموزها... آه، ثلاث شحنات دفعةً واحدة... ترى ماذا سيكون موقفك كأنكليزي أصيل يحمل لقب سير، لو مثلاً قلعت قبر شكسبير، وأخذت جميع مخطوطاته وجلبتها الى بغداد...؟ واثق أنك ستبكي... ماذا لو سرقت مخطوطات كريستور فر مارلو، اوثاكري وعرضتها في متحف بغداد... أو ها أنتذا أيها السير هنري لايارد تأخذ رمزاً رائعاً من وطني، رمزاً لا سلطان للزمن عليه... أن نمرود، شرقاط، كويسنجق، مثل السمفونية بمنحوتاتها... أجابني بصلافة غريبة: أسمع، أخذت فعلاً ثلاث شحنات، سآخذ هذا الثور المجنح لا محالة... سآخذه.

– إذن... أنت لست عالم آثار... أنت لص... تاجر.

– بل أنا عالم آثار.

– مثل أي عالم آثار نبيل يمكنك دائماً أن تكون ضيفاً عزيزاً علينا تأتي متى ما تشاء وتدرس رموزنا بِحُرية... أما أن تهربها الى أنكلترا. لا لا لا لا.

– من يمنعني.

– كان يجب أن يمنعك ضميرك، لكن الآن أمنعك أنا... نعم أنا...

– من أنت؟ وكيف تمنعني؟

– أتعرف يا سير هنري أن طائر الحجل يحول كلب الصيد عن عشه بتقديمه نفسه قرباناً بدل صغاره.

– ماذا تقصد، هل أنا كلب صيد؟

– حاشاك... حاشاك... أقصد، أنا جليل القيسي إذا أقتضت الضرورة أن يبقى هذا التمثال في مكانه، أكون طائر الحجل، بإختصار، لن أدعك تأخذ هذا التمثال... يا سير هنري أن هذا التمثال لا قيمة حقيقية له لك مثلما لا قيمة أن أدعي أنا العراقي أن كيتس، أو شيللي، أو بيرون شعراء من العراق.

– لكنني قطعاً لا أدعي أن ثور نمرود من إبدا ع إنكليزي.

– أعرف... ولكي لا يفقد الرمز مدلوله العميق، والتاريخي يجب أن يبقى في مكانه مثل سمكة –جيلي–.

– سأل بتعجب شديد، ماذا تقصد بسمكة جيلي.

– سير هنري، سمكة جيلي تعيش في أعماق البحار تلتصق ببعض الأعشاب البحرية في القا ع وتظل هناك ملتصقة بها طوال حياتها لا تتحرك ولو لبوصة واحدة... وثور نمرود يجب أن يبقى في مكانه الى الأبد... الأبد... لأنه رمز مكانه... كنا نتحاور من غير أن يسمعنا أحد أسفل الوادي العميق حيث ما زالوا منهمكين بإستماته في سحل ذاك الملك الأسير... ألتفت اليّ السير هنري وقال بلهجة جافة:

– لكنني قررت آن أخذ ثور نمرود... نعم... قررت... لأول مرة رفعت صوتي عالياً وقلت: يا عزيزي السير هنري أكلم إنساناً –جنتلمان– يحمل لقباً رفيعاً، ومتحضراً حتماً، وعالماً... أسمع يا حضرة السير هنري، أن المبالغ الكبيرة ألتي جاءت من بيع صكوك الغفران على خزائن الفاتيكان، شكراً لله صرفت أخيراً على بناء التحف. كنيسة القديس بطرس مثلاً... سير هنري، ماذا يحدث لمشاعر، وعواطف الإيطالي لو نقلت أنا مثلاً أثمن مقتنيات كنيسة القديس بطرس الى بغداد؟

أجابني ببرود: لا تستطيع...

– عزيزي السير هنري، أن العباقرة من أجدادي لم ينحتوا الثيران المجنحة، والمسلات، وباب عشتار، وقوانين حمورابي، والمنحوتات الجميلة لتنهبها أنت، أو عالم من هذه الدولة أو تلك. سير هنري أرجوك أن تفهمني، أن ابولو، وهوميروس، ودانتي،

وفرجيل، وشكسبير، وسرفانتيس رموز... رموز... رموز عظيمة... كلماتي الأخيرة دفعت ضحكة غريبة لترقص في عينيه السوداوين الواسعتين والعنيدتين جداً، وقال: يا عزيزي جليل القيسي أنا أحترم مشاعرك وحبك الحار لرموز وطنك... تقدم مني ووضع باطن يده فوق كتفي وقال:

–الآن تعال لنذهب الى خيمتي وهناك نكمل حوارنا... لأنني بعد هذا الحديث الساخن بدأت أشعر أنني فعلاً بحاجة شديدة لكأس أو أثنتين من الويسكي... تعال... تعال... هيا... لنذهب...

دخل خيمة منصوبة بمتانة، وأناقة، ومؤثثة كما لو أنها غرفة لورد حقيقية... فوق منضدة طويلة رأيت عدة خرائط تبين كيفية القيام بالعمليات الجيرمورفية في التقنيات، وأكواماً من الخرز الجميلة، عقيقاً أحمر، لازورد على شكل حيوانات، وحشرات، وأختاماً إسطوانية، وخناجر فضية، وغمداً ذهبياً مطعماً بشذر، ولوحة جميلة منقوشة من حجر الكلس تجسد مراسيم دينية، وطبعة ختم من العهد الآشوري، ولوحاً إدارياً من عصر جمدة نصر، وألواحاً طينية عديدة، وألواحاً عاجية مكتوباً عليها بالخط المسماري، وزجاجاً بركانياً أسود... أطلقت تنهيدة حارة، وأنا أردد مع نفسي بحزن مزج مثلما يردد المؤمن الدعاء: إلهي، لِم كل هذا النهب لكنوز وطني؟ بأي حق؟ قدم لي السير هنري كأس ويسكي، وأشعل غليونه الأبنوسي وراح يدخن بشراهة. قلت: سير هنري هذه كمية مخيفة من الرموز... أجل مخيفة... أجابني ببروده الأنكليزي: هذه الكمية من تعب أشهر من تنقلاتي المستمرة من أور الى جرسو، الى أوروك، الى أريدو، الى شوربال، الى نفر، وكيش، وأيسن، وأشنونا، وماري... في هذه الأثناء دخلت إمرأة جميلة وفستانها يرقص حول وركها. لم ترني عندما خطت داخل الخيمة وذهبت تخب الى حيث يجلس السير هنري، وراحت تلهو في مجاملة غزلية مثل قطة متهيجة وتقول: أين وصلت مع الثور نمرود يا عزيزي؟ حتماً أنه مثل أي ملك آشوري عنيد جداً... أجلسها السير هنري قائلاً: ايفون... ايفون... عندنا ضيف...

خذي مقعداً، إلتفتت إليّ ايفون وبحركة مسرحية تلقائية هتفت: آه ضيف، لم أره... أهلا بك، كانت في عينيها الزرقاوين أشعة راقصة وهي تدقق بصرها فيّ... أضافت: أنه عراقي حتماً... تقدمت وأخذت يدي بحرارة ثم بخطوات رشيقة تراجعت وجلست قبالتي فوق كرسي مصنوع من الخيزران، وهي تردد أسمي كما ردده لها السير

هنري، بعد الكأس الأولى قال السير هنري: السيد القيسي، ماذا لو قلت لك أنني يجب أن آخذ التمثال؟. لم أرد عليه لأنني لاإرادياً إلتفت وركزت بصري من جديد على تلك الكمية المتنوعة من تحف وطني الموزعة بطريقة مثيرة فوق المنضدة الطويلة... رفع السير لايارد صوته قليلاً وأضاف: سآخذه... نعم سآخذه.

– أما أنا يا سير هنري فأرى أن تتركه

– ماذا تفعل لو أصررتُ على أخذه؟ نهضت وتمشيت قليلاً داخل الخيمة الواسعة... رأيت تقويماً عليه تاريخ ايار ١٨٧٥ ... إذاً في ربيع هذه السنة يريد السير هنري سرقة ثور نمرود، وكومة ثمينة من التحف... مرة أخرى جاءني صوته الهامس البارد: لم لا ترد علي؟ ماذا تفعل لو أخذت التمثال؟ قلت: سير هنري ألا تعتقد أن المسائل الصعبة تحل بجهد أقل عندما يكون الإنسان بشوشاً، باسماً، متفائلاً؟ منذ أن ألتقيتك حتى هذه اللحظة، ووجهك مقطب، ومنقبض... لماذا؟

– هكذا أنا... هذا طبعي...

– حسناً... لكنك مع ذلك كأنكليزي، وكسير، وجنتلمان، آه، وكلمة يجب، يجب ألتي تكثر من أستعمالها غير مريحة، سيما وأنت تلفظها بذاك الجرس الآمر، أرى أنها تدل على عدم كياسة، والأنكليزي عادةً إنسانٌ كيّس.

– إنني فعلاً إنسانٌ كيّس...

– لا شك في ذلك البتة حضرة السير.

– والسيد القيسي يسعدني في مخاطبتك لي بأدب جم، وهذا متوقع من إنسان سومري الأصل... هنا نهضت ايفون بحركة لينة لدنة وذهبت الى حيث يجلس السير هنري وقالت: ما بك يا حبيبي؟ أستمع جيداً الى ضيفك أنه إنسان يستحق أن يستمع إليه... أن في جرس صوته نداءاً ليس من السهل تجاهله... أجابها: عزيزتي ايفون، أن السيد القيسي يريد أن يسلب مني فرصة العمر. قلت.

–كيف! كيف بحق السماء أريد أن أسلب منك فرصة العمر؟

وسألت ايفون بدورها: حقاً كيف يا عزيزي هنري؟ أن السيد القيسي يعرف أنك عالم آثار معروف ومتحضر، أعتقد أنه مستعد أن يساعدك.

– أنه يرفض أن آخذ تمثال نمرود...

– ماذا؟ يرفض؟ لماذا؟

قلت لأيفون: سيدتي، أسمعي رجاءاً... أن أسكندر المقدوني عندما كان ينام يضع تحت وسادته الألياذة والسيف... والسير هنري يريد أن يأخذ مني إلياذتي، إلياذة وطني ويتركني مع سيفي فقط... أنا إنسان أومن بحضارة القلب والروح... أطلقت ايفون ضحكة حلوة، وقالت: كلام جميل... جميل جداً... هذا إنسان سومري حقيقي، آه، حضارة القلب والروح... رائع... تدخل السير هنري قائلاً: ما رأيك يا سيد القيسي أن ندخل معاً في صفقة...

– ماذا؟ صفقة؟

– أجل... ماذا تريد بالضبط لقاء هذا التمثال؟

أستبد بي إنفعالُ عنيف، غير أنني عالجته بأخذ رشفات سريعة من الويسكي، وبحركة مسرحية سريعة نهضت وتمشيت مرة أخرى بخطوات قصيرة، وألتقطت سيفاً طويلاً وجميلاً من فوقِ المنضدة وتأملته طويلاً، وحركته بطريقة كما لو أنني قاتلت عدواً وهمياً. قال السير هنري: حتماً لديك القدرة في التصرف عند الضرورة مثل جندي هوميروسي...

– آه... مع فائق إجلالي لهوميروس، بل أصح أن تقول مثل جندي آشوري... صفقت السيدة ايفون ورددت مرة أخرى كلمة: رائع... رائع... زاد السير هنري من تقطيبة وجهه. قلت مخاطباً إياه. لكنني يا سير هنري حتماً أبدو لك بنحافتي، وقامتي وهذا السيف بيدي مثل أمير الدنمارك الخالد الذكر –هاملت–... حركت السيف عدة مرات طاعناً الهواء: أن تكون أو لا تكون. ألا تعتقد أنها كلمات عظيمة... أعدت السيف الى مكانه، وألتقطت عقيقاً أحمر على شكل قلب، قربته من عيني. ترى أية سمراء شامخة الجمال كانت تزيّن صدرها به؟ رحت أردد مع نفسي بحرارة: ترى هل أحتفظت به حتى مغيب حياتها؟ هل كان جسدها السومري، أو البابلي متناغماً؟ أو هل كان جيدها بلون الصدف؟ هل كانت تمتلك رقة دجلة؟ هل مَشّت في السهول الياقوتية لبابل، أو نينوى، أو ماري؟... قالت ايفون: أراك تتأمله طويلاً مثل خبير مجوهرات... قلت وأنا أطلق تنهيدة حارة: نعم، نعم. يا سيدتي أنا مثل الغسق الملون... قالت من خلال بسمة ناعمة:

– أنت حالم جميل يا سيد القيسي... أنت رومانسي...

– أن الشفقة تهيج الروح، كل شيء هنا يهيج روحي... آه... نعم أنا حالم... حالم... مثل

أجدادي يا إيفون... حلموا وصنعوا أعظم حضارة.

– بالضبط... كلام جميل... إلتفت الى السير هنري ألذي ملأ لنفسه كأساً ثانية، فقلت وأنا أملأ لنفسي كأساً أخرى: آه، أيها السيد هنري... قلت صفقة... صفقة؟ إذاً تريد أن ترشيني! وأنا أحتقر الرشوة... للمناسبة أيها السير هنري حتماً سمعت بالشاعر الفرنسي لامارتين؟

– طبعاً... لماذا؟

– قال ذات مرة (إن ذاكرة الحواس تموت مع شيخوخة الحواس... أما ذاكرة الروح فتبقى لأنها لا وجود للزمن في حسابها، ولها القدرة على أن تعيش من جديد في كل لحظات الماضي والحاضر)... في هذه المجموعة النادرة من الآثار، وبالذات في تمثال ثور نمرود ذاكرة الروح... الماضي، والحاضر، إنفعل السير هنري بشدّه وقال بصوت عال: أسرق!؟ أنا أسرق!؟ تدخلت ايفون برجاء حار قائلة: هنري! أكاد لا أصدق نفسي وأنا أراك تنفعل بهذه الطريقة... وترفع صوتك على إنسان يكلمك بمنتهى الهدوء والمنطق... أرجوك... أرجوك يا عزيزي آه، هنري الأنجيل يقول (طوبى للحليم)... ماذا حدث؟... أهدأ... تنهد السير هنري بعمق وراح يدخن بشراهة ويقول من خلال موجة كثيفة من دخان غليونه: أن الحوار معك صعب جداً أيها السيد القيسي... أعتقد سأضطر أن أذهب الى حضرة الوالي العثماني لأستصدر منه فرماناً رسمياً أنقل بموجبه التمثال...

– تستطيع... الوالي ألذي يعبث بمقدرات، وحياة، وأقتصاد، وطني لا يفهم حتماً أي شيء في معاني رموزنا... لم لا، وحتماً يوقع لك بنفس السهولة ألتي يهصر نهد جارية، كما فعل مع عالم الآثار رونسن، والسر ليوناردولي، ووو...إلخ، أجابني ببرودٍ لعين:

– حسناً... عندئذٍ ماذا تفعل؟

– أتخذ موقف إدانة أبدية.

– وما قيمة الإدانة؟

– قيمتها، أنها تذكركم بخطيئة أبدية.

أطلق ضحكة خافتة وساخرة، وقال بصوته المتمهل الهادىء:

– نعم... نعم، سأذهب الى الوالي... الـ...و...ا... لـي.

ذهبت لمتابعة عدة تنقيبات في ايسن، اشنونا، شوربال، وعندما رجعت بعد عدة

أسابيع الى نمرود لأتأكد من مصير –ثور نمرود– ذهبت مباشرة الى الوادي لم أجد للتمثال أثراً… وأكد لي أعرابي أن الأنكليزي النحيف، البارد، الصبور، والعنيد قد أخذ التمثال فوق خشبة كبيرة ونقله عبر النهر… ألقيت نظرة الى الوادي، والى مكان التمثال الفارغ ألذي خلق غيابه نشازاً مؤلماً في هارمونية المكان… ترى هل فهم هنري لايارد معنى هارمونية المكان؟… تخيلت ذاك الأشوري المبدع، مبدع التمثال ألذي أختار هذا المكان بالذات وعمل بأزميله، ومطرقته، وعبقريته الفطرية في نحت الثور المجنح ليأتي أخيراً الأنكليزي البارد السير هنري لايارد بعد مئات السنين لينهب جهده… ترى هل كاد ذاك النحات الموهوب يعي أنه ليس أكثر من ذات مبدعة مجهولة تصبح ذات يوم رغماً عنها عبر الزمن اللاهث في جريانه مجرد شبح؟ ويبقى تمثاله الخالد رمزاً… ربما نعم…

من شدة ألمي وأنا أنظر الى الوادي ألذي يغلفه صمت أخرس، صرخت بكل ما لدي من قوة من خلال دموعي: لينزل والى الأبد لكل من يسرق ولو رقيماً بسيطاً، أو رمزاً صغيراً من رموز أجدادي لعنات الآلهة ابموا/ انليل/ مردوخ/ سربنيت/ نابو/ شمش/ انورتا/ زباشا/ تركال، عليه وعلى أجداده،

آمين.

آمين.

آمين.

أنثوفوبيا(*)

الإهداء الى المبدعة لطفية الدليمي

ذات مساء كنت جالساً في الصالون لوحدي، ولم يكن ثمة أحد في البيت. فتحت الباب الخشبي بعد أن دبّ خيطٌ خفيف من البرودة في الهواء… كان التيار الكهربائي مقطوعاً من حوالي أربع ساعات… تحلب العرق في كل مكان في جسمي، لكنني بعناد لذيذ أستمريت في قراءة تولستوي –آناكرنينا– ألتي قال عنها دستويفسكي العظيم في واحدة من سخرياته الجميلة في جلسة شرب: (أنها مأساة من مآسي غرفة الجلوس، أو الصالونات)… لفت نظري في واحد من أقصر فصول الرواية ألذي كنت أقرأ فيه، وهو من صفحتين فقط، أن الكاتب أستعمل كلمة خوف عشر مرات… وبينما كنت أفكر في هذا الأكثار من أستعمال كلمة خوف، فجأة دخل صرصار بحجم أرنب الى الصالون وسار برفق شديد وبحركات شبيهة بحركات دمية تعمل بالبطارية، وبعد عدة دورات إستعراضية حول مساحة من الغرفة، حول نفسه ثم تقدم على مقربة ثلاثة أمتار من الصوفا ألتي كنت أجلس فوقها وهمد بهدوء… مجستاه الطويلتان دارتا في عدة إتجاهات كما لو أنهما تدققان في كل صغيرة وكبيرة في الغرفة، ثم ركزهما برفق بإتجاهي، وأرسل إليّ نظرات زجاجية طويلة، إذّاك شعرت بلزوجة، وقوة، وقسوة، وحموضة كلمة الخوف، ولماذا أستعملها تولستوي بتلك الكثرة في صفحتين. حلّ صمتُ كثيف، دبق كأنه قابل للمس… أن هذه الحشرة الكبيرة جعلتني فجأةً معتقلاً من قبل شعور مستبطن، غامض، مبهم، موجع، وأصبحت رغماً عني أسير رعب وخوف مريعين… إن الخوف مثلما يضبب العقل أحياناً، فهو يمد الإنسان بقوة تأمل الى ما وراء حدود المدركات، ويجند الحواس حتى حدودها القصوى… بالإختصار، أعرف جيداً أنني أصبحت في بسايكولوجية معقدة… ظل الصرصار ينظر إليّ بعينيه، وبمجستيه مثل ألذي يتحرى شيئاً مهماً ومثيراً… قلت مع نفسي: مهلاً يا جليل، من يدري قد لا

(*) عنوان القصة معناه الذعر الشديد من الآخر

يكون صرصاراً!! لكن ما هو؟ ياإلهي، أمامي كتلة كاكاوية، حجم، خطوط، نسب، وزن. أنه في فضاء الصالون يشبه لوحة... بعد صمت طويل أمتد مثل خيط رفيع، ولدهشتي الشديدة قال الصرصار بصوت رفيع، دامع، وجداً حزين:

– مساء الخير يا عزيزي جليل القيسي... آسف جداً لأنني قاطعتك وأنت تقرأ... فجأة شعرت كما لو مسني تيار كهربائي سريع، كما شعرت برعشة في القلب، وتضبب في البصر وكدت أسقط من فوق الصوفا... وأضاف الصرصار:

– لو كانت هناك قنينة من تلك الخمرة الفاخرة المسماة CHABERTIN لكنت حتماً أكثر هدوء، وتكلمني بحرارة... ذات مرة عندما تألمت من أجلي كثيراً، وعبر قوة باراسايكولوجيتي رأيتك، كنت تشرب من هذه الخمرة... هاهاهاها... ماذا؟ هل تخيفك كلماتي يا جليل؟ أعرف... ما زلتَ بنفس حساسيتك المرضية الشديدة...! حتماً أن منظري كصرصار قد أثار يعاسيب التوتر، والأضطراب في كل بوصة من جسدك... أثارتني كلماته. وبجهد فوق بشري قلت بصوت مخنوق: من أنت؟... أجابني بهدوء: أنا؟ حسناً... أنا إنسان متوحد... وأنت الآخر متوحد... حياة التوحد صعبة لكنها لذيذة... هل ما زلت مثلي تعتمد في كل شيء على نفسك؟ أقصد إعتماداً مطلقاً! أنا لوحدي أحاول أن أعرف كل شيء في الحياة والمجتمع... أنا أعيش بعمق مع نفسي، وداخل نفسي، وأناضل بعناد ضدّ مصائبي... قلت:

– أنت؟ تعتمد في كل شيء على نفسك؟ وتعيش بعمق مع نفسك؟... أجابني: نعم... نعم يا صديقي... تأملته طويلاً وقد خفف منطقه الغريب خوفي قليلاً... ولا أعرف لماذا، رغم إضطرابي وقلقي وخوفي، تذكرت فجأة ملحمتنا الخالدة «ألف ليلة وليلة» وقصة – سيدي نعمان– ألذي يتحول الى كلب ويتصرف كأنه مخلوق بشري... كل شيء ممكن... قلت!

– ألا تقدم لي نفسك؟ كيف عرفت أسمي! أجابني بصوت رقيق: تريث قليلاً... حتماً سأقدم لك نفسي يا عزيزي جليل...

– حسناً... قلت أنك تعيش بعمق مع نفسك؟ كيف؟ لماذا؟

– نعم... بأستثناء قلة من الناس، أرى الآخرين أرضاً مجهولة.

– أرض مجهولة؟ لماذا؟

– لأن الآخر لا يفهمني، ويحاول أن يخضعني، أو أخضعه أنا إليّ... إنها لعبة قذرة...

أتعرف يا جليل ممّ أعاني الآن بعد كارثة تحولي الدرامي؟

– ممَّ؟

– أعاني من تناقض حاد، وحار بين العقل والروح...

أطلقت لاإرادياً ضحكة خافتة، وأنا أردد: كيف؟ كيف؟

– ثمة خوف أن أظهر، أنا الإنسان الذكي، والدؤوب في عملي مضحكاً...

– مضحكاً؟ أنت لست مضحكاً... أبداً...

– أقصد مضحك الشكل... أليس كذلك؟

– لالا... كلنا من صنع الطبيعة، ونعيش في الطبيعة، ونرجع إليها... أيه، لا عليك من شكلك، الطبيعة تقدم لنا العجائب والغرائب... إنها طلسم غامض لا أحد يعرف سره أو مكنونه... قلت إنك كنت دؤوباً في عملك؟ ماذا كنت تعمل بالضبط؟

– سأخبرك يا جليل بكل شيء... تريث... أنت من القلة ألذين فهموني جيداً. أسمع. أنت تعرف ما معنى أن تدخل الذات في باطنها؟

– طبعاً... طبعاً.

– وتعرف أيضاً كيف تفقد هذه الذات نفسها في فرا غ داخلي؟

– أفهم... أفهم... تقصد فلسفياً غلق النفس داخل النفس...

– أحسنت... أحسنت... ماذا يحدث! آه... يحدث أن يفقد الإنسان العثور على أرض صلبة يقف عليها...

– فعلاً... فعلاً.

– ياإلهي، كم أنا سعيد لأنك تفهمني... أنت مثل الخمر، يا جليل، حبيب الحزانى. والسعداء معاً... طيب... سألتني عن عملي؟ آه... حسناً، كنت أحلم... أحلم... نعم أحلم...

– ماذا تحلم...؟

– أحلم أن أتقدم في وظيفتي، وأطور قدراتي، وأتسلم مناصب تليق بطموحي... هاهاهاها... لكن ماذا حدث؟ ها أنتذا ترى... لاحظ يا صديقي النفيس... لاحظ هذا التحول الدرامي ألذي يحدث عند شيكسبير ودوستويفسكي في دقائق... نعم، أنت تفهم وضعي الأنطولوجي... لأنني أعرف كم بكيت بحرارة من أجلي وأنت تأخذ حسوات من خمر CHABERTIN وأعرف أنك بكيت أكثر عندما ضربتني أختي بالعصا، وصرخت وأنت في عزلتك عليها بكل ما لديك من قوة: أيتها الحمقاء... أيتها الناكرة

للجميل.. وكم من مرة عندما كانوا يغلقون عليّ الباب تصرخ: أزيحوا هذا الجدار الصيني من حول هذا الإنسان الطيب.. ناكروا الجميل أنتم..

– لكم يؤلمني وضعك.. هل ستبقى هكذا، والى متى؟

– طبعاً أبقى، لكن مع شيء من الأمل لأرجع لذاتي.

– أمل؟ أمل!! هل بعد هذا التحول لديك أمل؟

– أنت تعرف المحكومين لمدة عشرين سنة بالأشغال الشاقة.. لديهم أمل غريب بالأمل.. أملٌ مثل الوهم..

– لكن هبْ أن هذا التحول أنتهى بعد أكثر من عشرين سنة، ماذا يبقى من العمر؟

– قلتها يا جليل.. ماذا يبقى من العمر! ثم أرجع الى أين؟ الى أسرتي؟ أسرتي ألتي لم تفهمني! الى أختي ألتي عملتُ المستحيل لأدخلها معهد الموسيقى.. الأخت ألتي ضربتني قبل الجميع بالعصا! ضربتني لأنني من فرط كآبتي أردت ذات يوم أن أطل من خلال الباب لأرى ماذا يجري في البيت!.. آه.. بنوا سور الصين حولي.. أسمع يا جليل، أتعرف ماذا أثبتت لي أختي بتلك القسوة في التصرف معي؟

– ماذا؟

– أثبتت لي أن أنثربولوجية جان جاك روسو بالمبدأ الخاص بطبيعة الإنسان الأصلية البريئة صحيحة، لكن عندما ضربتني بالعصا أقتنعت بعقيدة الفيلسوف –كانط– إن الشر يتجذر في الإنسان.. أجل تعلمت هذا أيضاً من خلال تصرفات الآخرين في المجتمع.. نعم، مع الناس تعلمت كيف أفهم نفسي.. أختي، يا جليل، كشفت عن قلب لوثري متحجر.. ردد في صوت يختلج فيه البكاء الحبيس: نعم.. قلب لوثري متحجر..

– ماذا حدث بعد ذلك؟

– عرفت نفسي بعمق.. ولأن التفكير العميق خطير، خطير، أنظر، تحولت الى صرصار.. آه من كبرياء عقلي يا صديقي في المعاناة.. عقلي ألذي لا يتحمل العقول الأخرى.. العقول الصغيرة.. والعقل الكبير كما لا يخفى عليك لا يستطيع أن يعيش من غير حرية.

– هل أنت معي يا جليل؟

– معك بكل حواسي..

– عظيم.. أنت مستمع رائع.. أنظر هذه هي نتيجة الحرية ألتي عملت من أجلها..

الحرية فيها بذرة الموت، أو تدمير الذات..

– لكن الحرية تستطيع أيضاً أن ترفع الإنسان الى درجة التسامي.

أطلق ضحكة مثل الوَصوَصَة، وردّد: التسامي.. التسامي.. رائع.. ويمكنك أن تضيف أيضاً، ويمجد ما هو ملائكي في الإنسان.

– وهذا صحيح ... صحيح جداً.

– والجانب الملائكي من حريتي كلفني هذا التحول.. لقد أستغلت أسرتي ملائكية سلوكي، ووعيي بطريقة ظالمة وشيطانية.

– ولكنك، كما أعرف، من النوع ألذي يفهم نفسه بعمق. ثم. هل حقاً كنت تجهل نتائج الحرية العميقة، وتصرفات العقول الصغيرة؟

– لا أعرف.. لا أعرف.. هناك، يا صديقي، أزمات جذرية معينة في الروح الإنسانية لا يمكن فهمها ولا إحتواؤها مهما أستعملت من فلسفات مادية وطبيعية..

– لماذا؟

– أوه.. ماذا أقول.. خُذ مثلاً: أن إنعدام التوازن الأنطولوجي في شخصية ما، متصل بإنعدام التوازن النفسي كضعف الشخصية مثلاً.. أو إنعدام التوازن الإجتماعي، الإعتماد على الغير.. أوه.. الإنسان كائن معقد.. معقد جداً..

– من أي شيء كنت تعاني قبل تحوّلك؟

– تقصد الى صرصار؟

– نعم.

– لا أعرف.. ربما من فقدان الحرية، الحرية نادرة جداً. الحرية ألتي كنت أبحث عنها.. حرية من نوع غريب وعظيم.. ربما عدم تحققها أصابني بضرب من العصاب المزلزل.. رحت أبحث عنها بعناد بغلي.. يا صديقي لا أعرف أين قرأت أن الفكرة المسيطرة تكون كالمثقاب الحلزوني، كلما مر عليها عام إزدادت عمقاً، وإذا حاولت أن تنتزعها في العام الأول كأنك تنتزع إحدى شعرات رأسك من الجذر، وفي العام الثاني كأنك تمزق الجلد، وفي العام الثالث كأنك تكسر العظم، وفي العام الرابع كأنك تنتزع جزءاً من المخ نفسه.

– كلمني عن ذاك العصاب المزلزل.. ما نوعه؟

– ياإلهي ثق يا جليل، كميات بركانية من التهيجات عبثاً كنت أحاول التخلص منها

بواسطة الوسائل الجسدية تماماً على طريقة المصروعين.. فجأة وجدتني وقد تحولت.

– وشعرت بعد ذلك، أن إرادتك قد تدمرت؟

– نعم.. نعم........ أطلق آهة حارة كمن يكتم في قلبه حسرة ومضاضة تقض مضجعه.. نعم.. نعم..

– لماذا وكيف؟

– من فقدان الحب.. الحب.. كنت دائماً أفتقد الحب الحقيقي. وفهم الأخرين لي.. لم أجد من يفهم ما معنى أن أكون أستثنائياً. وأنا.. حتى وأنا صرصار، أشعر بأستثنائيتي.. وأنت! قبل أكثر من عشرين سنة أعترفت بأستثنائيتي، وبكيت من أجلي. هل عرفتني؟.. أنا غريغوري سامسا(*)

الطبيب يا جليل. أطلقت صرخة مخنوقة وأنا أردد: مستحيل.. مستحيل.

– لا يوجد مستحيل في العالم.. كل شيء ممكن الحدوث في هذا الكون.

– غريغوري الطيّب. ياإلهي، ماذا تعمل في مدينتي «آرنجا» وفي هذا الصيف اللاهب؟

– لقد أدمنت التجوال في المدن.. ذات مرة كنت على مبعدة أمتار من ذاك الرجل الرائع سيجموند فرويد وهو يلقي واحدة من محاضراته، قال (الأستمناء هو الأدمان الأول، وكل الأدمانات التالية ليست سوى بديل عنه). أجل أدمنت التجوال بحكم وظيفتي في شركة التأمين.. أما لماذا زرتك أنت بالذات. فلأنك تألمت كثيراً من أجلي.

– السيد غريغوري.

– نعم.

– كيف هو وضعك النفسي الآن! هل أنت سعيد. أم حزين بهذا المصير؟

– أجابني باللاتينية قائلاً (OMNES UNA NOX MANET)(**)

نهضت.. إقتربت منه. جلست القرفصاء. مسدت بمنتهى الحنان والحب ظهره مرات عديدة قائلاً: أجل يا عزيزي (ما من أحد يفلت من قدره) هكذا هي الحرية سا غريغوري عندما تتركنا مع أنفسنا لا تكشف إلا عن الفوض في الروح..

(*) غريغوري سامسا: هو بطل قصة «المسخ» للروائي فرانس كافكا.

(**) (ما من أحد يفلت من قدره).

– نعم بالضبط.

– غريغوري الطيب ماذا أستطيع أن أقدم لك؟

– لاشيء.. لاشيء.. شكراً.. لقد أعرتني سمعك بحب، وهذا كثير..

– أخيراً يا غريغوري، هل تعتقد في المطاف الأخير أنك فشلت أو نجحت في هذا الصراع الدرامي؟

– يا عزيزي جليل إن فشلاً كبيراً قد يساوي ألف نجاح صغير. ربما لن يكون ثمة صراصير من بعدي.........

إنحنى لي بطريقة فروسية رغم تركيبته المعقدة جداً. ثم بحركة بطيئة غادر الصالون برفق. تبعته.. خارج البيت أرتفع عن الأرض وطار في المسار الشفيف.. فجأة أطلق من بعيد طائر الطيطوي نواحاً موجعاً وهو يقطع السماء وحيداً.

مسرات الحياة الأربع

عندما رنّ جرس الباب الخارجي، كنت غارقاً بإستمتاع عميق، ومثير مع ريتشارد الثالث، ودنياه المليئة بالرّياء، والنفاق... هذا الشرير ألذي يفتخر بشروره، وتحوّله السريع في العواطف، والمشاعر والأفكار، الغارق في الهوس والهذيان... حقاً من منّا كبشر لا تضم نفسهُ نفوساً كثيرة؟ أما أن يكون الإنسان مثل ريتشارد الثالث: غابة من الأنفس المعقدة فشيء مريع. إنه لسبب وبغير سبب ينشطر على نفسه، أزدواجي، كذاب، لا يثق بنفسه، وهو، ياإلهي، رمالٌ من الذوات...

رنَّ الجرس للمرة الثانية رنيناً طويلاً مزعجاً وموتراً للأعصاب. نهضت بتثاقل وجرجرت خطواتي الى النافذة المطلة على صحن البيت والباب الخارجي. لم أرَ أحداً. حتماً الصغار كعادتهم، مع بداية الربيع يصبحون مثل الزنابير الهائجة: يتموجون في الأزقة، ويعبثون بكل شيء في طريقهم، ويضغطون على أجراس البيوت... أردت أن أرجع الى الغرفة، رأيت أصابع غليظة من الجهة اليمنى تمتد لتكبس على الجرس... سألت: من هناك؟... ركضت الى الممر، وفتحت الباب. صافحني وجه داكن السمرة، أبتسم لي إبتسامة حلوة، وقال:

– هل هذا بيت الأستاذ واثق شجاع العزاوي؟

هززت له رأسي، أن نعم، وقلت:

– أية خدمة، أستاذ؟

تأملني بعينيه السوداوين، ومرر أصابعه خلال شعره الأسود القصير ألذي تبلج قليلاً من الفودين، وقال والإبتسامة لم تفارق وجهه:

– أعتقد أنني أكلم السيد بديع العزاوي... أبن الأستاذ... أليس كذلك؟

– بالضبط...

ركز بصره عليّ طويلاً، وأعاد برفق رسم الإبتسامة نفسها... لكن الإبتسامة هذه المرة كانت أكثر رقة وتودداً... قدم لي نفسه:

– مصعب عبد الرحمن.

– تشرفنا أستاذ مصعب.

مدّ يده وربت على كتفي، وعبث بشعري المنفوش، وقال:

– هل الوالد في البيت؟

– لا لم يأتِ بعد... قد يرجع بعد ساعة...

– آه... ساعة!

– ربما أكثر أو أقل... لا أعرف... أظنني سمعت أنه يغادر الدائرة مبكراً...

– مبكراً...

بلل شفتيه الأسفنجيتين بلسانه، وواصل إختلاس النظرات مني، وهو يبتسم... قال وهو يجاملني بلطف غريب:

– يقولون أنك شاب تمتلك تواضعاً جميلاً، وأنك ذكي جداً، ومثل والدك تحب الأدب كثيراً.

– أوه... شكراً...

– ومثقف ثقافة جيدة نسبةً الى عمرك الصغير...

– أرجوك يا أستاذ مصعب من غير مديح...

أضاف بعد صمت قصير، وهو يمرر أصابعه السمراء الغليظة فوق خدي، وجبيني:

– أبهذه الطريقة تستقبل أصدقاء أبيك؟

– بأيّة طريقة؟

– يا سيد بديع من أصول الضيافة أن تقول لي أتفضل وأجلس... أليس كذلك؟

– بصراحة أنا لا أعرفك... لم يسبق أن رأيتك عندنا...

– وهل هذا سبب لكي لا تستضيفني؟

– تقريباً...

أطلق ضحكة جافة، ومرر أصابعه خلال شعره القصير، وقال:

– من حقك... أنت إذن تعرف جميع أصدقاء والدك؟

– معظمهم...

– رائع... بالمناسبة يا سيد بديع كم تبلغ من العمر؟

– قريباً سأصبح في العشرين...

في عينيه ألتين ظلّتا تروزانني بنظرات دقيقة وودودة ومثقلة بالمعنى، رأيت أيضاً رجاءاً حاراً يقول: «ألا تسمح لي بالدخول»... بل «يجب أن تسمح لي بالدخول» أبعد

نظراته عني، وأنشغل بتأمل الحديقة... منذ أن أحببت الأدب، والأدباء، كنت دائماً أرى في عيون الأصلاء منهم نظرات حبيبة، وضارعة بحب، ويتوهج على وجوههم فرحٌ حقيقي، أو حزن حقيقي، أو مزيج من الفرح والحزن يصعبان على الوصف... عندما إلتفتَ إليّ كنت أمرر مسرحية ريتشارد الثالث أمام وجهي... قال:

– آه... تقرأ ريتشارد الثالث...

– أتعرفه؟

– لا... هاها...

– أوه... إنه إنسان مخيف جداً...

– ما الشيء المخيف فيه يا سيد بديع؟

– أشياء كثيرة... إنه مثلاً نذل... كلبي... كذاب... قاتل... يريد أن يتعملق على أكتاف الآخرين وآلامهم.

أطلق السيد مصعب ضحكة حلوة، وقال بصوت رقيق:

– أنت بديع حقاً... وعندي رغبة شديدة لأعرفك أكثر.

شعرت بالخجل من إطالة الوقوف معه أمام الباب الخارجي، فدعوته رغماً عني، أستغل دعوتي فوراً ودفع الباب، وبخطوات واسعة أجتاز صحن البيت بمشية عسكرية... أخذته الى الصالون... طلب قدح ماء... شرب بسرعة وتنفس بعمق، وقال مغمغماً... ربيعٌ حار... ونحن في أوله بعد.

قطب وجهه كمن يتضايق من شيء مفاجيء، وبسرعة أخرج علبة سجائره وأشعل واحدة، وراح من خلال الدخان يدقق بصره في جميع محتويات الصالون. ذكرتني دقة نظراته بكلمات والدي: لكي تكون دقيقاً ككاتب، يجب أن تمتلك موهبة التفرس في الناس، والأشياء وفي الحياة... نظرتُ إليه طويلاً. بدا كثير الشبه بشاعرٍ كان يتردد على والدي قبل سنوات، وكنت رغم وجهه الجاف، الغاضب، وصمته وسرحانه، أحبه، ثم أحببت شعره ألذي من خلاله عرفت أنَّ وراء تقطيبته وغضبه فرحاً صافياً في قلبه وخياله وروحه... كنت كلما زارنا أنظر في عينيه، وأبحث عن ذاك الصفاء البلوري... كم كنت أرتعش، وألتهب من الفرح تارة، ومن الحزن تارة أخرى عندمايبدأ بقراءة قصيدة جديدة لوالدي ألذي كان يتألم، وينفعل، ويُردد بصوت مخنوق: «أعد الأبيات الأخيرة رجاءًا»...

وهذا الغريب المدعو مصعب عبد الرحمن، أهو شاعر؟ قاص؟ ناقد؟ فنان تشكيلي، موسيقي؟...

أشار بيده الممسكة بالسيجارة الى صورة قديمة على الجدار، وقال:

– صورة والدك؟

– ماذا؟... لالا... إنها صورة جدي...

– آه... نظرات الوالد نفسها... الهدوء نفسه... والثقة بالنفس.

– متى تعرفت على والدي؟

– من مدة...

تحت صورة جدي رأى لوحة للفنان ضياء العزاوي... تأملها طويلاً، وقال:

– هل أنا على صواب إذا قلت أنه رجل متكور على نفسه في غرفة خالية من كل شيء، ومظلمة إلا من ذاك الضوء الصغير؟

– آآآآآ... ضياء... العـــزاوي... نعم...

نهض وأقترب من اللوحة، ودقق فيها بإمعان شديد، وقال:

– لقد جسد الزنزانة بطريقة موحشة، بل مخيفة.

– الزنزانات يا سيد مصعب موحشة، ورهيبة...

– هل زرت زنزانة؟

– هاها... لالا... لكنني تعرفت على غرف السجن عندما كنت أزور والدي.

تجول السيد مصعب في الصالون، وأستدار من غير أستئذان مني بإتجاه غرفة المكتبة ألتي كان بابها مفتوحاً، ودخل قائلاً بحركة دبلوماسية رشيقة:

– آه... المكتبة... المكتبة...

ألقى نظرات سريعة في جميع زوايا الغرفة... رأى لوحة «بائعات المانجو» لغوغان مصوّرة بحجم كبير في إطار خشبي أبيض... قال بثقة:

– أكيد هذه اللوحة لرسام أنكليزي مشهور يرسم المناظر...

– أنكليزي!! لا... إنها لپول غوغان... رسام فرنسي.

عالج خجله بإبتسامة صغيرة وبمنتهى الأدب واللباقة، إلتفتَ إليَّ وربت على كتفي قائلاً:

– أوه يالغبائي، يالغبائي، نعم، نعم، إنه پول غوغان.

وأضاف: أرجوك... أسمح لي أن ألقي نظرة على الكتب...

قلت مع نفسي: في الحقيقة ليس ثمة ضير، لكن دخوله بتلك الطريقة السريعة، وبذلك الفضول القطي، تجاوز كبير للكياسة والأصول والعرف الأسري... صحيح أن الكتب تمتلك قوة جذب قوية لعشاقها، غير أن السيد مصعب كان أضعف من أن يضبط نفسه... وبدبلوماسية رقيقة لفّني بذراعيه، وباليد الأخرى ربت على ظهري كأنه صديق من سنوات، وقال:

– أيها المتواضع الجميل.. يامن تملك طيبة حبيبة... يا من تربيت على الكتب... أعرف حساسية والدك تجاه هذه الغرفة...لن أمس كتاباً واحداً... بل لن أمس خشبة المكتبة... أبداً... مجرد نظرات... نظرات...

عاد فربت على ظهري، وأطلق ضحكته القصيرة الجافة ذاتها، وقال وهو يشعل أضواء الغرفة كلها: آه... غرفة جميلة... جميلة جداً... هذه لوحة أخرى... حتماً أنت الآخر تحب اللوحات... أوه... حاكٍ، وجهاز تسجيل.. أعرف أن والدك متيَّم بالموسيقى...

قلت مع نفسي: ياه... أن السيد مصعب يمتلك فضولاً غريباً.

قال: هل يسمح لك بأن تمس أسطوانته؟

– ماذا؟ آه... من سنوات... نعم...

– آه... ماذا أرى؟ عُدة رقع الشطرنج...

بحركة مسرحية بدأ التحديق في الرف الأول من الكتب...

قال بتعجب وهو ينظر الى تمثال نصفي لمكسيم غوركي: آه عمل رائع... رائع...

إلتفت الى صورة فوتغرافية للقاص تشيخوف قائلاً: هذه الصورة لمن؟

قلت بتعجب شديد مع نفسي: ماذا يقصد لمن؟ قلت: إنها لتشيخوف. أطلق ضحكته القصيرة الجافة، وحنى رأسه، وقال بخجل: أوه... يالغبائي، وأضاف معيداً حركته الممجوجة بالتربيت على كتفي:

– أيهما تحب أكثر غوركي، أم تشيخوف؟

– كليهما...

غمغم، وهو ينحني بإمتداد قامة المكتبة... قال:

– هذه الصورة لمن... حتماً أنها لفيلسوف كبير... أليس كذلك؟

– لالا... يا سيد مصعب... هذه صورة تشايكوفسكي... موسيقار.

أطلق ضحكة هزلية، وقال ماطاً عنقه القصير: يا... لـ... غبا... ئي... ضحكت أنا الآخر بقوة للطريقة ألتي تلفظ بها كلمة: يالغبائي، وشاركني بدبلوماسيته الرشيقة بضحكة جميلة، وقال: السيد بديع، أريد أن أعترف لك بتواضع شديد أنني جديد في عالم الأدب... جئت الى الوالد ليختصر لي الزمن بخبرته، وثقافته... أقصد ليرشدني...

ربت على كتفي وأنصرف الى الرف الثاني من الكتب... قلت لنفسي وأنا أراقبه:

– هل السيد مصعب عبد الرحمن يمزح معي، أم أنه جديد فعلاً في عالم الكتب، أم أنه يمرح ويزجي الوقت ريثما يجيء والدي؟

أخرج ورقة وبدأ بتسجيل أسماء عدد من الكتب... وكان بفرح طفولي يردد:

– يالهذه الروائع... هل بالإمكان الحصول عليها؟ أين؟ ما هذا الكتاب: الذات والموضوع... هذا، الحرية والضرورة... غرامشي... دراسات في الفاشية... الزمخشري... الديالكتيك... أنا كارنينا... مدام بوفاري... بليخانوف... الفكر المسيحي في القرون الوسطى... الجاحظ.

مطَّ قامته وهو يردد: كتب كثيرة... ومرة أخرى أرسل بصره في غرفة المكتبة بدقة روائي... رأى صورة غريبة للشاعر الفرنسي آراغون وقد تهدل شعره القطني الطويل فوق كتفيه، وهو يبتسم بثقة، ووجهه المتعب ممتلىء بشبكة من التغضنات. قال بهمس: من هذا العجوز...

– ألا تعرفه؟

– يشبه داروين...

– هاها... داروين...

– لالا... عفواً... إنه أينشتاين...... نعم أينشتاين.

– أينشتاين... لا... أنها للشاعر آراغون.

صفع جبينه عدة مرات وهو يردد بإلقاء مسرحي: يا... لـ...غبا...ئي........ يا... لـ...غبا...ئي.

رن جرس الباب. قلت للسيد مصعب أن والدتي قد رجعت. خطا بسرعة الى الصالون، وجلس بهدوء... قلت لوالدتي أمام الباب أن لدينا ضيفاً. سلمتني أكياساً مليئة بالبرتقال والرمان، وهي تقول:

– أهلاً وسهلاً به... حتماً صديق والدك.